الفرقان في تفسير القرآن

بالقرآن والسنة

تأليف

محمد الصادقي

انتشارات فرهنگ اسلامی

مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

الفرقان

١٩ - ٢٠

الكتاب الفرقان في تفسير القرآن

المؤلف الشيخ الدكتور محمد الصادقي

الجزء التاسع عشر والعشرون
سورة الشعراء والنمل والقصص

الطبعة الثانية

المطبعة مطبعة أمير ـ قم

الناشر انتشارات فرهنگ اسلامی ـ طهران
تلفن ۶۲۰۰۸۴

سنة الطبع ۱۴۰۷ هـ ق ـ ۱۳۶۵ هـ ش

عدد المطبوع ۳۰۰۰

مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

سماحة الشيخ
الدكتور محمد الصادقي

الفرقان

في تفسير القرآن بالقرآن والسنة

سورة الشعراء سورة النمل سورة القصص

الجزء التاسع عشر والعشرون

دار التراث الإسلامي
للطباعة والنشر والتوزيع
بيروت - لبنان

كافة الحقوق محفوظة ومسجلة
الطبعة الأولى
١٤٠٥هـ - ١٩٨٥م
مركز تحقيقات کامپیوتری علوم اسلامی

(٢٦) سورة الشعراء مكية
وآياتها سبع وعشرون ومائتان

مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

طسٓمٓ ﴿١﴾ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ﴿٢﴾ لَعَلَّكَ
بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴿٣﴾ إِن نَّشَأْ نُنَزِّلْ
عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ءَايَةً فَظَلَّتْ أَعْنَٰقُهُمْ لَهَا خَٰضِعِينَ ﴿٤﴾
وَمَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ مُحْدَثٍ إِلَّا كَانُوا۟ عَنْهُ
مُعْرِضِينَ ﴿٥﴾ فَقَدْ كَذَّبُوا۟ فَسَيَأْتِيهِمْ أَنۢبَٰٓؤُا۟ مَا كَانُوا۟ بِهِۦ
يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٦﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَى ٱلْأَرْضِ كَمْ أَنۢبَتْنَا فِيهَا
مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ ﴿٧﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً ۖ وَمَا كَانَ
أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٨﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٩﴾

مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

تتسمى هذه السورة بـ« الشعراء » إذ تحمل آية الشعراء ، تنديداً بالذين يتبعهم الغاوون ، حيث ينبع الشعر من الخربطة والغواية ، ويُستخدم للإغواء والضلالة وما أكثره ! ثم وتمجيداً بالذين آمنوا منهم وعملوا الصالحات حينما الشعر ينبع من الايمان ويُستخدم لعمل الايمان ، وما أقله ! .

الشعراء هي من الطواسين الثلاث[1] المتشابهة في هذه الإفتتاحية ، إلاّ ناقصَ الميم في النمل .

وهيكل السورة هو السرد القصصي الشاغل جوَّها في ثمانين ومئة آية ، والباقية من آياتها هي كمقدمات وتعقيبات ، والكل تؤلّف وحدةً متناسقة متجاوبة تلتقي عند هدف واحد واتجاه فارد هو تصحيح العقيدة بزواياها الثلاث : المبدء والمعاد وما بين المبدء والمعاد : من الوحي بنازله ومَنزِله ، ناضرة ناظرة إلى الرسالة الموسوية في البداية ، ناحية ـ في ذلك التأشير العشير ـ منحى الرسالة المحمدية السامية ، فقد يصدِّق ما يروى عن رسول الهدىٰ (ص) « وأعطيتُ طه والطواسين من ألواح موسى »[2] أوان « الطاء » هي طور

---

(١) نور الثقلين ٤ : ٤٥ في كتاب ثواب الأعمال باسناده عن ابي عبد الله (ع) قال: من قرأ سور الطواسين الثلاث في ليلة الجمعة كان من أولياء الله في جواره وكنفه ولم يصبه في الدنيا بؤس أبداً وأعطي في الآخرة من الجنة حتى يرضى وفوق رضاه وزوجه الله مأة من الحور العين ، وفي المجمع أبي بن كعب قال : قال رسول الله (ص) من قرأ سورة الشعراء كان له من الأجر عشر حسنات بعدد كل من صدق بنوح وكذب به وهود وشعيب وصالح وابراهيم ويعدد كل من كذب بعيسى وصدق بمحمد (ص) .

(٢) نور الثقلين ٤ : ٤٥ عن كتاب ثواب الأعمال عن ابن عباس قال : قال رسول الله (ص) قال قلت لجعفر بن محمد عليهما السلام يابن رسول الله (ص) ، معنى قول الله عز وجل « طسٓ وطسٓمٓ » ؟ قال : واما « طسٓ » فمعناه أنا الطالب السميع وأما « طسٓمٓ » فمعناه انا الطالب السميع المبدىء المعيد .

سينـاء ـ أم شجـرة طـوبى ، والسين : سـدرة المنتهى ، والميم محـمـد المصطفى »[1] مما يجمعه أن :

« طَسَم »[2] خـطاب لـلرسـول الأقـدس محـمـد (ص) فـان شجـرة طـوبى المتشجـرة عـن روحـه القـدسـيـة كـل الـطوبـاويـات الرسالية ، وهو الناحي منحى السدرة المنتهى ، إذ كان من ربه قـاب قوسين أو أدنى . فأوحى إلى عبده ما أوحى ، فهو منتهى السدرة الرسالية معرفية وفي التقـوى أمّا هيه ، كما وأنها من أسماء الله الحسنى والرسـول (ص) نفسـه القدسية منها باعلى قمتها ، وكما يروي « نحن الأسـماء الحسنى » فكما ان لله اسماءً ذاتية هي صفاته الذاتية الثلاث ، ومن ثم فعلية هي فاعلياته الخلقية ، كذلك له اسماء عينية تدل عليه هي الحقائق الآفـاقية ومحمد (ص) في أعلى قممها ! وقد يلوح اليه ظاهر الخطاب من الآيات التالية لها ، فـ﴿ طَسَم ﴾ إذاً ـ تعني محمداً (ص) الطوبى والسدرة المنتهى ، كما تعني بضمنه طور سيناء حيث الآيات الآتية تتحدث عن صاحبها موسى (عليه السلام) .

وكما أن لمعانيها معالي ، كذلك لرسمها والفاظها مجالي ترسمهـا روايات عن المصطفى (ص)[3] وإن للقرآن ككلٍّ جلوات في مختلف المجالات ، محلّقة

---

(١) المصدر روى عن ابن الحنفية عن علي (ع) عن النبي (ص) لما نـزلت « طَسَم » قال : الطاء طورسيناء . وقال الطاء شجرة طوبى . . .

(٢) وفي تفسير البرهان ٣ : ١٧٩ ابن عبد الله في معاني الأخبار بسند متصل عن سفيـان بن سعيد الثوري اقول : وقد يعني انها صورة عن السيرة الموسوية الموحاة اليه في الألـواح ، لا أنها هي ، حيث التعبير القرآني ، بتنا يحويه هو منقطع النظير عن كـل سِفر لكـل بشير ونذير !.

(٣) تفسير البرهان ٣ : ١٣٨ ابن بابويه قال رسول الله (ص) من أدمن قرائتها لم يدخل بيته

في إنارتها وإدارتها كل دوائر الكون تكوينياً وتشريعياً ، كيف لا ؟ وهي نازلة بعلم الله ، حاملة كل رحمات الله !

ثم وفي ﴿ طسٓمٓ ﴾ رموز غيبية لم يُكشف لنا عنها النقاب ، فانها بسائر الحروف المقطعة مفاتيح كنوز القرآن ، لا يعرفها حق معرفتها إلاّ من خوطب بها ، والمذكورة منها هنا بسناد روايات في شأنها لا تصدَّق تماماً ولا تكذَّب ، لأنها ليست قطيعة الصدور ولا الأختلاق ، اللهم إلاّ نفس الخطاب المستفاد من الكتاب ، انه (ص) هو المخاطب بـ﴿ طسٓمٓ ﴾ فتصبح تلك الروايات قريبة التصديق ، فواجهة الخطاب فيها هي الرسول (ص) ومن يحذو حذاه وينحو منحاه .

ولماذا تذكر هذه الحروف في القرآن البيان ، هدىً للناس وبينات من الهدى والفرقان ، إذا لم يكن فيها لهم بيان ؟ .

لأن القرآن بيان لجميع العالمين ومنهم وفي قمتهم رسول القرآن ، فليختص به من ذلك البيان قسم من القرآن ، مهما يعمه والمعصومين من عترته وهم مستمرون لحد الآن وإلى أن يقوم قائمهم ، حيث يتمثلون فيه

سارق ولا حريق ولا غريق ومن كتبها وشربها شفاه الله من كل داءٍ ومن كتبها وعلقها على ديك ابيض أفرق فإن الديك يسير ولا يقف إلا على كنز أو سحر ويحفره بمنقاره حتى يظهره . وفيه عن الصادق (ع) من كتبها وعلقها على ديك ابيض أفرق واطلقه فإنه يمشي ويقف موضعاً حيث ما يقف فانه يحفر موضعه فيه يلقى كنز أو سحر مدفون وإذا علقت على مطلقة يصعب عليها الطلاق وربما خيف فليتق فاعله فإذا دفن ماءها الواش في موضع خرب ذلك الموضع بإذن الله تعالى .

اقول : قصة الديك مشكوكة الصدورعن الرسول (ص) حيث التجربة الواقعية لا تصدقها تماماً فليرجع علمه إلى قائله .

كلهم ، فليكن له نصيب في هذا الإختصاص .

وإن لسائر العالمين منها نصيب على أقدارهم وقُدُراتهم المعرفية في زوايا ثلاث ثالثتها ما قد يتنبّه لها الذين يأتون بعدنا فان « للقرآن آيات متشابهات يفسرها الزمن » .

﴿ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ ﴾(٢) .

« تلك » النازلة عليك من قبل والتي تنزل عليك الآن ومن بعدُ ، فهي هي النازلة عليك في مثلث زمن الرسالة القرآنية بعهديها المكي والمدني ، « تلك » ككلٍّ هي « آيات الكتاب » : القرآن ، فهو الكتاب المفصل وهذه أبعاضُ الآيات إضافةً للآيات إلى أنفسها : الكتاب ، اعتباراً لها أبعاضاً منفردات وله مجموعاً يحويها ، كما يقال أبعاضي ، وإجزاء الدار .

« المبين » ما يحق إبانته من الحق المرام ، أنها من آيات الله دونما اختلاق إذ ليس فيها اختلاف ، وأنها تبين احكام الفطرة والعقل والشرعة ، وتبين الآيات في الأفاق وفي انفسهم حتى يتبين لهم انه الحق من ربهم ، فلا قصور ـ إذاً ـ في إبانته ما يُبين ولا تقصير ، مهما قصُروا هم أولاء أو قصّروا بجنبه .
وقد لا يعني « الكتاب المبين » ما كان لدى الله قبل إنزاله أو تنزيله : « وإنه في ام الكتاب لدينا لعلي حكيم » ، فلمن هو ـ إذاً ـ مبين ؟ ولا المنزل على الرسول ليلة القدر فانه ليس مبيناً إلّا له ، اللهم إلّا ان يُعنى المبين له اجمالاً عن المفصل ، وهذه هي آياته المفصلات حيث الكتاب يبين فيها معارفه تفصيل البيان والإبانة عن أيٍّ كان .

فـ« تلك » إذاً تعني كل القرآن المفصل ، فانه آيات الكتاب المحكم النازل على الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) . وقد يعني « الكتاب

المبين « القرآن ككل ، و « آياتُ الكتاب » أبعاضه .

أم ويعني ام الكتاب عند الله فانه بشأن الإبانة للرسول وللأمة ، فهو مبين بعلاقة الأول .

وعلَّ الثلاثة كلها معنية ، فهذه الآيات المفصلات ، هي آيات القرآن المفصل ، وهي ـ ككل ـ آيات القرآن المحكم المنزل الى الرسول ليلة القدر ، وهي آيات ام الكتاب . والكلك هي آيات ام الكتاب المقدر نزوله للمكلفين الى يوم الدين دون زيادة أو نقيصة .

فالقرآن حجة كافية وآية وافية تبين الحقائق لكلِّ العقول وفي كل الحقول ، لمن القىٰ السمع وهو شهيد ، كما وان نبي القرآن حجة صافية ضافية يتبنى حجة القرآن ، حجتان بارعتان تحلِّقان على كافة الحجج دون قصور ولا تقصير ، فلماذا إذاً البخوع ؟ :

﴿ فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ﴾[٣] .

البَخْع هو قتل النفس غماً ، و ﴿ لعلك باخع .. ﴾ توحي بمدى اهتمام الداعية الرسالية في حمل الناس على الايمان ولمّا يسطع ـ ولن ـ إلّا ما شاء الله ، فحين لا يحملهم الكتاب المبين على الايمان لعتوِّهم وتصلُّبهم على اللّاايمان ، كذلك ـ وباحرى ـ ليس ليحملهم الرسول المبين على الايمان بنفس السند ﴿ فلعلك باخع نفسك على آثارهم ان لم يؤمنوا بهذا الحديث أسفاً ﴾ (١٨ : ٦) ﴿ .. ألّا يكونوا مؤمنين ﴾ .

و « لعل » هنا حكاية لحال الترجي لو بقيت حالته كما هي ، والأصل في الدعوة هو تاثيرها ببقاء الداعية ، وأما أن تبخع نفس الداعية دونما تأثير للدعوة فهو دعوة فاضية بدل ان تكون فائضة ! .

﴿ إِنْ نَشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ آيَةً فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا

خَاضِعِينَ ﴾(٤) .

صيغة التعبير عن الآية الرسالية التي هي لزامها « نشأ ان ننزل آية » وعن الآية المستحيلة المقترحة « لو نشاء » فـ« إن » هنا دون « لو » توحي بامكانية هذه المشيئة وقوعياً ، أن تتحقق حالاً أو استقبالاً ، ومن الثاني آية قيام المهدي عجّل الله تعالى فرجه حيث تُخضع أعناقهم(١) .

إنه تعالى لا يشاء مبدئياً أن ينزّل عليهم من السماء آية بعد آية القرآن

---

(١) نور الثقلين ٤ : ٤٦ في ارشاد المفيد وهب بن صفي عن ابي بصير قال سمعت أبا عبدالله (ع) يقول في الآية سيفعل الله ذلك بهم ، قلت ومن هم ؟ قال : بنو أمية وشيعتهم ، قلت : وما الآية ؟ قال : ركود الشمس ما بين زوال الشمس إلى وقت العصر وخروج صدر ووجه في عين الشمس يعرف بحسبه ونسبه وذلك في زمان السفياني وعندها يكون بواره وبوار قومه ، وفي روضة الكافي بسند عن عمر بن حنظلة قال سمعت ابا عبد الله (ع) يقول : خمس علامات قبل قيام القائم (ع) الصيحة والسفياني والخسفة وقتل النفس الزكية واليماني ، قلت : جعلت فداك إن خرج أحد من أهل بيتك قبل هذه العلامات أنخرج معه ؟ قال : لا ـ فلما كان من الغد تلوت هذه الآية : « ان نشاء . . . » فقلت له : أهي الصيحة ؟ فقال : أما لو كانت خضعت اعناق اعداء الله عز وجل ، وفي كتاب الغيبة للطوسي باسناده إلى الحسن بن زياد الصيقل قال : سمعت ابا عبدالله جعفر بن محمد (عليهما السلام) يقول : إنّ القائم لا يقوم حتى ينادي مناد من السماء يسمع الفتاة في خدرها ويسمع أهل المشرق والمغرب وفيه نزلت هذه الآية : « إن نشاء . . . » وفي تفسير القمي عن ابي عبد الله (ع) قال في الآية ، تخضع رقابهم يعني بني امية وهي الصيحة من السماء باسم صاحب الأمر صلوات الله عليه ، وفي كتاب كمال الدين وتمام النعمة بسند متصل قال علي بن موسى الرضا (ع) في وصف القائم (غ) وهو الذي ينادي منادٍ من السماء يسمعه جميع أهل الأرض بالدعاء اليه يقول : ألا ان حجة الله قد ظهرت عند بيت الله فاتبعوه فان الحق والايمان عند الأولى يفيد وهو عند الثانية غير مفيد لأنه ايمان عند رؤية البأس .

الباهرة الكافية[١] فإنه الآية الخالدة لهذه الرسالة المفتوحة للأمم بأسرها ، فليست رسالة محدودة مغلقة على أهل زمان دون آخرين ، والآية القاهرة البصرية مهما عظمت وعلت لا تُلوي وتُخضع إلاّ اعناق المستكبرين زمنها حيث يشاهدونها ، ثم تبقى بعدهم قصة تروى، وواقعاً يُشهد فيُستشهد به لصدق الرسالة ، فآية « ان نشأ » وهي غير محتومة تُخضع أعناقهم شاءوا أم أبوا ، وآية القرآن تهديهم إلى الحق ﴿ فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر ﴾ فآية التسيير محتومة ، وآية التخيير غير محتومة .

وهذا القرآن كتاب مفتوح وآية خالدة تمشي مع الزمن ، يستمد منها كل الأجيال طول الزمان وعرض المكان لكل جن وانسان ، مستمراً برصيده لا ينفد ، بل ويتجدد ولا يتبدّد أو يتلبّد ويتبلّد ، فهو أمام كل حقّ جديد وإمامُ كلِّ قديم وجديد ، فطبيعته ـ إذاً ـ هي طبيعة رسالته الدائبة، لا يُحرم عن حجته أي ذي حجىً ، إلاّ من تنازل عن حجاه ، وتروى إلى رداه ، إذاً فـ﴿ إن نشأ ننزل عليهم من السماء آية فظلت اعناقهم لها خاضعين ﴾ .

وترى كيف يصح « خاضعين » خبراً عن « اعناقهم » ؟ علّه حال عن ضمير الجمع والخبر المحذوف « خاضعة » فان خضوع اعناقهم من مظاهر

---

(١) نور الثقلين ٤ : ٤٦ في الكافي وروي ان امير المؤمنين (ع) قال في خطبة له : ولو أراد الله جل ثناءه حيث بعثهم ان يفتح لهم كنوز الذهبان ومعادن البلدان ومغارس الجنان وأن يحشر طير السماء ووحش الأرض معهم لفعل ، ولو فعل لسقط البلاء وبطل الجزاء واضمحل الابتلاء ولما وجب للقائلين أجور المبتلين ولا لحق المؤمنين ثواب المحسنين ولا لزمت الأسماء أهاليها على معنى مبين ولذلك لو انزل الله من السماء آية فظلت اعناقهم لها خاضعين ولو فعل لسقط البلوى عن الناس اجمعين . . . » اقول : « لو » هنا للتأشير الى القسم المستحيل من نزول آية معه وفيه وهو قول الله عز وجل « ان نشأ . . » .

خضوعهم في أنفسهم ! أو ان « أعناقهم » تعني اعناق الأجساد إلى اعناق الأرواح ، فهي اصول العقول !

أم الأعناق هنا هم رؤساؤهم الأصلاء في الضلالة والإضلال[1] ! أم هم جماعات منهم ضخمة هائلة ! أو ان « اعناقهم » هي مربعة الأضلاع ، تعنيها بأسرها .

والقرآن آية سماوية روحية نازلة من سماء الوحي ، كافية لمن يعقل ، ولكنهم قوم لا يعقلون ، فـ« نشأ ننزل عليهم من السماء » المادية « آية » بصرية « فظلت اعناقهم » شاءوا أم أبوا « لها خاضعين » .

﴿ وَمَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّنَ الرَّحْمَٰنِ مُحْدَثٍ إِلَّا كَانُوا عَنْهُ مُعْرِضِينَ ﴾(٥) .

وهذه هي طبيعة هذا الجيل الصُّلت من الناس النسناس أنهم لا يتذكرون بأي ذكر من الرحمن ، بل هم عنه معرضون ، إذ هم عنه عمون ، فلماذا ـ إذاً « ننزل عليهم آية من السماء ؟» اللهم إلّا عذاباً وبلاءً ، فآية السماء المخضعة الأعناق ، هي للمؤمنين نور على نور ، وللمعاندين نارٌ على نار ، فحين تظل اعناقهم لها خاضعين ليسوا ليؤمنوا بها ، ولو آمنوا فهو إيمان عند رؤية الباس ليس ليفيدهم ، فليس الله ـ إذاً ـ لينزل عليهم آية من السماء بعد آية القرآن ، حجة بعد حجة ، وإنما لجة غارقة ، أو نار حارقة .

و « محدث » تعني فيما تعنيه أن ذكر الرحمن محدَث أياً كان ، إذاً فكلام الرحمن محدث ، وما اسطورة القدم في كلام الله قرآناً وسواه إلّا هرطقة هراء مهما سمي به علم الكلام .

---

(١) وهذا الأخير يناسب زمن الرجعة حيث يرجع فيها من محض الكفر محضاً ، وهم اعناق الضلالة واساطينها .

فـ« ذكرٍ من الرحمن » أياً كان هو فعله ، وليس ذاته أو من صفات ذاته حتى يكون قديماً أزلياً ، فلا ذكر إلاّ لمتذكر ، ليس قبله ولا بعده ، فكما المتذكر خلق محدَث ، كذلك الذكر خلقٌ محدَث .

و« محدث » لها واجهة ذاتية هي الحدوث الذاتي فيشمل كل ذكر من الرحمن ، وأخرى نسبية تعني الحادثة الجديدة بعد القديمة ، فهؤلاء يرفضون محدَث الذكر من الرحمن مخلِدين إلى قديمه أياً كان ، كإخلاد أهل التورات إلى التوراة رفضاً لما بعدها ، واخلاد أهل الإنجيل إلى الإنجيل رفضاً للقرآن ، رغم أن الجديد من الرحمن كما القديم ، وفي الجديد تجديد وتقديم إلى ما ليس في القديم ! والذي يعرض عن محدث الذكر هو ـ بطبعه ـ مُعرض عن قديمه مهما تراءى انه مقبل إليه .

وقد يشمل « محدث » أصله قديماً وحديثاً ، كما يشمل حديثه ، فذكر الرحمن سلسلة موصولة أخراها إلى أولاها ، والإعراض عن جانب منها اعراض عنها كلها .

وقد يُعنى من «ذكر محدث» ـ فيما تعنيه ـ آي الذكر الحكيم التي تترى عليهم تلو بعض ولِصق بعض ، بل هو أهمُّ الذكر وأتمه ، وسائر الذكر توطئة له وتعبيد طريق !. .

أم ان « ذكر محدث » تحلّق على كل ذكر آفاقي وأنفسي « سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم انه الحق . . . » .

ولماذا « ذكر من الرحمن » والذكر رحمة رحيمية اياً كان ؟ علّه لأن الذكر هو قضية الرحمة العامة حيث تعم كافة الآهلين له من آمن منهم ومن كفر ، ومن ثمَّ هو لمن آمن رحمة رحيمية .

فـ« ذكر من الرحمن » ككل هو رحمة رحمانية حيث يعم المتذكر

والمعرض ، وهو لمن يتذكر رحمة رحيمية .

﴿ فَقَدْ كَذَّبُوا فَسَيَأْتِيهِمْ أَنْبَاءُ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ ﴾(٦) .

« فقد كذبوا » بكل ذكر من الرحمن محدث أم أي ذكر « فسيأتيهم أنباء » : أخبار هامة « ما كانوا به يستهزءون » يوم الدنيا كآية مُخضِعة لها ، إنْ في الرجعة أم قبلها ، أو يوم البرزخ والأخرى حيث يتجسد فيها ذلك التكذيب الكذيب « هل تجزون إلاّ ما كنتم تعملون » ؟ .

﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الْأَرْضِ كَمْ أَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ ﴾(٧) .

ألم يروا إلى ما خلق الله من شيء « أولم يروا إلى الأرض » فالواو هنا تعطف إلى آية البصيرة « من ذكر من الرحمن محدث » فان لم يتبصروا بها فليبصروا إلى آية حسية هي الأرض بنباتاتها من كل زوج كريم ، فالزوجية التي هي لزام الأرض باشياءها دليل الحاجة إلى الخالق الفرد الأحد ، ومختلف اشكال ازواجها دليل على التصميم ووحدته .

فهذه الأرض التي يعيشون عليها ، أم وسائر السبع مهما تطلبت الرؤية اليها اسفاراً جوية « كم أنبتنا فيها من كل زوج كريم » من جماد ونبات وحيوان ومن إنس وجان ، : « والله انبتكم من الأرض نباتاً » فكل شيء من كائنات العالم أرضية وسماوية زوج ، مهما اختلفت الأزواج في كونها وكيانها ، ولا فرد حقيقياً إلاّ الله .

« زوج كريم » من فرد كريم واسع الرحمة ، فكل زوج كما خلق الله وأنبت كريم ، ولا لؤم ولا شؤم إلاّ من أنفس الأزواج ، منها أو من نظائرها ، فالخير كله بيديه والشر ليس إليه .

﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ(٨) وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴾(٩) .

تعقيبة مكرورة في عرض لآيات كونية واخرى رسالية تشريعية ، تتكرّر مرات ثمان بمناسبات ثمان ، أولاها هي موقف الكفار أمام هذه الرسالة السامية ومن ثم موسى وابراهيم ونوح وهود وصالح ولوط وشعيب ، كما وتختم السورة بعرض الرسالة الإسلامية كما بدأت به .

« إن في ذلك » البعيد المدى القريب الصدى من نابت كل زوج كريم ومن كل ذكر محدث من الرحمن حيث يتجاوبان « لآية » تدل على مزوِّجه ومزوِّج كل ذكر « وما كان اكثرهم »: المكذبين على مدار الزمن حيث يتغافلون عنها « بمؤمنين وإن ربك » يا رسول الهدى « لهو » لا سواه « العزيز » القاهر الغالب « الرحيم » بعباده في موضع العفو والرحمة .

مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

وَإِذْ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱئْتِ ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠﴾
قَوْمَ فِرْعَوْنَ ۚ أَلَا يَتَّقُونَ ﴿١١﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن
يُكَذِّبُونِ ﴿١٢﴾ وَيَضِيقُ صَدْرِى وَلَا يَنطَلِقُ لِسَانِى فَأَرْسِلْ
إِلَىٰ هَٰرُونَ ﴿١٣﴾ وَلَهُمْ عَلَىَّ ذَنۢبٌ فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ ﴿١٤﴾
قَالَ كَلَّا ۖ فَٱذْهَبَا بِـَٔايَٰتِنَآ ۖ إِنَّا مَعَكُم مُّسْتَمِعُونَ ﴿١٥﴾ فَأْتِيَا
فِرْعَوْنَ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦﴾ أَنْ أَرْسِلْ
مَعَنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٧﴾ قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ

فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ ﴿١٨﴾ وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ ٱلَّتِي فَعَلْتَ
وَأَنتَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٩﴾ قَالَ فَعَلْتُهَآ إِذًا وَأَنَا۠ مِنَ
ٱلضَّآلِّينَ ﴿٢٠﴾ فَفَرَرْتُ مِنكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِي رَبِّي
حُكْمًا وَجَعَلَنِي مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٢١﴾ وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا
عَلَيَّ أَنْ عَبَّدتَّ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿٢٢﴾ قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ
ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٣﴾ قَالَ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ
إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ﴿٢٤﴾ قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُۥٓ أَلَا تَسْتَمِعُونَ ﴿٢٥﴾
قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٦﴾ قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ
ٱلَّذِيٓ أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ ﴿٢٧﴾ قَالَ رَبُّ ٱلْمَشْرِقِ
وَٱلْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢٨﴾ قَالَ لَئِنِ
ٱتَّخَذْتَ إِلَٰهًا غَيْرِي لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ ٱلْمَسْجُونِينَ ﴿٢٩﴾
قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَيْءٍ مُّبِينٍ ﴿٣٠﴾ قَالَ فَأْتِ بِهِۦٓ إِن
كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٣١﴾ فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ
مُّبِينٌ ﴿٣٢﴾ وَنَزَعَ يَدَهُۥ فَإِذَا هِيَ بَيْضَآءُ لِلنَّٰظِرِينَ ﴿٣٣﴾

قَالَ لِلْمَلَإِ حَوْلَهُۥٓ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ ﴿٣٤﴾ يُرِيدُ أَن
يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِۦ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴿٣٥﴾ قَالُوٓا۟
أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَٱبْعَثْ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ﴿٣٦﴾ يَأْتُوكَ
بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ ﴿٣٧﴾ فَجُمِعَ ٱلسَّحَرَةُ لِمِيقَٰتِ يَوْمٍ
مَّعْلُومٍ ﴿٣٨﴾ وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلْ أَنتُم مُّجْتَمِعُونَ ﴿٣٩﴾ لَعَلَّنَا
نَتَّبِعُ ٱلسَّحَرَةَ إِن كَانُوا۟ هُمُ ٱلْغَٰلِبِينَ ﴿٤٠﴾ فَلَمَّا جَآءَ ٱلسَّحَرَةُ
قَالُوا۟ لِفِرْعَوْنَ أَئِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ ٱلْغَٰلِبِينَ ﴿٤١﴾
قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ إِذًا لَّمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٤٢﴾ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰٓ
أَلْقُوا۟ مَآ أَنتُم مُّلْقُونَ ﴿٤٣﴾ فَأَلْقَوْا۟ حِبَالَهُمْ وَعِصِيَّهُمْ وَقَالُوا۟
بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿٤٤﴾ فَأَلْقَىٰ مُوسَىٰ
عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ﴿٤٥﴾ فَأُلْقِىَ ٱلسَّحَرَةُ
سَٰجِدِينَ ﴿٤٦﴾ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٧﴾ رَبِّ مُوسَىٰ
وَهَٰرُونَ ﴿٤٨﴾ قَالَ ءَامَنتُمْ لَهُۥ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ ۖ إِنَّهُۥ
لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ۚ لَأُقَطِّعَنَّ

أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٩﴾
قَالُوا۟ لَا ضَيْرَ ۖ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ ﴿٥٠﴾ إِنَّا نَطْمَعُ
أَن يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَٰيَٰنَآ أَن كُنَّآ أَوَّلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥١﴾
۞ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِىٓ إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ ﴿٥٢﴾
فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ﴿٥٣﴾ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ
لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ ﴿٥٤﴾ وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَآئِظُونَ ﴿٥٥﴾ وَإِنَّا لَجَمِيعٌ
حَٰذِرُونَ ﴿٥٦﴾ فَأَخْرَجْنَٰهُم مِّن جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٥٧﴾
وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٥٨﴾ كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَٰهَا بَنِىٓ
إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿٥٩﴾ فَأَتْبَعُوهُم مُّشْرِقِينَ ﴿٦٠﴾ فَلَمَّا تَرَٰٓءَا ٱلْجَمْعَانِ
قَالَ أَصْحَٰبُ مُوسَىٰٓ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ ﴿٦١﴾ قَالَ كَلَّآ ۖ إِنَّ مَعِىَ
رَبِّى سَيَهْدِينِ ﴿٦٢﴾ فَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ
ٱلْبَحْرَ ۖ فَٱنفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَٱلطَّوْدِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٦٣﴾
وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ ٱلْءَاخَرِينَ ﴿٦٤﴾ وَأَنجَيْنَا مُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ
أَجْمَعِينَ ﴿٦٥﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا ٱلْءَاخَرِينَ ﴿٦٦﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً ۖ

وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٦٧﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿٦٨﴾

تسعة وخمسون آية تستعرض معارضة فرعون الرسالة الموسوية منذ البداية حتى غرق فرعون وقومه ، عرضاً لطائل الحوار بينهما ، ثم مسرح السحرة والآية الرسالية الى « وأنجينا موسى ومن معه أجمعين . ثم أغرقنا الآخرين » .

ومن ثم نرى عرضاً لرسالة ابراهيم ونوح وهود وصالح ولوط وشعيب (عليهم السلام) كلاً في قصص له بتلحيقة واحدة: « وما كان اكثرهم مؤمنين . وإن ربك لهو العزيز الرحيم » تسلية لخاطر الرسول الأقدس (ص) كيلا يخلد بخلده الشريف أنه بدعٌ من الرسل في مواجهة التكذيب ، فالرسالات الإلهية هي ذات طبيعة واحدة وصاحبة عرقلة واحدة ، فعلى الداعية التصبرُ في الدعوة حتى النهاية .

ولقد مضت حلقات من قصة موسى في البقرة والمائدة والأعراف ويونس والأسرى والكهف وطه ، اضافة إلى اشارات اخرى في سواها ، وكل هذه متناسقة مع جو السورة وموضوعها الرئيسي ، والحلقة المعروضة هنا هي مسرح الرسالة المعارضة لصرح الفرعونية الجبارة ، مقسّمة إلى مشاهد متنوعة بينها فجوات متناسقة .

وقصص موسى كسائر القصص القرآنية جديدة في كل مسرح رغم تكرارها موضوعياً ، لأنها تناسق كل الأجواء المستعرضة فيها ، لولاها لكان الجو ناقصاً ، فالى مشاهد سبعة هنا بين موسى وفرعون :

﴿ وَإِذْ نَادَى رَبُّكَ مُوسَى أَنِ ائْتِ الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ(١٠) قَوْمَ فِرْعَوْنَ أَلَا يَتَّقُونَ ﴾(١١) .

ذلك النداء يتم بعد ما يكمل موسى عشر حجج في مدين بعدما خرج إليها من مصر خائفاً يترقب « ثم جئت على قدر يا موسى » (٢٠ : ٤٠) ففي ذلك القدر المقدَّر لبزوغ الرسالة هكذا يؤمر .

واذكر « إذ نادى ربك موسى » كما ناداك ، وآواه كما آواك « إن ائت القوم الظالمين » الذين ظلموا أنفسهم وأهليهم وظلموا الحق ، عائشين في ثالوث الظلم،المظلم جوَّ الحياة على عائشيها ، ففي الرسالات الإلهية سلبيات وايجابيات ، سلباً لآلهة الأرض ثم ايجاباً لإله السماوات والأرض ، وسلباً لأي ظلم من أي ظالم فايجاباً للعدل : « ان ائت القوم الظالمين . قوم فرعون ألا يتقون » فقد اظلمت الجوُّ طغواهم ، فلتحملهم على تقواهم ، ام لا قل تقدير تصدهم عن طغواهم .

﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ(١٢) وَيَضِيقُ صَدْرِي وَلَا يَنْطَلِقُ لِسَانِي فَأَرْسِلْ إِلَى هَارُونَ(١٣) وَلَهُمْ عَلَيَّ ذَنْبٌ فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ ﴾(١٤) .

أعذار أربعة يعتذر بها موسى عن ذلك الإتيان ، أنكوصاً عن تكليف الرسالة بأسره ؟ وكيف يرسل الله الناكص المتكس ! أم عرضاً لحاله استنصاراً من ربه على عدوه ؟ وعلمه بحاله يكفي عن مقاله !.

في الحق إنه عرض الحال التماساً وهو يعلم الحال ، وكما في كل دعاء واستدعاء ، و« فأرسل إلى هارون » برهان لا مرد له على عدم النكوص ، وانما هو استمداد من ربه ان ينصره على عدوه .

وترى فرق التكذيب والقتل في سبيل الدعوة أهما مما يتطلب عرض الدعاء ، وهما طبيعة الحال في كافة الدعوات الرسالية ؟ ففريق يكذبون

وآخرون يصدِّقون ، وفريق يحاولون قتل الداعية وآخرون يمانعون ؟ .

إنه هنا يخاف التكذيب المطلق ألاّ يصدق ابداً ، لا مطلق التكذيب ممن دأبهم التكذيب ، ويخاف أن يُقتلَ قبل نشور الدعوة ، إذاً فما هي فائدة هذه الدعوة بين تكذيبها وقتل الداعية ؟!.

ثم ومن دوافع التكذيب المطلق والقتل « ولهم علي ذنب . . . » فلذلك « يضيق صدري ولا ينطلق لساني » وذلك قصور في الدعوة ، فليستمد ربَّه بامدادات متصلة واخرى منفصلة كـ« ارسل إلى هارون » .

فلئن كان منشرح الصدر منطلق اللسان كان بالامكان ان يرتد تكذيبه كيفما كان ، فهو الاحتياط الرسالي حفاظاً على سلامة الدعوة لا. الداعية اللهم إلاّ لسليم الدعوة وقاطعها .

فقد احتاط من أن يحتبس لسانه في بزوغ الدعوة وهو في موقف المنافحة عن رسالة ربه ، فتبدو الدعوة ضعيفة قاصرة منذ البداية ، واحتاط من ان يقتلوه فتتوقف دعوته دون ان تُجبر عن ضعفها ، وهذا هو اللائق بموسى الرسول الذي صنعه الله على عينه واصطنعه لنفسه ، ونراه مستجاباً فور دعوته .

ومما لا بد منه في كل دعوة رسالية مجال التصديق وتجوال الدعوة قبل قتل أو موت الداعية ، وانشراح صدره وانطلاق لسانه[1] في الدعوة ، فلذلك « قال رب . . . » .

هنا من دوافع تكذيبه المطلق وقتله « ولهم علي ذنب . . . » أن قتلت

(١) تجد تفصيل القول في عقدة لسانه في طه فراجع .

منهم نفساً فلا يفسحون لي - إذاً - مجالاً للدعوة ، ومنها ان فرعون رباني وليداً ، فهو يتفرعن عن ان يسمع إلى دعوة ربيبه ، المناحرة لدعوته .

ولم يكن قتله القبطي ذنباً في شرعة الله ، فانما « لهم علي ذنب » في زعمهم ، وأما المشرك المحارب فمسموح قتله ولا سيما حالة الدفاع ، مهما كان قتله في واجهة أخرى غير مشكور ، إذ أخر دعوته الرسالية عشر سنين . . . وهنا يجد حاضر الإستجابة فور الدعوة :

﴿ قَالَ كَلَّا فَاذْهَبَا بِآيَاتِنَا إِنَّا مَعَكُمْ مُسْتَمِعُونَ ﴾(١٥) .

« قال لا تخافا إنني معكما أسمع وأرى » (٢٠ : ٤٦) « قال قد أوتيت سؤلك يا موسى » (٢٠ : ٣٦) .

كلّا ! فلن يكذبوك إلّا ومعهم مصدقوك ، كلا ! لا يضيق صدرك فقد شرحناه ، ولا يحتبس لسانك فقد أطلقناه ، كلا ! ولن يقتلوك فقد راعيناك « فاذهبا » انت واخوك هارون « بآياتنا » التسع إلى فرعون وملإه « إنا » بجمعية الصفات على جمعية الرحمات « معكم » انتما ومن اتبعكما « مستمعون » قالة فرعون وقومه ، فمجيبون في قال وحال وفعال فـ« انتما ومن اتبعكما الغالبون » (٢٨ : ٣٥) .

﴿ فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولَا إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ(١٦) أَنْ أَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴾(١٧) .

هناك « ائت » اذ كان فريداً في رسالته ، فلما زود بوزير له وهو من سؤله - إذاً - « فأتيا » ولأن هذه الرسالة في الأصل واحدة يحملها موسى بموآزرة هارون « فقولا إنا رسول رب العالمين » لا « رسولا » إذ لا إثنينيَّة فيها لا في مادة الرسالة ولا في آياتها مهما كانا رسولين كحاملي هذه الرسالة « فأتياه فقولا انا رسولا ربك » (٢٠ : ٤٧) .

« فأتيا . . ان أرسل معنا بني اسرائيل » فلم يكن رسولاً إلى فرعون وملأه ـ فقط ـ ليدعوهم إلى شرعته ، بل ليطلب ـ بالفعل ـ إطلاق بني اسرائيل عن أسرهم وتسريحهم عن حصرهم « انا رسول . . . أن ارسل » دون « آمِن وأرسِل » مما يصرح أن هذه الرسالة ليست بالفعل إلاّ ناحية منحى السلب ، أن يتخلى فرعون عن بني اسرائيل فانهم هنا محور الدعوة الرسالية ، وإن كانوا هم ايضاً تشملهم هذه الدعوة العالمية كما آمن بها السحرة .

فالرسالة الموسوية ككل هي عالمية مهما بدأت من بني اسرائيل المضطهدين حيث هم حجر الأساس فيها ، وكذلك فرعون وقومه إذ كانوا حجر عثرة للأساس ، ولات حين مناص إلاّ سلباً لأسرهم بأسرهم حتى يخلوا له جو الدعوة دون معارض مستخف لهم ، مستكبر عليهم ، متفرعن فيهم ، فالسلب دوماً يتقدم الايجاب حتى يحل هو محله من الإيعاب ، فيستتب أمر الشرعة قبولاً لها واقبالاً اليها .

أترى ذلك القول الرسالي للطاغية كان قاسياً ؟ كلا حيث القساوة ـ ولا سيما من مثل موسى على سابقته معه ـ ليست إلاّ عرقلة في سبيل الدعوة ، وإنما كما في طه وسواها « فقولا له قولاً ليناً لعله يتذكر أو يخشى » (٢٠ : ٤٤) .

﴿ قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيداً وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ(١٨) وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ الَّتِي فَعَلْتَ وَأَنْتَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴾(١٩) .

أتياه وقالا له ما حُمِّلاه : دعوى الرسالة ومادة منها سلبية « ان أرسل معنا بني اسرائيل » وفي ذلك سلب الربوبية عن فرعون وسلب سلطته عمن يملكهم ، رسالة تهدم صرح السلطة الزمنية والروحية مع بعض ، ومن هو

فاعل هذه السلبية القاضية ؟ من تربى عند صاحب السلطة وليداً ولبث فيهم عمراً ، ثم وجنى فيهم جناية ! ثالوث المهانة فيمن ارسل هذه السلبية القاسية القاضية .

يا رسول رب العالمين ! « الم نربك فينا وليداً » فكيف تعارض مربيك إلى خلاف ما رباك ؟ « ولبثت فينا من عمرك سنين » فأنت إذاً عُضوٌ منا وقسم ضعيف من كياننا ، فكيف تتفضل علينا ؟ « وفعلت فعلتك التي فعلت » حيث قتلت منا قتيلاً « وانت من الكافرين » نعمةَ الإبقاء إذ ما قتلناك رغم المرسوم الملكي عندنا بتقتيل الولائد من بني اسرائيل ، ومن الكافرين» نعمة التربية ولبثها ! ومن الكافرين»بربوبيتي إذ تناسيتها فأجرمت فينا ، ثم اتيت رسولاً الينا تتهدم صرح مُلكنا ، بل ومن الكافرين ـ أيضاً ـ بربك الذي بعثك إذ كنت عندنا كأحد منا ! فكيف تواجهنا هكذا بذلك الوجه الأسود والسابقة السوداء وهو خلاف العقلية والتربية الإنسانية ؟ .

ثم وعلى أية حال كيف الفرع يفوق الأصل ويتفضل ، وما فضله إلاّ منه ؟ فكرة خاطئة بين حماقى الطغيان والذين يوّصّلون الموازين المادية بين كل الموازين ، متغافلين عن الأصالة الموهوبة من الله ، فيستغربون ان وليداً بينهم عاشهم سنين يرجع إليهم رسولاً من الله .

﴿ قَالَ فَعَلْتُهَا إِذاً وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ ﴾(٢٠) .

هنا يقدم موسى ثالث ثلاثة من ثالوث الإعتراضات الفرعونية النكدة ، فينكر « وانت من الكافرين » كفراً وكفراناً في كل الزوايا المعنيَّة ، ثم يصرح « وانا من الضالين » وتراه : كان ضالاً حين فعل فعلته ؟ وعماذا ؟ فهل هو ضلال عن الايمان ؟ وهو كفر ينكره ! أم ضلال الكفران ؟ فكذلك الأمر ! حيث بدل « من الكافرين » إلى « من الضالين »! فلا كفر له ـ إذاً ـ ولا كفران

فلا عصيان !

انه ضلال عن الرسالة الحكيمة التي أوتيها بعد فعلته وخروجه إلى مدين ورجوعه إلى مصر حيث أخّر فعلتهُ رسالتَه دونما علم ولا تقصُّد في تلك الفعلة ، أو الضالين عن الطريق حيث دخلت المدينة وما كان لي ان ادخلها[1] وأنا ملاحَق في ذلك الجو المحرِج ، أو الضالين عن كيفية الدفاع ، فلم آخذ الحائطة فيه حياداً عن القتل ، وذلك ضلال في بزوغ الرسالة غير عامد ، قد اخرها إلى سنين .

﴿ فَفَرَرْتُ مِنْكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْماً وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴾(٢١) .

لقد وهب له ربه حكماً قبل الوكزة القاتلة ، دون حكم الرسالة المعصومة العاصمة عن كل الضلالات والزلات كما في القصص : « ولما بلغ اشده واستوى آتيناه حكماً وعلماً وكذلك نجزي المحسنين . ودخل المدينة على حين غفلة من أهلها فوجد فيها رجلين يقتتلان هذا من شيعته وهذا من عدوه فاستغاثه الذي من شيعته على الذي من عدوه فوكزه موسى فقضى عليه قال هذا من عمل الشيطان إنه عدو مضل مبين . قال رب اني ظلمت نفسي فاغفر لي فغفر له انه هو الغفور الرحيم » (١٤ : ١٦) .

هنا « من عمل الشيطان » وهناك « من الضالين » لا يطاردان أنه أوتي

---

(١) البحار ١٣ : ٣٣ في حوار المأمون مع الرضا (ع) قال المأمون جزاك الله يا ابا الحسن فما معنى قول موسى لفرعون « فعلتها إذاً وانا من الضالين » قال الرضا (ع) ان فرعون قال لموسى لما أتاه « وفعلت فعلتك التي فعلت وانت من الكافرين » لي قال موسى « فعلتها إذاً وانا من الضالين » عن الطريق بوقوعي الى مدينة من مدائنك « ففررت منكم . . . » .

حكماً وعلماً فانهما ليساهما الرسالة البعيدة عن عمل الشيطان وعن أي ضلال في سبيل الدعوة ، وقد قوبل الحكم في مواضيع عدة بالرسالة والنبوة مما يجعله اعم منهما مهما كان منصباً إلّهياً كما كان لطالوت ، ولكنه ليس ليعصم صاحبه عن كافة الزلات والضلالات ، فقد أوتي حكماً مع الرسالة بعدما رجع من مدين وبينه وبين الحكم الأول عشر سنين ، فذلك حكم رسالي ورسالة الحكم،ليس ليضل معه بعدُ على طول خط الدعوة ، والأول حكم الدعوة قبل الرسالة قد يضل معه كما ضل .

ثم ولم يكن ضلالة له عن الايمان ولا عن حكم الشرعة الإلّهية إذ كانت الوكزة القاتلة في ذلك الإقتتال مسموحاً أو فرضاً حسب الشرعة ، دفاعاً عن نفس محرمة موحدة عن ان تهدر ، مهما هدرت نفس مشركة غير محترمة .

وهنا تقتسم الوكزة إلى اصلها المصيب المشروع فليس ضلالاً ، وإلى قتلتها المخلّفة عن قوتها وقد خلفت فرار صاحب الحكم عن الجو الرسالي الآتي وأجّل رسالته عشر سنين ، وذلك مقصود وهذا غير مقصود ، وليس عمل الشيطان هنا إلّا غير المقصود ، والمقصود هو عمل الرحمان ، فلم يكن الضلال إلّا في البعد الثاني من وكزته وهي القتلة الناتجة عنها ، غير المقصود فيها ، فلم يرتكب ـ إذاً ـ كمؤمن ذنباً ، وإنما ارتكب خطأً رسالياً ولمّا يُرسَل[1] إذاً فهو ضلال عن تلك الرسالة السامية في مرحلة ادنى منها مهما

(١) نور الثقلين ٤ :٤٨ في عيون الأخبار يسأل مامون الرشيد ابا الحسن الرضا (ع) فيما سئل اليس من قولك ان الأنبياء معصومون ؟ قال : بلى ـ قال : فما معنى قول موسى لفرعون : فعلتها إذاً وأنا من الضالين ؟ قال الرضا (ع) : إن فرعون قال لموسى لما اتاه : وفعلت فعلتك التي فعلت وانت من الكافرين ـ قال موسى : فعلتها إذاً وانا من الضالين عن الطريق بوقوعي الى مدينة من مدائنك ففررت منكم لما خفتكم ، وقد قال الله لنبيه

كانت اعلى قمم الايمان ، وكما في رسول الهدى « ووجدك ضالاً فهدى » في وجه وجيه من وجوهها .

وقد قال حينه « ظلمت نفسي » دون « غيري » إذ كان ظلم الانتقاص لعاجل الرسالة دون تقصد « فاغفر لي » ستراً عن مُنعة الرسالة « فغفر له » حيث وفقه للفرار وظل عشر سنين في مدين « ثم جئت على قدر يا موسى » (٢٠ : ٤٠) والتفصيل إلى محله .

« ففررت منكم لما خفتكم » - :«وجاء رجل من اقصى المدينة يسعى قال يا موسى إن الملأ يأتمرون بك ليقتلوك فاخرج إني لك من الناصحين . فخرج منها خائفاً يترقب .. » (٢٨ : ٢١) « يترقب » الفرج ، وان يعجل في آجل الرسالة « فوهب لي ربي حكماً » بعد الحكم الأوّل - وطبعاًل - فوقه لحدٌ « وجعلني من المرسلين » .

وأما تربيتي فيكم وليداً ولبثي عندكم من عمري سنين فلم تكن نعمة تمنها عليّ :

﴿ وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَيَّ أَنْ عَبَّدْتَ بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴾(٢٢) .

فلولا تعبيدك بني اسرائيل أسراً وحصراً وقتلاً لولائدهم واستحياءً لنسائهم لما اضطرت أمي أن تقذفني في التابوت « ان اقذفيه في التابوت

محمد (ص) : الم يجدك يتيماً فآوى - يقول : الم يجدك وحيداً فآوى اليك الناس « ووجدك ضالاً » يعني عند قومك « فهدى » اي فهداهم الى معرفتك .

أقول : يعني ضلالة بعد القتل عن طريقه المقصودة الى غير المقصود « ودخل المدينة خائفاً يترقب » ووجه آخر ذكرناه في المتن ، فلعل هذا الوجه غير وارد عن الامام (ع) حيث يتبع من الوجوه الدلالية القرآنية احسن الوجوه !

فاقذفيه في اليم فليلقه اليم بالساحل يأخذه عدو لي وعدو له . وألقيت عليك محبة مني ولتصنع على عيني » (٢٠ : ٣٩) .

إذاً فأنا صنيع الرب ورَبيُّه عندك ، حفاظاً ربانياً عن بأسك وأنتم لا تشعرون ، وما كان منكم إلّا قصد الانتفاع مني « لا تقتلوه عسى ان ينفعنا أو نتخذه ولداً وهم لا يشعرون » (٢٨ : ٩) وهذا تعبيد لي من وجه آخر غير ما كان لسائر بني اسرائيل .

فأية نعمة تمنها علي وهي في كل زواياها وحواياها تعبيد لبني اسرائيل ؟ فالرسم الملكي بتقتيل الأبناء المستثنى فيَّ ، كان رسماً لتعبيدي انا في وجه آخر ، فحتى لو كانت نعمة منك عليَّ ، فهي ليست لتطارد نعمة الرسالة الإلٓهية وهي أنعم النعم، فليست قضيةُ النعمة من بشر لبشر نكران أو نسيان النعمة الإلٓهية الكبرى الرسالية ، على ان كل نعمة تصل العبد فانما هي بتقدير من الله قدَّره ، ولا سيما نعمة الحفاظ على نفسي عند أعدى أعاديَّ « يأخذه عدوٌ لي وعدو له . . . » !

فهنالك انهدم صرح الحجاج اللجاج الفرعوني صداً عن بازغ الدعوة الموسوية ، فانتقل إلى لجاج آخر في صورة الحجاج :

﴿ قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴾(٢٣) .

في ذلك الاستجواب العارم نرى فرعون في اعمق الحمق وسوء الأدب ، ونرى موسى يجيبه كريماً كان لم يسمع إلى شطحاته القارصة الراقصة فندرس في هذا الحوار كيف يجب علينا ان نحاور خصومنا الظالمين فضلاً عن سواهم من المسترشدين .

« ما » هنا تهوين لساحة الربوبية العالمية ، استنكاراً لها زعم انه هو الرب الأعلى فلا أعلى منه ، حتى يرسل رسولاً إلى الرب الأعلى !

إنه لا يعيى عن النكاية بموسى كرسول ، يحاول القضاء على كيان مرسله رب العالمين ، وهل هو ـ فقط ـ سؤال عن الماهية ؟ والصيغة الصالحة في الماهية الإلٓهية هي « مَن » دون « ما » ثم السؤال عن الماهية ليس إلاّ بعد الاعتراف بصاحبها وهو ناكر رب العالمين ، لمكان دعواه « أنا ربكم الأعلى » و « يا أيها الملأ ما علمت لكم من إلٓه غيري . . . » (٢٨ : ٣٨) فقد كان دهرياً لا يؤمن بالله ولا سيما المدعوّ بـ« رب العالمين » فانه ممن يقسم الربوبية بين أرباب عدة ارضية وسماوية ، وهو منهم كما الأصنام منهم : « ويذرك وآلهتك . . » (٧ : ١٢٧) . فحتى لو كان معترفاً بوجود الله كرب للأرباب ، فهو ناكر لكونه رب العالمين ، اللهم إلاّ عالماً له خاصاً كما لسائر الأرباب عوالم خاصة .

وقد يكون الطاغية جامعاً في سؤاله عن « ما » بين التوهين والاستفهام عن الماهية والكيفية ، فأتى موسى بالجواب الصالح وهو عرض الصفات الفعلية وكما يروى انه لما قال : « رب السماوات والأرض وما بينهما . . » قال فرعون متعجباً لأصحابه : ألا تسمعون أسأله عن الكيفية فيجيبني عن الصفات . . . »[1] .

إذاً فهو سؤال استنكار وتهوين لمكانة من سماه موسى « رب العالمين » وهنا موسى يضرب الصفح عن تلك المهانة مجيباً عن مكانة رب العالمين ، مبيناً سعة العالمين دون اختصاص بعالم دون آخر :

﴿ قَالَ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ ﴾٢٤ .

---

(١) تفسير البرهان ٣ : ١٨١ تفسير القمي قال حدثني ابي عن الحسن بن علي الفضال عن ابان بن عثمان عن ابي عبد الله (ع) قال لما بعث الله موسى الى فرعون ـ إلى ان قال ـ: وانما سأله عن كيفية الله فقال موسى رب السماوات . . . » .

« إن كنتم موقنين » بأصل الربوبية الأصيلة ، فهي ـ إذاً ـ الربوبية العالمية المحلِّقة على الكون كلِّه المعبَّر عنه بـ« السماوات والأرض وما بينهما » وان لم تكونوا موقنين بأصل الربوبية فالسؤال « وما رب العالمين ؟» ساقط من أصله ، إلّا هزءً كما هو كذلك ، إلا أن موسى الرسول مهمته ان يهدي الضالين مهما كان سؤالهم متنعتاً مستهزءً .

ويا له من جواب يكافيء ذلك التجاهل العارم ويغطِّيه ، انه « رب السماوات والأرض وما بينهما » التي انت جزءٌ منها ضئيل ، كالذرة أو الهباءة بين شاسع الكون وهائله .

هنا ينبري الطاغية بقولة لاهية لاغية لمن حوله ، يستنصرهم في القضاء على حجة الله البالغة :

﴿ قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُ أَلَا تَسْتَمِعُونَ ﴾(٢٥) .

ألا تستمعون إلى ذلك التقوُّل العُجاب ، كيف يجرء عبد من عبيدي أن يختلق رباً للكون كله ويجعلني ضمنه و« أنا ربكم الأعلى » ! وقد يكفي رداً عليه ادعاءه الجوفاء الخواء أمام الرب الأعلى أنه مرسل اليَّ من رب العالمين !

أترى موسى يجيبه عن لاغيته ؟ كلّا ! بل يمر عليها مر الكرام مستمراً في تعريفه برب العالين :

﴿ قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَاءِكُمُ الْأَوَّلِينَ ﴾(٢٦) .

إن رب العالمين ـ رب السماوات والأرض وما بينهما ـ هو « ربكم » : فرعون وملاءه ، « ورب آباءكم الأولين » فان كنت يا فرعون رباً لمن حولك ومن معك كما تزعم ، فهو « ربكم ورب آباءكم الأولين » .

وهذه أشد مساساً بفرعون ودعواه ، وأحدّ مراساً لاثبات الربوبية العالمية ، مما يدفع فرعون إلى قولة جنونية تجنِّن موسى ، وليسقِّطه عن عقلية

الحوار ، ويجتثّ الحق عن كل دعاويه :

﴿ قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ ﴾(٢٧) .

وذلك تهكّم في أصل الرسالة ، فقضاء ـ في زعمه ـ على ما يحمله من مواد الرسالة الإلهية ، ضرباً عميقاً عمياً على موسى في الصميم ، كفاحاً عن ضربته السياسية والدينية على فرعون في الصميم .

اترى موسى يقابل الطاغية بالمثل قائلاً : ان ربكم الأعلى لمجنون ؟ كلاّ ! بل هو يمضي في طريقه قُدُماً كأن لم يسمع قولته الباغية :

﴿ قَالَ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ ﴾(٢٨) .

فإن كنت أنا الرسول المجنون بسند التعريف بالربوبية العالمية ، فمن رب المشرق والمغرب وما بينهما ايها العقلاء إن كنتم تعقلون ؟ .

أمن العقل نكران خالق العقل والعقلاء ، ونكران الربوبية الوحيدة لهذا النظام المنسّق بنسق واحد، والمنظم بنظام فارد، أم الجنون بعينه هو النظام من نتائج فوضى الربوبيات المتشاكسة ، والوئام التام دون تفاوت في الخلق من آثار مختلف الربوبيات الشاسعة ! .

إن المشرق والمغرب مشهدان معروضان لكل ذي بصر ونظر ، فهل ان الشروق والغروب هما من تصريفات فرعون وآلهته ؟ إنه توجيه وجيه يهز القلوب البليدة المقلوبة هزاً ، إثارة لمشاعرهم ، وايقاظاً لعقولهم « إن كنتم تعقلون » .

ولا يخشى الطغيان ما يخشاه من يقظة الشعوب النائمة ، كالبهم الهائمة ، المحرضة إلى العقل عن الحقائق في كل حقل ، دون تبعية بغبغائية قاحلة ، وتقليدة جاهلة، ويا له من ترتيب رتيب عجيب في تعريفه برب العالمين ، ابتداءً من الأثر العام : « السماوات والأرض وما بينهما » الظاهر

حدوثها ومربوبيتها ، فان ادعي قدمها فالى ما لا ينكر في حدوثه « ربكم ورب آبائكم الأولين » حيث الانسان مخلوق على أية حال ، ثم استدلالاً لوحدة الربوبية بنظام الشروق والغروب ، كالحجة الابراهيمية مع نمرود ، وهذه الثلاث تشترك في التعريف بالآثار حيث الذات الألوهية وصفات الذات لا تعريف لها ذاتياً إلا بالآثار والأفعال وهي صفات الفعل .

ولما ينتهي امر الحوار إلى ايقاظ الشعب ، يترك فرعون حواره العار إلى التهديد :

﴿ قَالَ لَئِنِ اتَّخَذْتَ إِلَٰهًا غَيْرِي لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ ﴾(٢٩) .

وهذه نهاية الحوار من كل جبار لا يملك برهنة على جبروته ، قتلاً أو نفياً أو سجناً ، ولكيلا يوقظ الجماهير فتتخلّف عن ملكته الجابرة وسلطته العاهرة ، ولأنه يزعمه الرب الأعلى ، لذلك يتناسى الآلهة الأخرى ، فـ« إلَهاً غيري » يعني الرب الأعلى ، دون الأرباب الأدنين الأخرى ، فانه كانت له آلهة تُعبد .

و« من المسجونين » قد توحي أنه كان في ملكه من يعبد إلَهاً غيره كأصل الألوهة ، الله أم سواه ، ام كانوا في التخلف عن السلطة الفرعونية كمثل موسى .

أتراه يجيبه بما أجاب خوفة من السجن ؟ وهو استمرار سلفه الصالح يوسف القائل « رب السجن احب الي مما يدعونني اليه » !

انه يحاول إبانة الحق المرام كما يُرام ، فلا يشير إلى سجن وسواه حتى يهديه هداه ، ثم وفي نهاية المطاف يستسلم لما يجري في سبيل الدعوة والله هو المستعان على ما يصفون .

وترى موسى بماذا يجيب الطاغية عن تهديده العارم ، انه يوجهه إلى واجهة اخرى خارقة :

﴿ قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَيْءٍ مُبِينٍ ﴾(٣٠) .

و « لو » هنا احتياطة عاقلة مع الطاغية ، حيث يحيل ان يكون موسى على حق مبين ، ولكن على فرض المحال « أو لو جئتك بشيء مبين » يبين حق دعواي اكثر مما بان ، ويبين حق الربوبية العالمية أوضح مما كان ، أفهناك - أيضاً - تهدّدني بالسجن وترميني بالجنون ؟ .

طبعاً لا ! وكل ذي حجي مهما تنازل عن حجاه يقول : لا ، فلنجرب الداعية هل يأتي بشيء مبين ، وهنا الطاغية يتطلب اليه ان يأتي بشيئه ، واثقاً انه لن يأتي بأيٍّ من شيئه :

﴿ قَالَ فَأْتِ بِهِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴾(٣١) .

« إن كنت من الصادقين » في دعواك الرسالة ، و « من الصادقين » ان تجيئني بشيء مبين « فائت به » تعجيزاً لموسى (ع) كأنه من الكاذبين .

﴿ فَأَلْقَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُبِينٌ(٣٢) وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّاظِرِينَ ﴾(٣٣) .

آيتان باهرتان قاهرتان تحوّلان جوّ البلاط الفرعوني المتبلّج إلى جو متلجلج ، مما يحمل فرعون إلى خربطة القول فـ :

﴿ قَالَ لِلْمَلَإِ حَوْلَهُ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ ﴾(٣٤) .

لقد شعر فرعون - وهو لا يشعر - انه خارقة منقطعة النظير في كل ما رآه من سحرته ، فأحس بضخامتها وفخامتها في وجهه أمام حاشيته ، إذ كادوا يتملقون من حوله ، فحاول التخطئة بهذه التخطئة : « إن هذا لساحر عليم » !

« عليم » مكين في علمه ، ليس كالذين نعرفهم عندنا ، بل « إنه لكبيركم الذي علمكم السحر . . »(٥٠) فموسى هنالك في حواره الذي

ألجمه «مجنون» هنالثوهنا في شيئه المبين «ساحر» وقد اتم وأطم آية الثعبان واليد البيضاء ، محسوسة ملموسة ، إلى الآيات الفطرية والعقلية ، فالطاغي الذي يتنازل عن عقله وفطرته فلا تفيده البراهين ، يُنقَل إلى آيات محسوسة يصدقها حتى المجانين ، ولكن هذه الطاغية ليس ليسكت عن غوغائيات التهم الجارفة ، الهارفة الخارفة :

﴿ يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِ فَمَاذَا تَأْمُرُون ﴾(٣٥) .

فلأنه يرى تثاقلهم إلى أرضهم ، وان هذه السلطة هي بغيتهم الأصلة الحاصلة ، يهددهم بإخراجهم من أرضهم لو اتبعوا هذا الساحر العليم ، وفي ذلك استلاب السلطة الروحية : « ويذهبا بطريقتكم المثلى » (٢٠ : ٦٣) والزمنية المزيجة بها ، وهذه غاية الشيطنة في الفرعنة .

وقد يبدو من هذه القولة عظمة الآية مهما سماها سحراً حيث يصف صاحبها بانه عليم ، ليس كسائر السحرة ، ويبدو خوفه من تأثر مَن حوله فيهدِّدهم بإخراجهم من أرضهم ، ويبدو تضعضعه وتهاويه أمام هذا الساحر العليم ! فيستمد ممن حوله متواضعاً متسكعاً ـ وقد ادعى انه ربهم الأعلى ـ فيطلب أمرهم ورأيهم في ذلك المأزق الخطير « فماذا تأمرون » ! ومتى تراه كان يطلب أمرهم وهم له يسجدون ؟ .

انها شنشنة الطغاه بعد طنطنتهم حين تزل اقدامهم وتضل أحلامهم وتكل افهامهم ، فيلينون في القول بعد الخشونة ، ويتواضعون لأمرهم ورأيهم بكل مرونة بعد العرونة،ويا له كيداً ما أشطنه في ثالوثه المنحوس : « إن هذا لساحر عليم » حيث استفاد هذه التهمة من السحر ، فقد يجوز ان ينتهي بسحره إلى ذلك الحد القمة « يريد ان يخرجكم من ارضكم بسحره » وارض الوطن بهذه السلطة القوية المرموقة محبوبة لأهلها كأنفسهم « فماذا تأمرون »

كلامٌ مَرِن يحرِّك العواطف الدفينة ويغطي على الضغائن الكامنة ، ويستحث الحاشية الملكية على إمعان التفكير لتخليص المَلِك واياهم عن ذلك المأزق العميق ، فكانت النتيجة ان :

﴿ قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَابْعَثْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ(٣٦) يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ ﴾(٣٧) .

هنا يشير عليه ملأه آمرين كما تطلّب منهم ، وهم شركائه في فرعنته وصرح سُلطته ، وأصحاب المصلحة في بقاء كيانه « قالو ارجه وأخاه » إمهالاً إلى أجل دون عَجَل ، فإن هامة أمره الإمر تقتضي تروّياً ومحاولة جماعية : « وابعث في المدائن » المصرية أم وسواها « حاشرين » : جامعين « يأتوك بكل سحار عليم » دون سقاطهم ، بل اصطفاءً للرعيل الأعلى منهم لإقامة تلك المباراة الساحرة القاضية على هذا السحر العظيم .

لقد كان يعلم فرعون أن له ساحرين ، ولكنه اختلط عقله ، مغلوباً عليه من دهشة الموقف القاهر، ام لم يكن يرى فائدة وعائدة من جمع السحرة لمعالجة الموقف فاستأمر حاشيته فرأوا رأيهم هذا تأجيلاً للفضيحة ، وتغطية عاجلة على الموقف الحاسم .

﴿ فَجُمِعَ السَّحَرَةُ لِمِيقَاتِ يَوْمٍ مَعْلُومٍ ﴾(٣٨) .

وهو « يوم الزينة وان يُحشر النّاس ضحىً » (٢٠ : ٥٩) كما قرره موسى بما تطلب منه فرعون : « فاجعل بيننا وبينك موعداً لا نخلفه نحن ولا أنت مكاناً سُوى »(٥٨) .

﴿ وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلْ أَنْتُمْ مُجْتَمِعُونَ(٣٩) لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ السَّحَرَةَ إِنْ كَانُوا هُمُ الْغَالِبِينَ ﴾(٤٠) .

هنا استعطاف ماكرٌ للناس حيث لا يؤمرون ، وانما يُستأمرون : « هل

أنتم مجتمعون » وطبعاً « لميقات يوم معلوم » تلحيقاً بما فيه هياج الجماهير، وتحميسهم « لعلنا نتبع السحرة » وهي الغاية المقصودة من ذلك الاجتماع الحاشر « إن كانوا هم الغالبين » و « هم » هنا تؤكد جانب الإثبات في هذه الشرطية المشكِّكة ، وهكذا تُستحث الجماهير المستخفَّة المطاوعة المجيبة لكل ناعق دون تفطُّن للغاية الماكرة ، وان الطغاة يَعبثون بها ويلهون ، ويشغلونها بهذه المباريات ليلهوها عما تعنيها وتعانيها من كَبْت دائب ، واحتناك لهم خائب ، دونما حَنكة وتعقل ، سيِّقةً لكل سائق ، سامعة لكل ناعق .

﴿ فَلَمَّا جَاءَ السَّحَرَةُ قَالُوا لِفِرْعَوْنَ أَئِنَّ لَنَا لَأَجْراً إِنْ كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ(٤١) قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ إِذاً لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ ﴾(٤٢) .

هذه قولتهم لأنهم ـ بالفعل ـ عملاءُ قضيةَ ضغطِ الموقف ، يستزيدون أجراً على رواتبهم « إن كنا نحن الغالبين » والجواب بطبيعة الحال « نعم وإنكم إذاً لمن المقربين » من الحاشية الملكية المتفوقة على سائر الموظفين ، وهذه هي البغية الفرعونية الباغية الغادرة ، فلذلك لا يبخل عن سؤل السحرة ، بل ويزيدهم اجراً معنوياً على مادية المسؤول ، وإلى مشهد المبارات المعاكسة للمُرام ، المضادة للمَرام ! :

﴿ قَالَ لَهُمْ مُوسَى أَلْقُوا مَا أَنْتُمْ مُلْقُونَ(٤٣) فَأَلْقَوْا حِبَالَهُمْ وَعِصِيَّهُمْ وَقَالُوا بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ الْغَالِبُونَ ﴾(٤٤) .

تقدُّم الإقتراح من موسى (ع) تهدّدٌ لهم هارع وتحدٍّ بارع ، و « القوا ما انتم ملقون » يستحث كامل قوّاتهم ، ويستحصل كل قدراتهم في هذه المباراة الحاسمة الجماهيرية ، مستصغراً جموعهم المحتشدة ومعهم القوات الهائلة الفرعونية وأمل الأجل والزلفى ، ومعه ربه سبحانه وتعالى واجره والزلفى وهكذا يجب على كل داعية حق ان يستقدم ما عند داعية الباطل ليقضي

عليها من فورها ، ولو أن موسى ألقى قبلهم كان قد ألغى الموقف الجامع حيث يفر الجماهير من ثعبانه فلا يبقى مجال للمبارات ، وقد يؤوّل ما ألقاه انه سحر أعظم ، فلما ألقوا ألغى ما ألقوه بما ألقى من فورهم فغلَب الحق وبطل ما كانوا يأفكون .

وليس في تطلّبه سحَرهم طلبُ الباطل ، إذ كان يقصد إبطاله بآيته الإلّهية ، وتطلُّب ظهور الباطل لإبطاله حق يساند الحق .

« فألقوا حبالهم وعصيُّهم » فلما رأوها تتحرك بكيدهم ، محلّقة الموقف بكل رُعب وإعجاب ، مما لم يسبق لهم مثيله بهذه الصورة الجماعية الهائلة ، اشتبه عليهم امرهم واطمأنوا إلى غايتهم المنشودة كأنما هي الآن حاصلة « وقالوا بعزة فرعون انا لنحن الغالبون » فان جمع العِصي والحبال لا بد وأن تتغلب في سحرها على سحر اليد والعصى الواحدة ، تقديراً ظاهراً وهم عن الحق هم غافلون .

﴿ فَأَلْقَى مُوسَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ﴾(٤٥) .

فاللقْف هو الأكل السريع ، الحاذق الخارق ، فقد أكلت الثعبان المبين كلَّ ما يأفكون دونما رَجْعٍ أو رجيع ، مما يؤكد أنها آية إلّهية بعيدة عن السحر ، حيث السحر تخُيُّلٌ وذلك واقع لا مردَّ له ، وغَلَبُ سحر على سحر ليس إلا غَلَبَ خيال على خيال دونما واقعية مشهودة ! ومهما تشكك في واقعه مرتابون ، فليس ليتشكك فيه مهرة الفن : السحرة ، فموقفهم سلبياً أو ايجابياً موقف حاسم لا ينكر له إلا لمن ينكر عقله وحسَّه .

وإنها مفاجئة مُذهلة غير متوقعة للسحرَة ، عصى تنقلب حية تسعى وثعباناً مبيناً ، هي لوحدتها تلقف ما يأفكون ، دون ان تبقي لها على أثر .

﴿ فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ(٤٦) قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ(٤٧) رَبِّ مُوسَى

وَهَارُونَ ﴾(٤٨) .

وترى مَن ألقاهم ساجدين سواهم أنفسهم ؟ إنه هيبة الموقف ، فخلافاً لما كانوا يأملون أدهشتهم الآية البارعة فلم يتمالكوا أنفسهم إلاّ تساقطاً على الأرض سجَّداً ، حيث الحق قد لمس عواطفهم ومس شغاف قلوبهم ، هزة مفاجئة أزالت عنهم ركامات الضلالة في لحظات قصار وهم كانوا قبلها هارعين إلى البغية الملكية الطاغية ، فتحولوا ـ إذاً ـ بكامل كيانهم الى « ساجدين » ونطقت السنتهم كلمة الحق التي كانوا لها ناكرين « قالوا » قالاً وحالاً وفعالاً « آمنا برب العالمين » لا فحسب الايمان بالله الواحد ، بل وبرسالته ايضاً المتمثلة في موسى وهارون « رب موسى وهارون » تاركين أية ربوبية سواها .

هنا التآمر الحاشد من الحاشية ، الناتج عن تلك المباراة الحاشدة ، مع كافة الصعوبات التي كلفتها حتى ألفتها ، اصبح ذلك التآمر هشيماً تذروه الرياح وكان الله على كل شيء مقتدراً ، فتلجلج فرعون وملأه وتبلج موسى وملأه ، وآمن السحرة ، لحد اصبح بطن الأرض اريح لفرعون من ظهرها ، حيث استأصلت كل محاولاته ومكيداته ، فلم تبق له باقية إلاّ باغية أخيرة هي شيمة كل باغية :

﴿ قَالَ آمَنتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلَافٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ ﴾(٤٩) .

وكأنَّ الايمان ـ أيضاً ـ كساير الأمور المسيّرة الميسرة بالإذن ـ بحاجة إلى اذن ، خلطاً لعمل القلب بعمل القالب ، ولأن ذلك البليد الطاغي يدعي السلطة المطلقة على شعبه ، فلتكن قلوبهم ـ أيضاً ـ بيده .

وهنا « آمنتم له » دون « به » نكاية بايمانهم انه ليس اسلاماً عن قلب ، بل هو استسلام لسحر أعلى أمام ساحر عليم ايماناً لصالحه ، تحويلاً للآية إلى سحرٍ ما وجد اليه سبيلاً .

إنه لا يشعر قلبه ما استشعره هؤلاء من الحق ، وهم احرى ممن سواهم في تمييز الآية من السحر ، ومتى كانت للطغات قلوب يفقهون بها حتى يلمسوا هذه اللمسات الحية الوضائة .

هنا الطاغية يثنّي تهمة الإستسلام بأخرى يتهدم بها - في زعمه - صرحُ السحر من هؤلاء السحرة ، وأنه تآمر على السلطة الفرعونية:« إنه لكبيركم الذي علمكم السحر » ومتى كان بينهم حتى يعلّمهم ، ومتى سبق له سحر حتى يعَلّمه فيعلّمه ، ومهما يكن من أمر يكون له مأخذاً في هذه التهمة ، فهو ان بعض هؤلاء - وهم من الكهنة - كانوا يتولون تربية موسى حين كان وليداً في قصره ، ولكنه يعاكس تهمته الى ضدها ، إنه (ع) تعلم من هؤلاء ، فبدلاً من قوله « انه لتلميذكم .. » قال « إنه لكبيركم .. » ليزيد الأمر ضخامة في أعين الجماهير وفخامة في قلوبهم .

ولكن هذه الثانية كما الأولى لا تجد مجالاً من القبول ، فالسحرة فالتة ، والحشد متنزِّل أو مُتحول ، فالى ثالث ثلاثة هي التهديد بالصلب القاسي الذي كان يجري بحق أعصى العصات وابغى البغاة :

« فلسوف تعلمون » ماذا أفعل بكم ايها الخونة المتمردون ! « لأقطعن ايديكم وارجلكم من خلاف ولأصلبنكم اجمعين » والسلطة قاهرة والطاغية قادرة ، فلو كان اسلامهم استسلاماً لكانوا يستسلمون للسلطة الفرعونية ، إذ لم تكن لموسى سلطة زمنية ، اللهم إلا آية إلهية ، ولكنهم أثبتوا دون أية ريبة أن ايمانهم واقع دون مماراة ، لا مرد له ولا تحويل .

﴿ قَالُوا لَا ضَيْرَ إِنَّا إِلَى رَبِّنَا مُنْقَلِبُونَ(٥٠) إِنَّا نَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَايَانَا أَنْ كُنَّا أَوَّلَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾(٥١) .

« قالوا » بأجمعهم « لا ضير » لنا فيما تُهَدِّدنا إذ « إنا إلى ربنا منقلبون » انقلاباً تاماً لنا ، طاماً لكياننا ، فلا مجال لك فينا ، ولا رجعة لنا إلى ما كنا :

﴿ قالوا لن نؤثر على ما جاءنا من البينات والذي فطرنا فاقض ما انت قاض إنما تقضي هذه الحياة الدنيا . إنا آمنا بربنا ليغفر لنا خطايانا وما اكرهتنا عليه من السحر والله خير وابقى . إنه من يأت ربه مجرماً فان له جهنم لا يموت فيها ولا يحيى ﴾ (٢٠ : ٧٢ - ٧٤) ﴿ وما تنقم منا إلا أن آمنا بآيات ربنا لمّا جاءتنا ربنا أفرغ علينا صبراً وتوفنا مسلمين ﴾ (٧ : ١٢٦) .

اجل « لا ضير » في تقطيع الأيدي والأرجل من خلاف ، ولا في تصليبنا أجمعين « إنا إلى ربنا منقلبون » عن حياة هذه الأدنى ، فلا مطمع لنا إذاً ولا مطمح إلاّ « ان يغفر لنا ربنا خطايانا » طول حياة التكليف حتى الآن ، « يغفر لنا » لـ« أن كنا أوّل المؤمنين » حيث سبقنا في هذه المباراة غيرنا في الايمان ، بل وسبقنا المؤمنين في صمود الايمان .

فيا لله ، يا لروعة الايمان وضوءته إذ تشرق في الضمائر الحية ، وتفيض على القلوب المستعدة فتسكب الطمأنينة في نفوس نفيسة في أعماقها ، مهما كانت بخيسة خسيسة في أوحاقها لفترة - مهما كانت طويلة - من أوقاتها ، فترتفع بسلالة من طين إلى اعلى عليين .

فلما تصل النفوس إلى هذه القمة المرموقة يوحى إلى الرسول«ان أسر بعبادي . . » .

وهنا يسدل الستار على موقف السحرة المهددون به إلى فرار موسى ومن معه إلى جانب البحر :

﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ ﴾(٥٢) .

أترى فرعون طبّق على السحرة المؤمنين ما أوعدهم ؟ لا إشارة له ! ولو كان لبان كحدث هائل في تاريخ الرسالات ، قتلاً وصلباً جماهيرياً لحشد كبير من السحرة ! والجوّ آنذاك ما كان يسمح أو يفسح مجالاً لهذه القتلة الهائلة ، فإن غَلَبَ الحق في تلك المباراة أوقَعَ على فرعون وملاه أثقل الوقعات ، فكيف يجرىء على هذه العملية الفاتكة بحق الكبراء من قومه الخصوص ، وقبل أن يلاحق موسى ومن معه ؟! وطبيعة النقم على الفرعونية الجبابرة تقتضي التصريح بهذه القتلة لو حصلت ، تأكيداً لايمان مَن آمن مِن قومه ، وتبديداً للفعلة الفرعونية الطاغية ! .

قد تلمح « ان اسر بعبادي » انهم هم السحرة المؤمنون حيث حققوا حق العبودية لله ، ام ـ ولا اقل تقدير ـ انهم منهم ، فـ« عبادي » هم بنوا اسرائيل والسحرة المؤمنون بل وجموع آخرون ممن دخلوا في زمرتهم في الردح الفاصل من الزمن بين المباراة والإسراء إلى جانب اليم ، فلم يكن موسى الرسول وأخوه بمن معهما من المؤمنين سكوتاً لا ينطقون فلا يدعون إلى الله طول هذه المدة وهم على بينة قاضية شاهرة بين الجماهير ! .

فقد كان الايمان لموسى مثلثة الزوايا ، السحرة بطبيعة الحال ، وجماعة آخرون من القبط ، وجماعة من بني اسرائيل،قد يشملهم كلهم آية يونس التالية للمباراة « فما آمن لموسى إلا ذرية من قومه على تخوف من فرعون وملأهم ان يفتنهم وان فرعون لعال في الأرض وانه لمن المسرفين »(١) .

---

(١) نور الثقلين ٤ : ٥٣ فحبس فرعون من آمن بموسى (ع) في السجن حتى أنزل الله عز وجل عليهم الطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم فاطلق عنهم فاوحى الله عز وجل إلى موسى « ان أسر بعبادي انكم متبعون » .

أترى « من قومه » تعني ـ فقط ـ قوم موسى الإسرائيليين ؟ وقد آمن له السحرة افضل ايمان في هذه المبارات ، وهم افضل ممن سواهم ايماناً إلّا قليلاً من بني اسرائيل المخلِصين !

أم هم قوم فرعون من السحرة ومن تابعهم ؟ وبُعد الضمير يبعده ! وقد آمن مع موسى جم غفير من قومه مهما آمن له معهم آخرون !

أم هم القومان وضمير الغائب هنا له مرجعان ، فقد آمن لموسى ذرية من قوم فرعون هم السحرة ومن تابعهم ، وذرية من قومه نفسه « على خوف من فرعون » كأصل المخافة و « ملإهم » القبط المترفين ، والاسرائيليين العملاء لهم حفاظاً على مكانتهم في عمالتهم الخاوية ،وهكذا يكون دوماً فرقة الايمان ، انهم هم المستضعفون الذين لا يُحسبون بشيء أمام الطغاة والكبراء ، المتزذّلون في حسبانهم « أنؤمن لك واتبعك الأرذلون » (٢٦ : ١١١) ! ومن هنا يعبِّر عن المؤمنين له بقومه مهما كانوا قبطاً ، حيث الايمان الموحِّد يزيل الفوارق القومية : « وأوحينا إلى موسى واخيه ان تبوءا لقومكما بمصر بيوتاً واجعلوا بيوتكم قبلة . . . »[(٨٧)] .

وقد تعم بنو اسرائيل في هذا المجال غيرهم من المؤمنين ، ام انه تعبير عن الكل باسم الجل تغليباً « وجاوزنا ببني اسرائيل البحر . . »[(٩٠)] .

وعلى اية حال يؤمر موسى بعد نجاحه في المبارات ان يفر بقومه سرياً « انكم متبعون » اتراهم لم يكونوا متَّبَعين طول هذه المدة إلّا لمّا أوحي إلى موسى ؟ اجل ولكنه اين إتّباع من إتّباع ، فهم كانوا متّبَعين ملاحَقين وهم يتحملونه إذ كان محمولاً ، ولكنهم الآن متَّبَعون استئصالاً لهم عن بكرتهم .

﴿ فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ(٥٣) إِنَّ هَٰؤُلَاءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ(٥٤) وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَائِظُونَ(٥٥) وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَاذِرُونَ ﴾(٥٦) .

لقد أسرى موسى بعباد الله ليلاً نحو اليمّ بسرعة خارقة بارقة ، وسمع فرعون بهذه المكيدة النابغة « فارسل فرعون في المدائن » المصرية ككل « حاشرين » يجمعون الناس ليُسمعوهم تالية الدعايات ضد الرسالة الموسوية وأتباعها :

« إن هؤلاء » الشاردون « لشرذمة » : جماعة منقطعة عما يصلحها ، مطرودة عن مجتمعنا ، بقية بالية باقية من بني اسرائيل « قليلون » عِدة وعُدة . « وانهم » على قلتهم وعلتهم « لنا لغائظون » من سوء صنيعهم بين شعبنا ودعاياتهم المضللة فيهم .

« وإنا لجميع » مجتمعون ، في سلطتنا زمنياً وروحياً « حاذرون » عما يصطدمها روحياً وزمنياً « شاكون في السلاح »[١] ، لذلك فانا نتبعهم فنتبعهم فنقضي عليهم إزالة للفساد وإصلاحاً للبلاد .

ذلك كيد فرعون وملإه ليقضي قضاءً حاسماً على شرذمة قليلة مغيِّضة له ، ولكن الله يعكس امره ضده :

﴿ فَأَخْرَجْنَاهُم مِّن جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ(٥٧) وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ(٥٨) كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴾(٥٩) .

كيف وهم خرجوا متَّبِعين ، ينسب الله خروجهم إليه ؟ حيث قدَّر في خروجهم إخراجَهم ، وفي اتباعهم موسى ومن معه إحراجهم ، « كذلك » فعلنا بهم « وأورثناها بني اسرائيل » .

﴿ فَأَتْبَعُوهُم مُّشْرِقِينَ ﴾(٦٠) .

---

(١) تفسير البرهان ٣ : ١٨٣ تفسير القمي في رواية ابي الجارود عن ابي جعفر (ع) في قوله « لشرذمة قليلون وانا لجميع حاذرون » يقول : مؤداة في الأداة وهو الشاكي في السلاح .

اتبع الجمع الحاذرُ الغادرُ شرذمةً قليلةً « مشرقين » حالة الإشراق ، وطبعاً بسرعة اكثر منهم حتى يلحقوهم لحد الترائي ، والمعركة المصيرية بالغة الذروة والضراوة ، والمشهد قريب إلى النهاية ، فموسى ومن معه أمام اليم ليست معهم سفن وزوارق يجتازون بها ، وقد قاربهم فرعون بجيشه الجبار شاكوا السلاح ، مستعدين بكل قواتهم للقضاء عليهم ولم يبق هنا أمل للضفة المؤمنة إلاّ المعية الربانية وقد ادركتهم كما واهلكت الآخرين .

﴿ فَلَمَّا تَرَاءَ الْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَابُ مُوسَى إِنَّا لَمُدْرَكُونَ ﴾(٦١) .

إن هي إلاّ دقائق ونحن مدرَكون ، فقد بلغ الكربُ مداه ، هجمة الموت الهمجية الهائجة ولات حين مناص ، وفات يوم خلاص ، فإما خوضاً في اليم فغرقاً ، أم نظل هنا كما نحن فحرقاً ! والترائي هو التقارب والتداني لحدّ يصبح كلٌ بمرأى الآخر ، وإن لم ير بعضهم بعضاً بموانع كمُثار العجاج ، ورهج الطِّراد ، فالمراد هو تقارب الأشخاص ، لا ـ فقط ـ تلاحض الأحداق وكما يقال في حين متقاربين تتراءى نارهما .

﴿ قَالَ كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ ﴾(٦٢) .

كلا ! لا إدراك لو كان لكم إدراك ، ولا هلاك إلاّ لعدونا إن كنتم مؤمنين « كلا ان معي ربي » معية العلم والنصرة ، لا يفارقني عند المهالك ، ولا يتخلى عني في المعارك ، فلا يذلني أو يُضلني ، بل « سيهدين » بخارقة ربانية كما هداني في المبارات ، وفي كل ما هو آت ، إن ربي دعاني لهذه المسيرة فهو الذي يكلأني ويرعاني[1] ، وان لم ير بعضهم بعضاً بموانع كمُثار

---

(١) نور الثقلين ٤ : ٥٥ في مناقب ابن شهر آشوب ابراهيم بن ادهم وفتح الموصلي قال كل واحد منهما كنت أسيح في البادية مع القافلة فعرضت لي حاجة فتنحيت عن القافلة وإذا أنا بصبي يمشي فدنوت منه وسلمت عليه فردّ عليّ السلام فقلت له : إلى اين ؟

العجاج ، ورهج الطّراد ، فالمراد هو تقارب الأشخاص ، لا ـ فقط ـ تلاحض الأحداق وكما يقال في حين متقاربين تتراءى نارهما .

﴿ فَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنِ اضْرِب بِّعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ ﴾(٦٣) .

لقد هداه ربه بما أوحاه « أن اضرب بعصاك البحر » ويا لها من عصى تحمل آيات عظيمة ما اعظمها في مباريات بين موسى وفرعون « فانفلق » البحر فلقتين وفرقتين « فكان كل فرق كالطود العظيم » وانشق بين فرقي الماء طريقٌ يبس: « لا تخاف فيها دركاً ولا تخشى » (٢٠ :٧٧) « وجاوزنا ببني اسرائيل البحر . . » (١٠ : ٩٠) فالفرق هو الجزء المنفرق منه ، والطود هو الجبل الشاهق في السماء ، فقد اصبح البحر خندقاً فيه طريق يبس مستوٍ وطرفاه جبلان شاهقان من الماء ، ويا لها من آية باهرة قاهرة ، فانفلاق ماء البحر ككلٍّ آية ، والطودان بطرفي الطريق الممرِّ آية ، وبقاء البحر كحالته هذه حتى دخل فرعون بجنوده آية فـ« ان في ذلك لآية وما كان اكثرهم مؤمنين »(٦٧) ! .

إذاً فما هي حيلة فرعون ، هل يقف باهتاً ساخطاً يعض عليه الأنامل من الغيض ؟ وهو يراه أقدر من موسى ومَن معه وهم يعبرون الخِضِمَّ الملتطم!؛

قال : أريد بيت ربي ، فقلت : حبيبي انك صغير ليس عليك فرض ولا سنة ، فقال : يا شيخ ما رأيت من هو اصغر مني سناً مات ، فقلت : اين الزاد والراحلة ؟ فقال : زادي تقواي وراحلتي رجلاي وقصدي مولاي ، فقلت : ما أدري معك شيئاً من الطعام ؟ فقال : يا شيخ هل تستحسن ان يدعوك انسان إلى دعوة فتحمل من بيتك الطعام ؟ قلت : لا ـ قال : الذي دعاني إلى بيته هو يطعمني ويسقين » أقول والصبي كان علي بن الحسين (عليهما السلام) كما ذكر في اواسط هذا الكلام على طوله واختصر منه ما ذُكِر .

﴿ وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ الْآخَرِينَ(٦٤) وَأَنْجَيْنَا مُوسَى وَمَنْ مَعَهُ أَجْمَعِينَ(٦٥) ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآخَرِينَ ﴾٦٦

« وجاوزنا ببني اسرائيل البحر فأتبعهم فرعون وجنوده بغياً وعدواً حتى كانها جادة جادّة لهم إلى المقصود ، طريق مكشوف يعبرونها ، وها هم واصلون إلى جانب البحر ، فليغمر الغيض بغمر الغيض ليفعل فعلته التي يروم ، ولكن :

«إذا أدركه الغرق قال ءامنت انه لا إله إلا الذي آمنت به بنو اسرائيل وأنا من المسلمين٩٠ ءآلْئنَ وقد عصيت قبل وكنت من المفسدين٩١ فاليوم ننجيك ببدنك لتكون لمن خلفك آية وان كثيراً من الناس عن آياتنا لغافلون » (١٠ : ٩٢) .

الإزلاف هو التقريب ، والآخرين هم فرعون ومن معه اجمعين ، فقد قرّب الله فرعون والذين معه إلى بحر الهلاك ، وأنجى موسى ومن معه من البحر الهلاك والبحر هو البحر والماء هو الماء ! « ثم اغرقنا الآخرين » لما دخلوا البحر ، عن آخرهم ، وبطبيعة الحال لم يغرقوا إلاّ حين طَمَّ البحر أوّلهم وآخرهم ،وقد تعني « أزلفنا » إزلاف بعضهم إلى بعض ككومة واحدة ، وإزلافهم إلى موسى ومن معه ، إلى ازلافهم الى البحر فازلافهم في خِضَمِّه هالكين .

---

(١) نور الثقلين ٤ : ٥٣ في الخرائج والجرائح ان علياً (ع) قال : لما خرجنا إلى خيبر فإذا نحن بواد ملآن ماءً فقدرناه فإذا هو اربعة عشر قامة فقال الناس يا رسول الله (ص) العدو من ورائنا والوادي أمامنا فكان كما « قال اصحاب موسى إنا لمدركون » فنزل (ص) ثم قال : اللهم إنك جعلت لكل مرسل علامة فأرنا قدرتك ثم ركب وعبرت الخيل والأبل لا تندى حوافرها ولا اخفافها .

وقد ينسب الله إزلافهم إلى نفسه المقدسة لأنه هو الذي كادهم بما جعل في البحر طريقاً يبساً فطمع فرعون وجنوده لاجتيازه ، ثم رجّعه إلى حالته الأولى فغرقوا اجمعين ، فهم لم يكونوا يقدمون على غرقهم بذات أيديهم دون ريب ، لولا هذه المكيدة الربانية .

﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ (٦٧) وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴾(٦٨) .

« إن في ذلك » الذي حصل في تلكم المباريات من آيات « لآية » وعلامة قاطعة قاصعة لمن يحنُّ إلى ايمان «و» لكن « ما كان اكثرهم مؤمنين » و« هم » هنا قدر اليقين هم فرعون وملاؤه ، ومعهم بنو اسرائيل ، فقد آمن من الأولين السحرة وقليل سواهم ، كما آمن من الآخرين قليل ، وقد يبرهن لهذه القلة الزهيدة الثانية « وجاوزنا ببني اسرائيل البحر فأتوا على قوم يعكفون على اصنام لهم قالوا يا موسى اجعل لنا إلهاً كما لهم آلهة قال انكم قوم تجهلون » (١٠ : ١٣٨) .

مركز تحقيقات كامپيوتري علوم اسلامي

ثم وفي واجهة عامة عدم الايمان من الأكثرية الساحقة أو المطلقة كان ضابطة في الطول التاريخي والعرض الجغرافي ، اللهم إلّا زمن الدولة الحقة العالمية للقائم المظفر المهدي (عليه السلام) . « وان ربك لهو العزيز » لا يُغلب مهما تغلّب الكافرون وتقلبوا في البلاد « الرحيم » بعباده المؤمنين كواقع ، ويكل عباده في حقل الدعوة الجماهيرية « فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر » .

وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَاهِيمَ (٦٩) إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا تَعْبُدُونَ (٧٠) قَالُوا نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا

عَٰكِفِينَ ﴿٧١﴾ قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ ﴿٧٢﴾
أَوْ يَنفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ ﴿٧٣﴾ قَالُوا۟ بَلْ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا
كَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ ﴿٧٤﴾ قَالَ أَفَرَءَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٧٥﴾
أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمُ ٱلْأَقْدَمُونَ ﴿٧٦﴾ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّىٓ إِلَّا رَبَّ
ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧٧﴾ ٱلَّذِى خَلَقَنِى فَهُوَ يَهْدِينِ ﴿٧٨﴾ وَٱلَّذِى هُوَ
يُطْعِمُنِى وَيَسْقِينِ ﴿٧٩﴾ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴿٨٠﴾
وَٱلَّذِى يُمِيتُنِى ثُمَّ يُحْيِينِ ﴿٨١﴾ وَٱلَّذِىٓ أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِى
خَطِيٓـَٔتِى يَوْمَ ٱلدِّينِ ﴿٨٢﴾ رَبِّ هَبْ لِى حُكْمًا وَأَلْحِقْنِى
بِٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٣﴾ وَٱجْعَل لِّى لِسَانَ صِدْقٍ فِى ٱلْءَاخِرِينَ ﴿٨٤﴾
وَٱجْعَلْنِى مِن وَرَثَةِ جَنَّةِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٨٥﴾ وَٱغْفِرْ لِأَبِىٓ إِنَّهُۥ
كَانَ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٨٦﴾ وَلَا تُخْزِنِى يَوْمَ يُبْعَثُونَ ﴿٨٧﴾
يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ
سَلِيمٍ ﴿٨٩﴾ وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٩٠﴾ وَبُرِّزَتِ
ٱلْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ ﴿٩١﴾ وَقِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٩٢﴾

مِن دُونِ ٱللَّهِ هَلْ يَنصُرُونَكُمْ أَوْ يَنتَصِرُونَ ﴿٩٣﴾ فَكُبْكِبُواْ
فِيهَا هُمْ وَٱلْغَاوُۥنَ ﴿٩٤﴾ وَجُنُودُ إِبْلِيسَ أَجْمَعُونَ ﴿٩٥﴾
قَالُواْ وَهُمْ فِيهَا يَخْتَصِمُونَ ﴿٩٦﴾ تَٱللَّهِ إِن كُنَّا لَفِي ضَلَٰلٍ
مُّبِينٍ ﴿٩٧﴾ إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٨﴾ وَمَآ أَضَلَّنَآ إِلَّا
ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٩٩﴾ فَمَا لَنَا مِن شَٰفِعِينَ ﴿١٠٠﴾ وَلَا صَدِيقٍ
حَمِيمٍ ﴿١٠١﴾ فَلَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٢﴾
إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَءَايَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾
وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٠٤﴾

﴿ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَٰهِيمَ ﴾(٦٩) .

خبراً ذا فائدة عظيمة لقبيل الايمان من ابراهيم ، فانه عاش منذ طفولته جو الشرك ، وبدل أن يتأثر ـ كما هو طبيعة الحال ـ أثر أثراً عميقاً وأرجف صرح الشرك بوحدته رغم جمعه .

﴿ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا تَعْبُدُونَ ﴾(٧٠) .

تلك التلاوة المباركة على المشركين الزاعمين انهم ورثة ابراهيم على دينه القديم ، تنديدة شديدة بهم ، انه خالف أباه وقومه إلى الهدى ، وانتم تخالفون ابراهيم وشرعته إلى الردى ، فانتم إذاً خلْفٌ متخلفون فبماذا

تفتخرون ؟ .

فإلى حلقة الرسالة الإبراهيمية إلى قومه الألدّاء ، وحواره الصارم معهم في قوة الأداء ، وهنالك حلقات اخرى من صورة هذه الرسالة الوضاءة وسيرتها في البقرة والأنعام وهود وابراهيم والحجر ومريم والأنبياء والحج ، كلّ تناسب جو السورة بما تتطلبه الدعوة القرآنية . . وهنا اختصار دون احتصار لمحاجته اباه وقومه ولكلٍّ تفصيل في محالها من السور .

« إذ قال . . ما تعبدون » وهنا لـ« ما » دورها في تجهيلهم بعبادتهم غير العاقل ، ويتساءلهم عن ماهيتها لكي يركز حواره على جوابهم عنها ، وهذه طريقة حسنى في الحوار ان تتبنى ما عليه محاورك فتبني عليه محاورك سناداً إلى ما يعترف به .

﴿ قَالُوا نَعْبُدُ أَصْنَاماً فَنَظَلُّ لَهَا عَاكِفِينَ ﴾(٧١) .

« أصناماً » من مختلف المواد ننحتها « فنظل » دوماً أحيانَ العبادة « لها » دون سواها « عاكفين » عكوف العبادة وعبادة العكوف ممن يُسمَّون أناسي أحياءً لجثث غير ذوات الأر واح .

وفي « نظل » غير الداخلة في صميم الجواب اظهار لصميم عبادتهم لها بكل ابتهاج تثبتاً للجواب .

﴿ قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ(٧٢) أَوْ يَنْفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ ﴾(٧٣) .

فسَمعُ السؤال عن سؤْل ، ثم نفع منهم لكم أو ضرّ ، هذا هو أقل ما يتوفر لإِله يُعبد ، فان كانت صماء لا تسمع كما هي ، فهل تملك نفعاً أو ضراً دون ان تسمع لحاجة ، فإذا «لا» كما هيه فعبادتها - إذاً - لاغية ! حيث العبادة تعني حرمة المعبود وحاجة إليه طلبَ نفع أو دفع ضر ، وهذه العبادة خاوية

عن كل معانيها ومغازيها .

هنا يخرس قومه وابوه عن إجابةٍ قاصدة عاقلة إلى ما تعوَّدوه من قولة لاغية :

﴿ قَالُوا بَلْ وَجَدْنَا آبَاءَنَا كَذَلِكَ يَفْعَلُونَ ﴾(٧٤) .

لا حجة لنا فيها نعبد إلا تقاليد الآباء ، ولكن : ألم يكن الموحدون من انبياء وسواهم من آبائهم ، فهم تاركوهم ، ثم هم على آثار المشركين منهم يهرعون ، ثم السؤال ينتقل إلى آباءهم المشركين ، وليس الجواب إلاّ نفس الجواب « بل وجدنا آباءنا كذلك يفعلون » فليصل إلى الأب الأول أول الموحدين ، فلماذا تركتموه على ابوته الأولى ، إلى المتخلفين من ولده المشركين ، ترجيحاً للمفضول على الفاضل ؟

﴿ قَالَ أَفَرَأَيْتُمْ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ(٧٥) أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمُ الْأَقْدَمُونَ(٧٦) فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِي إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ ﴾(٧٧)

فقد عبد شطر من آباءكم الأولين رب العالمين ، وعبد آخرون سواه ، « افرأيتم » نظراً إلى كيان المعبودين إلهاً وسواه ؟ « فانهم عدوٌ لي » جميعاً « إلا ربّ العالمين » عداءً للفطرة التي فطر الله الناس عليها ، وللعقلية الانسانية وما دونها ، ولأية مرحلة دانية من الادراك ، فانهم كلهم بمعبوديهم من المربوبين لرب العالمين .

فالاستثناء - إذاً - متصل ، حيث الأباء الأولون لم يكونوا جميعاً من المشركين ، وفي ذلك الانضمام تأشير عشير أن آباءكم الأقدمين لم يكونوا كلهم مشركين ، ثم « فانهم عدوٌ لي » جمع بين العابدين والمعبودين ، الجُدد والأقدمين ، إشارة إلى أن القدمة بمجردها ليست دليل القبول ، فليخلط القديم والجديد ، وليُقبل منها القابل للتصديق .

ثم وعباده الله بعابديه أقدم ممن سوى الله عابدين ومعبودين ، إن كانت القدمة دليلاً يتبع ، فالأب الأوّل - آدم (ع) - كان موحداً داعياً إلى التوحيد ، ثم الذين معه وبعده من الموحدين

وترى كيف تشمل « عدوٌ » الأصنام وهي لا تشعر كما اعترف به عابدوها ؟ علّها العداوة الآجلة يوم الدين حيث يُنطقها الله كما قال : « كلّا سيكفرون بعبادتهم ويكونون عليهم ضداً » (١٩ : ٨٢) .

أم والعاجلة حيث العداءُ ذاتية بين المعبود بغير حق والعابد العاقل مهما لم يشعره الصنم ، أم لأنه سبب الضلال فعدوّ وإن لم يشعر ، أم لأن في المعبود من دون الله عملاء كالطواغيت ؟ والجمع أجمل فانه اشمل .

وإنما افرد « عدوٌ » رغم جمع الأصنام ، حيث العداوة هنا واحدة وفي اتجاه واحد ، كما « هم العدوُّ فاحذرهم » (٦٣ : ٤) .

فانتم وصفتم اصنامكم بما وصفتم ، وارتكستم كما ارتكستم ، فتعالوا معي لتعرفوا « رب العالمين » الأقدم في كونه معبوداً ، والمالك لبراهين الألوهية الحقة :

﴿ الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ(٧٨) وَالَّذِي يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ(٧٩) وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ(٨٠) وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ(٨١) وَالَّذِي أَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ ﴾(٨٢) .

أبواب ثمان لمعرفته تعالى عدد ابواب الجنة ، لا يتركها إلّا كل ذي جِنَّة :

١ - « الذي خلقني » فهل الخالق اجدر بأن يُعبد أم المخلوق ؟ يقدم

خلقه نفسه لأنه اقرب آية واثمنها واتقنها دليلاً على خالقه (١)

٢ - « فهو يهدين » لا سواه ، حيث الهداية الكاملة الشاملة تقتضي كامل القدرة والعلم وشاملة لمن يهدي ، فقد انشأني من حيث يعلم وأنا لا أعلم ولا مَن سواي ممن أنشأه ، فهو العالم بسؤلي لا سواه ، والعارف بحالي ومآلي وكل مالي لا سواه « فهو » إذاً « يهدينِ » إلى ما خلقني لأجله ، وقد هداني فطرياً وعقلياً وحسياً إليه ، وأراني آياته في الآفاق وفي نفسي « أولم يكف بربك انه على كل شيء شهيد » ؟ هناك « خلقني » هو محور المعرفة ،

(١) الدر المنثور ٥ : ٨٩ - عن سمرة بن جندب قال : قال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) إذا توضأ العبد لصلاة مكتوبة فأسبغ الوضوء ثم خرج من باب داره يريد المسجد فقال حين يخرج : بسم الله الذي خلقني فهو يهدين هداه الله للصواب - ولفظ ابن مردويه - لصواب الأعمال « والذي يطعمني ويسقين » اطعمه الله من طعام الجنة وسقاه من شراب الجنة « وإذا مرضت فهو يشفين » شفاه الله وجعل مرضه كفارة لذنوبه « والذي يميتني ثم يحيين » احياه الله حياة السعداء وأماته ميتة الشهداء « والذي اطمع ان يغفر لي خطيئتي يوم الدين » غفر الله خطاياه كلها وإن كانت اكثر من زبد البحر « رب هب لي حكماً والحقني بالصالحين » وهب الله له حكماً والحقه بصالح من مضى وصالح من بقي « واجعل لي لسان صدق في الآخرين » كتب في ورقة بيضاء ان فلان بن فلان من الصادقين ثم وفقه الله بعد ذلك للصدق « واجعلني من ورثة جنة النعيم » جعل الله له القصور والمنازل في الجنة . وفي تفسير البرهان ٣ : ١٨٤ - ابن بابويه بسند متصل عن الصادق جعفر بن محمد (عليهما السلام) قال : سألته عن قول الله عز وجل : « وإذا وإذ بكى إبراهيم ربه بكلمات فاتمهن» وذكر الحديث فيها ابتلاه به ربه إلى أن قال: والتوكل بيان ذلك في قوله : الذي خلقني - إلى - يوم الدين - ثم الحكم والانتهاء إلى الصالحين في قوله : رب هب لي حكماً والحقني بالصالحين « يعني بالصالحين الذين لا يحكمون إلا بحكم الله عزّ وجلّ ولا يحكمون بالآراء والمقاييس حتى يشهد له من يكون بعده من الحجج بالصدق بيان ذلك « واجعل لي لسان صدق في الآخرين . . . » .

ثم « فهو يهدين . . » وما بعدها من التدبير تتمحور الخلق ، تفريعاً للتدبير على الخلق ، وان الخالق هو المدبر لما خلق لأنه الخالق ، وهما لزام بعض فطرياً وعقلياً وواقعياً ، وليس الفصل بين الخالق والمدبر ألاّ عضلاً للخالق عما خلق وهو به أعرف وعليه أقدر ، وإعطاء التدبير لغير الخالق وهو مخلوق كسائر المخلوق ، لا يسطع على تدبير نفسه فضلاً عن الآخرين .

و « يهدين » بصيغة المضارعة بعد خلقني الماضي ، اشارة إلى استمرارية الهداية في كل حلقاتها ما دام الكائن كائناً ، كما الهداية تعم كل شئونه بل وكل شيء وكما في جواب موسى لفرعون : « ربنا الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى » (٢٠ : ٥٠) .

٣ ـ « والذي هو يطعمني » كفالة حانية حامية عن جوعتي وهي سؤل الجسم ، فكيف لا يكفل سؤل الروح ، والهداية تشمل كل سؤل بسؤال ودون سؤال !

٤ ـ « ويسقين » فمادة الأطعام والسقي هي من خلقه ، ومعرفة الحصول عليها هي بهدايته .

٥ ـ « وإذا مرضت فهو يشفين » فالمرض مني لمكان « مرضت » والشفاء منه والدواء منه وعلم الأدواء والإدواء منه مهما كان هنالك أطباء ، فإنهم بعلومهم منه ، وقد يُمرض الله لما قدمت ايدينا ام لإصلاحنا فهو منا .

٦ ـ « والذي يميتني » كما خلقني ، فلا يميت إلا الخالق مهما كانت للموت ظاهرة الأسباب .

٧ ـ « ويحيين » ليوم الحساب ، يوم تتقطع الأسباب وتحار دونه الألباب .

٨ ـ « والذي اطمع ان يغفر لي خطيئتي يوم الدين » لا سواه ، إذ لا

غافر إلاّ إياه حيث المَعصي والمطاع ـ كإله ـ ليس إلاّ إياه .

وقد جمع ذلك التعريف العريف برب العالمين إلى ربوبيته المادية الربوبيةَ الروحية ، وإلى الهدى المادية الهدى المعنوية ، وإلى ربوبية العاجل ربوبيته في الآجل ، جمعاً بين المبدء والمعاد وما بين المبدء والمعاد ، وذلك هو « رب العالمين » ليوم الدنيا ويوم الدين ، أما انتم فـ« نعبد اصناماً فنظل لها عاكفين » دون ان تحمل أياً من هذه المواصفات الثمان التي هي لزام الربوبية والمعبودية ! فأنى تؤفكون ؟ أإفكاً آلهة دون الله تريدون ؟ .

ولماذا بالنسبة لغفر الخطيئة « أطمع » دون قطع رغم وعده تعالى للمؤمنين ، دون سائر ما ذكر من قبل ؟ لأنها كلها مقطوعة غير ممنوعة حسب سنة التكوين ، ولكن الغفر يوم الدين ليس سنة قاطعة فـ« إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء » (٤ : ٤٨).وهل ان ابراهيم كان مخطئاً وهو نبي حتى يطمع غَفْرَه يوم الدين ؟ .

إنه يقوله قبل حكمه الرسالي الذي يتطلب العصمة المطلقة « رب هب لي حُكماً » فلعل له خطيئة قبل عصمة الرسالة ! أم إنه تطامن وتذلل أمام الرب قصوراً عما يناسب ساحته تعالى ، وعلّ منه طلب الغفر لأبيه وهو قبل حكمه الرسالي .

ثم هذا لسان حال المقربين وقالهم تذليلاً لساحتهم وتبجيلاً لساحة رب العالمين فـ« حسنات الأبرار سيئات المقربين » ثم وتعليماً للمخطئين كيف يجب عليهم ان يستغفروا الله .

وما هو دور « لي » في « يغفر لي خطيئتي » ؟ علّه سلبٌ لوسيط الشافع فانه غفرٌ للشافع كوسيط ، وكذلك سلبٌ لانتفاعه تعالى بغفره ، وانما « لي » .

ولماذا « يوم الدين » وظرف الغفر الصالح هو يوم الدنيا ؟ علّه لأن الغفر يوم الدين هو المهم في غفر الخطايا ، والبرزخ ليس محل الغفر ، والغفر يوم الدنيا قد تلحقه خطيئة اخرى ، ولكن الغفر يوم الدين هو الكاسح الماسح غبار الخطيئة بأسرها .

هنا يسأل الخليل بجدارةٍ ربّه الجليل زاداً لراحلة الدعوة الرسالية ، عاجلاً وآجلاً إذ نجح في ذلك الاختيار :

﴿ رَبِّ هَبْ لِي حُكْماً وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ ﴾(٨٣) .

وذلك حكم رسالي خاص يطلبه بعد الرحمة العامة ، فهناك « رب العالمين » في مواصفات تُدرُّ رحماتها على العالمين ، وهنا « رب » نظراً إلى الربوبية الخاصة لأصحاب الحكم من الله . فيستوهب ـ إذاً ـ « حكماً » ما لم يكن له لحدّ الآن ، وليتزود به في دعوته الصارمة أمام الدعايات الضالة العارمة .

وقد يجمع الحكم المستوهب هنا تحكيم الأحكام الفطرية والعقلية والعملية ، إلى الحكم والحكمة الرسالية ،.حيث الحكم أعم من الرسالة ، وإطلاقه هنا يعمها وسواها من حكم يستحكم عرى الدعوة الإبراهيمية الشاملة ، ولحد الإمامة بين المرسلين نِسبياً .

وقد يعني « ألحقني بالصالحين » اضافة إلى يوم الدين ، لحوقه بهم يوم الدنيا ، ان يكون من زمرتهم وهم الرعيل الأعلى من المقربين ، نوح وموسى والمسيح وخاتم النبيين صلوات الله عليهم اجمعين .

وقد يعني من « هب لي حكماً » كمال القوة النظرية المستكملة بقوة الوحي ، ومن « ألحقني بالصالحين » كمال القوة العملية وكما بالنسبة لمن جعلهم الله أئمة وهو منهم « وجعلناهم أئمة يهدون بأمرنا وأوحينا إليهم فعل

الخيرات . . » (٢١ : ٧٣) .

﴿ وَاجْعَلْ لِي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الآخِرِينَ ﴾(٨٤) .

وقد استجاب له دعواته ، فالأخيرة نجدها في مريم « فلما اعتزلهم وما يعبدون من دون الله وهبنا له اسحاق ويعقوب وكلاً جعلنا نبياً(٤٩) . ووهبنا لهم من رحمتنا وجعلنا لهم لسان صدقٍ علياً »(٥٠) .

« لسان صدق » هنا هو لسان صادق مصدَّق مصدِّق حالاً وقالاً وأفعالاً ، و« الآخرين » هم حملة الرسالة الأخيرة ، محمد (ص) كراس الزاوية ، وسائر الأئمة من ولده كسائرها[1] وقد تعني ما تعنيه آية الصافات،كمريم « وتركنا عليه في الآخرين » (١٠٨) والزخرف : « وجعلها كلمة باقية في عقبه لعلهم يرجعون » (٢٨) وطبعاً كبعض المصاديق الصالحة[2] ودعاءٌ من ابراهيم تستمر طيلة حياته المنيرة وحتى بناء البيت وهو في أخريات عمره : « ربنا واجعلنا مسلمين لك ومن ذريتنا أمة مسلمة

---

(١) راجع تفسير الآية في سورتها وفي تفسير البرهان ٣ : ١٨٤ تتمة الحديث السابق عن الصادق (عليه السلام) « . . بيان ذلك في قوله « واجعل لي لسان صدق في الآخرين » أراد في هذه الأمة الفاضلة فأجابه الله وجعل له ولغيره من الأنبياء « لسان صدق في الآخرين » وهو علي بن أبي طالب (عليه السلام) وذلك قوله : « وجعلنا لهم لسان صدقاً علياً » . . . » .

وفي ملحقات أحقاق الحق ٣ : ٣٨٠ في الآية « هو علي (عليه السلام) عرضت ولايته على ابراهيم (عليه السلام) فقال : اللهم اجعله من ذريتي ففعل الله ذلك » أورده عدة من اعلام القوم منهم الحافظ أبو بكر ابن مردويه في كتاب المناقب كما في كشف الغمة ٩٤ روى عن ابي عبد الله (عليه السلام) قال : . . . ومنهم المير محمد صالح الكشفي الترمذي في مناقب مرتضوي ٥٥ نقلاً عن ابن مردويه عن الباقر (عليه السلام) .

(٢) راجع تفسير آية الزخرف للحصول على تفصيل المعنى .

لك . . ربنا وابعث فيهم رسولاً منهم . . » (٢ : ١٢٩) .

وقد يلمح « لسان صدق في الآخرين » أن من الأولين ومَن بعدهم كاذبين بحقه ، كما اليهود والنصارى ينسبون إليه ما هم يعتقدون من ضلالات في حقل المعرفة والعمل ، وأما محمد (ص) فهو لسان صدق له في الآخرين ، استمراريةٌ لدعوته الرسالية ، وإفصاحاً بكيان ابراهيم كأفضل الموحدين .

﴿ وَاجْعَلْنِي مِنْ وَرَثَةِ جَنَّةِ النَّعِيمِ ﴾(٨٥) .

وهم « من كان تقياً » : « تلك الجنة التي نورث من عبادنا من كان تقياً » (١٩ : ٦٣) و (٣٩ : ٧٤)

والمؤمنون حقاً : « الذين هم في صلاتهم خاشعون . والذين هم عن اللغو معرضون . والذين هم للزكاة فاعلون . والذين هم لفروجهم حافظون . إلا . والذين هم لأماناتهم وعهدهم راعون . والذين هم على صلواتهم يحافظون . اولئك هم الوارثون . الذين يرثون الفردوس هم فيها خالدون » (٢٣ : ٢ - ١١) والعاملون الصالحات بإيمانهم : « . . وقالوا الحمد لله الذي هدانا لهذا . . ونودوا ان تلكم الجنة أورثتموها بما كنتم تعملون » (٧ : ٤٣) و (٤٣ : ٧٢) .

وهل هي ميراث عن الله « ولله ميراث السماوات والأرض » (٣ : ١٨٠) يرث ولا يُورث ! أم ميراث عن صالحين ؟ وهم انفسهم من ورثة جنة النعيم !

إنها ميراث لهم عمن ليسوا بداخليها حيث طغوا وما اتقوا ، وابراهيم يستدعي بعدما دعى أن يصبح من أهل الجنة ، وطبعاً من أئمتهم وكما كان يوم الدنيا .

ويا للتواضع والإشفاق من التقصير ، ويا للخوف من تقلب المصير ،

ان مثل الخليل يطلب من الجليل ان يجعله من أهل الجنة ، على علو محتده !

﴿ وَاغْفِرْ لِأَبِي إِنَّهُ كَانَ مِنَ الضَّالِّينَ ﴾[٨٦] .

وقد يكون ذلك التطلُّب من خطيآته ، غير المحرمة في شرعة الله ، حيث لم يصب فيها واقع الأمر كما استدركه له ربه « وما كان استغفار ابراهيم لأبيه إلاّ عن موعدة وعدها اياه فلما تبين له أنه عدوٌ لله تبرّءَ منه » (٩ : ١١٤) واستثني من الأسوة به ذلك الخطإ ، غير القاصد « لقد كانت لكم اسوة حسنة في ابراهيم . . إلاّ قول إبراهيم لأبيه لاستغفرن لك . . » (٦٠ : ٤) .

وعلَّ الموعدة هي المفهومة من قول أبيه « واهجرني ملياً » كما شرحناه في مريم ، وذلك الإستغفار كان في بداية عمره ومفتتح أمره قبل حكمه الموهوب ، ثم لم نسمعه يدعو في خاتمة أمره وعمره إلاّ : « ربنا اغفر لي ولوالدي » (١٤ : ٤١) دون ابوي ، وقد تبرء من ابيه منذ دحر طويل ، فوالده ـ إذاً ـ غير ابيه كما فصلناه في محاله .

وقد تلمح « انه كان من الضالين » الى ضلاله المحتوم قبل موعدته التي اخرجته عن حتمه ، والضال المتحري عن الحق ليس كالمتجري على الحق ، فيُدعى للأوّل دون الأخير .

وذلك من حنانه في الدعوة لمن هو كوالده في شأنه التربوي ، مهما كان مشركاً ولكنه « . . واهجرني ملياً » اصبحت كوعد له بالإيمان فسلم عليه ووعده الإستغفار « قال سلام عليك سأستغفر لك ربي إنه كان بي حفياً » (١٩ : ٤٧) .

وقد يبدو من «فلما تبين له انه عدوٌ لله تبرء منه » انه كان قبل موته ، وقد تبين له خلف وعده وأن لم يكن « واهجرني ملياً » ليجد مجالاً للتفكير ، وانما مجالاً ملياً كيلا يسمع دعوة الحق ثم لكل حادث حديث .

فبطبيعة الحال لم يكن هذا الدعاء فور تركه اباه ، وانما بعد مليّ أم لمّا اوتي حكماً فتبين له انه عدو الله .

﴿ وَلَا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ ٨٧ يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ٨٨ إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ٨٩ ﴾ .

وكيف « لا تخزني » بعد « واجعلني من ورثة جنة النعيم » ؟ إنه دعاءٌ وليس هو في واقعه حتى يتقدم سلبه على ايجابه ، ثم هو مع ايجابه دعاءٌ على تخوُّف من سلبه ، وهذه قضية أدب العبودية حيث يحصر النصرة في الله ، فإذا لم ينصره في الدنيا أو الآخرة خَزِي ، وكما كان يدعو رسول الهدى (ص) في صلاته « اللهم لا تخزني يوم القيامة »(١) .

وليس من الخزي المطلوب سلبه دخول آزر في الجحيم ، إذ لم يكن والده وقد تبرء منه قبل موته ، فرواية الخزي مخالفة لكتاب الله وساحة الرسول (ص) بريئة من امثالها(٢) .

ثم « ان الخزي اليوم والسوء على الكافرين » (١٦ : ٢٧) فكيف يستلبه ابراهيم عن نفسه ؟ ان الخزي ـ وهو عدم النصر ممن يؤمل منه النصر ـ قد يكون طاماً في دركاته فهو للكافرين كما السوء ، وقد يكون جانبياً

---

(١) الدر المنثور ٥ : ٩٠ ـ اخرج احمد عن رجل من بني كنانة قال صليت خلف النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) عام الفتح فسمعته يقول : . . .

(٢) في الدر المنثور ـ اخرج البخاري والنسائي عن ابي هريرة عن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) قال : يلقى ابراهيم اباه آزر يوم القيامة وعلى وجه آزر قترة وغبرة يقول له ابراهيم : الم اقل لك لا تعصني ؟ فيقول أبوه : فاليوم لا أعصيك ، فيقول ابراهيم : رب انك وعدتني أن لا تخزيني يوم يبعثون فأي خزي أخزي من أبي الأبعد ؟ فيقول الله : إني حرمت الجنة على الكافرين ثم يقال : يا ابراهيم ما تحت رجليك ؟ فإذا هو بذيخ متلطخ فيوخذ بقوائمه فيلقى في النار .

لتقصير أو قصور وهو يعم سائر المؤمنين ، « إلّا من أتى الله بقلب سليم » وابراهيم يدعو بما يدعو ولمّا يؤتَ حكماً ، وهو على تخوُّف من عاقبة حاله يوم الدين ، فلأن « يوم يبعثون » هو « يوم لا ينفع مال ولا بنون » فلا ناصر - إذاً - إلّا الله .

وهل الآية « يوم لا ينفع .. » إلى سبعة عشر آية هي من تتمة دعاء ابراهيم ؟ وهو بعيد كل البعد عن حالة الدعاء ، ان تشمل على تفاصيل لا صلة لها بالدعاء إلّا تعريفاً لمن لا يعرف ! فهي - إذاً - من كلام الجليل يلحُق بها دعاء الخليل ، تكملة للمعرفة في هذه الإذاعة القرآنية .

« يوم لا ينفع مال » إذ ليس هنالك مال ، ولا ينفع يومئذ مال الدنيا بما هو مال لزوال المجال ، « ولا بنون » حيث تنقطع هناك كل الصِّلات : « فاذا نفخ في الصور فلا انساب بينهم يومئذٍ ولا يتساءلون » (٢٣ : ١٠١) - « ولقد جئتمونا فرادى كما خلقناكم أوّل مرة وتركتم ما خولناكم وراء ظهوركم وما نرى معكم شفعاءكم الذين زعمتم انهم فيكم شركاء لقد تقطع بينكم وضل عنكم ما كنتم تزعمون » (٦ : ٩٤) .

اجل انه « يوم لا ينفع .. » - « إلّا من اتى الله بقلب سليم » فينفعه ماله الذي قدمه في سبيل الله ، وبنوه الذين رباهم على شرعة الله ، فان كان له مال وبنون فاستثناء متصل ، وإن لم يكن له مال ولا بنون فقد يكفيه قلب سليم ، فاستثناء منقطع ، والجمع بينهما اجمل واكمل ، حيث المال المصروف في الله ، والبنون الصالحون ، هما في الباقيات الصالحات : « المال والبنون زينة الحياة الدنيا والباقيات الصالحات خير عند ربك ثواباً وخير أملاً » (١٨ : ٤٦) فهناك النفع ينحصر في قلب سليم بمخلفاته مهما لم يكن لصاحبه مال ولا بنون ، وينحسر عن قلب غير سليم مهما كانت لصاحبه اموال وبنون .

اجل «قلب سليم» من كل نائبة وآئبة عائبة، من كل مرض وغرض، ومن كل حب وهوى إلاّ الله، وليس نفع الشفاعة أيضاً إلاّ لمن ارتضى الله فـ«لا يشفعون إلاّ لمن ارتضى» (٢١ : ٢٨).

فالقلب «السليم الذي يلقى ربه وليس فيه أحد سواه، وكل قلب فيه شرك أو شكّ فهو ساقط، وانما اراد بالزهد في الدنيا لتفرغ قلوبهم إلى الآخرة»[١].

«سليم من حب الدنيا»[٢] فان حب الدنيا رأس كل خطيئة، فـ«صاحب النية الصادقة صاحب القلب السليم لأن سلامة القلب من هواجس المذكورات تخلص النية لله في الأمور كلها..»[٣].

وان سلامة القلب يومئذ تنفع بقدرها فانها درجات، كما ان عتامته تضر بقدرها فانها دركات، والنيات والأعمال الصالحة هي من خلفيات سلامة القلب عما يرينه، وتزيده سلامة، كما الأعمال والنيات الطالحة تزيده عتامة، فكل خير أو شر من الانسان هي صادرة من قلبه، فواردة إلى قلبه، فهو مورد كما هو مصدر.

---

(١) نور الثقلين ٤ : ٥٨ في اصول الكافي القمي عن ابيه عن القاسم بن محمد عن المنقري عن سفيان بن عيينة قال سألته عن قول الله عز وجل: «إلاّ من أتى الله بقلب سليم»؟ قال: السليم...» وفيه في آخر قال قلت له: ما حد التواضع الذي إذا فعله العبد كان متواضعاً؟ فقال: التواضع درجات منها ان يعرف المرء قدر نفسه فينزلها منزلتها بقلب سليم لا يحب أن يأتي الى أحد إلا مثل ما يؤتى إليه، إن رأى سيئة درأها بالحسنة، كاظم الغيظ عاف عن الناس والله يحب المحسنين».

(٢) المصدر مجمع البيان وروى عن الصادق (عليه السلام): ...

(٣) المصدر عن مصباح الشريعة قال الصادق (عليه السلام): ... قال الله تعالى: يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم».

فلأن « القلوب أئمة العقول والعقول أئمة الأفكار والأفكار أئمة الحواس والحواس أئمة الأعضاء » فصاحب القلب المدعي سلامته ، غير الصالح في اعماله ، كاذب في دعواه ، وقلبه مقلوب عن الهدىٰ ، مغلوب بطوع الهوىٰ ، وليس الايمان ـ وهو حالة القلب ـ إلّا قريناً بصالح العمل ، وكما نرى قرنه لزاماً في كلّ القرآن .

﴿ وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ٩٠ وَبُرِّزَتِ الْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ ﴾٩١ .

« يوم يبعثون . . » وأزلفت الجنة وقرّبت للمتقين ، الذين كانوا من عذاب ربهم مشفقين ، « وبرزت الجحيم » حيث كانت كامنة في الغاوين ، فتبرز بما برز وليوم الدين ، واما الجنة فهي قضية فضل الله ، مخلوقة بارضها قبل يوم الدين ، ولكن الجحيم تُصلى بما يردها اهلوها من الغاوين ، فلذلك الجنة تُزلف والجحيم تبرز : « وإذا الجحيم سعّرت . وإذا الجنّة أُزلفت » (٨١ : ١٣) ـ « وازلفت الجنة للمتقين غير بعيد » (٥٠ : ٣١) فهنا إزلاف التقريب لغير بعيد ، وهنالك تبريز التسعير حيث يحشر كلُّ بعيد .

﴿ وَقِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ٩٢ مِنْ دُونِ اللهِ هَلْ يَنْصُرُونَكُمْ أَوْ يَنْتَصِرُونَ ﴾٩٣ .

و « لقد ضل عنهم ما كانوا يفترون » (١٠ : ٣٠) ـ « وضل عنهم ما كانوا يدعون من قبل وظنوا ما لهم من محيص » (٤١ : ٤٨) .

وذلك سئوال التقريع والتأنيب بما كانوا يعبدون ، وظلوا عليها عاكفين ، وهم ضلوا عنهم وقت الحاجة الحارقة ، فـ« هل ينصرونكم » هناك ؟ « أو ينتصرون » لأنفسهم حين يعذبون ؟ لقد ضل عنهم كيانهم كآلهة ، وحين يبرز لهم كونهم فهم معهم معذبون ، اللهم إلّا الصالحون من الملائكة والنبيين « ان الذين سبقت لهم منا الحسنى أولئك عنها مبعدون »

(٢١ : ١٠١) .

واما الطالحون فـ« انكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم » (٢١ : ٩٨) ـ « ولن ينفعكم اليوم إذ ظلمتم انفسكم أنكم في العذاب مشتركون » (٤٣ : ٣٩) :

﴿ فَكُبْكِبُوا فِيهَا هُمْ وَالْغَاوُونَ٩٤ وَجُنُودُ إِبْلِيسَ أَجْمَعُونَ ﴾٩٥ .

ثالوث منحوس هم صِلاء النار ، الأصلاء فيها : [١] ابليس بجنوده اجمعين[٢] الغاوون[٣] المعبودون من دون الله أصناماً وسواها إلاّ المتقين ، ومهما لم تشعر الأصنام عبادتها ولا عذابها ، ولكن الغاوون العابدون يضاعَف لهم العذاب إذ يرون آلهتهم يعذبون .

والكبكبة هي الإنكباب مرة بعد أخرى على الوجه ، و« هم » هم المعبودون ، « والغاوون » هم العابدون « وجنود ابليس اجمعون » هم المضلّلون من الجنة والناس ، لا فحسب«ذريته من الشياطين »[١] اللهم إلاّ أن يعني ذرية الشيطنة ، فالشياطين ـ إذاً ـ هم أعم من الإنس ، اجل ! إنهم على كبكبتهم يوم الدنيا يُلقون على وجوههم في النار يوم الدين ، ويَكأننا نسمع الآن من جرس اللفظ هنا جرس الكبكبة هناك في النار ، لفظ يصور بجرسه لمعناه .

هنالك تبرز لهم آلهتهم التي ألهتهم بعدما ضلوا عن ألوهتهم وإلى مسرح الحوار بين العابدين والمعبودين :

﴿ قَالُوا وَهُمْ فِيهَا يَخْتَصِمُونَ٩٦ تَاللهِ إِنْ كُنَّا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ٩٧ إِذْ نُسَوِّيكُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾٩٨ .

---

(١) نور الثقلين ٤ : ٥٨ في أصول الكافي بسند متصل عن محمد بن سالم عن ابي جعفر (عليه السلام) قال : جنود ابليس ذريته من الشياطين .

« قالوا » الغاوون المشركون « وهم فيها يختصمون » مع بعض ، طواغيت واصناماً « تالله » الذي لا إله إلاّ هو « إن كنا » بتأكيد أكيد « لفي ضلال مبين » غارقين في خضمّه « إذ نسويكم برب العالمين » تسوية جاهلة ، ظالمة قاحلة ، فانها في كل حقولها ضلال مبين يبين ضلاله .

فكل تسويه بالله ، في ذاته او صفاته أو أفعاله ، في عبوديته واحترامه كمعبود ، في حرمة قلبية أو طقوس قالبية ، كل ذلك ضلال مبين ، بين إشراك جلي أو خفي أو عصيان . «ا اعلم ان من شبه ربّنا الجليل بتباين أعضاء خلقه ، وبتلاحم أحقاق مفاصله ، المحتجبة بتدبير حكمته ، إنه لم يعقد غيب ضميره على معرفته ، ولم يشاهد قلبُه اليقينَ بأنه لا ندٌّ له ، وكأنه لم يسمع بتبري التابعين من المتبوعين وهم يقولون :«تالله إن كنا لفي ضلال مبين . إذ نسويكم برب العالمين » فمن ساوى ربنا بشيء فقد عدل به ، والعادل به كافر بما تنزلت به محكمات آياته ونطقت به شواهد بيناته ، لأنه الله الذي لم يتناه في العقول فيكون في مَهبّ فِكرَها مكيَّفاً ، وفي حواصل هويّات همم النفوس محدوداً مُصَرَّفاً ، المنشيءُ اصناف الأشياء بلا رويّة احتاج اليها ، ولا قريحة غريزة أضمر عليها ، ولا تجربة أفادها من موجودات الدهور ، ولا شريك أعانه على ابتداع عجائب الأمور »(١) .

وترى كيف « نسويكم برب العالمين » وهم كانوا يعبدونهم دون الله ؟ علّ القصد من التسوية في اصل العبادة ، فكما الله يُعبد كذلك كنا نعبد اصناماً كانها الله .

ثم التسوية بين الله وخلقه محظور في كل الحقول المعرفية والعبودية والطاعة والإحترام ، إن كانت تسوية واقعية فضلال مبين ، وإن كانت

---

(١) التوحيد للصدوق خطبة لعلي (عليه السلام) يقول فيها : ايها السائل اعلم . . .

ترجيحاً لغيره عليه فإشراك إلحاد أم إلحاد .

والتسوية إن كانت قاصدة فإشراك أو إلحاد جلي ، وإن كانت جاهلة فإشراك خفي ، فمن يسجد أو يركع لغير الله معصوماً وسواه ، كما يُركع ويُسجد لله ، فان كانت عبودية فإشراك جلي ، وإن كانت احتراماً فخفي .

ومن يقول لولا فلان لما نجحت ، فقد سوى بالله سواه ، أو قال إن شاء الله وشاء فلان فكذلك الأمر ، أو كتب اسم الله ردف اسماء مَن سواه ، قاصداً تسويتها به وغير قاصد ، فهو - على أية حال - في ضلال ، مهما اختلفت دركاته ، من فسوق ، إلى شرك خفي ، إلى شرك جلي،وإلى الحاد في الله .

اجل وكل تسوية بالله قاصداً وسواه ، إنها ضلال مبين ، فإنها تسوية بين الفاضل والمفضول ، أم وانحس منها وأنكى ترجيحٌ للمفضول على الفاضل .

﴿ وَمَا أَضَلَّنَا إِلاَّ الْمُجْرِمُونَ ﴾٩٩ .

ويكأن المشركين الغاوين ليسوا هم من المجرمين ، ام يعنون بهم اصول الإجرام من جنود ابليس الذين اضلوهم .

﴿ فَمَا لَنَا مِنْ شَافِعِينَ ﴾١٠٠ .

عند الله ، لا المعبودون من دون الله ولا المجرمون ، و « شافعين » بديل « شافع » تلمح أنهم على علم من شافعين هناك يشفعون للبعض من أهل الجحيم وهم موحدون ، فيتحسرون على حرمانهم ووجُد من سواهم من المعذبين(١) .

---

(١) في المجمع وفي الخبر المأثور عن جابر بن عبد الله قال سمعت النبي (صلى الله عليه

﴿ وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ ﴾١٠١

فالأخلاء يومئذٍ بعضهم لبعض عدو إلّا المتقين » (٤٣ : ٦٧) وحتى لو كان هناك صديق فليس حميماً ، ولو كان حميماً فهنالك الصلات منقطعة ، فانه « يوم لا ينفع مال ولا بنون . إلّا من أتى الله بقلب سليم » .

﴿ فَلَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾١٠٢ .

« لو » تحسُّر لما يرونه من المستحيل « أن لنا كرَّة » إلى حياة التكليف « فنكون من المؤمنين » : « ولو ردوا لعادوا لما نهو عنه وانهم لكاذبون » (٦ : ٢٨) .

﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ١٠٣ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴾١٠٤ .

« إن في ذلك » العرض الفسيح الفصيح لقصة ابراهيم وقومه « لآية » لهؤلاء المشركين زمنك يا رسول الهدى « وما كان اكثرهم مؤمنين » مهما تواترت عليهم آياتنا البينات « وان ربك » الذي رباك بخاصة الربانية « لهو العزيز » الغالب القادر على الغادرين « الرحيم » بالمؤمنين ، فلا تأس على القوم الكافرين ، ولا تيأس من رحمة ربك العزيز الرحيم .

وآله وسلم) يقول : إن الرجل يقول في الجنة : ما فعل صديقي ؟ وصديقه في الجحيم ، فيقول الله : اخرجوا له صديقه إلى الجنة فيقول من بقي في النار « فما لنا من شافعين . ولا صديق حميم » .

وروي بالاسناد عن حمران بن اعين عن ابي عبد الله (عليه السلام) قال : والله لنشفعن لشيعتنا ثلاث مرات حتى يقول : « فما لنا من شافعين . ولا صديق حميم . . » .

كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ
ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٠٥﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٠٦﴾
إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٠٧﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٠٨﴾
وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ
ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٩﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١١٠﴾ * قَالُوٓا۟ أَنُؤْمِنُ
لَكَ وَٱتَّبَعَكَ ٱلْأَرْذَلُونَ ﴿١١١﴾ قَالَ وَمَا عِلْمِى بِمَا كَانُوا۟
يَعْمَلُونَ ﴿١١٢﴾ إِنْ حِسَابُهُمْ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّى ۖ لَوْ تَشْعُرُونَ ﴿١١٣﴾
وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٤﴾ إِنْ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿١١٥﴾
قَالُوا۟ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَٰنُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمَرْجُومِينَ ﴿١١٦﴾
قَالَ رَبِّ إِنَّ قَوْمِى كَذَّبُونِ ﴿١١٧﴾ فَٱفْتَحْ بَيْنِى وَبَيْنَهُمْ فَتْحًا
وَنَجِّنِى وَمَن مَّعِىَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٨﴾ فَأَنجَيْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ
فِى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ ﴿١١٩﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا بَعْدُ ٱلْبَاقِينَ ﴿١٢٠﴾
إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٢١﴾
وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ

مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

ثمانية عشر آية تستعرض دعوة نوح الرسالية حواراً مع قومه بصورة خاطفة منذ البداية حتى غرقهم اجمعين :

﴿ كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ ﴾ ١٠٥ .

« قوم » في لفظها مؤنث تصغيرها قويمة ، يجوز في فعلها المقدم الوجهان ومن الثاني : « لا يسخر قوم من قوم » وهي كالظرف والمجرور ، تعم حين انفرداها القبيلين ، وحين تنضم إلى نساءٍ تعني قبيل الرجال ، كما « قوم من قوم » تلحقها « ولا نساءٌ من نساء » .

فـ« قوم نوح » هم كل المرسل إليهم نوح ، وهو أوّل من دارت عليه الرحى من أولي العزم الخمسة ، وقصة نوح تُقصُّ في سور عدة [(١)] وتختص بها سورة واحدة ، مما يشي إلى بالغ الأهمية في عرضها في هذه الإذاعة العالمية القرآنية ، كقصة موسى وابراهيم والمسيح ومحمد صلوات الله عليهم اجمعين .

وترى كيف « كذبت قوم نوح المرسلين » ؟ ولم يأت في سائر القرآن إلاّ تكذيبهم ـ فقط ـ نوحاً لا سواه !

علّه لأنه تكذيب لسلسلة الرسالات ككل ، فان مقالهم هو مقال تكذيب الرسالة بأسرها ، وان تكذيب رسول واحد ثابت الرسالة بآياتها هو تكذيبٌ للرسالات كلّها ، ولا سيما الرسالة الأولى وهي مفتتح ولاية العزم ، أم لأنه « مكث نوح ألف سنة إلاّ خمسين عاماً لم يشاركه في نبوته أحد ، ولكنه قدم على قوم مكذبين للأنبياء الذين كانوا بينه وبين آدم . . » [(٢)] .

---

(١) كالأعراف ويونس وهود والمؤمنون ، والخاصة به سورة « نوح » .

(٢) نور الثقلين ٤ : ٦٢ في كتاب كمال الدين وتمام النعمة باسناده إلى محمد بن الفضل عن ابي حمزة الثمالي عن ابي جعفر محمد بن علي (عليهما السلام) حديث طويل يقول فيه

﴿ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴾١٠٦ .

« إذ قال » هنا كظرف لذلك التكذيب الجماهيري،تؤيد أن تكذيبه كان تكذيباً للمرسلين ، مهما سبقه تكذيبهم من قبل .

وتلك الأخوة هي الأخوة في الإنسانية وفي المواطنة ، فلا بد أن تنجر إلى الأخوة في حق الإنسانية من هداها ، طرداً لرداها ، ومن حق الأخ على الأخ ان يحاول في هداه وقد فعل نوح وبلسان الأخوة الحانية « ألّا تتقون » الله فيما تبغون وأنتم تطغون ؟ و « ألا تتقون » في بزوغ الدعوة مما يزعزعهم عن تقاليدهم الجاهلة ، ويجعل إلى قلوبهم منفذاً للإستماع إلى الدعوة الرسالية ، تخوّفاً من الواقعة الموعودة ، إذ هم ليسوا على علم مما هم عليه .

ولأن تقوى الله لا بد لها من صورة كما لها من سيرة،فوسيط الرسالة هو لزامها على أية حال ، وكانه يجيب بعدئذٍ عن سؤال كيف نتقي الله ؟

﴿ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴾١٠٧ .

أمين على رسالة الله اليكم ، فلا تجدون فيّ خيانة في تلك الأمانة حالاً ومآلاً وأفعالاً ، وكما لمستموه مني حتى الآن ، إذ ما خنتكم كخلق الله ومرسلاً إليكم من الله ، فكيف أخونكم في رسالتي لكم من الله ؟ وهنا يعود مرة ثانية يأمرهم بتقوى الله بذريعة الرسالة :

﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴾١٠٨ .

« اطيعون » في : كيف يُتقى الله ، فإني أحمل رسالة الله بكل امانة ،

فمكث نوح . . . وذلك قوله : كذبت قوم نوح المرسلين «يعني من كان بينه وبين آدم إلى ان انتهى إلى قوله : وان ربك لهو العزيز الرحيم ـ وقال فيه ايضاً : فكان بين آدم ونوح عليهما السلام عشرة آباء كلهم انبياء ، وفي روضة الكافي علي بن ابراهين عن ابيه عن الحسن بن محبوب عن محمد بن الفضل عن ابي حمزة عن ابي جعفر (عليه السلام) مثله .

ثم ولا أكلفكم على رسالتي ـ بكل صعوباتها وملتوياتها ومنحنياتها ـ اجراً ، مما يزيد لي تصديقاً :

﴿ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾١٠٩ .

وعدم سئوال الأجر أو قبوله سنة مستمرة طول خط الرسالات ، مما يسهِّل الإقبال إليها دونما صعوبة وتكلف ، فالركن الأول لها هو الايجابي : « إني لكم رسول امين » والثاني هو السلبي : « وما اسألكم عليه من أجر » فالدافع لتصديقها واقع ، والمانع عنها غير واقع ، فما بقي هنا إلّا القبول ، وبطبيعة الحال لا يدعي الرسول ما يدعيه دون برهان مبين يقطع كل الأعذار ويقنع الأفكار .

﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴾١١٠ .

يكرر هنا الأمر بتقوى الله وطاعته هو كرسول الله ، لتكرار الدافع لها ، وهو السلب إلى الايجاب ، وهذه ثالثة ثلاثة في أمر التقوى ، مما يدل على انها هي المحور الأصيل في كل شرعة إلهية ، حيث تجتمع فيها كل الأصول العقائدية والفروع العلمية ، من واجبات ومحرمات تجمعها تقوى الله وطاعة الرسول في الله .

وذلك خلاف ما عهده الناس من الكهّان وقسم من رجال الأديان من استغلال الدين لابتزاز الأموال بشتّى الأساليب ، فدعوة الله الحقة متجردة عن كل أجر إلّا من الله .

وخلاف عهد آخر لهم من النسناس المتزيين بزي الدعاة إلى الحق وهم في الحق على باطل نَكِد ، فلكي يلصقوا باطلهم إلى قلوب الناس لا يطلبون أجراً بل ويصرفون اموالاً طائلة ويرخّصون الجنس ، ويقدمون كل الوان المشتهيات الحيوانية ، لكي يجلبوا أنظار الناس إلى ما يدعون .

ولكن رجالات الله ، الدعاة إلى الله ،هم متجردون عن كل هوى إلاّ هوى الله ، وعن كل أجر إلاّ من الله ، متزودين بآيات الله البينات ، واقعيين متصلبين في وجهاتهم الدعائية لا تحركهم العواصف ولا تزيلهم القواصف .

والمهم في دعامَتي الرسالة الحقة الأمانة ثم الأمانة ، وليس عدم سؤال الأجر إلاّ قاطعاً للأعذار المادية بعد قطع الأعذار المعنوية ، فليس ـ إذاً ـ مستقلاً بجنب الأمانة ، ولذلك تأخر عنها تأكيداً للتصديق .

فالرسول الأمين الذي يطلب أجراً لا يتوفّق في دعوته لا سيما والأكثرية الساحقة من المهتدين فقراء ، وغير الأمين وإن دفع أجراً بديل طلبه إياه لا يدعو إلاّ إلى النار،فليكن الرسول جامعاً بين الأمرين « لكيلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل » .

﴿ قَالُوا أَنُؤْمِنُ لَكَ وَاتَّبَعَكَ الْأَرْذَلُونَ ﴾ ١١١ .

« فقال الملأ الذين كفروا من قومه ما نراك إلاّ بشراً مثلنا وما نراك اتّبعك إلاّ الذين هم أراذلنا بادي الرأي وما نرى لكم علينا من فضل بل نظنكم كاذبين » (١١ : ٢٧) .

نعم « الأرذلون » « أراذلنا بادي الرأي » المعروفون عندهم بحساب الهوى وقيم الدنيا الرذيلة ، ألاّ مال لهم ولا منال ، فلو كانت دعوتك حقة لاتبعك الأعلون ، ذوو الحنكة المتحضِّرون ، فلمّا اتَّبعك الأرذلون عرفنا أن دعوتك رذيلة لا تحمل أية فضيلة .

أم إن كانت دعوتك حقة فلتطرد التابعين الأرذلين حتى يفسح لنا مجال اتباعك ، حيث التسوية بيننا وبينهم ضلال مبين .

لكن « الأرذلون » في ميزانهم المتأرجف اللعين هم السابقون دوماً إلى الرسل ، أخفاء في قبول الحق لا تُثقلهم وتُقعدهم عنها أغلال الثروات والطنطنات والكبرياآت والمصلحيات القائمة على الأوضاع المزيفة .

فإيمانهم الموعود شريطة طرد المؤمنين : « الأرذلون » في حسابهم هو خلاف متن الايمان وقضيته ، حيث يوحّد بين قبيل المؤمنين ، فلا أكرم عند الله منهم إلاّ أتقاهم ، ولا فوارق بينهم إلاّ تقواهم ، فهي التي توحّد صفوفهم ، وهي التي تميز بينهم بفاضلها .

هنا نجد الجواب الحاسم من نوح في حلقات أربع كل واحدة تكفي حسماً لعذرهم الغادر :

﴿ قَالَ وَمَا عِلْمِي بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾١١٢ .

فإن كانت « الأرذلون » حالتهم السابقة على الايمان ، فما علمي بأعمالهم السابقة ؟ وإنما المعلوم عندي حالتهم الحالية وهي الايمان ، وذلك هو المطلوب منهم الآن أياً كانت أعمالهم السابقة .

وحتى لو كانوا محاسَبين برذالة سابقة ـ ولا يحاسَبون ـ « يغفر لهم ما سلف » بإيمانهم الخلَف ، فـ :

﴿ إِنْ حِسَابُهُمْ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّي لَوْ تَشْعُرُونَ ﴾١١٣ .

ولست أنا المحاسب ، فما أنا إلاّ رسول الإيمان إلى أيٍّ كان ، فحين تؤمن جماعة مهما كانت حالتهم السابقة رذيلة ، كيف أطردهم ، وما حسابهم عند الله إلا حسناً يسيراً فليس ـ إذاً ـ « وما علمي .. إن حسابهم » إلاّ تنازلاً في الحوار ، أن ليس عليَّ حساب لو أنهم محاسَبون بما كانوا يعملون ولن ! ثم وما عليّ إلاّ البلاغ المبين فقبولاً لايمان من أقبل دون أية محاسبة .

﴿ وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الْمُؤْمِنِينَ ﴾١١٤ .

فبأية حجة أطرد المؤمنين وما أحمل إلاّ رسالة الايمان « وما أنا بطارد الذين آمنوا إنهم ملاقوا ربهم ولكني أراكم قوماً تجهلون(٢٩) ويا قوم من ينصرني من الله إن طردتهم أفلا تذكرون(٣٠) .. ولا أقول للذين تزدري

اعينكم لن يـوتيهم الله خيـراً الله أعلم بمـا في انفسهم إني إذاً لمن الـظالمـين » (١١ : ٣١) .

وهـذه سنّة رسـالية دائبـة : جذب المؤمنـين وطرد المعـانـدين ، فكيف - إذاً - أطـرد المؤمنين ؟ « ولا تـطرد الـذين يـدعـون ربهم بـالغـداوة والعشيّ يريدون وجهـه ما عليـك من حسابهم من شيء ومـا من حسابك عليهم من شيء فتطردهم فتكون من الـظالمين » (٦ : ٥٢) أطـردهـم ثم أطري الكـافرين المتطاولين المستكبرين ؟! .

﴿ إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُبِينٌ ﴾١١٥ .

« نذير » من عذاب أليم « مبين » سببَ النـذارة ومادتهـا ، فكيف أطرد المنذَرين المؤمنين لرغبة المتأنفين المستكبرين ، فان هي - إذاً - إلاّ رسالة الظلم والاستكبـار ! . ولقد قلت لكم من ذي بـدء « إني لكم رسـول أمـين » وتلك - إذاً - خيانة في الـرسالـة أن أطرد المؤمنـين ، ونقضاً لصـالحها إلى مصلحية الجمع لجم غفير من المستكبرين وهم كاذبون ، بذلك يثبت نوح جـدارة هذه الرسالة الأمينة أنها لا تخضع لرغبات الأقوياء الأغوياء ، وإنما لحكم الله جذباً للأبرياء الأتقياء .

﴿ قَالُوا لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ يَا نُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمَرْجُومِينَ ﴾١١٦ .

هذا جواب العاجز اللعين إذ يتنقّل من الحجة - إذ يراها عليه لجة - إلى التهديد « لئن لم تنته يا نوح » عن دعوتك ودعايتك « لتكونن من المرجومـين » وقد كان الرجم أشد عقوبة للمتخلفين ، فقد بدأوا بحوار ، ثم تطلّبوا منه أن يأتيهم بما يعدهم : « قالوا يا نوح قد جادلتنا فأكثرت جدالنا فأتنا بما تعدنا إن كنت من الصادقين » (١١ : ٣٢) وآخر المطاف « لتكونن من المرجومين » !

﴿ قَالَ رَبِّ إِنَّ قَوْمِي كَذَّبُونِ١١٧ فَافْتَحْ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ فَتْحاً وَنَجِّنِي وَمَنْ

مَعِيَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾١١٨ .

عرضٌ لحال معلومة عند الله ، ولكنها موقف الدعاء تعرض فيه كل حالة بِقالةٍ متواضعة ، ولأن تكذيب الرسالة راجع إلى تكذيب المرسِل فنوح هنا في ذلك العرض يتطلب إلى ربه ان يعالج موقفه الرسالي بفتح منه ونجاة له ولمن معه من المؤمنين ، مما يلمح أنهم هُدِّدوا بالرجم كما هو ، وقد يشير إليه « من المرجومين » ممن رجم أو يحكم له بالرجم . « فافتح .. » أُحكم بيني وبينهم حكماً قاطعاً وأمراً فاصلاً ، يفتح الباب المبهم بعدما استصعب رِتَاجه ، وأُعضل علاجه ، ويقال للحاكم : الفتّاح ، لأنه يفتح وجه الأمر بعد اشتباهه واستبهام أبوابه « وهو الفتاح العليم » يفتح بعلمٍ ويغلق ما انغلق ويفتق ما ارتتق .

وهذا الفتح هو بطبيعة الحال واقعه المميِّز بين الفريقين وفيه نجاة المؤمنين وهلاك الكافرين دونما اقتراح لنوعية الفتح استسلاماً لأمر ربه ، فليس فتحاً في حكمه شرعة لأنه كان واقعاً منذ الدعوة ، بل ومنذ بزغت شرعة في هذه البسيطة .

وقد فتح الله بينه وبينهم بعد ردح بعيد من الزمن ، حيث الدعوة كانت ألف سنة إلّا خمسين عاماً :

﴿ فَأَنْجَيْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ١١٩ ثُمَّ أَغْرَقْنَا بَعْدُ الْبَاقِينَ ﴾١٢٠ .

ولقد كان فلكه مشحوناً بشحنات الحَيَوان من مختلف أجناسها ، ومن الذين آمنوا معه و « المجهز الذي قد فرغ منه ولم يبق إلّا دفعه »(١) .

---

(١) في كتاب كمال الدين وروضة الكافي في رواية ابي الجارود عن ابي جعفر (عليه السلام) في « الفلك المشحون » .

وهذا إجمال جميل سريع يصور النهاية الأخيرة للمعركة المصيرية بين صفة الايمان والكفر في فجر البشرية تقريراً غريراً غزيراً لمصائر المعارك التالية للبشرية إلى يوم الدين ، ألا فاعتبروا يا أولي الأبصار !

﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ١٢١ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴾١٢٢

تلحيق مكرور في ختام العرض لهذه الدعوات الرسالية ، بنفس الصيغة السابقة في عرض خاطف لمقابلة الكفار للرسالة الإسلامية ، ولموسى وابراهيم من قبل ، ثم لهود وصالح ولوط وشعيب،آيات مكررات تعرض لهؤلاء المناكيد الأوغاد « وما كان اكثرهم مؤمنين » هنا وعبر التأريخ الرسالي « وان ربك لهو العزيز » الغالب على أمره غير مغلوب « الرحيم » بالمؤمنين .

مركز تحقيقات كامپيوترى علوم اسلامى

كَذَّبَتْ عَادٌ
الْمُرْسَلِينَ ﴿١٢٣﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٢٤﴾
إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٢٥﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٢٦﴾
وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ
الْعَالَمِينَ ﴿١٢٧﴾ أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ ﴿١٢٨﴾
وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ ﴿١٢٩﴾ وَإِذَا بَطَشْتُم

بَطَشْتُم جَبَّارِينَ ﴿١٣٠﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٣١﴾ وَاتَّقُوا
الَّذِي أَمَدَّكُم بِمَا تَعْلَمُونَ ﴿١٣٢﴾ أَمَدَّكُم بِأَنْعَامٍ وَبَنِينَ ﴿١٣٣﴾
وَجَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٣٤﴾ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ
عَظِيمٍ ﴿١٣٥﴾ قَالُوا سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَوَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُن مِّنَ
الْوَاعِظِينَ ﴿١٣٦﴾ إِنْ هَٰذَا إِلَّا خُلُقُ الْأَوَّلِينَ ﴿١٣٧﴾ وَمَا نَحْنُ
بِمُعَذَّبِينَ ﴿١٣٨﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَهْلَكْنَاهُمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً
وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣٩﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ
الرَّحِيمُ ﴿١٤٠﴾

تأتي قصة عاد اربع وعشرين مرة في سور عدة ، في نجمها توصف بالأولى (٥٠) مما يدل على انه اثنان ، ولا خبر لنا عن الثانية ، حيث الآيات كلها تتحدث عن الأولى ، مما يدل على أنهم كانوا اظلم واطغى ، لحد أنسوها الأخرى .

وهنا تكرر المقالة البازغة بداية الدعوة الرسالية مرات خمس ، تدليلاً على وحدة الرسالات دعوة ومغزى ، مهما اختلفت في أحكام جزئية حسب المصالح الوقتية أما هيه ، وهنا بعد عرض الرسالة ـ كما اسلفنا تفسيرها ـ يندّد هود بقومه في نبرات [١] :

---

(١) في كتاب كمال الدين وروضة الكافي مسنداً عن ابي حمزة الثمالي عن ابي جعفر محمد

﴿ أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ ﴾ ١٢٨

والريع هو المرتفع الرائع : فكانوا يبنون بكل مرتفع من الأتلال والجبال والغابات ، ام مرتفعات صناعية « آيةً » قصراً يشي بعظمهم وصغار الآخرين « تعبثون » بآية الريع مختلفَ العبْث : إسرافاً في زخرفات البنيان زيادة عن الحاجة الحيوية اللازمة بجنب الفقراء المعوزين ، الذين قد لا يجدون أكواخاً فيها يسكنون ، وكما يروى عن رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) : « ان كل ما يبنى وبال على صاحبه يوم القيامة إلاّ ما لا بدَّ منه »(١) .

ابن علي الباقر (عليه السلام) في حديث وقال نوح ان الله تبارك وتعالى باعث نبياً يقال له هود وانه يدعو قومه إلى الله عز وجل فيكذبونه وإن الله عز وجل يهلكهم بالريح فمن ادركه منكم فليؤمن به وليتبعه فان الله تبارك وتعالى ينجيه من عذاب الريح ، وامر نوح ابنه سام ان يتعاهد هذه الوصية عند رأس كل سنة ويكون يوم عيد لهم فيتعاهدون فيه بعث هود وزمانه الذي يخرج فيه ، فلما بعث الله تبارك وتعالى هوداً نظروا فيما عندهم من العلم والايمان وميراث العلم والاسم الأكبر وآثار علم النبوة فوجدوا هوداً نبياً وقد بشرهم ابوهم نوح به فآمنوا به وصدقوه واتبعوه فنجوا من عذاب الريح وهو قول الله عز وجل : « وإلى عاد اخاهم هوداً » وقوله : « كذبت عاد المرسلين إذ قال لهم اخوهم هود ألا تتقون » .

(١) في المجمع - الخبر المأثور عن انس بن مالك ان رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) خرج فرأى قبة فقال : ما هذه ؟ فقالوا له اصحابه : هذا الرجل من الأنصار ، ، فمكث حتى إذا جاء صاحبها فسلم في الناس أعرض عنه وصنع ذلك مراراً حتى عرف الرجل الغضب به والأعراض عنه فشكى ذلك إلى اصحابه وقال : والله إني لأنكر رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) ما ادري ما حدث في وما صنعت ؟ قالوا : خرج رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) فرأى قبتك فقال : لمن هذه فأخبرناه فرجع إلى قبته فسواها بالأرض فخرج رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) ذات يوم فلم ير القبة فقال : ما فعلت القبة التي كانت هيهنا ؟ قالوا : شكى الينا صاحبها اعراضك عنه فأخبرناه فهدمها فقال : إن كل ما يبنى وبال على صاحبه يوم القيامة إلا ما لا بد منه .

وتظاهراً وتفاخراً في ذلك التكاثر حيث تبدوا هذه القصور من بُعد كأنها علامات ، تُعلم بها مكانة اصحابها تطاولاً ومقدرة ومهارة .

فآية العبث بنياناً إمّاذا هي آية الرعونة والترَف واللاّمبالات في الحياة ، وكأنهم خُلِقوا عبثاً ليعيشوا عابثين .

فالعبث في أية ظاهرة من مظاهر الحياة هو آية التجاهل عن واقع الحياة ومسيرها ومصيرها ، والتغافل عن مسئولياتها تجاه الله وخلقه .

وكيف يسمح الثري لنفسه ان يعبث بالبنيان والملابس والمآكل والمناكح ، على عيون العزّل من ضروريات الحياة من البائسين المُعدمين ؟!

﴿ وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ ﴾١٢٩ .

المصنع من الصنع وهو إجادة الفعل ، فالمصانع هي المكانات الجيدة الحصينة حفاظاً عن أية إصابة أرضية أو سماوية ، من قصور حجرية أمّاهيه ، كالمنحوتة في الجبال وكأنها تخلدهم في الحياة أكثر من آجالهم المقدرة لهم .

ذلك ، وإما اتخاذ المصانع لدفع كيد العدو ، أو السارق أمّاذا من مصالح حيوية عاقلة فليس بذلك الممنوع ، بل مسموح ممنوح .

﴿ وَإِذَا بَطَشْتُمْ بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ ﴾١٣٠ .

فالبطشة الجبارة هي الظالمة المستكبرة ، وأما المدافعة اعتداءً بالمثل فهي الحق العدل لكل مهاجَم عليه في أي ناموس من نواميسه الخمس أم نواميس الآخرين المحترمين ، ولكنهم غلاظ متجبرون دونما تحرُّج في بطشتهم ، هجوماً بدائياً أو دفاعياً .

﴿ فَاتَّقُوا اللهَ وَأَطِيعُونِ ﴾١٣١ .

تقوىً عن كل مظاهر الطغوى ومعالمها ، وطاعة لرسول الهدى فيما

يفعله أو يقوله عن الله .

﴿ وَاتَّقُوا الَّذِي أَمَدَّكُم بِمَا تَعْلَمُونَ١٣٢ أَمَدَّكُم بِأَنْعَامٍ وَبَنِينَ١٣٣ وَجَنَّاتٍ وَعُيُونٍ١٣٤ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾١٣٥ .

إمدادات ربانية في تسهيل الحياة ، تقتضي شكوراً ، فكيف تطغون فيما أمدّكم ، وتسطون بها على عباد الله ، فان لم تحذروا حاضر العذاب فـ« اني أخاف عليكم » إذا متم بحالتكم البئيسة « عذاب يوم عظيم » برزخاً ويوم الدين .

اتراهم اتعظوا بهذه العظات البالغة ؟ وهي لا تصل إلى قلوب مقلوبة غليظة جاسية ؟ :

﴿ قَالُوا سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَوَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُن مِّنَ الْوَاعِظِينَ ﴾١٣٦ .

« سواءٌ عليهم ءأنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون » وهنا « من الواعظين » قد تلمح إلى أن الواعظين كانوا عِدّة ، عرْضياً يرأسهم هود ؟ أم طولياً قبله وبعده في مثلث الزمان .

أم وحتى ان لم يبعث إليهم إلاّ هود فهم بمقالهم هذا يكشفون عن حالهم تجاه الرسالات كلها : « كذبت عاد المرسلين . إذ قال لهم .. » فتكذيب هود بهذه المثابة هو تكذيب المرسلين اجمعين .

﴿ إِنْ هَذَا إِلَّا خُلُقُ الْأَوَّلِينَ ﴾١٣٧ .

« إن هذا » الذي تعظ به « إلاّ خلق الأولين » من الواعظين ، أساطير مكرورة طوال الزمن ، واكاذيب يُصق بعض ويتلو بعض .

أو « ان هذا » الذي نحن عليه « إلاّ خلق » آباءنا «الأولين» فنحن على آثارهم مهتدون ، وما نحن بتاركي خُلُقنا وهي تراث الأولين .

وقد يعنيها « هذا » فانها من مقال الكافرين بالرسالات ، وبناءً عليه :

﴿ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴾١٣٨ .

رغم ما تعدنا الوعودَ المكرورة من الواعظِين الواعدين .

﴿ فَكَذَّبُوهُ فَأَهْلَكْنَاهُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ١٣٩ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴾١٤٠ .

عرض خاطف لمصيرهم الهالك في مسيرهم الحالك ، يُطوى فيه أطغى طغات التاريخ وتُطوى آيات كلِّ ريع لهم ومصانعهم وكل نعيم لهم ، إلى عذاب مقيم !

كَذَّبَتْ ثَمُودُ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٤١﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ
أَخُوهُمْ صَٰلِحٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٤٢﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٤٣﴾
فَٱتَّقُوا ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٤٤﴾ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ
إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٤٥﴾ أَتُتْرَكُونَ فِي مَا هَٰهُنَآ
ءَامِنِينَ ﴿١٤٦﴾ فِي جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٤٧﴾ وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ
طَلْعُهَا هَضِيمٌ ﴿١٤٨﴾ وَتَنْحِتُونَ مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا فَٰرِهِينَ ﴿١٤٩﴾
فَٱتَّقُوا ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٥٠﴾ وَلَا تُطِيعُوٓا أَمْرَ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿١٥١﴾
ٱلَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴿١٥٢﴾ قَالُوٓا إِنَّمَا

أَنتَ مِنَ ٱلْمُسَحَّرِينَ ﴿١٥٣﴾ مَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا فَأْتِ
بِـَٔايَةٍ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١٥٤﴾ قَالَ هَٰذِهِۦ نَاقَةٌ لَّهَا
شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴿١٥٥﴾ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ
فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥٦﴾ فَعَقَرُوهَا فَأَصْبَحُوا۟
نَٰدِمِينَ ﴿١٥٧﴾ فَأَخَذَهُمُ ٱلْعَذَابُ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً ۖ وَمَا كَانَ
أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٥٨﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٥٩﴾

« ثمود » هم اخوان عاد في الطغيان ورعونة الحياة ، يتشابهان في دورهم اللعين وكورهم المهين ، ودعوة صالح الرسالية هي نفس الدعوات ثم التنديد :

﴿ أَتُتْرَكُونَ فِي مَا هَٰهُنَا آمِنِينَ ﴾١٤٦ .

« ما هٰهنا » مشروح فيما هٰهنا « في جنات وعيون . . . » وقد اختص « ونخل » من بين شجرات الجنات لأنها أهمها ثمرة و إنتاجاً ، وكانوا يهتمون بها أكثر من غيرها ، والطلع هو الطالع من النخلة كنصل السيف في جوفه شماريخ ، والهضيم هو اللطيف من قولهم فلان هضيم الحشا أي لطيف البطن وأصله النقصان من الشيء كأنه نقص من انتفاخ بطنه فلطفت معاقد خصره ومنه « فلا يخاف ظلماً ولا هضماً » .

وهو اليانع البالغ ، والذي إذا مُسّ تهافت من كثرة مائه ورطوبة أجزائه .

فهو النضيج الذي أرطب ثمره وهذه هي افضل حالة لطلع النخل بدخول بعضه في بعض فكأن بعضه هضم بعضاً لفرط تكاثفه وشدة تشابكه .

﴿ وَتَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتاً فَارِهِينَ ﴾١٤٩ .

الفَرِه هو الأشِر، فالفاره هو الأشِر البَطِر ، والبيوت الجبلية هي الفرهة المَرِحة ، يُعبث بها لحياة الفرح والمَرَح .

« اتتركون فيما هُهنا » من متعة الحياة وشره اللاّمبالات ، في جنات وشهوات « آمنين » من بأس الله الذي هو لا محالة آت ؟

اتظنون انكم « فيما هُهنا » تتركون لحيونَة الحياة ، في كل دعة ورخاء وكل مُتَع الحيَوْنات ؟ « اتتركون » لا يردعكم فوت ، ولا يزعجكم موت .

لمسات موقظة تجذبهم إلى التقوى ، إبتعاداً عن الطغوى ، ولكنها لا تلمس تلك القلوب المقلوبة ، الجافة الجاسية ، إذ لا تصغى لها ولا تلين بها .

﴿ فَاتَّقُوا اللهَ وَأَطِيعُونِ١٥٠ وَلَا تُطِيعُوا أَمْرَ الْمُسْرِفِينَ١٥١ الَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴾١٥٢ .

فطاعة التقوى هي طاعة الله وطاعتي كرسول من الله ، وطاعة الطغوى هي طاعة مَن سوى الله ولا سيما المسرفين في التخلُّف عن الله وعن شرعته « الذين يفسدون في الأرض » ساعين في إفساد الحياة الأرضية في كل جنباتها الإنسانية بل والحيوانية ، « ولا يصلحون » أبداً .

فأصحاب الأمر والإمرة على طوائف ثلاث ، مصلحون لا يفسدون وهم الدعاة إلى الله معصومين وسواهم ، إلاّ خطأً من سواهم ، ومصلحون قد يفسدون ، أو مفسدون قد يصلحون ، وهم نَجِسون حسب دركات

إفسادهم ، ومفسدون لا يصلحون وهم المسرفون في إفسادهم ، و « امر المسرفين » ليس ـ فقط ـ ما يقابل النهي ، حيث الطاعة المنهية لا تخص هذا الأمر ، بل والنهي المسرف أحرى ان تترك طاعته ، كما النهي عن المنكر يتقدم الأمر بالمعروف ، وانما الأمر هنا فعلهم وشأنهم وإمرتهم واي أمر منهم بفعل أو ترك أم ماذا ؟ .

واختصاص ترك الطاعة هنا لا يحصر النهيَ في طاعة أمرهم ، فطاعة الأمر غيرِ المعصوم صاحبُه ، أو المأثوم ، هذه منهية على أية حال ، « ولا تطيعوا » هنا قضاءٌ حاسم على الأمر الفادح الفاضح كأولى خطوة صالحة إلى الله ، ومن ثم الخُطى الأخرى التي تتبنّى الخطوة الأولى ! تركاً لطاعة مَن سوى الله ككلٍّ ، إلاّ رسول الله ، وكل من يحمل عنه ما حُمّله حليماً تقياً ، لحد يُعتبر أمره أمرَ الله وكما عرِّف به الله .

فليس من صالح الدعوة الرسالية حمل الشاردين كهؤلاء البعيدين على الشرعة ككل ، وانما يؤمرون في البداية وينهون ، في أوليات العقائد والأخلاق والأعمال ، « ولا تطيعوا امر المسرفين » تكفل هذه البداية دونما إفراط ولا تفريط .

﴿ قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ١٥٣ مَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا فَأْتِ بِآيَةٍ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴾١٥٤ .

لقد حصروا كيانه الرسالي في السحر : « إنما أنت من المسحرين » ولماذا ؟ لأنهم حصروا كيانهم انفسهم في الشهوات المضللة ضد الرسالات ، وبطبيعة الحال ليست ردة الفعل ونبرة القول لـ « إنما » الضلالة وجاه « إنما » الهدى إلا « انما انت من المسحرين » !. إذ « ما أنت إلّا بشر مثلنا » تريد أن تتفضل علينا ، وتُرى المماثلة في أصل البشرية مما يحيل الرسالة إلى البشرية

لحد يُجَنّ رسول البشر ، أفليست هنالك تفاضلات بين قبيل البشر ، يجعل للفاضل جدارة في كيان يحلّق على المفضولين ، وأفضل التفاضلات هي الرباط الروحي بين الانسان وربه ، علمياً وتربوياً لحد العصمة بمراتبها ، فهل المعصوم بعصمة إلهية لا تحق له الرسالة إلى البشر ، لحد يُرمى إلى السحر والجنون ، ما هذا إلاّ تذليلاً لساحة الإنسانية وحطاً من سماحته لحدّ لا تليق حمل رسالة إلهية إلى نفسها ، فليكن الرسول من غير جنسها أم تبقى ضالاً بلا رسول !.

وإنها شبهة تخايل للبشرية المتفلتة الشريرة كلما جاءها رسول ، انها لا تستأهل ان يؤتى خبر السماء وهي عائشة الأرض ، تغافلاً عن القيم المودوعة لخليفة الأرض ، وانها موهوبة القدرة على الاتصال بالملإ الأعلى وهي مقيمة الأرض .

تبقى هنا آية تدل على ذلك الاختصاص ، فليُطلب بها مدعي الرسالة قبل رميه بالسحر ، ولكنهم عكسوا الأمر ، تقديماً لتهمة السحر على « فات بآية إن كنت من الصادقين » :

﴿ قَالَ هَٰذِهِ نَاقَةٌ لَّهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ١٥٥ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ ١٥٦ .

« هذه ناقة الله لكم آية فذروها تأكل في ارض الله ولا تمسوها بسوء فيأخذكم اليم » (٧ : ٧٣) « وآتينا ثمود الناقة مبصرة فظلموا بها . . » (١٧ : ٥٩) « انا مرسلوا الناقة فتنة لهم فارتقبهم واصطبر » (٥٤ : ٢٧) هذه الناقة نفسها آية إذ خُلقت دون ولادة متعوّدة ، وكيف خلقت هي آية ؟ أحرى بنا ألا نخوض فيه ، فنكتفي بما قاله الله « ناقة الله لكم آية » .

ثم وتقاسُم الشِرب وهو نصيب الشُرب سوياً ، آية أُخرى ، كيف

تشرب ناقة بمفردها كشِرب جمهرة الناس المرسَل إليهم صالح ؟! وقد تكون نبعة الشرب آية ثالثة كما يروى[١] وهل ان هذه الآية المبصرة ابصرتهم ؟ كلّا وهم عميٌ لا يبصرون :

﴿ فَعَقَرُوهَا فَأَصْبَحُوا نَادِمِينَ ﴾١٥٧ .

والعقر هو إصابة الأصل والقعر ، وهو بالنسبة للناقة النحر المستأصِل نحروها نحراً لآية الرسالة ، وأخذاً لشِربها ، وأكلاً للحمها ، « فاصبحوا » بعد ذلك وحين رأو العذاب « نادمين » ولات حين مناص ، وتراهم عقروها كلُّهم ؟ وهذا خلاف النص في آية القمر « فنادوا صاحبهم فتعاطى فعقر » (٢٩) ! .

مهما كانت الشمس تعمه وسواهم كسائر آيات العقر : « فكذبوه فعقروها فدمدم عليهم ربهم بذنبهم فسواها » (١٤) « فعقروها فقال تمتعوا في داركم ثلاثة ايام » (١١ : ٦٥) ـ وذلك بعد عقرهم الناقة وتحديهم صالحاً بإتيان العذاب « فعقروا الناقة وعتوا عن امر ربهم وقالوا يا صالح إئتنا بما تعدنا إن كنت من المرسلين . فاخذتهم الرجفة فاصبحوا في دارهم جاثمين » (٧ : ٧٨) ، ذلك لأنهم شاركوا عاقرها إذ نادوه فتعاطى منهم سيفاً فعقرها كما في آية القمر ، فهم كلهم مشاركون في دَرك عن درَك ، وقد عد عاقرها ـ فقط ـ أشقى الأولين[٢] .

---

(١) مجمع البيان وروي عن امير المؤمنين (عليه السلام) انه قال : انه أوّل عين نبعت في الأرض هي التي فجرها الله عز وجل لصالح فقال : لها شرب ولكم شرب يوم معلوم .

(٢) نور الثقلين ٥ : ٥٨٧ قال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) لعلي (عليه السلام) من اشقى الأولين ؟ قال : عاقر الناقة قال : صدقت فمن اشقى

« ايها الناس إنما يجمع الناس الرضى والسخطُ وإنما عَقَر ناقة ثمود رجل واحد فعمّهم الله بالعذاب لما عمُّوه بالرضا فقال سبحانه « فعقروها فاصبحوا نادمين » فما كان إلاّ أن خارت أرضهم بالخسفة خوار السكة المحماة في الأرض الخوارة »[1] .

وقد نَسْتَلْهم من « عقروها » أن كلَّ مشارك في ظلم أو معاون ظالماً يُجمع معه في إثمه ، كلّ حسب دوره الفعال في الجريمة ، وحتى في النيَّة .

﴿ فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ ١٥٨ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴾ ١٥٩ .

تعقيب مكرور بصيغة واحدة لمصير المكذبين ، وليُعلم ان صيغة الرسالات واحدة كصيغة المكذبين بها ، سلسلتان متعارضتان في هذه المعركة المصيرية إلى يوم الدين .

كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٦٠﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطٌ
أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٦١﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٦٢﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ
وَأَطِيعُونِ ﴿١٦٣﴾ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا
عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٤﴾ أَتَأْتُونَ الذُّكْرَانَ مِنَ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٥﴾

الآخرين ؟ قال : قلت لا أعلم يا رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) قال : الذي يضربك على هذه وأشار إلى يافوخه .

(١) نهج البلاغة عن الامام امير المؤمنين علي (عليه السلام) .

وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُم مِّنْ أَزْوَاجِكُم ۚ بَلْ أَنتُمْ
قَوْمٌ عَادُونَ ﴿١٦٦﴾ قَالُوا لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَا لُوطُ لَتَكُونَنَّ مِنَ
الْمُخْرَجِينَ ﴿١٦٧﴾ قَالَ إِنِّي لِعَمَلِكُم مِّنَ الْقَالِينَ ﴿١٦٨﴾ رَبِّ
نَجِّنِي وَأَهْلِي مِمَّا يَعْمَلُونَ ﴿١٦٩﴾ فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ ﴿١٧٠﴾
إِلَّا عَجُوزًا فِي الْغَابِرِينَ ﴿١٧١﴾ ثُمَّ دَمَّرْنَا الْآخَرِينَ ﴿١٧٢﴾
وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا ۖ فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنذَرِينَ ﴿١٧٣﴾ إِنَّ فِي
ذَٰلِكَ لَآيَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧٤﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ
الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿١٧٥﴾

مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

﴿ أَتَأْتُونَ الذُّكْرَانَ مِنَ الْعَالَمِينَ ﴾١٦٥ .

« اتأتون الذكران » تنديد شديد بإتيانهم ، و« من العالمين » قد تتعلق بالآتين ، أنكم انتم المخصوصون بهذه العملية النكراء بين العالمين : « ما سبقكم بها من أحد من العالمين » (٧ : ٨٠) وأخرى بالماتيين ، فقد تلمح ـ إذاً ـ « من العالمين » دون « الناس » لعالم الجن ، وان قومه منهم كانوا كما الإنس يأتون الذكران منهم ، والمعنيان ـ علّهما ـ معنيّان ولكلٍّ وجهٌ ، مهما كان الثاني أوجه .

﴿ وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ ﴾١٦٦ .

وترى « من » هنا بيانية تبين « ما خلق لكم » ؟ والصيغة الصالحة لها « ازواجكم » أو « المخلوقة لكم » !

أم تبعيضية تعني عضو الجنس من الأزواج ؟ وصيغتها السائغة لها « فروجَ ازواجكم » ! إنها قد تعنيهما بياناً وتبعيضاً ، والثاني لا يخص القبل ، بل والدبر ايضاً مهما كان الأصل الصالح هو الأوّل ، ولو كان اتيان ادبارهن محظوراً لما اختص التنديد باتيان الرجال ، وأما إذا اختص الرجل اتيان زوجه بدبرها تاركاً للآخر ففيه بحث آخر قد نفي بالتحريم لأنه خلاف مصلحة الولادة الخاصة باتيان القبل .

وقد تلمح « ربكم » ان قضية الربوبية الخلّاقة ، المقتسمة الناسَ إلى قسمي الرجال والنساء ، اختصاص اتيان الجنس بالنساء ، وأما الرجال مع الرجال لواطاً أمّا هو ، أو النساء مع النساء مساحقة أمّا هي ، فذلك تعدٍ عن طور الخلقة وحكم الفطرة ومصلحة الولادة المقصودة بالزواج « بل انتم قوم عادون » صالح الربوبية ، عادون قضيته الفطرة السليمة ، عادون الحق المشترك بين الرجولة والأنوثة إلى المُجانس .

فالخطيئة المنكرة التي عرف بها قوم لوط المجرمون هي الشذوذ الجنسي باتيان الرجال شهوة من دون النساء : « أئنكم لتأتون الرجال شهوة من دون النساء بل انتم قوم تجهلون » (٢٧ : ٥٥) - « . . بل انتم قوم مسرفون » (٧ : ٨١) « أئنكم لتأتون الرجال وتقطعون السبيل وتأتون في ناديكم المنكر . . » (٢٩ : ٢٩) .

فذلك الإتيان المتخلف جهالة وإسراف وتعد عن طور الفطرة الإنسانية وخلقتها ، وقطع لسبيلها التناسلي أو العائلي !.

واما إتيان النساء شهوة قبلاً أو دبراً اماذا ؟ فلا محظور فيه لأنهن خلقن

للرجال : « نساءكم حُرث لكم فاتوا حرثكم أنّى شئتم » (٢ : ٢٢٣) مهما كان أصل الحرث هنا الولادة الحاصلة بالمقاربة العادية ، ولكن الأخرى ايضاً هي على هامش الحرث ، كما التفرج في حرث الزرع هو على هامش الحرث ولكن الأشبه الحرمة .

فقد برأ « ربكم » الذكر للأنثى والأنثى للذكر ، وفطر كلاً منهما على الميل إلى قسيمه الإنسان تحقيقاً للحكمة العالية الربانية في امتداد الحياة الإنسانية من طريق التناسل ، فكلما يدفع لتعطيل التناسل كأصل ، هو خارج عن أصل الحل ، سواء أكان لواطاً أم مساحقة ، أو عادة سرية ، أو اتيان حيوان أو إفراغاً للمني أو استعمال واسطة أمّاهيه من السبل القاطعة للنسل ، اللهم إلّا في موارد استثنائية إلّا المنصوص على حرمته اطلاقاً كالأربعة الأولى ، أم احياناً كإفراغ المني عن الزوجة الدائمة دون رضاها ولا محظور ، أو الإفراغ دائماً عن القبل ، ام اتيانها دبراً كذلك مهما كان برضاها ودون محظور ، فانها تخرج بذلك عن كونها حرثاً عن بكرتها .

ومن المحظور تعقيم الرجل أو المرأة بالوسائل المصطنعة وسواها ، إلّا إذا لزم الأمر ترجيحاً للأهم على المهم .

فكما ان اتيان الذكور لواطاً لا يرمي لهدف صالح ، ولا يحقق غاية إنسانية ، كذلك اتيان النساء النساء ، والعادة السرية ككل ، وعلى الهامش منع التناسل بأية وسيلة كانت .

وهنا في « أتأتون .. وتذرون » لمحة لامعة لحرمة المذكورات على اختلاف دركاتها ، فمبادلة ترك الزوجة باتيان غيرها محظور ، مهما كان المذكور هنا اللواط لشدة المحظور .

وفي إهلاكهم لفعلتهم لمحة إلى عذابهم المستحق بها وهو القتل كما هو الثابت في باب الحدود ، وما كان جوابهم عن ذلك التنديد الشديد القرين

ببيان الحكمة إلّا أن :

﴿ قَالُوا لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ يَا لُوطُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمُخْرَجِينَ ﴾[١٦٧] .

إخراجاً من قرية الدعوة بكل إحراج ، دون عودة إلا بانتهاء الدعوة : « فما كان جواب قومه إلّا أن قالوا أخرجوا آل لوط من قريتكم إنهم اناس يتطهرون » (٢٧ : ٥٦) ، ويتبين هنا ان آل لوط ـ وهم لوط والمؤمنون به أقاربَ وأغاربَ ـ كانوا يشاركونه في الدعوة ، وكما لمحت لها « من المخرجين » دون « مخرجاً » تهديداً لاستئصال جذور الدعوة عن القرية بأصلها وفصلها ، ثم الجواب :

﴿ قَالَ إِنِّي لِعَمَلِكُمْ مِنَ الْقَالِينَ ﴾[١٦٨] .

مقالة تظهر البراءة القاطعة عما كانوا يعملون ، أبراءة في القلب حيث هدّد بالأخراج ؟ لو كانت هكذا لما « قال إني . . » ! بل هي استمرارية لقالة النهي والتنديد ، ثم استنصار من الله تعالى :

﴿ رَبِّ نَجِّنِي وَأَهْلِي مِمَّا يَعْمَلُونَ ﴾[١٦٩] .

و « اهلي » هنا ليسوا هم ـ فقط ـ أقاربه وأنسبائه بل هم الأهلون للنجاة من المؤمنين معه ، اقارب وأغارب ، ولذلك لم يستثنِ عجوزه في الغابرين ! وليس « فما وجدنا فيها غير بيت من المسلمين » (٥١ : ٣٦) لتدل على أهلية النسب والسبب فحسب ، حيث الحالة الكارثة في القرية التي كانت تعمل الخبائث تقتضي جمعية المسلمين معه في بيت واحد وهم قلة قليلة ، ثم عجوز البيت ما كانت من المسلمين .

« نجني وأهلي من » مسئوليات وخلفيات « ما يعملون » أداءً لواجب الدعوة دون تساهل وتغافل ، ونجاةً من أن يمسوا أهلي بسوءِ ما يعملون ، فإنهم هارعون إليه دونما تمييز كما هرعوا إلى ضيفه المكرمين زعماً منهم أنهم

غلمان ، ونجاةً من ان يشملهم عذابهم بينهم

﴿ فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ ﴾١٧٠ .

« نجينا . . » من ثالوث العذاب ، وقد صرح بثالث ثلاثة وهو استئصالهم عن بكرتهم و :

﴿ إِلَّا عَجُوزاً فِي الْغَابِرِينَ١٧١ ثُمَّ دَمَّرْنَا الآخَرِينَ ﴾١٧٢ .

دليلٌ على أن النجاة ليست فقط عن التدمير ، بل وعن كلما كان يخاف منهم ، و « عجوزاً » هي امرأته المتخلفة عن شرعته وهداه ، والغابر هو الماكث بعد مضي ما هو معه،وكانت هذه العجوز ماكثة في كفرها بعد مضي ما معها من الدعوة الرسالية .

فـ« الغابرين » هنا هم الماضون في كفرهم دون رجوع : « فانجيناه وأهله إلا امرأته قدرناها من الغابرين » (٢٧ : ٥٨) لأنها ـ رغم كونها امرأة لوط ـ كانت من الغابرين رغم ملاصقة الدعوة طيلة حياة الزوجية .

وترى كيف « دمرنا الآخرين » وهم غير أهله اجمعين وفيهم نساءٌ لسن يقترفن ما اقترف الرجال ، وأطفال من القبليين غير مكلفين ؟ .

النساء البريآت من هذه الوصمة ما كنّ البريآت من الإدمان على الشرك والتكذيب بالرسالة ، فليشملهن مطر العذاب ، وأما الأطفال فليس تدميرهم مع الكبار ـ إن دمروا ـ عذاباً وكما سائر العذاب استئصالاً وتدميراً ، الشاملة للمذنبين والبريئين .

﴿ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَراً فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنْذَرِينَ ﴾١٧٣ .

إنه مطر سوء وليس مطر الماء الخير ، لأنهم منذرون ومتصلبون على

الكفر : « فجعلنا عاليها سافلها وامطرنا عليهم حجارة من سجيل » (١٥ : ٧٤) .

كَذَّبَ أَصْحَٰبُ لْـَٔيْكَةِ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٧٦﴾

إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾ إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ

أَمِينٌ ﴿١٧٨﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٧٩﴾ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ

عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٨٠﴾

* أَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ وَلَا تَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُخْسِرِينَ ﴿١٨١﴾

وَزِنُوا۟ بِٱلْقِسْطَاسِ ٱلْمُسْتَقِيمِ ﴿١٨٢﴾ وَلَا تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ

أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿١٨٣﴾ وَٱتَّقُوا۟

ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلْجِبِلَّةَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٨٤﴾ قَالُوٓا۟ إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ

ٱلْمُسَحَّرِينَ ﴿١٨٥﴾ وَمَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَإِن نَّظُنُّكَ

لَمِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿١٨٦﴾ فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ إِن

كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١٨٧﴾ قَالَ رَبِّىٓ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٨٨﴾

فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ ٱلظُّلَّةِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَذَابَ

يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٨٩﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم
مُّؤْمِنِينَ ﴿١٩٠﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿١٩١﴾

تأتي «اصحاب الأيكة» في أربع هذه منها، و« الأيكة» شجر ملتف، وأصحاب الأيكة نُسبوا إليها وهي غيضة وريفة من الأشجار كانوا يسكنونها وهي بلدتهم ، ورسولهم شعيب فيمن ارسله اليهم من أهل مدين وهم الأصلاء وهؤلاء فروع فـ« والى مدين اخاهم شعيباً » (٧: ٨٥) إذ كان منهم ، وهنا « إذ قال لهم شعيب » دون « أخوهم » إذ لم يكن منهم [١] وموقع مدين بين الحجاز وفلسطين حول خليج العقبة .

ولقد كانوا مخسرين الناس ، يبخسونهم أشيائهم ، عاثين في الأرض إفساداً ، فلذلك بزغت الدعوة الأصلاحية من صالح وفقاً لحالتهم البيئة كما هي سنة الرسالات المستمرة .

فهنا أوامر ونواهي ثلاث في ناحية هذه الدعوة المصلحة ، بعد ان طمأنهم برسالته الأمينة :

﴿ أَوْفُوا الْكَيْلَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُخْسِرِينَ ﴾١٨١ .

فالكيل بين وافٍ وطفيف وزائد ، إيفاءه واجب ، وطفيفه محرم،وزائده راجح ، وهنا أمر بواجب الإيفاء ونهيٌ عن محرم التطفيف والإخسار ، ولأن

(١) تفسير الفخر الرازي ٢٤: ١٦٣ وفي الحديث ان شعيباً اخا مدين ارسل اليهم والى اصحاب الأيكة .

الكيل يخص المكيل فامر ثان يخص الموزون :

﴿ وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ ﴾[١٨٢] .

وهو الميزان أياً كان ، واستقامته هو اعتداله في الوزن ، وقد يكون القسطاس مستقيماً والوزن غير مستقيم ، فليكن « المستقيم » وصفاً لكلا الوزن والقسطاس ، ثم ونهي يحلّق على كل إخسار وبخس كيلاً أو وزناً أم أياً كان في المعاملات الجماعية اقتصادية وثقافية وسياسية واخلاقية أمّاهيه :

﴿ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴾[١٨٣] .

والبخس هو النقص ، و « اشياءهم » تعم كل اشياءهم في مخمّس النواميس وملحقاتها : نفساً وديناً وعقلاً ومالاً وعرضاً ، فالبخس إياها محرم ، وتركها تُحرم أيضاً محرمٌ، ومحاولة التعاون في كمالها راجحة أم واجبة ، فإخسار الكيل واعوجاج القسطاس وبخس اشياء الناس إفساد ، والعبث في الأرض افساداً وهو السعي فيه إفساد على إفساد ، في أية ناحية من شر واجب الصلاح والإصلاح من النواميس الخمس .

فالإفساد الإقتصادي له دور هام بين سائر الإفساد ، يُنهى عنه كما يُنهى عنها في سائر الشرائع الإلّهية ، اصلاحاً للحالة المعيشية التي تلعب دوراً عظيماً في صالح الناس ، وإبعادهم عن شر النسناس الخناس .

واخيراً يستجيش شعيب مشاعر التقوى في نفوسهم كما بدأ، تذكيراً لهم بخالق الخلق اجمعين :

﴿ وَاتَّقُوا الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالْجِبِلَّةَ الْأَوَّلِينَ ﴾[١٨٤] .

« الجبلة » هي الخليقة المجبولة المطبوعة بطابع الفطرة التي فُطر الناس عليها ، فهي كالجبل لا تحركه العواصف ولا تزيله القواصف ، فمهما تحرك

من الإنسان أيٌّ من أشياءه عقلاً وعلماً وجسماً ، فالفطرة الإنسانية ثابتة كحجة بالغة لا تزول .

فالمؤمنون من الأوّلين كانوا يتقون ، والمتخلفون منهم عن شرعة الله هم المتخلفون عن جبلتهم فلماذا قَفوْا آثارهم ، فانتم على آثارهم تُهرعون ؟!

﴿ قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ١٨٥ وَمَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا وَإِنْ نَظُنُّكَ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ ﴾١٨٦ .

صيغة مطردة مكرورة بين المكذبين برسالات الله ، كأنهم تواصوا به ! شيطنة مدروسة مدسوسة بينهم كشريطة تدار على أسماع الدعاة إلى الله .

ولا فحسب التكذيب ، بل والتحدي بأن يأتوا بعذاب الله إن كانوا صادقين :

﴿ فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفاً مِنَ السَّمَاءِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ١٨٧ قَالَ رَبِّي أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾١٨٨ .

« ربي اعلم بما تعملون » فلست أنا ولا انتم ، وهو أقدر أن يأتيكم بعذاب ، وما أنا إلاّ رسول لا أقترح على ربي أصل العذاب ولا كَمَّه ولا كيفه « إنما العلم عند الله وابلغكم ما أرسلت به » (٤٦ : ٢٣) .

فحتى إن لم يأتكم عذاب لم يدل ذلك على كذبي في رسالتي ، فانها رسالة وليست ألوهية تقتضي القدرة على إتيان العذاب ، ولا وكالة عن الرب أو نيابة تستدعي استجلاب العذاب .

﴿ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ الظُّلَّةِ إِنَّهُ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾١٨٩ .

هنا عذاب يوم الظلة ولمدين الصيحة : « ولما جاء امرنا نجينا شعيباً والذين آمنوا معه برحمة منا وأخذت الذين ظلموا الصيحة فأصبحوا في ديارهم

جاثمين » (١١ : ٩٤) .

إذاً فيوم الظلة هي غير يوم الصيحة كما أن اصحاب الأيكة هم غير أهل مدين مهما كانت الرسالة اليهم واحدة فما هي ـ إذاً ـ الظُلة ؟ .

يقال هي السحابة المطلّة عليهم المُظلة ، وهم يحسبونها مَظلّة حيث أخذهم حرّ خانق حانق يكتم الأنفاس ويثقل الصدور[١] ، ثم تراءت لهم هذه السحابة الظُلّة فاستظلوا بها فوجدوا لها برداً ، فإذا هي تمطر عليهم ناراً ، أم صاعقة مجلجلة تفزعهم فدمرتهم تدميراً[٢] ، وعلى أية حال ليس هنا في النص إلا « يوم الظلة » ولا بد انها ظلة سماوية كما « نتقنا الجبل فوقهم كأنه ظلة » (٧ : ١٧١) ولكنها ظُلة تدمير وذِلة وه‍ إنه كان عذاب يوم عظيم » توحي بانه كان شعبة من عذاب الجحيم[٣] .

ذلك شطر من قصص الرسل والمرسل اليهم ، السبعة ، وما واجههم من التكذيب ، وقبلها كلها « تلك آيات الكتاب المبين » وهنا في الختام :

مركز تحقيقات كامپيوترى علوم اسلامى

---

(١) نور الثقلين ٤ : ٦٤ عن تفسير القمي « عذاب يوم الظلة » قال : يوم حر وكاتم .

(١) المصدر في « يوم الظلة » بلغنا والله اعلم انه اصابهم حرّ وهم في بيوتهم فخرجوا يلتمسون الروح من قبل السحابة التي بعث الله عز وجل فيها العذاب فلما غشيهم اخذتهم الصيحة فاصبحوا في دارهم جاثمين وهم قوم شعيب .

(٣) في الدر المنثور ٥ : ٩٣ عن ابن عباس في تفسير يوم الظلة : ارسل الله عليهم سموماً من جهنم فاطاف بهم سبعة ايام حتى انضجهم الحر فحميت بيوتهم وغلت مياههم في الآبار والعيون فخرجوا من منازلهم ومحلتهم هاربين والسموم معهم فسلط الله عليهم الشمس من فوق رؤسهم فتغشتهم حتى تقلقلت في جماجم وسلط الله عليهم الرمضاء من تحت ارجلهم حتى تساقطت لحوم ارجلهم ثم انشأت لهم ظلة كالسحابة السوداء فلما رأوها ابتدروها يستغيثون بظلها حتى إذا كانوا تحتها جميعاً اطبقت عليهم فهلكوا ونجى الله شعيباً والذين آمنوا معه .

وَإِنَّهُۥ
لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٩٢﴾ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾
عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ
مُّبِينٍ ﴿١٩٥﴾ وَإِنَّهُۥ لَفِى زُبُرِ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٩٦﴾ أَوَلَمْ يَكُن لَّهُمْ
ءَايَةً أَن يَعْلَمَهُۥ عُلَمَٰٓؤُا۟ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٩٧﴾ وَلَوْ نَزَّلْنَٰهُ
عَلَىٰ بَعْضِ ٱلْأَعْجَمِينَ ﴿١٩٨﴾ فَقَرَأَهُۥ عَلَيْهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ
مُؤْمِنِينَ ﴿١٩٩﴾ كَذَٰلِكَ سَلَكْنَٰهُ فِى قُلُوبِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٢٠٠﴾
لَا يُؤْمِنُونَ بِهِۦ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٢٠١﴾ فَيَأْتِيَهُم
بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٠٢﴾ فَيَقُولُوا۟ هَلْ نَحْنُ مُنظَرُونَ ﴿٢٠٣﴾
أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ ﴿٢٠٤﴾ أَفَرَءَيْتَ إِن مَّتَّعْنَٰهُمْ
سِنِينَ ﴿٢٠٥﴾ ثُمَّ جَآءَهُم مَّا كَانُوا۟ يُوعَدُونَ ﴿٢٠٦﴾ مَآ أَغْنَىٰ
عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يُمَتَّعُونَ ﴿٢٠٧﴾ وَمَآ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ إِلَّا لَهَا
مُنذِرُونَ ﴿٢٠٨﴾ ذِكْرَىٰ وَمَا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿٢٠٩﴾ وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ
ٱلشَّيَٰطِينُ ﴿٢١٠﴾ وَمَا يَنۢبَغِى لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٢١١﴾

إِنَّهُمْ عَنِ ٱلسَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ ﴿٢١٢﴾ فَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ
إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتَكُونَ مِنَ ٱلْمُعَذَّبِينَ ﴿٢١٣﴾ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ
ٱلْأَقْرَبِينَ ﴿٢١٤﴾ وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ
ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢١٥﴾ فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا
تَعْمَلُونَ ﴿٢١٦﴾ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٢١٧﴾ ٱلَّذِى
يَرَىٰكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٢١٨﴾ وَتَقَلُّبَكَ فِى ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٢١٩﴾
إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٢٢٠﴾ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ
ٱلشَّيَٰطِينُ ﴿٢٢١﴾ تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴿٢٢٢﴾ يُلْقُونَ
ٱلسَّمْعَ وَأَكْثَرُهُمْ كَٰذِبُونَ ﴿٢٢٣﴾ وَٱلشُّعَرَآءُ يَتَّبِعُهُمُ
ٱلْغَاوُۥنَ ﴿٢٢٤﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِى كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ ﴿٢٢٥﴾
وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ ﴿٢٢٦﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟
ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَذَكَرُوا۟ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱنتَصَرُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا۟ ۗ
وَسَيَعْلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَىَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ ﴿٢٢٧﴾

﴿ وَإِنَّهُ لَتَنْزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾١٩٢ .

فقد يعني الضمير الغائب « الكتابَ المبين » : القرآن ، أم ويعني فيما يعني رسولَ القرآن ، و« تنزيل » بديلاً عن « المنزل » علّه للتدليل على انه كله منزل منه تعالى كأنه هو التنزيل ، تنزيلاً من عليا الربوبية إلى دنيا العبودية ، ومن عالي الغيب إلى ظاهرة الشهود للمربوبين ، فليس تنزيلاً من مكان علٍ إلى مكان دان ، وانما من مكانة عالية إلى اخرى دانية ، دنوُّ الخلق عن الخالق مهما كان قلبَ الرسول العظيم (صلى الله عليه وآله وسلم) ، والناس كلهم فقراء إلى الله وهو الغني الحميد الكبير المتعال العلي العظيم والقاهر فوق عباده ، فرحماته رحمانية ورحيميةٌ ليست إلاّ تنزيلاً من علوّ الربوبية إلى دنو العبودية . والتنزيل هنا تشمل مرحلتي : الإحكام في انزاله دفعياً ، والتفصيل في تنزيله تدريجياً ، وهو فيهما إحداث حديث الذكر « ما يأتيهم من ذكر من الرحمن محدث . . » وليس ابرازَ العلم الأزلي حتى يكون قديماً كما الذات وصفات الذات .

وإضافة التنزيل إلى رب العالمين للتأشير إلى انه يحمل ربوبيته العالمية الكافلة لتربية العالمين إلى يوم الدين ، دونما نَظِرَةِ وحي آخر يكمِّله أو ينسخه خلاف سائر الوحي .

ليس القرآن تنزيل الروح القدسي الرسالي ، ولا الروح القدس على قلبه ، فهذا وسيط الوحي وذلك مهبطه ، وليس تنزيله إلاّ من رب العالمين كما يراه صالحاً للعالمين .

﴿ نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الأَمِينُ١٩٣ عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ١٩٤ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ ﴾١٩٥ .

نزل بالوحي الأمين الروح الأمين إلى الرسول الأمين « على قلبك »

دون ـ فقط ـ سمعك ، فَمنْزِل القرآن هو قلبه المكين : « من كان عدواً لجبريل فانه نزله على قلبك باذن الله » (٢ : ٩٧) . و « به » هنا هو القرآن المفصل المنزل نجوماً ، دون المحكم النازل عليه ليلة القدر ، والسر النازل عليه ليلة المعراج،إذ لم يكن هنا وهناك لوحيه أي وسيط : « قل نزله روح القدس من ربك بالحق ليثبت الذين آمنوا وهدى وبشرى للمسلمين » (١٦ : ١٠٢) ولا صلة لتثبيت المؤمنين إلّا بما يسمعونه منه من الوحي المفصل دون الأسرار المستسرة الخاصة بساحة الرسالة .

ودلالة اخرى « بلسان عربي مبين » وليس القرآن المحكم بلسان عربي أو سواه ، فضلاً عن « مبين » .

فجبريل الروح الأمين القدس نزل بالروح القرآن المفصل على قلبه (صلى الله عليه وآله وسلم) وهو ايضاً الروح القدس الأمين ، فالنأل والمَنزِل والمُنـزَل روحٌ قدُس أمين ، نور على نور يهدي الله لنوره من يشاء ، وتراه كيف « نزل . . على قلبك » والقرآن المفصل بما يحمل من ألفاظ تُسمع لا بد لَمنزله من أذن أو سمع ؟ فهل انه نزول المعنى دون لفظ كيلا يحتاج إلى أذن ؟ والقرآن يعني كلا اللفظ والمعنى ، فالمعنى دون لفظ لا يُقرء وإنما يُلهم ، وليس الملهم قرآناً ينزل حيث القراءة تخص اللفظ ! : « فاذا قرأناه فاتبع قرآنه » .

فنازل الوحي إلى قلبه اعم من القرآن حيث يعم محكمه الذي لا يُقرء ومفصّله الذي يُقرء .

أجل وللقلب سمع هو أسمع من سمع الأذن كما له بصر ، وليس سمع الأذن إلّا ذريعة لسمع القلب كما بصر العين ذريعة لبصر القلب ، وللقلب ان يسمع أو يبصر دون وسيط كما « نزل به الروح الأمين على قلبك » دونما وسيط .

وكيف لاو « القلوب ائمة العقول والعقول أئمة الأفكار والأفكار أئمة الحواس والحواس أئمة الأعضاء » فالقلب إمام الأئمة فكيف لا يؤم به الحس وهو ـ فقط ـ مأموم غير إمام ! وكيف لا ؟ ومن لزامات الوحي ألّا يسمعه إلّا من يوحى إليه ، فلو كان يحمل الفاظاً صوتية ـ وبطبيعة الحال جاهرة حتى يُسمع ـ لكان يسمعه غير النبي (صلىٰ الله عليه وآله وسلم) وقد كان يوحى اليه بمرأى ومسمع من الناس،فهو يسمع وهم لا يسمعون ، وإنما يرون كأنه يغشى عليه من وطأة الوحي ! وكان ينفث في روعه قرآناً وسواه من وحي (1) .

فلا يُسمع إلى قول القائل إن النازل إلى قلبه هو المعنى ـ فقط ـ والألفاظ هي من صياغته ﻓ « لا تحرك به لسانك لتعجل به ان علينا جمعه وقرآنه . . » (٧٥ : ١٨)! واسخف منه ان القرآن بلفظه ومعناه من منشآت النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) الملقاة من روحه الأمين إلى قلبه المكين ، إذ « ما كنت تعلمها انت ولا قومك » (١١ : ٤٩) فانما « نزل به الروح الأمين على قلبك . . » وهو « تنزيل رب العالمين » فهل أصبحت روحه الأمين ربَّ العالمين حتى ينزِّل القرآن على قلبه ؟ . !

ليس النص « قرءه الروح الأمين عليك » ام « نزل به عليك » حتى يحتمل قراءته على سمعه وانما « على قلبك » وهو عمق الروح حيث تتفاد بنور الوحي ، ولا بد للقلب من نورانية تامة طامة استعداداً لنزول الوحي القمة الأخيرة « من رب العالمين » « لتكون من المنذرين بلسان عربي مبين » :

« نزل . . لتكون من المنذرين بلسان عربي مبين » فالمنَزّل هو القرآن

---

(١) الدر المنثور ٥ : ٩٤ ـ اخرج ابن ابي شيبة عن عبد الله بن مسعود قال قال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) .

العربي المبين « على قلبك » والغاية من ذلك الإنزال ان تكون من المنذرين ، ولك اختصاص أن انذارك « بلسان عربي مبين » أبين من سائر كتابات الوحي عربية وسواها ، لو كان هناك قبل القرآن كتاب وحي عربي !، و« عربي » هو الواضح المعرِب عن معناه ، و« مبين » : يبينُ الألسن ولا تبينه الألسن »[1] .

﴿ وَإِنَّهُ لَفِي زُبُرِ الْأَوَّلِينَ ﴾١٩٦ .

هل « انه » : القرآن « في زبر الأولين » ؟ كما و« ان هذا لفي الصحف الأولى . صحف ابراهيم وموسى » (٨٧ : ١٩) ؟ إذاً فالقرآن نسخة عربية عن العهدين ، وليس وحياً يستقل عن زبر الأولين « نزل به الروح الأمين »[2] .

ولا يعقل ان محمداً (صلى الله عليه وآله وسلم) ـ وهو اعقل العقلاء ـ يدعي كذباً انه يستقل في وحي القرآن ليستغله في شرعة مبتدعة جديدة يدعيها افضل مما قبلها ، ثم يصرح ان القرآن نسخة عربية عن العهدين ، هدماً لما بناه وهدراً لما تبناه ، لتطول ألسنة علماء العهدين الناقمين

---

(١) نور الثقلين ٤ : ٦٥ في اصول الكافي علي بن محمد عن صالح بن ابي حماد عن الجمال عمن ذكره عن احدهما عليهما السلام قال سألته عن قول الله عز وجل « بلسان عربي مبين » قال : . . .

(٢) كتاب الهداية المطبوع بمعرفة المرسلين الأمر يكن بمصر سنة ١٨٩٨ ص ٤ ج ٢ وكتاب « القرآن والكتاب » للاستاذ حداد البيروتي تحت عنوان : هل بين القرآن والعهدين اتصال ونسب ؟ قائلاً : هنالك تصاريح من القرآن ان بينه وبين العهدين اتصال ونسب حيث : التوراة إمامه وهو في زبر الأولين وهو تفصيل وتعريب للكتاب المقدس وهو آيات بينات في صدور الذين أوتوا العلم وهم علماء أهل الكتاب ويجب ان يقتدي محمد في قرآنه بالكتاب وأهله وإذا شك فيه فليسأل أهل الكتاب ليعلموه ! ثم يحتج لكل بآية او آيات على حدّ زعمه نأتي عليها بجواباتها بطيات آياتها وكما فصلناها في كتابنا « المقارنات » .

عليه ، ودون ان يأتي بشيء جديد للمشركين !

ثم واقع الحال في العهدين ، المتوفرة فيهما التناقضات والمضادات للواقع وبين آياتهما ، دون القرآن الذي لا اختلاف فيه ، ثم اختلاف المواضيع بينه وبينهما تكميلاً لنقص أو نقضاً لباطل ، وحتى في العرض القصصي ، ذلك الواقع المتهافت بينهما وبين القرآن يبطل فرية انه نسخة عربية عن العهدين .

ثم المشركون الموجهة اليهم ـ في الأصل ـ هذه التوجيهات ، لم يكونوا ليؤمنوا بالأصل المزعوم للقرآن فضلاً عن الفرع القرآن ! فكيف يقول لهم ولماذا ؟ إنه نسخة عربية عن العهدين .

وكذلك الكتابيون حيث يعترضون : فإذاً لست على شيء جديد ، فلتكن لنا تبعاً وكيف ترجوا أن نتبعك ؟ .

ثم وكيف يصرح اولاً : « وانه لتنزيل رب العالمين . نزل به الروح الأمين على قلبك . . » ثم يناقضه بـ« انه لفي زبر الأولين » إذاً فلم يوح اليه ، إلّا إلى الأولين وهو راسمٌ رسمهم في هذا القرآن .

ثم « أولم يكن لهم آية ان يعلمه علماء بني اسرائيل »[١٩٧] عطفاً على « انه لفي زبر الأولين » يعني دليلاً ثانياً على استقلال وحي القرآن عما أوحي إلى الأولين ، ولو كان علماً لهم انه نسخة عربية لزبر الأولين لكان هدماً لبرهان القرآن امام الكتابيين والمشركين بما « يعلمه علماء بني اسرائيل » !

أم « انه » : القرآن بشارة له بوحيه بلسان عربي مبين ، « لفي زبر الأولين » وكذلك رسول القرآن ؟ وهذان واقعان لا مرد لهما مهما حرفت عن جهات اشراعها .

فبالنسبة لبشرى القرآن : « . . . وأوحي إلي هذا القرآن لأنذركم به ومن بلغ ءإنكم لتشهدون ان مع الله آلهة اخرى . . الذين آتيناهم

الكتاب يعرفونه كما يعرفون ابناءهم » (٦ : ٢٠) ، وكما جاء في كتاب اشعياء نبأ هذا الوحي العربي واليكم الأصل العبراني نصاً (٢٨ : ٩ ـ ١٤) :

« اِتْ مِي يُورِهْ دِعاهْ وِاِتْ مِيْ يا بِينْ شِمُوعَاهْ غِمُولِيْ مِحالابْ عِتِيقِي مِشَّادايِمْ كِي صَوَلاصاوْ صَوْلاصَاوْ قَوْلاقَاوْ قَوْلاقَاوْ زِعِير شَامْ زِعِير شَامْ [10] كِي بِلَعَجِي شَافاهْ وَبِلاشُونْ أحِرِتْ يدَبِرْ إلْ هاعامْ هَذْه [11] آشِرْ آمَرْ إليهِمْ زِئْت هَمْنُوحاهْ هانِيحُو لِعايِف وِزِئْت هَمَرْجَعاه وِلا آبوه شِمُوعْ [12] وِهاياهْ لاهِمْ دِبَرْ يِهْوَاهْ صَوْلا صاوْ صَولا صاوْ قَوْلاقاوْ قَولاقاوْ زِعِيرْ شامْ زِعِيرْ شامْ لِمَعَنْ يِلْخُوا وِخاشْلُوا آحُورْ وِنِشْبارو وِنُقِشُوا وِنِلْكادُوا [13] لاخِنْ شِمعُوا دِبَرْ يِهْواهْ أنْشِي لاصُون مِشْلِيْ هاعامْ هَذْه أشِرْ بِيروشالامْ » [14] :

« لمن تُرى يعلُم العلم ولمن يفقّه في الخطاب أللمفطومين عن اللبن للمفصولين عن الثدي [9] لأنه أمرٌ على أمرٍ أمرٌ على أمرٍ فرضٌ على فرضٍ فرضٌ على فرضٍ هنا قليلٌ وهناك قليلٌ [10] لأنه بلهجة لكناء بشفاه عجمية وبلسان غير لسانهم « العبراني » يعني « العربي » يكلم هذا الشعب [11] الذين قال لهم هذه هي الراحة فأريحوا الرازح وهذه هي الرفاهية فابوا ان يسمعوا [12] لذلك سيكون كلام الرب لهم امراً على امر أمراً على أمر . فرضاً على فرض ثم فرضاً على فرض هنا قليلاً وهناك قليلاً . لكي يذهبوا ويسقطوا إلى الوراء فيُحطَموا ويُصطادوا فيُؤخذوا [13] لذلك اسمعوا كلام الرب يا رجال الهُزءِ ولاة هذا الشعب الذي في اوشليم » [14](1) .

---

(١) الدر المنثور ٥ : ٩٤ ـ اخرج ابن مردويه عن عبد الله بن سلام قال : كان نفر من قريش من أهل مكة قدموا على قوم من يهود بني قريظة لبعض حوائجهم فوجدوهم يقرؤن التوراة فقال القرشيون ماذا نلقى ممن يقرأ توراتكم هذه لهؤلاء اشد علينا من محمد واصحابه فقال اليهود : نحن من اولئك براء أولئك يكذبون على التوراة وما انزل الله في

فهذه الآيات البينات بشارة جميلة للقرآن ونبيه انه يكلم هذا الشعب الاسرائيلي بغير لغتهم « كي بلعجي شافاه » بلسان اعجمي - غير لسانهم ... ، ثم وبالنسبة للرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) عشرات من البشارات سجلناها في « رسول الاسلام في الكتب السماوية » ويقول عنه القرآن : « الذين آتيناهم الكتاب يعرفونه كما يعرفون ابناءهم وان فريقاً منهم ليكتمون الحق وهم يعلمون » (٢ : ١٤٦) .

فالقرآن بنبيه والمواصفات القرآنية والرسالية المحمدية « لفي زبر الأولين » على تحرُّفها[١] : « يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة والانجيل .. » (٧ : ١٥٧) .

﴿ أَوَلَمْ يَكُن لَّهُمْ آيَةً أَن يَعْلَمَهُ عُلَمَاءُ بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴾ ١٩٧ .

الواو هنا عطف على آية القرآن نفسه وفيه الكفاية عن أيّة آية ، ثم آية « انه لفي زبر الأولين » لا فحسب للكتابين بل وكذلك للمشركين ، حيث البشارة به فيها مَلحمة غيبية تدل على انه من غيب الوحي على الرسول الأمين .

فان لم يكن لهم - كتابيين ومشركين - آية بنفسه وببشاراته في زبر الأولين « اولم يكن لهم آية ان يعلمه علماء بني اسرائيل » الأحرار ، غير المحرفين الكَلِم عن مواضعه ، إذ لم ينسوا حظاً عما ذكروا به .

أم وكل علماء بني اسرائيل قبل نزول القرآن مهما كفر به بعضهم إذ

الكتب إنما أرادوا عرض الدنيا فقال القرشيون فإذا لقيتموهم فسوِّدوا وجوههم وقال المنافقون ما يعلّمه إلاّ بشر مثله وأنزل الله : وانه لتنزيل رب العالمين - الى قوله - : وانه لفي زبر الأوّلين يعني النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) وصفته ونعته .

(١) راجع كتابنا « رسول الاسلام في الكتب السماوية » ص ١٠٨ - ١١٠ .

نسوا حظاً مما ذكروا به ولا تزال تطلع على خائنة منهم « وكانوا من قبل يستفتحون على الذين كفروا » (٢ : ٨٩) : بنبإ القرآن ورسوله الآتي ، فقد كان علماء بني اسرائيل يتوقعون هذه الرسالة وينتظرون هذا الرسول ، ويحسون ان زمانه قد أظلهم ، وأيامه قد أطلتهم ، يحدِّث بعضهم به بعضاً ويتحدثون على المشركين مستفتحين بذلك الفتح المبين !.

إنه « بلسان عربي مبين » لا يثير قوميتهم ، و« انه في زبر الأولين .. » يعلمه علماء بني اسرائيل ، فقد تمت عليهم الحجة وطمت المحجة.

﴿ وَلَوْ نَزَّلْنَاهُ عَلَىٰ بَعْضِ الْأَعْجَمِينَ ١٩٨ فَقَرَأَهُ عَلَيْهِم مَّا كَانُوا بِهِ مُؤْمِنِينَ ﴾ ١٩٩ .

« لو » هنا تُحيل تنزيله على بعض الأعجمين ، أعربياً ينزل على اعجمي « وما ارسلنا من رسول إلا بلسان قومه ليبين لهم » (١٤ : ٤) واختلاف لغة النازل عن لغة الرسول عرقلة في الدعوة ، ونقص في الدعاية ، ومثار للنكاية ، فعذر للمعنيين بالدعوة الرسالية.

أم أعجمياً على أعجمي؟ وهو نقص في اللغة حيث العربية قمة بين اللغات والوحي الأخير قمة بين سائر الوحي ، فليكن بلسان عربي مبين.

ثم والعرب الألداء وهم مبتدَءُ الدعوة ومنطلَقها ما كانوا ليؤمنوا به ، فليكن عربياً منزلاً على عربي.

« ولو نزلناه » عربياً أو اعجمياً « على بعض الأعجمين فقرأه عليهم » أصلاً أو ترجماناً « ما كانوا به مؤمنين » حيث النخوة العربية وقوميتها المتعرقة فيهم كانت تصدهم عن ان يؤمنوا به : « ولو جعلناه قرآناً اعجمياً لقالوا لولا فصلت آياته ءأعجمي وعربي قل هو للذين آمنوا هدىً وشفاء والذين لا يؤمنون في آذانهم وقر وهو عليهم عمى اولئك ينادَون من مكان بعيد »

(٤١ : ٤٤)[١] .

اجل و « لو نزلنا القرآن على العجم ما آمنت به العرب وقد نـزل على العرب فآمنت به العجم فهذه فضيلة العجم »[٢] .

﴿ كَذَٰلِكَ سَلَكْنَاهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ ٢٠٠ لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ حَتَّىٰ يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ٢٠١ فَيَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ ٢٠٢ .

« ولقد ارسلنا في شيع الأولين . وما يأتيهم من رسول إلاّ كانـوا به يستهزؤن . كذلك نسلكه في قلوب المجرمين . لا يؤمنون به وقد خلت سنة الأولين . ولو فتحنا عليهم باباً من السماء فظلوا فيه يعرجون . لقالوا إنما سكرت أبصار نابل نحن قوم مسحورون » (١٥ : ١٠ ـ ١٤) « كـذلك » القويم القويم « نسلكه » : القرآن ـ إنفاذاً « في قلوب المجرمين » قطعاً لكافة الأعذار القومية والاقليمية واختلاف اللغة أماميه ، وسرداً لكافة البراهين القاطعة لوحي القرآن داخلية وخارجية ، ولكنه ليس لينسلك في هذه القلوب المقلوبة فـ« لا يؤمنون به » تخيُّراً منهم رغم بارعة الحجج إلاّ عند رؤية الباس : « حتى يروا العذاب الأليم » .

و « كذلك » البعيد البعيد « نسلكه » : عدم الايمان بالقرآن رغم ناصع البرهان « في قلوب المجرمين » طبعاً عليها وختماً : « فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم »[٣] .

---

(١) راجع تفصيل البحث عن الآية إلى سورتها .
(٢) نور الثقلين ٤ : ٦٥ في تفسير القمي في الآية قال الصادق (عليه السلام) : . . .
(٣) فهنا مراجع لضمير الغائب في نسلكه : قرآنا وتكذيباً به وايماناً به ، والأولان صالحان معنوياً والأخير لا يصلح كما بيناه .

وهذا السلك هو من مخلفات السلك الأوّل المواجه بالتكذيب جزاء وفاقاً . ومن مخلفات السلك الثاني : « لا يؤمنون به حتى يروا العذاب الأليم » هنا في الرجعة أو قبلها ، ام في البرزخ والأخرى : « فلما رأوا بأسنا قالوا آمنا . . . فلم يك ينفعهم ايمانهم لما رأوا باسنا سنة الله التي قد خلت في عباده وخسر هنالك المبطلون » (٤٠ : ٨٥) ، فلا نعني « كذلك نسلكه » سِلكَ الايمان فان الله ليس ليحمل المكذبين على الايمان ، ولو حَمَل على ايمان فكيف « لا يؤمنون به . . » ؟ : « ولو شاء ربك لآمن مَن في الأرض كلهم جميعاً » (١٠ : ٩٩) .

« فيأتيهم » ذلك العذاب الأليم « بغتة »دون إخبار ولا إمهال .«وهم لا يشعرون»به و « لا يشعرون » الايمان بالقرآن .

﴿ فَيَقُولُوا هَلْ نَحْنُ مُنظَرُونَ ﴾٢٠٣ .

إنظاراً لكي نؤمن به ، ولات حين مناص ، وقد فات زمن الخلاص .

﴿ أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ ﴾٢٠٤ .

فلقد كانوا يستعجلون بعذاب الله الموعود للمكذبين تحدّياً على النبيين ، استهتاراً واغتراراً بما لهم من مُتَع الحياة الدنيا ، وهم بذلك الإستعجال العِضال يكدِّرون خاطر النبي الأقدس محمدٍ (صلى الله عليه وآله وسلم) .

﴿ أَفَرَأَيْتَ إِنْ مَتَّعْنَاهُمْ سِنِينَ٢٠٥ ثُمَّ جَاءَهُمْ مَا كَانُوا يُوعَدُونَ٢٠٦ مَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يُمَتَّعُونَ ﴾٢٠٧ .

فقد « رؤيَ النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) كأنّه متحيِّر فسألوه عن ذلك فقال : ولِمَ ؟ ورأيت عدوي يلُون أمر امتي من بعدي فنزلت : « افرأيت . . . »[1] .

---

(١) الدر المنثور ٥ : ٩٥ - إخرج ابن ابي حاتم عن ابي جهضم قال رؤي . . .

فلقد كان يغمُّه متاعُهم خوفةً على شرعته وأمته ، إمرةً لمن لا يؤمن ولا يؤمَن(١) على المسلمين ، فطمْأنَهُ ربُّه أن ايديهم قاصرة عن القضاء على شرعة الله ، مهما كانت طائلة في متع الحياة الدنيا ، فان للحق دولة وللباطل جولة ، وسوف تزول كل المُتع عن الكفار في دولة القائم المهدي (عج)(٢) .

﴿ وَمَا أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ إِلَّا لَهَا مُنْذِرُونَ٢٠٨ ذِكْرَى وَمَا كُنَّا ظَالِمِينَ ﴾٢٠٩ .

« منذرون » هنا تأشير إلى تواتر الإنذار بحق المهلَكين « ذكرى » لهم عن غفوتهم فطرياً وعقلياً ، فان مواد الهدى مرتكزة في الفِطر والعقول ، ولا يعني بعثُ الرسول كأصل إلّا « ذكرى » لمن استُغفلوا عن دلائل الايمان ، ايقاظاً لأصول الهدى ، ثم الفروع تتبناها واردةً على قضايا الفِطَر والعقول .

« وما كنا ظالمين » في ذلك الإهلاك ، و « كنا » هنا تستأصل أصل

مركز تحقيقات كامپيوتري علوم اسلامي

---

(١) نور الثقلين ٤ : ٦٥ في الكافي بسند متصل عن ابي عبد الله (عليه السلام) قال أري رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) في منامه بني امية يصعدون على منبره من بعده ويضلون الناس عن الصراط القهقري ، فاصبح كئيباً حزيناً قال : يا جبرئيل إني رأيت بني امية في ليلتي هذه يصعدون منبري من بعدي يضلون الناس عن الصراط القهقري فقال : والذي بعثك بالحق نبياً إني ما اطلعت عليه فعرج إلى السماء فلم يلبث ان نزل عليه بآي من القرآن يونسه بها قال : « افرأيت إن متعناهم سنين . . . » وانزل عليه : « إنا انزلناه في ليلة القدر . . . » جعل الله ليلة القدر لنبيه (صل الله عليه وآله وسلم) خيراً من الف شهر ملك بني امية .

(٢) تفسير البرهان ٣ : ١٨٩ محمد بن العباس بسند متصل عن ابي عبد الله (عليه السلام) في الآية قال : خروج القائم (عليه السلام) « ما اغنى عنهم ما كانوا يمتعون » قال : هم بنو امية الذين متعوا في دنياهم .

كينونة الظلم في الله سبحانه وتعالى ، إذ لا دافع له إليه ، ولو كان لم يظلم لأنه عدل حكيم ، وانما يحتاج إلى الظلم الضعيف ، خوفة من القوي أن يغلبه ، أو يساميه في القوة ، وكلٌ ذلك مسلوب عن ساحة قدسه سبحانه .

﴿ وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ الشَّيَاطِينُ٢١٠ وَمَا يَنْبَغِي لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ٢١١ إِنَّهُمْ عَنِ السَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ ﴾٢١٢ .

« وانه لتنزيل رب العالمين » - « وما تنزلت به الشياطين » عن الملأ الأعلى ، رداً على المتطاولين على الذكر الحكيم انه « تنزلت به الشياطين » .

« وما تنزلت » ببرهان القرآن نفسه انه ليس نازلاً إلاّ بعلم الله ، « وما ينبغي لهم » : الشياطين أن ينزلوا به ، والإبتغاء هو قبول البغي الطلب ، فحتى لو طلب من الشياطين ان يتنزلوا بالقرآن « ما ينبغي لهم » قبولاً لذلك الطلب ، فان قلوبهم مقلوبة عن الهدى مملوءة من الردى ، فأنى لهم ان يحملوا بتلك القلوب المظلمة وحي القرآن ؟ .

ثم « وما يستطيعون » لو حاولوا في قبول ذلك التنزيل ، ان يقبلوه ، لـ« انهم عن السمع لمعزولون » : « لا يسَّمَّعون إلى الملأ الأعلى ويقذفون من كل جانب . دحوراً ولهم عذاب واصب. . . . » (٣٧ : ٩) .

فإذا كانوا عن السمع معزولين فلا يسمعون مهما تسمعوا ، فكيف يحملون الوحي-بقلوبهم المقلوبة-إلى قلوب النبيين ؟ .

وحتى لو ساغ لهم سمعه وحمله بقلوبهم فـ« لا ينبغي لهم » سماحاً لذلك الحمل العظيم لأنهم غير مأمونين ، إذ يخلطون الحق بباطل يهوونه ، رغم خالص الوحي الذي يحوونه ! إذ « لا يستطيعون » حمله خالصاً وأداءً كما حمّلوه قضية غلبة الشقوة عليهم لـ« انهم عن السمع » للحق الناصح « لمعزولون » ومن الشروط الأصيلة للتنزل بالوحي سمعُه في قرارة نفس

الوسيط .

فلو تنزلت به الشياطين على ذلك النبي الأمين وهو يلعنهم ليل نهار ، لكان احرى ان تُنزِّل به على اولياءهم نقضاً لما يدعيه من وحي الرحمٰن ، وكيف تصبح الشياطين بهذه القدرة الخارقة أرحم بعدوِّهم من أولياءهم وأنعم ، وهم يحاولون دائباً نقض الوحي ونقضَه ، تعبيداً لطرق الشيطنات .

فـ« وما يستطيعون » بارزة كالشمس في رابعة النهار إذ ما تنزلوا به على أولياءهم ، « وانهم عن السمع لمعزولون » ظاهرة كالنار على المنار ، فلو لم يكونوا معزولين لأتوا بمثله وأحرى لأولياءهم ، فلا يرد أن ذلك البرهان دور مصرح ، حيث التصديق بـ« لا يستطيعون ـ و ـ معزولون » منوط بتصديق القرآن انه وحي الرحمن ، كما ان هذا التصديق منوط بـ« لا يستطيعون ـ و ـ معزولون » ؟ حيث الإنعزال وعدم الاستطاعة باهر واقعياً إذ لم يأتوا بمثله إلى أولياءهم مهما حاولوا واحتالوا ! إذاً :

﴿ فَلَا تَدْعُ مَعَ اللهِ إِلَهاً آخَرَ فَتَكُونَ مِنَ الْمُعَذَّبِينَ ﴾٢١٣ .

ولماذا تدعو مع الله إلَهاً آخر وهو حسبك الكافي ونعم الوكيل ؟ وذلك النهي الصارم ليس صداً عن اقترافه اشراكاً بالله ، واعترافه بغير الله ، وانما هو استئصال لآمال المشركين ان يركن اليهم ويَميل بُغية ايمانهم ، ام تقليلاً لثورة كفرهم .

ثم « فتكون من المعذبين » تنبيهة عالية للمؤمنين أن الداعي مع الله إلَهاً آخر يعذَّب ولو كان هو الرسول العظيم ، فضلاً عمن دونه من المؤمنين !

والقول إن التكليف لا يعني في نفيه واثباته إلّا نفي النقص الحاصل واثبات الكمال غير الحاصل ، والرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) بالغ ذروة الكمال فكيف ينهى عن الشرك ويؤمر بلزامات الايمان والرسالة .

إنه مردود بان العصمة لا تنافي الإختيار ، ولا حد ـ كذلك ـ للكمال ، وان تكليف السلب والايجاب لا يلازم اقتراف المنهي عنه وترك المأمور به ، بل هو كأصل إعلام بحكم الله ، وإعلان للأمة بمرادات الله ، وان الرسول يحمله كرسول إلى الأمة بعد ما يحمله كمكلف من سائر المكلفين .

﴿ وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ ﴾٢١٤ .

وهنا انتقاله في النذارة من نفس الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) إلى عشيرته الأقربين ، ومن ثَمَّ إلى سواهم وإلى العالمين أجمعين ، وهي طبيعة الحال في الدعوة الصالحة الرسالية ، أن يبدء الرسول بنفسه وذويه الأقارب ، ثم الأغارب ، حيث الأقربين هم الحملة الأولى للرسالة بعد الرسول ، وفي تركهم إلى سواهم حجة على الرسول : كيف ترك ذويه واتجه إلى سواهم ، ويكأن في دعوته غضاضة لا يقبلها ذووه ! وهم اعرف به وبدعوته فلو كان حقاً لما تركوه ، وليعلم العشيرة الأقربون أنه لا تنفعهم قرابتهم منه شيئاً إلاّ بالايمان .

فلما نزلت هذه الآية بكى رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) ثم جمع اهله فقال : يا بني عبد مناف أنقذوا أنفسكم من النار يا بني عبد المطلب انقذوا أنفسكم من النار ثم التفت إلى فاطمة فقال : يا فاطمة بنت محمد أنقذي نفسك من النار فإني لا أغني عنكم من الله غير أن لكم رحماً سأبلها ببابلها »(١) .

---

(١) الدر المنثور ٥ : ٩٦ ـ اخرج ابن مردويه عن انس قال لما نزلت : وانذر عشيرتك الأقربين بكى ... وفيه ٩٧ ـ اخرج ابن اسحاق وابن جرير وابن ابي حاتم وابن مردويه وابو نعيم والبيهقي في الدلائل من طرق عن علي (عليه السلام) قال : لما نزلت هذه الآية على رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) : وانذر عشيرتك الأقربين ، دعاني رسول الله

مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

وقد يؤشر ذلك الأمر الإمر انه كان في بداية الدعوة ولما يتسع نطاقها ، كما « فاصدع بما تؤمر واعرض عن المشركين » (١٥ : ٩٤) فانتفض لتحقيق الأمر فنفض يده من امرهم ووكلهم إلى الله ، وبيِّن لهم مراراً وتكراراً ان قرابتهم له لا تنفعهم ولا تغني عنهم من الله شيئاً ، كيف ولا تنفعه رسالته لو

(صلى الله عليه وآله وسلم) فقال : يا علي ! إن الله أمرني ان انذر عشيرتي الأقربين فضقت بذلك ذرعاً وعرفت أني مهما ابادئهم بهذا الأمر أرى منهم ما اكره فصممتُ عليها حتى جاء جبرئيل فقال يا محمد انك إن لم تفعل ما تؤمر به يعذبك ربك فاصنع لي صاعاً من طعام واجعل عليه رجل شاة واجعل لنا عساً من لبن ثم اجمع لي بني عبد المطلب حتى اكلمهم وابلغ ما امرت به ففعلت ما امرني به ثم دعوتهم له وهم يومئذٍ اربعون رجلاً يزيدون رجلاً أو ينقصون فيهم اعمامه أبو طالب وحمزة والعباس وأبو لهب فلما اجتمعوا اليه دعاني بالطعام الذي صنعت لهم فجئت به فلما وضعته تناول النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) بضعة من اللحم فشقها باسنانه ثم القاها في نواحي الصفحة ثم قال : كلوا بسم الله فأكل القوم حتى نهلوا عنه ما نرى إلا آثار اصابعهم والله أن كان الرجل الواحد ليأكل ما قدمت لجميعهم ، ثم قال اسق القوم يا علي فجئتهم بذلك العس فشربوا منه حتى رووا جميعاً وايم الله ان كان الرجل منهم ليشرب مثله فلما اراد النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) ان يكلمهم بدره أبو لهب إلى الكلام فقال : لقد سحركم صاحبكم فتفرق القوم ولم يكلمهم النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) فلما كان الغد قال يا علي ان هذا الرجل قد سبقني إلى ما سمعت من القول فتفرق القوم قبل ان أكلمهم فعدلنا بمثل الذي صنعت بالأمس من الطعام والشراب ثم اجمعهم لي ففعلت ثم جمعتهم ثم دعاني بالطعام فقربته ففعل كما فعل بالأمس فاكلوا وشربوا حتى نهلوا ثم تكلم النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) فقال يا بني عبد المطلب إني والله ما أعلم احداً في العرب جاء قومه بأفضل مما جئتكم به إني قد جئتكم بخير الدنيا والآخرة وقد أمرني الله ان ادعوكم اليه فايكم يوازرني على امري هذا ؟ فقلت : - وانا احدثهم سناً - انا فقام القوم يضحكون .

أقول وقد أخرج القصة باختلافات يسيرة مع الحفاظ على اصلها جم غفير من المحدثين (راجع الدر المنثور وجامع البيان ونور الثقلين والبرهان وبحار الأنوار) .

لم يأتمر أمر ربه وهو في القمة المرموقة !.

﴿ وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾٢١٥ .

خفض الجناح هو ابلغ اللين والرفق والضعة والحنان، تصوراً عن الطائر إذ يخفض جناحه إذ يهبط، ويخفضه حين يحتضن أفراخه، وكذلك يؤمر الرسول حين يهبط عن سماء الوحي برسالة الأرض والسماء، ان يخفض جناح الرحمة لأفراخه المؤمنين به، من أقارب وأغارب، دونما ممارات أو مماشاه مع المكذبين الأقارب، أم طردٍ للمؤمنين الأغارب، أم ترجيحاً بين من آمن للأقارب، وانما «لمن اتبعك من المؤمنين» وكما الطائر لا يطير عن افراخه ولا يغيب في الحالات الحرجة، كذلك أنت يا ايها الطائر القدسي الرسالي دُم على افراخك المؤمنين: «واخفض جناحك للمؤمنين . وقل اني انا النذير المبين» (١٥: ٨٩) وقد كان خافض الجناح لهم على ما كان من بعضهم من جفاوة، فلا يواجههم - إذاً - إلّا بكل حنان وحفاوة، بل وبالنسبة لغير المؤمنين ايضاً علّهم يؤمنون.

﴿ فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴾٢١٦ .

وترى ضمير الجمع في «عصوك» راجع إلى الكفار فقط ؟ وهم أبعد مرجعاً ! والبراءة لا تخص عمل الكافر، بل والأصل فيها كفره في قلبه حيث يخلّف تخلفه في عمله ! أم هو راجع إلى «من اتبعك من المؤمنين» على قربها مرجعاً ؟ وكيف يواجه الرسول المؤمن الفاسق بتلك البراءة ومن شروطات النهي عن المنكر لين الكلام بالحكمة والموعظة الحسنة .

علّه راجع إليهما، والبراءة - إذاً - يخص ما يعملون، إذ لا براءة من المؤمن نفسه إن كان فاسقاً .

أم ان «ما تعملون» هي نفسه «ان عصوك» والعصيان يعم الجوانح

إلى الجوارح ، بل وعيان الجوارح هو من مخلّفات عصيان الجوانح ، إن كفراً فأعمال كافرة ، وإن فسقاً ففاسقة ، فـ« مما تعملون » في الكافر يعم قلبه وقالبه ، وفي المؤمن الفاسق عملَه إلى تخلفه في قلبه أو نيته .

ثم « إني بريء » في مواجهة الكافر تختلف عنها أمام المؤمن ، والبراءة من العصيان هي قضية الرسالة ، والمجاهرة بها هي من أخريات المطاف في النهي عن المنكر ، وقد تلمح الآيات التالية أن المحور هنا في « ان عصوك » هم الكفار وعلى هامشهم عصاة المؤمنين .

﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ ٢١٧ الَّذِي يَرَاكَ حِينَ تَقُومُ ٢١٨ وَتَقَلُّبَكَ فِي السَّاجِدِينَ ٢١٩ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾ ٢٢٠

و« العزيز الرحيم » تلحقيقة مكرورة طوال السورة في عرض الايمان والكفر ، فـ« العزيز » أمام الكافرين و« الرحيم » أمام المؤمنين ، فـ« توكل » في كل المجالات الرسالية « على العزيز الرحيم » ولا يهمك بعدُ ماذا يحصل بعد ان تُطبّق أمر الله في دعوتك فانه : « الذي يراك حين تقوم » في صلاتك وفي الدعوة الرسالية[1] . « يراك » بعين العلم والقدرة والعناية فلا تفلت عن رؤيته ، إذ لا يلتفت عن رعايتك .

«يراك حين تقوم. وتقلبك في الساجدين» منذ كنت في أصلاب طاهرة وأرحام مطهرة ، وحتى رسالتك وإلى ارتحالك إلى رحمة ربك[2] فهل ترى ان

---

(١) نور الثقلين ٤ : ٦٩ القمي حدثني محمد بن الوليد عن محمد بن الفرات عن ابي جعفر (عليه السلام) في الآية : الذي يراك حين تقوم « في النبوة » وتقلبك في الساجدين » قال : في اصلاب النبيين .

(٢) المصدر . روى جابر عن ابي جعفر (عليه السلام) قال : قال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) وفي الدر المنثور ٥ : ٩٨ - اخرج ابن مردويه عن ابن عباس قال سألت

الله يتغافل عمن تكون حياته قياماً لدينه ، وتقلّبه فيها سجوداً « في الساجدين » .

وقد يعني « تقلبك في الساجدين » إلى ما عناه ، أنه كان يرى في صلاته من خلفه كما يرى من بين يديه ، تقلب العلم والرؤية للساجدين وهو في الساجدين ، وكما يروى عنه (صلى الله عليه وآله وسلم) : « لا ترفعوا قبلي ولا تضعوا قبلي فاني أراكم من خلفي كما أراكم من أمامي ثم تلا هذه الآية »(١) .

رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) فقلت بابي أنت وامي اني كنت وآدم في الجنة ؟ فتبسم حتى بدت نواجذه ثم قال : اني كنت في صلبه وهبط إلى الأرض وانا في صلبه ، وركبت السفينة في صلب ابي نوح وقذفت في النار في صلب ابي ابراهيم لم يلتق ابواي قط على سفاح لم يزل الله ينقلني من الأصلاب الطيبة إلى الأرحام الطاهرة مصفّى مهذباً لا تتشعب شعبتان إلا كنت في خيرهما قد اخذ الله بالنبوة ميثاقي وبالاسلام هداني وبين التوراة والانجيل ذكري وبين كل شيء في شرق الأرض وغربها وعلمني كتابه ورقى بي في سمائه وشق لي من اسمائه فذو العرش محمود وانا محمد ووعدني ان يحبوني بالحوض واعطاني الكوثر وانا أوّل شافع وأوّل مشفع ثم اخرجني في خير قرون امتي وامتي الحمادون يامرون بالمعروف وينهون عن المنكر . ورواه في البرهان ٣:١٩٢ عن ابن بابويه عن جابر قال سئل رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) . . مثله وروى بطرق كثيرة . وفي تفسير البرهان ٣:١٩٢ القمي قال حدثني محمد بن الوليد عن محمد بن الفرات عن ابي جعفر (عليه السلام) قال : الذي يراك حين تقوم وتقلبك في الساجدين قال : في اصلاب النبيين .

(٢) المصدر - اخرج مالك وسعيد بن منصور والبخاري ومسلم وابن مردويه عن ابي هريرة قال قال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) هل ترون قبلتي ههنا فوالله ما يخفى عليّ خشوعكم ولا ركوعكم واني لأراكم من وراء ظهري وفيه اخرج ابن مردويه عن ابن عباس في الآية قال : كان النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) إذا قام إلى الصلاة رأى من خلفه كما يرى من بين يديه واخرجه مثله عن مجاهد .

أم وكل تقلّباته وتحولاته الحيوية في الساجدين وهم كل المؤمنين معه ، والآية تتحمل مربعة المعاني أدبياً ومعنوياً .

﴿ قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَنْ تَنَزَّلُ الشَّيَاطِينُ ٢٢١ تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ٢٢٢ يُلْقُونَ السَّمْعَ وَأَكْثَرُهُمْ كَاذِبُونَ ﴾ ٢٢٣ .

أجل إن الشياطين لا تتنزل إلاّ على الشياطين وهم كل أفاك أثيم ، دون المؤمنين الصادقين ، ولا سيما المخلَصين : « قال فبعزتك لأغوينهم اجمعين . إلاّ عبادك منهم المخلصين » (٣٨ : ٨٣) .

والإفك هو قلب الخبر إلى غير واقعة ، فالأفّاك هو المقلّب ، والأثيم هو الفعال لكل اثم وقبيح ذميم .

« يُلقون السمع » تسمُّعاً واستراقاً دون سماعٍ صادقٍ مسموحٍ ، فلذلك : « واكثرهم كاذبون » فيما ينقلون عن الملإ الأعلى .

ولأن « السمع » تعم المصدر والمفعول ، فمصدره يعني إلقاء التسمُّع إلى الملإ الأعلى ، ومفعوله يعني إلقاء ما سمعوه منه إلى شياطينهم ، « واكثرهم كاذبون » في تسمعهم وإسماعهم ، وقد يعني يلقون ـ الى ما عناه ـ « كل افاك أثيم » ـ « يلقون السمع » إلى هؤلاء الشياطين دونما تثبت فيما يسمعون « وأكثرهم كاذبون » فيما ينقلون ، وحتى القليل الصادقين في سمعهم إنما ينقلون ما يسمعون من الكذب ، ونقلُ الكذب كذبٌ مهما كان صدقاً في النقل .

وفي صيغة « يلقون » لمحة باهرة أنهم كانوا يسمعون بسمعهم دون انفسهم بعقولهم وقلوبهم ، ففي إلقاءهم سمعَهم إلغاءه بانقطاع صلته عن نفوسهم ، ولا سيما « كل أفّاكٍ أثيم » يحوِّلون أسماعهم إلى الشياطين بغير حساب ، ومثلَه كـ« يقولون بأفواههم » ـ « إذ تلقون بالسنتكم » عناية إلى

إلغاء الألسنة والأسماع عن الرباط بالعقول والأفكار ، يقول ويسمع دون تعقل وتفكير .

وإذا كان « اكثرهم كاذبون » يعني كلا الملقين والملقىٰ اليهم ، سقط القول : كيف « اكثرهم كاذبون » والشياطين كلهم كاذبون فيما يقولون أو ينقلون ، مهما خلطوا صدقاً إلى كذبهم ؟ حيث الأكثر يعني الملقىٰ إليهم فيما ينقلون .

ولأننا لا نجد إفكاً ولا إثماً في هذا النبي الكريم ، ولا كذباً في قرآنه العظيم ، فليس إذاً مما تنزل به الشياطين ، فصدق القرآن بوحيه الأمين ، هو من القضايا التي قياساتها معها دون حاجة إلى برهان آخر ، بل هو البرهان لكل برهان ، والشاهد لكل حق .

﴿ وَالشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ ﴾ ٢٢٤ .

جواب آخر عن فرية أخرى أنه (صلى الله عليه وآله وسلم) « شاعر نتربص به ريب المنون » (٥٢ : ٣٠) يخيِّل بشعره إلى الناس كلَّ ما يقوله كأنه حق يوحىٰ إليه ، حيث الشعر باب من السحر .

وترى من هم الشعراء ؟ وما هو الشعر ؟

الشعر لغوياً من الشَّعر : الدقة واللطافة في الإدراك ، ويقال لما يقابل النثر حيث يَجمع إلى لطائف المعاني وحقائقها لطائفَ الأوزان ودقائقها،وقد يَصل المعنى الحق بين الأمرين فيُصل ، ويقال لكل واحد ايضاً شعر ، معنى دقيق دون وزن الشعر ، وزن الشعر دون معنى دقيق ، والجامع للأمرين هو الشعر المطلق وأحدهما مطلق الشعر .

« والشعراء » من النوع الأول هم غاوون و « يتبعهم الغاوون » حيث يذهبون في اقوالهم المذاهب المختلفة ، ويسلكون الطرق المتشعبة ، يهبون مع كل ريح ، ويطيرون بكل جناح ، فيرتكبون أي جُناح ، تابعين لكل قائد ، ومجيبين لكل ناعق ، سَلِسوا القياد لمن يجرُهم ، متصرفين في وجوه الكلام من مدح وذم واستزادة وعَتْبٍ وغزل ونسيب ورثاء وتشبيب ، أودية متشعبة وسبل مختلفة في الشعر فيها يهيمون :

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ٢٢٥ وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ ﴾٢٢٦ .

الهَيمان هو الذهاب على وجه الإسترسال دونما حساب ، كما وهيمان الحب هو المسترسل منه فوصفهم بالهيمان فرط مبالغة في صفتهم بالذهاب في أقطارها ، والإبعاد في غاياتها ، والهيمان صفة من صفات من لا مُسكة له ولا رجاحة معه ، فهي مخالفة لصفات ذي الحلم الرزين ، والعقل الرصين . ومن طبيعة الشعراء استرسال القول دون حساب في كل الوديان ، « وفي كل مذهب يذهبون »[1] . وفقَ الإنفعالات المسيطرة عليهم تحت وَقْع الدوافع الأحيانية والمؤثرات المصحلية الآنية .

يهيمون في كل الوديان حقاً وباطلاً ، ويتلونون بكل الألوان حسب المصلحيات الوقتية ، والشهوات الأصلية والجانبية ، فلذلك « يتبعهم الغاوون » أمثالهم ، ثم : « وانهم يقولون ما لا يفعلون » نفاقاً عارماً بين اقوالهم المفْرِطة والمفرَّطة ، وبين أفعالهم ، إذ

(١) نور الثقلين ٤ : ٧٢ القمي في قوله جل ذكره : « الم تر انهم في كل واد يهيمون » يعني : يناظرون بالأباطيل ويجادلون بالحجج المضلين وفي كل مذهب يذهبون وانهم يقولون ما لا يفعلون ؟ قال : . . .

يعيشون في عالم من الخيالات والشهوات ، فيؤثرونها على واقع الحياة والواقعيات ، فيلقون القول مسترسلين دونما ضابطة أو رابطة إلاّ ما تهواهم انفسهم « يعظون الناس ولا يتعظون ، وينهون عن المنكر ولا ينتهون ، ويأمرون بالمعروف ولا يعملون »(٥٢) .

طبيعة الإسلام وهي الواقعية المطلقة والحقيقية المرسلة لا تلائمها طبيعة الشعراء الخياليين الهائمين في كل واد ، حيث الإسلام يحرُض على تصديق الحقائق وتحقيقها ، دون تهرّب منها إلى وهميات ، وليست معارضة الإسلام للشعر والشعراء إلاّ في هذين البعدين البعيدين عن الواقعية المطلوبة : « انهم في كل واد يهيمون . وانهم يقولون ما لا يفعلون » وهما من خلفيات عدم الايمان وعدم الثبات على خط الحق والواقع المصاب .

واما الشعر المستقر على الحق ، المُتبني إبطال الباطل وتحقيق الحق النابع عن الإيمان ، البعيد عن التخيلات والوهميات وعن كل تفريط وإفراط،فلا يعارضه الإسلام بل ويحرّض عليه .

فكما يقول الرسول عن الشعر: «لإن يمتليء جوف احدكم قيحاً خير له من ان يمتليء شعراً »(١) ، كذلك هو يقول جواباً عن : ماذا تقول في الشعراء ؟ : ان المؤمن مجاهد بسيفه ولسانه والذي نفسي بيده لكأنما

---

(١) الدر المنثور ٥ : ٩٩ - اخرج ابن ابي شيبة واحمد عن ابي سعيد قال بينما نحن نسير مع رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) إذ عرض شاعر ينشد فقال النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) : . . .

ينضخونهم بالنبل »(١) وقال (صلى الله عليه وآله وسلم) لحسان بن ثابت أهجُ المشركين فإن جبريل معك »(٢) وقال : « ان من الشعر حكمة » (٣) وكما الله يقول :

﴿ إلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَذَكَرُوا اللهَ كَثِيراً وَانْتَصَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ ﴾ ٢٢٧ .

مواصفات اربع تستثني من الشعراء ، الموصوفين بها ، وهي الايمان وعمل الصالحات وذكر الله كثيراً والإنتصار من بعد الظلم ، والرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) يتلوا آية الاستثناء على اصحابها(٤) .

---

(١) نور الثقلين ٤ : ٧٠ المجمع عن الزهري قال حدثني عبد الرحمن بن كعب بن مالك ان كعب قال يا رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) ماذا تقول في الشعراء ؟ . . .

(٢) الدر المنثور ٥ : ١٠٠ ـ اخرج ابن مردويه عن ابي هريرة قال قال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) . . .

(٣) المصدر اخرج ابن سعد وابن ابي شيبة عن البراء بن عازب قال : قال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) : . . . وفيه اخرج عن ابن ابي شيبة عن ابن مسعود عن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) قال : ان من الشعر حكماً وان من البيان سحراً .

(٤) الدر المنثور اخرج عن ابي حسن سالم البراد قال : لما نزلت « والشعراء . . . » جاء عبد الله بن رواحة وكعب بن مالك وحسان بن ثابت وهم يبكون فقالوا : يا رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) لقد انزل الله هذه الآية وهو يعلم أنّا شعراء أهلكنا ؟ فانزل الله « إلا الذين آمنوا . . . » فدعاهم رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) فتلاها عليهم ، وفيه اخرج أحمد والبخاري في تاريخه وأوب يعلى وابن مردويه عن كعب بن مالك انه قال للنبي (صلى الله عليه وآله وسلم) ان الله قد انزل في الشعر ما انزل فكيف ترى فيه ؟ فقال : ان المؤمن يجاهد بسيفه ولسانه والذي نفسي بيده لكأنما بوجههم مثل نفح النبل .

هنا « وذكروا الله كثيراً » يعني في شعر وسواه ليذهب بفضاضته ، كما « وانتصروا من بعد ما ظُلموا » تجعل الشعر ذريعة للإنتصار لمن ظُلِم ، ولا تخص « ظُلموا » ظلماً شخصياً بالشاعر ، أم وبمن يحبه واكثر من نفسه كالرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) ومن يحذو حذاه ، أو وبأحرى أحب من كل محبوب وهو الله ، هتكاً لساحة الألوهية أو الرسالة أو الإمامة أو الايمان أم أياً كان من ظُلم حيث يرجع إلى الشاعر فهنالك « انتصروا من بعدما ظلموا » دون إفراط أو تفريط وإنما جزاءً وفاقاً .

وقد « قيل يا رسول الله ان ابا سفيان بن الحرث بن عبد المطلب يهجوك فقام ابن رواحة فقال يا رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) ائذن لي فيه ، قال : أنت الذي تقول : ثبت الله ؟ قال : نعم يا رسول الله ، قلت :

ثبت الله ما أعطاك من حسن   تثبيت موسى ونصراً مثل ما نصرا (١)

---

(١) الدر المنثور ٥ : ١٠٠ - اخرج ابن سعد عن البراء بن عازب قال قال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) : . . . قال : وانت يفعل الله بك مثل ذلك ثم وثب كعب فقال يا رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) ائذن لي فيه فقال : انت الذي تقول : همت ؟ قال : نعم يا رسول الله قلت :

همت سخينة ان تغالب ربها   فليغلبني مغالب الغلاب

قال : أما ان الله لم ينس ذلك لك ثم قام حسان الحسام فقال يا رسول الله ائذن لي فيه واخرج لسانه اسود فقال يا رسول الله ائذن لي فيه فقال : اذهب الى ابي بكر فليحدثك حديث القوم وايامهم واحسابهم واهجم ومعك جبريل .

وفيه اخرج ابن سعد عن ابن سيرين قال : قال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) ليلة وهم في سفر ابن حسان بن ثابت فقال لبيك يا رسول الله وسعديك قال أحدُ فجعل ينشده ويصغي إليه حتى فرغ من نشيده فقال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) : لهذا اشد عليهم من وقع النبل .

وفيه اخرج ابن سعد عن مدرك بن عمارة قال قال عبد الله بن رواحة قال لي رسول

اجل وحماية اعراض المسلمين هي تلو حماية عقيدة التوحيد والرسالة والإمامة وقد أمر بها الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم)[1] .

فهؤلاء الكرام ليسوا داخلين في الوصف العام للشعراء حيث امتلأت قلوبهم من عقيدة الأيمان واستقامت حياتهم على منهجه ، فلا يعملون إلاّ الصالح ولا يقولون إلاّ الجميل ، فتظهر سلبية الايمان « لا إله » وايجابيته « إلاّ الله » في نثرهم وشعرهم .

والمذكورون هنا قد نافحوا عن العقيدة في إبّان المعركة المصيرية الضارية مع الشرك على الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) فاذن لهم ان يهجوهم .

وهذه ضابطة سارية ان الشعر حين ينبع عن التصور الإسلامي والعقلية الإسلامية السامية ، يعتبر من الأعمال الصالحة الايمانية ـ واحياناً في قمتها .

﴿ .. وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ ﴾٢٢٧ .

« سيعلمون غداً من الكذاب الأشر » (٥٤ : ٢٦) والمستقبل المفهوم من أداته هنا ليس بذلك البعيد في القيامة الكبرى فحسب ، بل في البرزخ والرجعة وقبلها ايضاً، فان الله يجازي الظالم هنا كما يجازيه في الأخرى ، مهما كان فيها الأوفى .

الله (صلى الله عليه وآله وسلم) كيف تقول الشعر إذا اردت ان تقول كانه يتعجب لذاك ؟ قلت : انظر في ذاك ثم اقول ، قال : فعليك بالمشركين .

(١) المصدر اخرج ابن سعد عن جابر ابن عبد الله قال قال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) : من يحمي اعراض المسلمين ؟ فقال عبد الله بن رواحة : انا وقال كعب بن مالك : انا ، فقال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) : انت تحسن الشعر وقال حسان بن ثابت : انا فقال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) أهجم فان روح القدس سيعينك .

فقد ختمت السورة بمثل ما ابتدأت به : « فقد كذبوا فسيأتيهم أنباء ما كانوا به يستهزؤن » ، و « منقلَب » مصدر ميمي واسم زمان ومكان ، فهو الإنقلاب نفسه وزمانه ومكانه كما كان « ولا يُظلمون فتيلاً » .

و « آل محمد حقهم » في بعض الروايات لا تعني أنها كانت في القرآن ثم حذفت ، بل هي تفسير تطبيقي بأبلغ مصاديق الظلم ! ولا يعني « آل محمد » إلا محمداً وآله عليهم السلام ، أم هم فحسب كمصداق أهم ثان بعد محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) .

وقد تلى الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) الآية كما هيه[1] برواية اهل البيت فليست إلا هيه حسب القراءة المتواترة ان الظالمين سيعلمون منقلبهم علم اليقين وحقه ورِدَ العذاب ولات حين متاب .

---

(١) تفسير البرهان ٣ : ٢٩٤ ـ ابن بابويه قال حدثنا محمد بن علي ما جيلويه قال حدثنا علي عن ابيه عن علي بن معبد عن الحسين بن خالد عن علي بن موسى الرضا (عليه السلام) عن ابيه عن آبائه (عليهم السلام) قال : قال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) من احب ان يتمسك بديني ويركب سفينة النجاة بعدي فليقتد بعلي بن ابي طالب (عليه السلام) وليعاد عدوه وليوال وليه فانه وصيي وخليفتي على أمتي في حياتي وبعد وفاتي وهو أمير كل مسلم وأمير كل مؤمن بعدي قوله قولي وأمره أمري ونهيه نهيي وتابعه تابعي وناصره ناصري وخاذله خاذلي ثم قال (صلى الله عليه وآله وسلم) : من فارق علياً (عليه السلام) بعدي لم يرني ولم اره يوم القيامة ومن خالف علياً (عليه السلام) حرم الله عليه الجنة وجعل مأواه النار ومن خذل علياً خذله الله يوم يعرض عليه ومن نصر علياً (عليه السلام) نصره الله يوم يلقاه ولقنه حجته عند المنازلة ثم قال : الحسن والحسين اماما امتي بعد ابيهما وسيدا شباب أهل الجنة وأمهما سيدة نساء العالمين وأبوهما سيد الوصيين وولد الحسين تسعة ائمة تاسعهم القائم من ولدي طاعتهم طاعتي ومعصيتهم معصيتي الى الله اشكو المنكرين لفضلهم والمضيعين لحقهم بعدي وكفى بالله ولياً وكفى بالله نصيراً لعترتي وأئمة امتي ومنتقماً من الجاحدين لحقهم « وسيعلم الذين ظلموا اي منقلب ينقلبون » .

مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

(٢٧) سورة النمل مكية
وآياتها ثلاث وتسعون

مركز تحقيقات كامپيوتري علوم اسلامي

مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

بسم الله الرحمن الرحيم

طسٓ تلك ءايٰت القرءان وكتاب مبين ﴿١﴾ هدى
وبشرى للمؤمنين ﴿٢﴾ الذين يقيمون الصلوٰة ويؤتون
الزكوٰة وهم بالآخرة هم يوقنون ﴿٣﴾ إن الذين لا يؤمنون
بالآخرة زينا لهم أعمٰلهم فهم يعمهون ﴿٤﴾
أولٰئك الذين لهم سوء العذاب وهم في الآخرة هم
الأخسرون ﴿٥﴾ وإنك لتلقى القرءان من لدن حكيم
عليم ﴿٦﴾

تتسمى هذه السورة باسم قهرمانتها : « النمل » المتقطعة النظير ذكراً في الذكر الحكيم ، وقولاً يخرق العادة الجارية ان الحيوان لا تنطق ، بل وكما « قالت نملة .. فتبسم ضاحكاً من قولها .. » ! وانها من الطواسين الثلاث

وتنقصها عن أختيها « م » المذكورة في الشعراء والقصص .

﴿ تِلْكَ آيَاتُ الْقُرْآنِ وَكِتَابٍ مُبِينٍ ﴾[١] .

« تلك » النازلة في مثلث الزمان من الآيات المفصلات هي « آيات القرآن » وهو جملة الآيات وهي أبعاضه « وكتاب مبين » علّه النازل عليه ليلة القدر من حكيمة دون تفصيل ، فانه يبين تفصيله في هذه الآيات ، وهو أمّ الكتاب لدى الله ، فانه يُبين محكمه للرسول ثم تفصيله إلى العالمين .

وعلّه عبارة أخرى عن القرآن ، فانه مبينٌ نفسه بنفسه ومبين رسالة من جاء به ، أم وهو نبي القرآن حيث « كان خُلُقه القرآن » وكما يقال عنه « أنا القرآن والسبع المثاني وروح الروح بل روح المعاني » كما و « إن هو إلاّ ذكر وقرآن مبين » وكتاب حياة الرسول الرسالية مبين اشاراته ولطائفه وحقائقه ، إبانة علمية وواقعية ، فانه (صلى الله عليه وآله وسلم) تفسير واقعي للقرآن مع ما يفسره علمياً !

اجل « تلك » البعيدة المدى ، القريبة الهدى ، من حروفها الرمزية كـ « طسّ » وآياتها البينات المُبينات ، هي « آيات القرآن » المقروُ على أسماع العالمين من إرسالية رسالية عُليا لخاتم المرسلين « وكتاب مبين » .

﴿ هُدًى وَبُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾[٢] .

ليس « فيه هدى وبشرى » بل هو ككل بمادته وماهيته « هدى وبشرى للمؤمنين » به،فلو ان للهدى والبشرى المصدرين مثالاً واقعياً لكان هو القرآن لا سواه ، فانه خالص الهدى والبشرى . ولماذا ـ فقط ـ « للمؤمنين » ؟ وهو « هدى للناس ـ و ـ للعالمين » اجمعين !

إنه « بشرى » دون ريب ـ فقط ـ للمؤمنين ، إذ لا يبشّر الكافرون وانما هم المنذَرون ، وأما « هدىً » فهي هنا تعني « هدىً » في مثلثها : هدى أولى

هي طبيعتها لحاملها ، حيث يُتحرَّى عن هدى الله فيصل إلى القرآن وهو قمتها ، وهدىً ثانية هي حصيلة الأولى حيث يعيشها في القرآن تخلقاً به علمياً ومعرفياً وعملياً ، ثم ثالثة هي حصيلة الايمان بالقرآن والتدبر في آيه الكريمة .

فـ« هدىً » هنا « للمؤمنين » هي على غرار وقرار « هدىً للمتقين » ، فالقرآن هدى في مثلثها للمؤمنين المتقين « الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة وهم بالآخرة هم يوقنون » واما الذين في قلوبهم زيغ فليس لهم هكذا هدىً ، وانما دلالية وهم لا يتحرونها ، وهي في كل زواياها وحواياها-ولا سيما الزاوية القمة-حقيقة عميقة ضخمة ، فانه ليس ـ فقط ـ كتاب تفلسف ونظر بل هو في اصله كتاب القلوب والأنفس : « وقل لهم في انفسهم قولاً بليغاً » (٤ : ٦٣) فيسكب هداه على قلوب المهتدين ، حيث يتلقونه بالايمان واليقين ، وكلما كان القلب أندى والفؤاد أهدى ، ادرك صاحبه من هداه أندى وأهدى .

ليس مفتاح تفهم القرآن ـ فقط ـ الصلاحيات المكرورة ، وإتقان الأدب لغوياً ونحوياً ، بل هو القلب المفتوح ، الفاضي عما سوى الله ، الفائض بنور معرفة الله ، فلن تفتح كنوز القرآن ـ بعد المفاتيح الظاهرة ـ إلاّ بمفتاح الايمان ، إذاً فهو « هدىً وبشرى للمؤمنين » على قدر ايمانهم وايقانهم بوحي القرآن .

وليس المؤمنون هم الذين يؤمنون ـ فقط ـ بقلوبهم فلا يظهر في اعمالهم ، عبادة لله وخدمة وعوناً لعباد الله ، بل هم :

﴿ أَلَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ بِالآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴾٣ .

هنا يتوسط كلُّ ما بين المبدء والمعاد عملياً بين المبدء : « للمؤمنين »

فان قمة الايمان هي الايمان بالله ، والمعاد : « وهم بالآخرة هم يوقنون » جمعاً بين الأصول القمة والفروع القمة ، فالصلاة هي القمة بين الواجبات العبادية ، والزكاة قمة بين الواجبات الخَلقية .

ولماذا « هم بالآخرة هم » بدلاً عن أخصرها « وبالآخرة » ؟ لأن الايمان بالمبدء ، الظاهر في التصديق بالوحي ، الناتج عنه إقامُ الصلاة وايتاءالزكاة ، هو الدافع للايقان بالآخرة ، كما الإتيان بها يدفع إلى أعمال الايمان ، فلا يؤمن بالآخرة إلا المؤمن بالله وبوحي الله دون سواه ، فإذ لا مبدء لا مجال للمعاد ، وإذ لا وحي فما هي فائدة المعاد ؟!

كما الايقان بالآخرة هو الذي يشغل بالهم بعد سائر الايمان، ويصدهم عن جوع الشهوات الطائشة ، حيث يغمر أرواحهم بتقوى الله وينظِّفها عن طغوى اللهو ، ويقابلهم تماماً :

﴿ إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمَالَهُمْ فَهُمْ يَعْمَهُونَ ﴾[٤]

غير المؤمن بالآخرة ، مهما كان مؤمناً بالله ـ على زعمه ـ اعماله ـ بطبيعة الحال ـ سيئة ، ومن سوء حاله على سوء أعماله « زينا لهم اعمالهم » ـ فهم يحسبون انهم يحسنون صنعاً . هنا « زينا لهم اعمالهم » نسبة الفعل الى الله ، وفي غيرها « زين لهم الشيطان اعمالهم . . » (١٦ : ٦٣) وكيف يضيف الله الى نفسه فعلة الشيطان ؟ وهو إغواء والله منه براء ؟ إذ « قال رب بما اغويتني لأزينن لهم في الأرض ولأغوينهم اجمعين » (١٥ : ٣٩) ! انه تعالى يزين لهم سوء أعمالهم سلبياً ألاّ يصد الشيطان عن تزيينه ، وايجابياً انه يزيغ قلوبهم بما زاغوا : « فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم » كما « ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى ابصارهم غشاوة ولهم عذاب عظيم » (٢ : ٧) .

« فهم يعمهون » لذلك التزيين ، حائرين عن الهدى ، مائرين إلى

الردى ، عمي البصيرة بما تغامضوا عنها ، وقد تصبح النفس البشرية عمهاً عن اعمالها السيئة حين تخوض اللذات ولا تؤمن بالآخرة ، والنفوس مطبوعة على حب الملذات ، فتوجيهاً لها إلى حسنات ما لم تهتد بآيات الله ورسالاته البينات .

فكما النفس الانسانية مستعدة للاهتداء إن تفتحت لدلائل الهدى متحريةً عنها ، كذلك هي مستعدةٌ للعَمَهِ والعَمى إن طُمست منافذ الإدراك فيها : « أفمن زين له سوء عمله فرآه حسناً فان الله يضل من يشاء ويهدي من يشاء . . » (٣٥ : ٨) .

فالايمان في أصله قيد الفتك ، والايمان بالآخرة بعد الايمان بالله هو الزمام الذي يكبح نزوات النفس وشهواتها ، تضميناً للقصد والاعتدال في الحياة الدنيا ، ليضمن الفلاح في الأخرى ، فالناكر للحياة الأخرى يظن الفرصة الوحيدة المتاحة له هي الحياة الدنيا ، فتتزين له كل الشهوات والنزوات كغنائم يغتنمها فيها فيميد فيها ويعمه .

﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ لَهُمْ سُوءُ الْعَذَابِ وَهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمُ الْأَخْسَرُونَ ﴾[٥]

« سوء الحساب » ليس هو الظلم في الحساب ـ وعوذاً بالله ـ فهم لا يظلمون فتيلاً ، وانما هو الحساب الدقيق الذي لا يبقي على أثر ، دون سماح فيه عن كبيرة ولا صغيرة ولا تخفيف « وهم في الآخرة هم الأخسرون » : « قل هل أنبئكم بالأخسرين أعمالاً الذين ضل سعيهم في الحياة الدنيا وهم يحسبون انهم يحسنون صنعاً » (١٨ : ١٠٤) .

﴿ وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى الْقُرْآنَ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ ﴾[٦]

« لتلقى » تلقياً دون وسيط يكدّره ، وانما يلقّيك الروح الأمين كما يتلقّاه من رب العالمين ، تلقياً حكيماً « من لدن حكيم » وعليماً « من لدن

عليم » .

وانه ليس - فقط - تلقياً للسمع ألفاظه وانما هو تلقٍ للقلب حيث يتفأد به بنور الوحي : « نزل به الروح الأمين . على قلبك . . » (٢٦ : ١٩٣) .

إذاً فكما المُلقّي للقرآن حكيم عليم ، كذلك الملقّىٰ يصبح به حكيماً عليماً ، والروح الأمين الوسيط حكيم عليم ، وهما في الله الأصيل ، وفي الملقّى والملقَّى به فرع ظرفاً صالحاً لتلقّيه .

ومن ذلك الظرف - كأصل - اللقيا المعرفية والعبودية حيث التلقي تلقُّن بلقاء في تكلف وصعوبة ، فان تطهير القلب لحد يصلح لتلقي القرآن صعب مستصعب لا يحتمله أحدٌ إلّا محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) ، أن يصْعد قلبه في لقاء ربه إلى أعلى القمم الممكنة لمن سوى الله ، و« من لدن حكيم عليم » دون « الله » ام سائر صفاته ، قد تلمح الى ان ذلك التلقي انما هو بتلقيةٍ حكيمة عليمة ربانية ، فالقرآن يحمل علماً وحكمة ربانية ، فليُلقَّ ظرفاً حكيماً عليماً ، وليكون نوراً نازلاً على نور ، وكما وسيط وحيه نور ، نورٌ على نور يهدي الله لنوره من يشاء .

إِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِأَهْلِهِۦٓ إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا سَـَٔاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ ءَاتِيكُم بِشِهَابٍ قَبَسٍ لَّعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ﴿٧﴾ فَلَمَّا جَآءَهَا نُودِىَ أَنۢ بُورِكَ مَن فِى ٱلنَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨﴾ يَٰمُوسَىٰٓ

إِنَّهُۥٓ أَنَا ٱللَّهُ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ﴿٩﴾ وَأَلۡقِ عَصَاكَۚ فَلَمَّا
رَءَاهَا تَهۡتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنّٞ وَلَّىٰ مُدۡبِرٗا وَلَمۡ يُعَقِّبۡۚ يَٰمُوسَىٰ
لَا تَخَفۡ إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَيَّ ٱلۡمُرۡسَلُونَ ﴿١٠﴾ إِلَّا مَن ظَلَمَ
ثُمَّ بَدَّلَ حُسۡنَۢا بَعۡدَ سُوٓءٖ فَإِنِّي غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴿١١﴾ وَأَدۡخِلۡ
يَدَكَ فِي جَيۡبِكَ تَخۡرُجۡ بَيۡضَآءَ مِنۡ غَيۡرِ سُوٓءٖۖ فِي تِسۡعِ
ءَايَٰتٍ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ وَقَوۡمِهِۦٓۚ إِنَّهُمۡ كَانُواْ قَوۡمٗا فَٰسِقِينَ ﴿١٢﴾
فَلَمَّا جَآءَتۡهُمۡ ءَايَٰتُنَا مُبۡصِرَةٗ قَالُواْ هَٰذَا سِحۡرٞ مُّبِينٞ ﴿١٣﴾
وَجَحَدُواْ بِهَا وَٱسۡتَيۡقَنَتۡهَآ أَنفُسُهُمۡ ظُلۡمٗا وَعُلُوّٗاۚ فَٱنظُرۡ
كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُفۡسِدِينَ ﴿١٤﴾

مركز تحقيقات كامپيوتري علوم اسلامي

حلقة سريعة من الرسالة الموسوية تلقياً للوحي من النور النار في الشجرة، تدليلاً على ان تلقي القرآن ليس بدعاً من تلقي الوحي، فمن كان في ريب منه فليذكر:

﴿ إِذْ قَالَ مُوسَى لِأَهْلِهِ إِنِّي آنَسْتُ نَاراً سَآتِيكُمْ مِنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ آتِيكُمْ بِشِهَابٍ قَبَسٍ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ﴾ ٧.

هنا «اهله» لا تعني ـ فقط ـ زوجته بنت شعيب، بل ومعها غيرها من وُلد وسواهم لمكان «سآتيكم .. تصطلون» والجمع ولا سيما المذكر منه

لا يؤ ق به لواحدة .

« إني آنست ناراً . . » وحقيقة الإيناس هي الإحساس بالشيء من جهة يؤنس بها ويُسكن اليها ، ويا له من إيناس بعد الإياس في قَرِّ الليل المظلم بوعثاء السفر،وفي خبر انه في رجوعه من مدين ضل الطريق في ليلة ظلماء[1] .

وقد كانت النيران توقد في البرية فوق المرتفعات لهدي السالكين في الليالي ، فظنها كانها منها ، دون تأكد فيها حيث « آنست ناراً » ولا تنافيه « إذ رآ ناراً . . » (٢٠ : ١٠) حيث الرؤ ية قد تكون إيناساً دونما اطمئنان ، فلذلك « سأتيكم منها بخبر أو آتيكم بشهاب قبس . . » تردداً بين « خبر » علّه خبر السماء ، وبين « شهاب قبس لعلكم تصطلون » : استيقاداً بصلاءِ شهاب قبس مقتبس من النار ، فالشهاب هو الشعلة الساطعة من النار المشتعلة ، والقبس هو المقبس منها .

مركز تحقيقات كامپيوترى علوم اسلامى

وعلّ « لعلّكم » هنا تختص بـ« آتيكم بشهاب قبس » فعندئذٍ « لعلكم تصطلون » وأما « خبر » فـ« سآتيكم . . » كأنه متأكد هنا من خبر السماء في النار ، ام مطمئن اليه اكثر من اصل النار ، وقد ذكرت في طَه كما هنا وبعكس الترتيب : « إني آنست ناراً لعلي آتيكم منها بقبس او اجد على النار هدى » فقد تختص « لعلّ » بالأولى ، ثم «أو أجد» دون « نجد » ـ « على النار هدى » خارجة عن « لعلّ » كأنها متأكدة ام راجحة مطمئنة . ثم النص « إني آنست ناراً . . » دون « إنّا » ولو كانت هي

---

(١) نور الثقلين ٣ : ٣٧٣ عن الباقر (عليه السلام) في « آتيكم منها بقبس . . كان قد اخطأ الطريق .

النار المرئية لأي راءٍ لرأته اهله معه ! وهذه ترجيحة اخرى لما ذكرنا ، ان المدى الرسالية هي الراجحة ، بل ولأنها كانت هي المترقَّبة لموسى وبعد تأجيل ذلك الردح البعيد من الزمن ، فيخبر ـ إذاً ـ بهذه الفروسية اللاّمعة : « سآتيكم منها بخبر » هنا ، و« أوآجد على النار هدى » ـ وكما فصلنا ـ في طَهَ !.

﴿ فَلَمَّا جَاءَهَا نُودِيَ أَنْ بُورِكَ مَنْ فِي النَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا وَسُبْحَانَ اللهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾٨

هنا « فلما جاءها » وفي طَهَ « فلما أتاها . . » وهما تتجاوبان في معنى : حضر عندها ، ثم هنا « نودي ان بورك من في النار ومن حولها . . . » وفي طه « . . . نودي يا موسى . إني أنا ربك . . » فقد كانت النداء من الشجرة المباركة الزيتونة المحلَّقة عليها نار النور ونور النار : كما في القصص : « فلما اتاها نودي من شاطيء الواد الأيمن في البقعة المباركة من الشجرة ان يا موسى إني أنا الله رب العالمين » (٣٠)

« . . نودي أن بورك من في النار ومَن حولها . . » .

وترى « من في النار » هو الله سبحانه وتعالى ، بذاته المقدسة المتعالية عن الحدّ والمكان ؟ و« بورك » الرامية إلى حادث البركة على مَن في النار تبعده عن ساحته تعالى ، تفريباً إلى من باركه الله في هذه النار ، كما و« سبحان الله رب العالمين » تسبحه وتنزهه عن ان يحل في نار أو نور هي من مربوبيه وهو رب العالمين ، فقد متّى المتى فليس له متى ، ومكّن المكان فليس له مكان !

ام « من في النار » هو من ظهر سلطانه وقدرته ورحمته في النار ؟ ولا يعبر عن سلطانه ورحمة بـ« مَن » ! ولا تحلّ قدرته في شيء ، ناراً ام غير نار ! فلا تعني « من في النار » لا ذاته سبحانه ولا صفاته ، حيث البركة هي منه

إلى خلقه ، فكيف « بورك » ؟ ومن هو الذي باركه ؟ ام بارك نفسه ما لم يكن باركها من ذي قبل ! « سبحان الله رب العالمين » !

قد يعني « مَن في النار » روح القدس ، المبارك هنا بحمل الوحي الرسالي لموسى ، فـ« من حولها » هو موسى حيث بورك بذلك الوحي .

ام « من في النار » هو موسى بمَن معه من وسيط الوحي أم ليس معه ، حيث « اتاها » فحصل في جو النور النار ، فـ« مَن حولها » هم الأنبياء الإسرائيليون الذين بوركوا بوحي السماء وهم مدفونون حول الواد المقدس ، في القدس وما حولها .

وعلى أية حال فلا تخلوا هذه البركة الخاصة في « بورك » عن وسيط الوحي ومن أوحي اليه ، والمحور الأصيل هنا هو موسى ، دون ذات الله او صفاته تعالى « وسبحان الله رب العالمين » عن هذه الشطحات الزور والغرور !.

مركز تحقيقات كامپيوتري علوم اسلامي

إنها نورٌ كانت تترائى ناراً قضية ظُلَم الليل وعدم وَضح الوحي فيه ، نورٌ وقّادة خلقها الله على الشجرة المباركة في الواد المقدس ، ولقد مضت هذه البقعة في سِجِلّ الوجود في الكيان الرسالي مباركةً مقدسةً بتجلي الوحي الموسوي فيها ، تلقياً لوحي التورات كما « وانك لتلقى القرآن من لدن حكيم عليم » .

﴿ يَا مُوسَى إِنِّي أَنَا اللهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾٩ .

« إني أنا ربك فاخلع نعليك إنك بالواد المقدس طوى . وانا اخترتك فاستمع لما يوحى ... » (٢٠ : ١٣) - « .. نودي من شاطئ الواد الأيمن في البقعة المباركة من الشجرة ان يا موسى إني انا الله رب العالمين »٣٠ :

« إني أنا ربك - الله رب العالمين - العزيز الحكيم » تلمح كمجموعة ان

صيغة النداء كانت تشملها كلها ، فمثلث التعبير مطوي فيها ، وفي كل مجالة من عرضها تأتي ما تناسبها من هذه الثلاث .

﴿ وَأَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَآهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّى مُدْبِراً وَلَمْ يُعَقِّبْ يَا مُوسَى لَا تَخَفْ إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَيَّ الْمُرْسَلُونَ ﴾ ١٠ .

« لدي » هنا تعني لدنية القرب في القمة المعرفية الرسالية ، إذ يلقّى فيها الوحي، لا فحسب العلم والقدرة إذ يشملان كل كائن اياً كان وأيان ، و « جان » هي الحية الصغيرة الناعمة ، فقد اهتزت عصاه بشاكلة كانها جانٌ على كبرها حية تسعى فـ« ولى مدبراً ولم يعقب » خوفة منها ، فإذاً بخطاب رب العزة « يا موسى لا تخف إني لا يخاف لدي المرسلون » ولقد كان من حقه أن يخاف جانَّ العصا ولمّا يتقدم من ربه الأمن وألّا يخف ، إذ كانت عصاه سلاحه الذي يدفع به ، فإذا هي حية تسعى ، فلا قرار ـ إذاً ـ إلّا الفرار من عصاه المقلوبة من أمنه وتأمينه إلى بأسه ، وقد ظلم نفسه من ذي قبل : « رب إني ظلمت نفسي فاغفر لي فغفر له . . » ! .

وترى ان « لا تخف » إخبار عن واقع يستغرق كل المرسلين قضية الرسالة وانهم « لدي » ؟ فلماذا خاف موسى هنا ـ وقد بدأت رسالته بالوحي الرسالي ـ من آيته الرسالية ؟ وذلك تكذيب لما أخبر الله به « إني لا يخاف لدي . . » أو تكذيب ـ لكونه رسول الله ! ألأنه لم يكن « لدي » ؟ وهو لدى الله في موقف الوحي الرسالي بآية من آياته ! أم لم يكن حينه من المرسلين ؟ وهو رسول بسند الوحي وآية الرسالة ، ام ان هذه الضابطة مخصصة في موسى ؟ وهي آبية عن التخصيص ! ولو خصصت فلماذا إذاً « لا تخف » سناداً إلى نفس الضابطة : « إني لا يخاف لدي المرسلون » ! .

علّه داخلٌ في المستثنى : « إلّا من ظلم » : انتقاصاً قبل الرسالة :

« قال رب إني ظلمت نفسي فاغفر لي فغفر له انه هو الغفور الرحيم » (٢٨ : ١٦) .

فقد ظلم نفسه من قبل دونما تقصير ثم بدل حسناً بعد سوء فغفر له ربه ، إذاً فقد يكون مِنْ :

﴿ إِلَّا مَنْ ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلَ حُسْناً بَعْدَ سُوءٍ فَإِنِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾[١١] .

فهو بعد غفره تعالى لا يخاف لدى الله فيما يأمره به الله مهما ظهر جاناً أو ثعباناً، بل هو من الآمنين : « يا موسى أقبل ولا تخف إنك من الآمنين » مهما كنتَ قبلُ « ممن ظلم » ولكنك بدَّلت بعدُ حسناً بعدَ سوء « فاني غفور رحيم » ، فـ« لا تخف » المعلل بـ« انك من الآمنين » هناك ، وبـ« لا يخاف لدي المرسلون . إلّا من ظلم . . » هنا ، نهيٌ عن خوفه من ظلمه لمكان غفره تعالى ، وكأنه خيِّل إليه الجان المحوَّل عن عصاه ، عساه جزاءً عن ظلمه ، غضباً عن غفره وتعالى تطامناً وتذللاً .

وانقطاع الإستثناء هنا لا يرجع إلى معنىً صالح فانه « لا يخاف . . إلّا من ظلم ثم غُفر » وليس للمغفور له أن يخاف كما ليسَ لغير الظالم ان يخاف ، فانما الخائف هو الظالم غير المغفور له وهو خارج عن نص الآية .

وقد يقال « لا يخاف . . إلّا من ظلم ثم بدل» ولمّا يغفر له ، فلا يخفف «فاني غفور رحيم»؟ ولكن حصر الخوف لدى الله بمن بدَّل ، حسرٌ له عمن ظلم ولم يبدِّل وهو أحق أن يخاف لدى الله !

فـ« إني لا يخاف لدي المرسلون » اخبارٌ حال كونها انشاءٌ لسلب الخوف لدى الله عن ساحة المرسلين ، وحق من ظلم ثم بدل حسناً بعد سوء فاني غفور رحيم ، فهو إذاً من الآمنين ، ليس له ان يخاف لدى الله بعد ذلك الغفر الأمين .

ويا له من مسرح الخوفة المولية له مدبراً دون تعقيب ، إذ ألقى عصاه فإذا هي تدب وتسعى بسرعة هائلة كانها جان ، فادركت موسى طبيعة الإنفعالية ، وهزّته هزّتها المفاجئة التي لم تك تخطر ببال ، وهو في تلك الحال المباركة « بورك من في النار » فيجري في جريه مولّياً دون تفكير في الرجوع ، فيأتيه النداء الحنون المنون « يا موسى لا تخف إني لا يخاف لدي المرسلون . . » وهذه ضابطة شاملة انه انما يخاف لدى الله « من ظلم » ثم لم يبدل حسناً بعد سوء ، وهلاّ يخاف غيرُ الظالم اللهَ كما لا يخاف لدى الله ؟ طبعاً يخاف الله ويخشاه حيث الخوف والخشية من الله هما قضية الضعة الكاملة أمام الله ، فـ« لا يخاف لدي » لا تنفي إلا الخوف عما يخيف من الكائنات المخيفة كحية العصا أمّاذا ؟ جزاء الظلم،فامّا الله فـ« انما يخشى اللهَ من عباده العلماءُ » بالله ، العارفين قدْر الله .

خوف وخشية عن الله هما قضية العلم بالله ، وخوف لدى الله ام سواه عما سوى الله هو قضية عصيان الله ، فـ« من خاف الله أخاف الله منه كل شيء ومن لم يخف الله أخافه الله من كل شي »[1] .

فقد كان يخاف موسى لما ظلم نفسه « ولهم علي ذنب فأخاف ان يقتلون » (٢٦ : ١٤) « فأرسله معي رداءاً يصدقني إني أخاف ان يكذبون » (٣٤ : ٢٨) ، وهذا خوف من غير الله قضيةَ الانتقاص بجنب الله .

ثم هنالك خوف من الله قضية العلم بالله « فلا تخافوهم وخافون ان كنتم مؤمنين » (٣ : ١٧٥) « انا نخاف من ربنا يوماً عبوساً قمطريراً » (٧٦ : ٢٠) أم خوف في الله حفاظاً على شرعة الله : « واما تخافن من قوم خيانة فانبذ إليهم على سواء » (٨ : ٥٨) .

---

(١) عيون الأخبار عن الامام الرضا (عليه السلام) .

فهنا خوف صالح وخوف طالح وعوان بين ذلك،وموسى يُنهى عن العوان ، وكلنا منهيون عن طالحه الى صالحة .

والآن بعد ذلك الحنان من الرب المنان ، وقد اطمأن موسى الى أمن الحضور ورحمته يؤمر مرة ثانية بآية أخرى :

﴿ وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ فِي تِسْعِ آيَاتٍ إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَإِهِ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْماً فَاسِقِينَ ﴾١٢ .

لماذا « في جيبك » دون كُمّك الداخلة يدك فيه دونما حاجة إلى ادخال ؟ علّه لم يكن له كم فليدخلها في جيبه ، ام ليتأكد انها اصبحت « بيضاء من غير سوء » وإلاّ فعلّها كانت في كمه ، ومنذ فترة قصيرة بيضاء من سوء برص ، فلا يجديه نفعاً : « وأخرج يدك من كمك » !.

ثم « في تسع آيات » هل تعني كل الآيات الموسوية وهي اكثر منها ؟ كلاّ ، وإنما هي التي « الى فرعون وملائه »[1] دون الباقية الخاصة ببني اسرائيل كما فصلناها في الأسرى على ضوء : « ولقد آتينا موسى تسع آيات بينات . . . » (١٠١) .ولم يأت هنا بعديد الآيات التسع إلاّ ثنتين والسبع الأخرى مسرودة في الأعراف ؟ حيث التركيز على قوة الآيات وهما نموذجتان من اقواها لنعرف المكذبين بها ما أغواهم .

وقد تعني « في تسع آيات » اليد والعصا ، حيث التسع كلها ظهرت

---

(١) والتسعة هي : ١ ـ اليد البيضاء ، ٢ ـ ثعبان العصا ، ٣ ـ الطوفان ، ٤ ـ الجراد ، ٥ ـ القمل ، ٦ ـ الضفادع ، ٧ ـ الدم ، ٨ ـ ضرب الأموال بنقص وطمس واخذهم بالسنين ، ٩ ـ فلق البحر .

والآيات الخاصة ببني اسرائيل هي : ١ ـ نتق الجبل ، ٢ ـ تفجير اثني عشرة عيناً ، ٣ ـ المن والسلوى .

منها، إذاً فهما التسع في الأصل وكل التسع فروعها .

﴿ فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ آيَاتُنَا مُبْصِرَةً قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ ﴾١٣ .

ولماذا « هذا » و « آياتنا » تتطلب«هذه»؟ علّه لأنها قولتهم الهاتكة لها دون قول الله ، فهم تغامضوا عن عديد الآيات ، وحتى عن أنها آية إلٰهية، فلم يعتبروها إلّا شيئاً وامراً مّا غير خارق للعادة ، رغم انها مبصرة لمن ابصر اليها وبها ، ولكنهم كانوا قوماً عمين فـ« قالوا هـذا سحر مبين » لا ريب فيه حيث يبين سحره للناظرين ، وقد سبق لهم المسرح العظيم من صراع السحرة مع موسى في محشر الناظرين ، وثبت للساحرين انفسهم ان ما جاء به موسى آية بينة من رب العالمين !

ولماذا مبصِرة ، وكل آيات الله مبصـرة ؟ علّها تـوصيفة تـأكيدية لفرقة وتبيينية لآخرين ! أم أن الآيات غير المبصَرة حسياً أبعد عن الحجة وان كـانت اقرب الى المحجة واثبت ، وآيات موسى كلها مبصَرة .

ولماذا « مبصِرة » والإبصار إنما هو للناظرين ؟ علّها مبالغة في وضـوحها كانها هي التي تبصر الناظرين لشـدة لمعانهـا ، فتجلب النـاظر لينظر اليها ، إذاً فهي مبصرة في ذاتها ، دون حـاجة إلى دافـع آخر ، لكـونها خارقـة للعادة بينة لا غبارَ عليها .

﴿ وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ ﴾١٤ .

هؤلاء الأغاد المناكيد « جحدوا بها » : الآيات المبصرة » و « الحال انهم « استيقنتهـا انفسهم » حيث تجاوزت أبصـارَهم إلى عقولهم ، وشملت انفسهم اللهم إلّا قلوبهم المقلوبـة عن الهدى ، المليئـة من الردى ، « جحـدوا بها » لا عن اقتناع أو شبهة فيها أو ريبة تعتريها، وانما « ظلماً وعلواً » جحداً بـالسنتهم

رغم استيقان انفسهم ، حيث القلوب قاسية لا تحن إلى هدى مهما استيقنت النفوس .

فـ« انفسهم » هنا لا تشمل قلوبهم ، فان ظنها فضلاً عن استيقانها يحمل اصحابها على التصديق .

وقد يلمح هنا الاستيقان دون الايقان إلى استثناء قلوبهم عن انفسهم ، فقد كانت حواسهم وافكارهم وعقولهم ومعها فِطَرهم تتطلّب ايقان قلوبهم لأنها ذرايع الايمان والايقان ، ولكنهم « جحدوا بها » بالسنتهم وقلوبهم « واستيقنتها انفسهم » بسائر ادراكاتهم ، تغافلاً عنها وتجاهلاً عن تطلباتها ، « ظلماً » بانفسهم وبالحق والذرائع الموصلة اليه ، فقد ظلموا حواسهم الى فِطَرهم وفِكَرهم وعقولهم ، وتنازلوا عن استيقانها لقلوبهم ، « وعلواً » على الله ورسله برسالاته ، فذلك الظلم الفاتك عبَّد طريقهم إلى علوِّهم ، فصدوا منافذ الهدى عن قلوبهم ، وفتحوا مسالك الردى اليها فختم الله عليها بما ظلموا و علوا !.

هذه الآيات المبصرة كانت مستيقنة تطلب اليقين ، ثم وحواسهم بسائر ادراكاتهم كانت تستيقن هذه الآيات تطلباً ليقين القلوب ، ولكنهم « جحدوا بها ظلماً وعلواً » تنازُلا وتغافلاً عن كل ادراكاتهم وحتى الحسية الحيوانية ، فهم اصبحوا أنزل من الحيوان وأنذل واضل سبيلاً ، حيث تحلّلوا عن كافة الاحساسات والنفسيات انسانية وحيوانية ! .

وذلك هو اسفل دركات الجحود بالحق[1] « فانظر » عبر التاريخ « كيف كان

---

(١) نور الثقلين ٤ : ٧٥ بسند متصل عن ابي عمر الزبيري عن ابي عبد الله (عليه السلام) : أخبرني عن وجوه الكفر في كتاب الله عز وجل ، قال : الكفر في كتاب الله على خمسة اوجه فمنها كفر الجحود على وجهين ـ الى قوله ـ : واما الوجه الآخر

عاقبة المفسدين » نظراً إلى مهالكهم بما ظلموا وعلوا « وما الله بغافل عما يعملون » فقد افسدوا ذوات انفسهم ، وأفسدوا بذلك البلاد ومستضعفي العباد ! .

وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ

وَسُلَيْمَٰنَ عِلْمًا ۖ وَقَالَا ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى فَضَّلَنَا عَلَىٰ كَثِيرٍ
مِّنْ عِبَادِهِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٥﴾ وَوَرِثَ سُلَيْمَٰنُ دَاوُۥدَ ۖ وَقَالَ
يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ ٱلطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَىْءٍ ۖ
إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٦﴾ وَحُشِرَ لِسُلَيْمَٰنَ
جُنُودُهُۥ مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ وَٱلطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿١٧﴾
حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَوْا۟ عَلَىٰ وَادِ ٱلنَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمْلُ
ٱدْخُلُوا۟ مَسَٰكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَٰنُ وَجُنُودُهُۥ وَهُمْ
لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٨﴾ فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِىٓ
أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَىَّ وَأَنْ أَعْمَلَ

من الجحود على معرفة وهو ان يجحد الجاحد وهم يعلم انه حق قد استقر عنده وقد قال الله عز وجل : وجحدوا بها واستيقنتها انفسهم ظلماً وعلواً . .

صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٩﴾
وَتَفَقَّدَ ٱلطَّيْرَ فَقَالَ مَا لِيَ لَآ أَرَى ٱلْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ
ٱلْغَآئِبِينَ ﴿٢٠﴾ لَأُعَذِّبَنَّهُۥ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَا۠ذْبَحَنَّهُۥٓ
أَوْ لَيَأْتِيَنِّي بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٢١﴾ فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ
أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍۭ بِنَبَإٍ يَقِينٍ ﴿٢٢﴾
إِنِّي وَجَدتُّ ٱمْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا
عَرْشٌ عَظِيمٌ ﴿٢٣﴾ وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ
مِن دُونِ ٱللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ
ٱلسَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ ﴿٢٤﴾ أَلَّا يَسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ٱلَّذِي يُخْرِجُ
ٱلْخَبْءَ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا
تُعْلِنُونَ ﴿٢٥﴾ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٢٦﴾ ۩
۞ قَالَ سَنَنظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٢٧﴾
ٱذْهَب بِّكِتَٰبِي هَٰذَا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَٱنظُرْ
مَاذَا يَرْجِعُونَ ﴿٢٨﴾ قَالَتْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ إِنِّيٓ أُلْقِيَ

إِلَيَّ كِتَٰبٌ كَرِيمٌ ﴿٢٩﴾ إِنَّهُۥ مِن سُلَيْمَٰنَ وَإِنَّهُۥ بِسْمِ ٱللَّهِ
ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٣٠﴾ أَلَّا تَعْلُوا۟ عَلَيَّ وَأْتُونِى مُسْلِمِينَ ﴿٣١﴾
قَالَتْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ أَفْتُونِى فِىٓ أَمْرِى مَا كُنتُ قَاطِعَةً
أَمْرًا حَتَّىٰ تَشْهَدُونِ ﴿٣٢﴾ قَالُوا۟ نَحْنُ أُو۟لُوا۟ قُوَّةٍ وَأُو۟لُوا۟ بَأْسٍ
شَدِيدٍ وَٱلْأَمْرُ إِلَيْكِ فَٱنظُرِى مَاذَا تَأْمُرِينَ ﴿٣٣﴾ قَالَتْ إِنَّ
ٱلْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا۟ قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوٓا۟ أَعِزَّةَ أَهْلِهَآ
أَذِلَّةً ۖ وَكَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ ﴿٣٤﴾ وَإِنِّى مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِم بِهَدِيَّةٍ
فَنَاظِرَةٌۢ بِمَ يَرْجِعُ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٣٥﴾ فَلَمَّا جَآءَ سُلَيْمَٰنَ قَالَ
أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ فَمَآ ءَاتَىٰنِۦَ ٱللَّهُ خَيْرٌ مِّمَّآ ءَاتَىٰكُم بَلْ أَنتُم
بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ ﴿٣٦﴾ ٱرْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُم بِجُنُودٍ
لَّا قِبَلَ لَهُم بِهَا وَلَنُخْرِجَنَّهُم مِّنْهَآ أَذِلَّةً وَهُمْ صَٰغِرُونَ ﴿٣٧﴾
قَالَ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ أَيُّكُمْ يَأْتِينِى بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَن يَأْتُونِى
مُسْلِمِينَ ﴿٣٨﴾ قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ
قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ ۖ وَإِنِّى عَلَيْهِ لَقَوِىٌّ أَمِينٌ ﴿٣٩﴾

قَالَ ٱلَّذِي عِندَهُۥ عِلْمٌ مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ
أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ فَلَمَّا رَءَاهُ مُسْتَقِرًّا عِندَهُۥ قَالَ هَٰذَا
مِن فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِيٓ ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا
يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ ﴿٤٠﴾
قَالَ نَكِّرُوا۟ لَهَا عَرْشَهَا نَنظُرْ أَتَهْتَدِيٓ أَمْ تَكُونُ مِنَ ٱلَّذِينَ
لَا يَهْتَدُونَ ﴿٤١﴾ فَلَمَّا جَآءَتْ قِيلَ أَهَٰكَذَا عَرْشُكِ قَالَتْ
كَأَنَّهُۥ هُوَ وَأُوتِينَا ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ ﴿٤٢﴾
وَصَدَّهَا مَا كَانَت تَّعْبُدُ مِن دُونِ ٱللَّهِ إِنَّهَا كَانَتْ مِن قَوْمٍ
كَٰفِرِينَ ﴿٤٣﴾ قِيلَ لَهَا ٱدْخُلِي ٱلصَّرْحَ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ
لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَن سَاقَيْهَا قَالَ إِنَّهُۥ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ مِّن
قَوَارِيرَ قَالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَٰنَ
لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٤﴾

عرض حافل لملك سليمان وسلطته الروحية الرسالية مع الجن والأنس والطير فهم يوزعون ، في حلقات من حياته المنقطعة النظير مع الطير والنمل وملكة سبإ ، تبرز سلطته الملكية بجنب سلطانه الرسالي ، تبييناً لعدله في

سلطانه الجامع غير الجامح ، قصصاً حافلة بحركات ومشاعر ومشاهد ، نبراساً ينير الدرب على الزعماء في كل حقل كيف يجب عليهم رعاية الرعايا والتجنب عن الخطايا :

﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ عِلْماً وَقَالاَ الْحَمْدُ لِلهِ الَّذِي فَضَّلَنَا عَلَى كَثِيرٍ مِنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ ﴾[١٥] .

« لقد » تأكيدان اثنان لموهبة العلم الربانية ، و« آتينا » في جمعية الصفات تاكيدة ثالثة تلمح لمختلف صنوف العلوم الربانية ، الممكن ايتاءها للصالحين الخصوص ، ثم « علماً » منكراً تأشير إلى فخامة ذلك العلم ، كما و« آتينا » تشير إلى انه ليس مما يحصل بتحصيل متعوَّد ، بل هو إشراق رباني الى قلوب الطاهرين على قدر الفاعليات والقابليات « علماً » ومعرفة بالله يتبع العقيدة الصالحة والعمل الصالح « علماً » يعلم صاحبه مصدَره ، متجهاً إلى الله ، منفقاً له في مرضات الله ، مقرِّباً له إلى الله ، دونما صدٌّ للقلب عن الله ، زائغاً عن مصدره ومورده ، لا يثمر إلاّ شقاوة ، لأنه منقطع الصلة صادراً وواردا ، وبعيداً عن النور مادة .

وهنا نعرف موقف الواو في « وقالا . . . » كأنها عطف على محذوف معروف من « علماً » هذا ، وهو العقيدة الصالحة والعمل الصالح : « آتينا علماً » - فاعتقداه وعملا به « وقالا الحمد لله . . » فذلك الحمد باللسان يتبع الحمد بالجنان والأركان ، شكراً على عطية الملك المنان ، و« فضلنا » ليس فقط في مجرد العلم ، إذ لا فضل في مجرده عن أثماره ، بل هو الذي قال الله عنه « انما يخشى الله من عباده العلماء » -: بالله و« ان اكرمكم عند الله اتقاكم » علم التقوى والتقوى في العلم ، جناحان يطير بهما العبد الصالح إلى قمم المعرفة والكمال .

ثم وليس «فضلنا» هنا ـ فقط ـ بما علمنا مجرداً عما يرام منه مادة وفاعلية، بل «فضلنا» بما يفضِّل عباداً على عباد وقمتهُ التقوى، و « على كثير من عباده المؤمنين » تعقيبة رقيبة على ذلك التفضيل في علم وسواه، انه في العبودية والايمان، دون العلم الفاضي عنهما، وانما هو الفائض منهما، الصادر عنهما، والوارد موارد الحق المُرام فيهما.

ولقد أشير إلى العلم المؤتى لداود في « وآتيناه الحكمة وفصل الخطاب » (٣٨ : ٢٠) ولسليمان « ففهمناها سليمان وكلاً آتينا حكماً وعلماً (٢١ : ٧٩) فهما المؤتَيان حكماً وعلماً، يشملان قمماً معرفية عالية فُضِّلا بها على كثير من عباده المؤمنين.

اجل وهم من القلة القليلة بين « عباده المؤمنين » : « اولئك المقربون. في جنات النعيم. ثلة من الأولين، وقليل من الآخرين » (٥٦ : ١٤) فتلك الثلة وهذه القلة هم القلة القليلة « من عباده المؤمنين ».

ومن فضل داود المشار إليه بـ« فضلنا » : « ولقد آتينا داود منا فضلاً يا جبال أو بي معه والطير وألنّا له الحديد » (١٠) « ولسليمان الريح غدوها شهر ورواحها شهر » (٣٤ : ١٢).

فقد كان داود يرتل مقاطع من الزبور فيتجاوب به ذرات الكائنات مِن حوله، مما يدل على العبودية العريقة القمة، وسليمان المسخر له الريح والجن والإنس بامر الله قضيةَ طاعة الله كما قال الله : عبدي أطعني حتى اجعلك مَثَلي انا اقول للشيء كن فيكون، اجعلك تقول للشيء كن فيكون!

لذلك لَمّا « سأل رجل رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) عن افضل الأعمال فقال : العلم بالله والفقه في دينه وكررها عليه، فقال : يا

رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) اسألك عن العمل فتخبرني عن العلم فقال ان العلم ينفعك معه قليل العمل وان الجهل لا ينفعك معه كثير العمل »[1] .

﴿ وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُدَ وَقَالَ يَا أَيُّهَا النَّاسُ عُلِّمْنَا مَنْطِقَ الطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْفَضْلُ الْمُبِينُ ﴾١٦ .

« ورث » هنا لا تعني ارث النبوة ، بل هو هنا المال ، فالنبوة ليست لتورث لأنها وهبة إلهية كما هنا « ولقد آتينا داود وسليمان علماً » فالله هو الذي علم سليمان كما علم داود فلا مجال لأرثه عنه بعد ما آتاه الله ، إلاّ تحصيلاً لحاصل ومن غير مصدره !

فالمال يورث بما فرضه الله كضابطة لا تستثنى : « يوصيكم الله في اولادكم . . » إرثاً دون تحصيل ، ثم العلم غير الرسالي قد يورث ولكنه بتحصيل كما « العلماء ورثة الأنبياء » تعلماً منهم ، ولكنما النبوة لا تورث إذ لا تحصل بتحصيل ، وإنما هي وهبة إلهية لا تنتقل من نبي إلى نبي ، بل هي عطية ربانية لمن يشاء : « ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم » فطالما العلم مصداق مجازي هامشي للإرث ، فالنبوة غير داخلة في ميراث ولا مجازياً[2] فكيف يختص هنا الإرث بالنبوة توجيهاً لغصب فدك

---

(١) تفسير روح البيان ٦ : ٣٢٦ .

(٢) اللهم إلاّ مجازاً بعيداً وضمن سائر الميراث ، بمعنى ان الله تعالى أورث نبياً مثل النبوة السالفة ام فوقها ام دونها ، وبين النبوة والميراث عموم من وجه ، فقد يكون الإبن نبياً دون ابيه أو يكون الأب نبياً دون ابنه فلا ميراث هنا وهناك أو يكون الأب والأبن نبيين ولكن النبوة الثانية ليست في الحق ارثاً من الأولى إلا بمجاز بعيد عن حقيقة الأرث ومجازه القريب .

وحتى إذا عم الإرث النبوة إلى المال فليس ليختص بغير المال على أية حال .

البتولة الزهراء (عليها السلام) سناداً إلى مختلقة مخالفة لكتاب الله « إنا معاشر الأنبياء لا نورث ما تركنا صدقة » ! وكما يروي الحجاج بهذه الآية واضرابها عن الزهراء سلام الله عليها بين جماهير المسلمين في مسجد النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) على الخليفة ابي بكر[1] :

---

(١) وقد اخرجت بالفاظ تالية : « فاطمة بضعة مني فمن اغضبها اغضبني » « . . يؤذيني ما آذاها ويغضبني ما اغضبها » « . . يقبضني ما يقبضها ويبسطني ما يبسطها » « . . يؤذيني ما آذاها ويُنصبني ما أنصبها » « . . يَريبني ما رابها ويؤذيني ما آذاها » « . . يسعفني ما يسعفنا ـ'و : «فاطمة شجنة مني يُبسطني ما يُبسطها ويقبضني ما يقبضها » « فاطمة مضغة مني فمن آذاها فقد آذاني » « . . يقبضني ما قبضها ويبسطني ما بسطها » « . . يسرني ما يسرها » .

اخرج على اختلاف الفاظها ائمة الصحاح الست وعدة اخرى من رجال الحديث في السنن والمسانيد والمعاجم واليكم جلة ممن رواها : ١ ـ ابو محمد ابن عيينة الكوفي المتوفى ١٩٨ كما في الصحيحين . ٢ ـ ابن ابي مليكة ١١٧ في رواية البخاري ومسلم وابن ماجة وابن داود وأحمد والحاكم . ٣ ـ ابو عمر بن دينار المكي ١٢٥ كما في صحيحي البخاري ومسلم . ٤ ـ الليث بن سعد المصري ١٧٥ كما في اسناد ابن ماجة وابن داود واحمد . ٥ ـ ابو النضر هاشم البغدادي ٣٠٥ مسند أحمد . ٦ ـ احمد بن يونس اليربوعي ٢٢٧ كما في صحيح مسلم وسنن ابي داود . ٧ ـ الحافظ ابو الوليد الطيالسي ٢٢٧ صحيح البخاري . ٨ ـ ابو المعمر الهذلي ٣٣٦ صحيح مسلم . ٩ ـ قتيبة بن سعيد الثقفي ٢٤٠ مسلم وابو داود . ١٠ ـ عيسى بن حماد المصري ٢٤٨ . ١١ ـ ابن ماجة . ١٢ ـ احمد بن حنبل ٢٤١ في مسنده ٤ : ٣٢٢ و ٣٢٨ . ١٣ ـ البخاري في صحيحه ٥ : ٣٧٤ . ١٤ ـ مسلم ٢٦١ في صحيحه ٢ : ٢٦١ . ١٥ ـ ابن ماجة في سننه ١ : ٢١٦ . ١٦ ـ ابو داود في سننه ١ : ٣٢٤ . ١٦ ـ الترمذي في جامعه ٢ : ٣١٩ . ١٧ ـ الترمذي في نوادر الأصول ٣٠٨ . ١٨ ـ النسائي في خصائصه ٣٥ . ١٩ ـ ابو الفرج الأصبهاني في الأغاني ٨ : ١٥٦ . ٢٠ ـ النيسابوري في المستدرك ٣ : ١٥٤ ، ١٥٨ ، ١٥٩ ـ وإلى (٤٩) شخصاً ذكرهم العلامة الأميني في الغدير ٧ : ٢٣١ ـ ٢٣٥ .

« أفعلى عمد تركتم كتاب الله ونبذتموه وراء ظهوركم إذ يقول الله تبارك وتعالى : « وورث سليمان داود » وقال عز وجل فيما اقتص من خبر يحيى بن زكريا « رب هب لي من لدنك ولياً يرثني ويرث من آل يعقوب واجعله رب رضياً » وقال عز ذكره « واولوا الأرحام بعضهم أولى ببعض في كتاب الله » وقال « يوصيكم الله في اولادكم للذكر مثل حظ الانثيين » وقال « ان ترك خيراً الوصية للوالدين والأقربين بالمعروف حقاً على المتقين » وزعمتم ان لا حظوة لي ولا ارث من ابي ولا رحم بيننا ، افخصكم الله بآية أخرج نبيَّه منها ؟ أم تقولون أهل ملتين لا يتوارثان ؟ أولست وأبي من أهل ملة واحدة ؟ أم أنتم أعلم بخصوص القرآن وعمومه من النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) « أفحكم الجاهلية يبغون ومن أحسن من الله حكماً لقوم يوقنون » ؟ أأغلب على إرثي ظلماً وجوراً « وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون »[1] .

ورواية ابي بكر عن رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) : نحن معاشر الأنبياء لا نورث ما تركناه صدقة » مضروبة عرض الحائط لمخالفتها نصوصاً من الكتاب ، فانها معلّلة عدم الايراث بالنبوة ، « وورث سليمان داود » واضرابها تورّث الأنبياء بعضهم عن بعض! اضافة إلى المتواتر عن

(١) بحار الأنوار ج ٦ نقلاً لها عن كتاب « بلاغات النساء لأبي الفضل احمد بن ابي طاهر قائلاً انها من المشهورات بين الفريقين وفي كتاب الاحتجاج روى عبد الله بن الحسن باسناده عن آبائه عليهم السلام انه لما اجمع ابو بكر على منع فاطمة فدك وبلغها ذلك جاءت اليه وقالت له : يا ابن ابي قحافة افي كتاب الله ان ترث اباك ولا ارث ابي لقد جئت شيئاً فرياً ، افعلى عمد تركتم كتاب الله . . .

الرسول في فاطمته أن أذاها أذاه ورضاها رضاه وقد تأذت ووُجدت من فعلة الخليفة (١).

ذلك ارث المال ، واما الحال فلا ارث فيها وهي المذكورة قبلُ « ولقد آتينا داود وسليمان علماً وقالا . . » وكذلك بعدُ في قسم من قضاياها « وقال يا أيها الناس . . واوتينا . . ان هذا لهو الفضل المبين » .

ولو كانت هذه مما ورثه داود لم يكن للواو مجال في « وقال » بل الصحيح إذاً : قال ، ام : فقال . .

﴿ . . وقالَ يا أيُّهَا النَّاسُ عُلِّمْنَا مَنْطِقَ الطَّيْرِ . . . ﴾ .

هنا نعرف ان للطير منطقاً ، فليس الإنسان هو الحيوان الناطق بين الحَيَوان ، ولكن كيف تنطق الطير وماذا ؟ إن علمه بحاجة إلى تعليم رباني يختص بأمثال سليمان ممن آتاهم الله علماً .

---

(١) في نور الثقلين ٤ : ٧٥ في كتاب المناقب لابن شهر آشوب وذكر مسلم عن عبد الرزاق عن معمَّر عن الزهري عن عروة عن عائشة وفي حديث الليث بن سعد عن عقيل عن ابن عروة عن عائشة في خبر طويل تذكر فيه ان فاطمة ارسلت إلى ابي بكر تسأل ميراثها من رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) القصة ـ قال : فهجرته ولم تكلمه حتى توفيت ولم يؤذن بها ابا بكر يصلي عليها .

واخرج البخاري في باب فرض الخمس ٥ : ٥ عن عائشة ان فاطمة (عليها السلام) ابنة رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) سألت ابا بكر الصديق بعد وفات رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) ان يقسم لها ميراثها ما ترك رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) مما افاءَ الله عليه فقال لها ابو بكر : ان رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) قال : لا نورث ما تركنا صدقة ـ فغضبت فاطمة بنت رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) فهجرت ابا بكر فلم تزل مهاجرة حتى توفيت .

اقول : ما تركنا صدقة قد تعني ان ما تركناه صدقةً لا نورثها ، لا وما تركناه غيرها .

وهل ان الطير ايضاً عُلِّمت منطق سليمان إذ كلمته هدهد في حوار ؟ طبعاً نعم! وإلاّ فكيف عرفت مقال سليمان ثم اجابت «فقال احطت بما لم تحط

= واخرج في الغزوات باب غزوة خيبرة ٦ : ١٩٦ عن عائشة قالت : ان فاطمة (عليها السلام) - الى ان قالت - : فابى ابو بكر ان يدفع الى فاطمة منها شيئاً فوجدت فاطمة على ابي بكر في ذلك فهجرته فلم تكلمه حتى توفيت وعاشت بعد النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) ستة اشهر فلما توفيت دفنها زوجها علي ليلاً ولم يؤذن بها ابا بكر وصلى عليها .

واخرج مثله مسلم في صحيحه ٣ : ٧٢ واحمد في مسنده ١ : ٦ ، ٩ والطبري في تاريخه ٣ : ٢٠٢ والطحاوي في مشكل الآثار ١ : ٤٨ والبيهقي في سننه ٦ : ٣٠٠ - ٣٠١ وكفاية الطالب ٢٢٦ وتاريخ ابن كثير ٥ : ٢٨٥ وقال في ٦ : ٣٣٣ : لم تزل فاطمة تبغضه مدة حياتها ، وذكره بلفظ الصحيحين الديار بكري في تاريخ الخميس ٢ : ١٩٣ .

ولقد بلغت من موجدتها انها اوصت بان تدفن ليلاً وان لا يدخل عليها احد ولا يصلي عليها ابو بكر فدفنت ليلاً ولم يشعر بها ابو بكر وصلى عليها علي وهو الذي غسلها مع اسماء بنت عميس : (طبقات ابن سعد - رسائل الجاحظ ٣٠٠ - حلية الأولياء ٣ : ٤٣ - مستدرك الحاكم ٣ : ١٦٣ - طرح التثريب : ١ : ١٥٠ اسد الغابة ٥ : ٢٥٤ - الاستيعاب ٣ : ٧٥١ - مقتل الخوارزمي ١ : ٨٣ - ارشاد الساري للقسطلاني ٦ : ٣٦٢ - الاصابة ٤ : ٣٧٨ - ٣٨٠ ، تاريخ الخميس ١ : ٣٢٣) .

وقال الواقدي كما في السيرة الحلبية ٣ : ٣٩٠ ثبت عندنا ان علياً كرم الله وجهه دفنها رضي الله عنها ليلاً وصلى عليها ومعه العباس والفضل ولم يعلموا بها احداً .

ومن جراء تلك الموجدة منعت ان تدخلها يوم ذاك عائشة كريمة ابي بكر فضلاً عن أبيها فجاءت تدخل فمنعتها الأسماء فقالت. لا تدخلي ، فشكت إلى ابي بكر وقالت : هذه الخثعمية تحول بيننا وبين بنت رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) فوقف ابو بكر على الباب وقال يا اسماء ما حملك على ان منعت ازواج النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) ان يدخلن على بيت رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) وقد صنعتِ لها هودج العروس ؟ قالت : هي امرتني ان لا يدخل عليها أحد وامرتني ان اصنع لها ذلك - راجع (الاستيعاب ٣ : ٧٧٢ - ذخائر العقبى ٥٣ - اسد الغابة ٥ : ٥٢٤ - تاريخ الخميس=

به » إلا انه ليس لزامه ان الهدهد تفهمت لغة الإنسان من سليمان ، فالذي علَّم منطق الطير يعلم نطقها ويعلم كيف ينطق معها نطقها ، و« علمنا منطق الطير » تشمل النطق بلغتها بجنب تفهُّمها لغته ، بل لا فكاك بين ان يفهم منطقها وبين أن ينطق به .

وكما « علِّمنا .. » تشمل العِلمين سماعاً وتكلماً ، كذلك « الطير »

= ١ : ٣١٣ ـ كنز العمال ٧ : ١١٤ ـ شرح صحيح مسلم للسنوسي ٦ : ٢٨١ ـ شرح الأبي لمسلم ٦ : ٢٨٢ ـ اعلام النساء ٣ : ١٢٢١ .

وقد اخرج ابن قتيبة والجاحظ ان عمر قال لأبي بكر انطلق بنا إلى فاطمة فانا قد اغضبناها فانطلقا جيعاً فاستأذن على فاطمة فلم تأذن لهما فأتيا علياً فكلماه فادخلهما عليها فلما قعدا عندها حولت وجهها إلى الحائط فسلما عليها فلم ترد عليهما السلام فتكلم ابو بكر فقال : يا حبيبة رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) والله ان قرابة رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) أحب الي من قرابتي وإنك لأحب الي من عائشة ابنتي ولوددت يوم مات أبوك متُّ ولا أبقى بعده افتراني اعرفك واعرف فضلك وشرفك وامنعك حقك وميراثك من رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) ألا إني سمعت اباك رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) يقول : لا نورث ما تركنا فهو صدقة ، فقالت : ارأيتكما ان حدثتكما حديثاً عن رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) تعرفانه وتفعلان به ؟ فقالا : نعم فقالت : نشدتكما الله الم تسمعا رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) يقول : رضا فاطمة من رضاي وسخط فاطمة من سخطي فمن احب فاطمة ابنتي فقد احبني ومن ارضى فاطمة فقد ارضاني ومن اسخط فاطمة فقد اسخطني ؟ قالا : نعم سمعناه من رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) قالت : فاني اشهد الله وملائكته أنكما استخطتماني وما ارضيتماني ، ولئن لقيت النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) لأشكونكما اليه ، فقال ابو بكر : انا عائذ بالله تعالى من سخطه وسخطك يا فاطمة ، ثم انتحب ابو بكر يبكي حتى كادت نفسه ان تزهق وهي تقول : والله لأدعون عليك في كل صلاة أصليها ، ثم خرج باكياً فاجتمع الناس اليه فقال لهم : يبيت كل رجل معانقاً حليلته مسروراً بأهله وتركتموني وما أنا فيه لا حاجة لي في بيعتكم أقيلوني بيعتي .

تشمل سائر الطير دونما استثناء ، مهما برزت الهدهد في ذلك المسرح .

وهل إن « منطق الطير » هنا تختص علمه بمنطقها بين سائر الحيوان ؟ فكيف علّم منطق النملة ! ألأنها كانت من طيرها فتشملها « الطير » ؟ ولا يقال لذوات الأجنحة منها طير !

أم لأن النملة اختصت بهذا النص بين الحيوان غير الطير ، فلم يعلم منطق سائر الحيوان إلّا النملة ؟.. ليس لنا إلّا متابعة النص ، فقد علّم منطق الطير والنملة ثم لا ندري هل علّم منطقاً آخر ام لا ؟ اللهم إلّا أن تلمح « وأوتينا من كل شيء إنَّ هذا لهو الفضل المبين » و « من كل شيء » شيء من العلم بمنطق سائر الحَيوان بل وسائر الكائنات[1] وشيءٌ من المِلك والمُلك .

اجل « من كلِّ شيء » لا تعني البعض الذي يعرفه الكلّ علماً فطرياً أو تعلماً ، وانما « اوتينا » كعطاء خاص رباني كما « آتينا داود وسليمان علماً » فذلك المؤتى له من كل شيء ، شيءٌ من العلم الخاص والقدرة الخاصة أمّا هيه من المخبوِّ تحت ستار الغيب ، لا يعلمها إلّا من علمه الله ، و « إن هذا لهو الفضل المبين » حيث يبين اختصاص الفضل على سائر العالمين ، إذ لا يناله أحد إلّا بما يؤتيه الله لا سواه .

إلّا أن هنا فرقاً بين « علمنا منطق الطير » و « أوتينا من كل شيء »

---

(١) المجمع روى الواحدي بالاسناد عن جعفر بن محمد عن ابيه عليهما السلام قال : أعطي سليمان بن داود ملك مشارق الأرض ومغاربها فملك سبعماة سنة وستة أشهر ، ملك أهل الدنيا كلهم من الجن والانس والشياطين والدواب والطير والسباع وأعطي علم كل شيء ومنطق كل شيء وفي زمانه صنعت الصنائع العجيبة التي سمع بها الناس وذلك قوله « علمنا منطق الطير وأوتينا من كل شيء إن هذا لهو الفضل المبين » .

حيث الأول تلمح انه علم منطق الطير ككل ، والثانية لمكان « مِن » التبعيض تختص علمه وقدرته بالبعض ، فقد علِّم - إذاً - بعض المنطق من سائر الحيوان وسواها ، كما أوتي البعض غير العلم كما العلم،وليس منطق الطير كلُّ ما يُسمع منها،فقد يكون صوتاً دون معنى كما قد يكون منا ، وقد لا يكون صوتاً نسمعه كما في النمل واضرابها ، فما يناله الإنسان من الصوت انما هو عدد محدود من الإرتعاش الصوتي وهو كما يقال ما بين ستة عشر ألفاً إلى اثنين وثلاثين الفاً في الثانية ، والخارج منها في الجانبين خارج عن حدود سمعه ، وقد تنطق الطير أو سائر الحيوان دون صوت ، وإنما باشارات تلغرافية أو الرادار كما نراها من النمل وسائر الحيوان ، فلا يختص المنطق بما له صوت ، بل يعمه مسموعاً لنا وسواه ، ام رمزاً لا يُسمع ، والنطق هو إبراز ما في الباطن بآلة ظاهرة لساناً وسواه ، و « علمنا منطق الطير » تعم مثلث النطق . اجل وللطير منطق كما لكل حيوان حيث الكل امم كما نحن : « وما من دابة في الأرض ولا طائر يطير بجناحيه إلّا أمم أمثالكم ما فرطنا في الكتاب من شيء ثم الى ربهم يحشرون » (٦ : ٣٨) .

ذلك ! لضرورة التفاهم بينها لإدارة الشئون الحيوية لها ، وليس للإنسان التعرُّف إلى منطقها مهما حاول وزاول ، لأنه من الأسرار الربانية يعلِّمها من يشاء ! .

وحين يعلَّم سليمان منطق الطير ويوتى من كل شيء فباحرى الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) والأئمة من آله الطاهرين سلام الله عليهم اجمعين،أُحرى بهم ان يعلَّموا منطق الطير ويؤتَوا من كل شيء[1] فانهم ائمة

(١) نور الثقلين ٤ : ٧٧ في الخرائج والجرائح قال بدر مولى الرضا (عليه السلام) ان اسحاق بن عمار دخل على موسى (عليه السلام) فجلس عنده واستأذن عليه رجل من

خراسان فكلمه بكلام لم اسمع بمثله كأنه كلام الطير ، قال اسحق : فأجابه موسى (عليه السلام) بمثله ولغته إلى أن قضى وطره من مسائله فخرج من عنده فقلت : ما سمعت بمثل هذا الكلام ! فقال (عليه السلام) : هذا كلام قوم من أهل الصين وليس كل كلام أهل الصين مثله ثم قال : اتعجب من كلامي بلغته ؟ فقلت : هو موضع العجب ! قال (عليه السلام) : اخبرك بما هو اعجب منه ان الامام يعلم منطق الطير ونطق كل ذي روح خلقها الله تعالى وما يخفى على الإمام شيء .

أقول « لا يخفى على الامام شيء » قد يعني لغة كل شيء لا كل شيء من كل شيء فانه خاص بالله الذي لا يعزب عن علمه شيء .

وفيه عن المناقب لابن شهر آشوب محمد بن مسلم عن ابي جعفر (عليه السلام) قال سمعته يقول : « علمنا منطق الطير وأوتينا من كل شيء » أقول : وهذا يؤيد تبعيض العلم وكل شيء من كل شيء .

وفيه عن بصائر الدرجات بسند عن الثمالي قال كنت مع علي بن الحسين (عليهما السلام) فانتشرت العصافير وصوتت فقال: يا أبا حمزة أتدري ما تقول ؟ قلت : لا قال : تقدس ربها وتسأله قوت يومها ثم قال : يا با حمزة « علمنا منطق الطير وأوتينا من كل شيء » .

وعنه عن زرارة عن ابي عبد الله (عليه السلام) قال قال امير المؤمنين (عليه السلام) لابن عباس : أن الله علمنا منطق الطير كما علم سليمان بن داود ، ومنطق كل دابة في بر وبحر . وفي تفسير البرهان ٣ : ٢٠١ محمد بن الحسن الصفار في بصائر الدرجات بسند متصل عن محمد بن جعفر عن ابيه قال قال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) : استوصوا بالصنانيات خيراً يعني الخطاف فانه آنس طير الناس بالناس ثم قال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) : اتدرون ما تقول الصنانية إذ هي ترنمت تقول بسم الله الرحمن الرحيم الحمد لله رب العالمين حتى تقرء ام الكتاب فإذا كان في آخر ترنمها قالت ولا الضالين .

أقول : والروايات في انهم علموا منطق الطير وأوتوا من كل شيء علّها متواترة . =

سليمان ومَن فوقَه من النبيين ، وما هم بعالمين كل شيء خلافاً لما يروى (١) وترى « علمنا وأوتينا » ـ وهو شخص ـ أهي من سنة الرعونة والكبرياء في الملوك ؟ وسليمان من افضل الصالحين ! قد يعني نفسه وإباه داود ، ام ومن معه من النبيين وسائر المعصومين سلام الله عليهم اجمعين ، وكما « آتينا داود وسليمان علماً » .

وقد تلمح « علمنا وأوتينا » برجاحة الإعلان بما أنعم الله أو اختص بكرامته ، كما « واما بنعمة ربك فحدث » شرط ألّا تمازجه رعونة وكبرياء فان الله منها براءٌ ، بل هو هنا اعلان رسالي تدليلاً بذلك العلم على رسالته الى الناس ، فليس فقط تحديثنا بنعمة ربه راجحاً غير واجب .

فقد أذاع سليمان هذه العطية الربانية للناس تحدثاً بنعمة الله دون مباهاة ولا تنفُّجٍ على الناس ، وكما يدل عليه بتعقيبه « ان هذا لهو الفضل المبين » .

وليس منطق الطير وسائر الحيوان ـ ككلٍّ ـ بالساذج الحيواني دون العقول الإنسانية ، وكما النملة والهدهد تبرزان هذه الحقيقة ، ان لها معارف كما

= وقد يعني ان علمهم عليهم السلام أوسع من علمه كما عن نفس المصدر عن الفيض بن المختار قال سمعت ابا عبد الله (عليه السلام) • ان سليمان بن داود قال : « علمنا منطق الطير وأوتينا من كل شيء » وقد والله علمنا منطق الطير وعلم كل شيء ، أقول : ولكن الكل نسبي لا يعني ككل ما يعلمه الله ، وانما البعض الأكثر شمولاً مما علم وأوتي سليمان .

(١) المصدر عن بصائر الدرجات احمد بن محمد بن خالد عن بعض رجاله عن ابي عبد الله (عليه السلام) وتلا رجل عنده هذه الآية « علمنا منطق الطير وأوتينا من كل شيء » فقال ابو عبد الله (عليه السلام) ليس فيها « من » انما هي « اوتينا كل شيء » اقول : انه مضروب عرض الحائط لمخالفته تواتر القرآن وكما في روايات العرض .

للإنسان ام وقد تكون أصغى وأوفى،وأنها تسبّح بحمد ربها كما نسبّح « كل قد علم صلاته وتسبيحه » (٢٤ : ٤١) « ولكن لا تفقهون تسبيحهم » (١٧ : ٤٤) (١) .

وإنما الميْزة البارزة للإنسان بين سائر الحيوان هو التقويم الأحسن فيه قلباً وقالباً ، وانه لا يقف لحدٍّ ، فله التكامل الى قم عليا من الكمال وأعلى من الملائكة المقربين ، وللحيوان ـ ككل ـ مقام محدود ، وحتى بالنسبة للحيوان الذي يتكامل وقليلٌ ما هو ، وان الكمالات الإنسانية روحية وسواها

---

(١) نور الثقلين ٤ : ٧٨ ـ المناقب عن تفسير الثعلبي قال الصادق (عليه السلام) قال الحسين بن علي عليهما السلام : إذا صاح النسر قال : يا ابن آدم اعش ما شئت آخره الموت ، وإذا صاح الغراب قال : ان في البعد عن الناس انساً ـ وإذا صاح القنبر قال : اللهم العن مبغضي آل محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) وإذا صاح الخطاف قرء الحمد لله رب العالمين ويمد الضالين كما يمدها القاريء . وفيه في مناقب ابي جعفر الباقر (عليه السلام) وسمع عصافير تصحن قال : تدري ياباحمزة ما يقلن ؟ قلت : لا ـ قال : يسبحن ربي عز وجل ويسألن قوت يومهن .

وعن بصائر الدرجات بسند عن فضيل بن يسار عن ابي عبد الله (عليه السلام) قال : كنت عنده إذ نظرت إلى زوج حمام فهدر الذكر على الانثى فقال لي : أتدري ما يقول ؟ قلت : لا ـ قال يقول : يا سكني وعرسي ما خلق الله احب إليّ منك إلّا ان يكون مولاي جعفر بن محمد .

وفيه بسند عن سليمان من ولد جعفر بن ابي طالب قال : كنت مع ابي الحسن الرضا (عليه السلام) في حائط له إذ جاء عصفور فوقع بين يديه واخذ يصيح ويكثر الصياح ويضطرب فقال لي : يا فلان تدري ما يقول هذا العصفور ؟ قال قلت : الله ورسوله وابن رسوله اعلم قال : انها تقول ان حية تريد ان تأكل فراخي في البيت فخذ معك العصا وادخل البيت واقتل الحية ، قال : فأخذت النبعة ـ وهي العصا ـ ودخلت إلى البيت وإذا حية تجول في البيت فقتلتها .

تبني المساعي على قدرها ، والحيوان اوتيت المعرفة بالله غريزياً في كل وظائفها « كلٌ قد علم صلاته وتسبحيه » ! .

﴿ وَحُشِرَ لِسُلَيْمَانَ جُنُودُهُ مِنَ الْجِنِّ وَالإِنْسِ وَالطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴾١٧ .

الحشر هو اخراج جماعةٍ عن مستقرهم بازعاج ودفعٍ جماعة ، وهكذا يحشر الجنود المتفرقون في مختلف مستقراتهم لهدف الغزو ، أو عرضهم أمام قائدهم أمّاذا ؟ ، والإيزاع هو المنع ، وهنا الحبس عن تفرقهم وحشرهم ان « يحبس اولهم على آخرهم »[(١)] . فقد اصبح جنوده من الأقسام الثلاثة محشورة مع بعض، دون سماح لهم بالتفرق والرجوع إلى مستقراتهم لفترة مقصودة فيما أهمه .

و « من » هنا تبعّض الجن والإنس والطير ، فلم يكن الكلُّ بأسرهم جنودَه ، فمن يبقى بعدهم اجمع حتى يحاربهم ؟ أيحارب الحَيوان الوحش أو الملائكة أمّن هم ؟ ولم يتجاوز ملكه ما يعرف الآن بفلسطين ولبنان وسوريا والعراق إلى ضفة الفرات ! والشيطان-وهو من الجن وزعيم مردة الشياطين-لم يكن من جنوده ، ومنهم محاربون له معارضون : « واتبعوا ما تتلوا الشياطين على ملك سليمان وما كفر سليمان ولكن الشياطين كفروا » (٢ : ١٠٢) ، ثم الشياطين العمال لم يكونوا كلهم من جنوده ، بل « والشياطين كل بناء وغواص » (٣٨ : ٣٧) « ومن الشياطين من يغوصون له ويعملون عملاً دون ذلك وكنّا لهم حافظين » (٢١ : ٨٢) ومنهم من لم يطلع عليهم كمملكة سبإٍ حتى أخبره الهدهد ! ثم الطير وهي البلايين

---

(١) نور الثقلين ٤ : ٨٢ القمي في رواية ابي الجارود عن ابي جعفر (عليه السلام) في الآية . . .

البلايين لم تكن لتحشر عن بكرتها ، ومنها الملايين من الهداهد ، وهو يقول عند تفقد الطير « مالي لا أرى الهدهد . . » فهو هدهد خاص بين كل الهداهد ، كان من الطير المشحورة ، ام هو صاحب هذه النبوة الخاصة في هذا الحشر بين عدد من الهداهد .

إذاً فجنوده من كل صنف من الثلاثة هم النخبة الصالحة لحرب اعداءه من محاربي الجن والإنس ، المكافحين فيها ، وكيف يأتمن شياطين الجن في الحرب ولهم إدغال وإخلال ؟! واخيراً كيف بالامكان ان يسافر بذلك الحشد الهائل من كل الجن والإنس والطير حتى يأتوا على واد النمل ، وهو من الوديان الصغيرة المناسبة لطبيعة حال النمل ؟! .

﴿ حَتَّىٰ إِذَا أَتَوْا عَلَىٰ وَادِ النَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ ١٨

لقد سار الموكب الملكي الرسالي مصيره « حتى اتوا على واد النمل » ، وترى اين « واد النمل » ولها وديان في مختلف الأرض ؟ فلو كان وادياً كسائر الوديان لكان حق التعبير «وادياً للنمل»! فقد تعني « واد النمل » وادياً خاصاً مميّزاً عن سائر الوديان لجمهورية النمل العجيبة بين جمهوريات الحيوانات [١]. وقد ألفت لها كتابات ومنها حياة النمل .

ومما يزيد ذلك التميُّز اختصاصاً « أتوا على » دون « مرو على » أو « مروا بـ » مما يلمح انه اتيان قاصد دونما صدفة غير مقصودة .

---

(١) تبلغ اصناف النمل الفاً وتزيد ، وكل صنف يتماز عن غيره بميِّزه ، وكل جمهورية من هذه الجمهوريات لها ملكة أو اكثر ذات جناح ، وقد تتألف قرية النمل من نصف مليون نملة . .

ولأن مملكة سليمان كانت فلسطين الواسعة والعراق ، فقد يكون « واد النمل » وادياً في فلسطين (١) وما يدرينا اين هو منها ؟ وكيف هو ؟ والنص مقتصر على « واد النمل » .

فبصرت به نملة من النمال فارتاعت لذلك الحشد الحافل ، وخافت على قومها ان تدوسهم جنود سليمان فتحطمهم على غفلة « وهم لا يشعرون » فأهابت بهم ان « ادخلوا مساكنكم . . » وقد تلمح « لا يحطمنكم » وهو الكسر انها تعني فيما تعني كسرهم عن كيان العبودية انعطافاً الى زينة الدنيا كما يُروى (٢) .

---

(١) نور الثقلين ٤ : ٨٢ عن تفسير القمي في الآية فانه قعد على كرسيه وحملته الريح فمرت به على واد النمل وهو وادٍ ينبت فيه الذهب والفضة وقد وكل به النمل وهو قول الصادق (عليه السلام) ان لله وادياً ينبت الذهب والفضة وقد حماه الله باضعف خلقه وهو النمل لو رامته النجاتي ما قدرت عليه .

اقول قصة حمله على كرسيه هنا تخالف « حتى إذا اتوا » الدالة على اتيانه بجنوده وكيف تحمله الريح على كرسيه وجنوده مشاة ؟ وأما قصة انبات الذهب والفضة فمما لا نصدقها ولا نكذبها فهي مردودة الى قائلها .

وفي البحار ١٤ : ٩٤ يه باسناده الى حفص بن غياث عن أبي عبد الله (عليه السلام) انه قال : ان سليمان بن داود عليهما السلام خرج ذات يوم مع اصحابه يستسقي فوجد نملة قد رفعت قائمة من قوائمها الى السماء وهي تقول : اللهم انا خلق من خلقك لا غنى بنا عن رزقك فلا تهلكنا بذنوب بني آدم ، فقال سليمان (عليه السلام) لأصحابه : ارجعوا لقد سقيتم بغيركم .

(٢) بحار الأنوار ١٤ : ٩٢ ن . ع بسند متصل عن داود بن سليمان الغازي قال : سمعت علي بن موسى الرضا (عليه السلام) يقول عن ابيه موسى بن جعفر عن ابيه جعفر بن محمد عليهم السلام في قوله عز وجل : فتبسم ضاحكاً من قولها ـ قال لما قالت النملة « يا ايها النمل ادخلوا مساكنكم . . . » حملت الريح صوت النملة إلى سليمان وهو مار في

أجل « قالت نملة . . » فهل قالت بصوت ناعم أسمعه الله سليمان ولا يسمعه أي انسان ؟! حيث العدد في الارتعاش الصوتي للانسان محدود ليس ليسمع ادنى منه ولا اعلى، ام قالت بالتلغراف اللاسلكي أو جهاز الرادار المودوع في قرنيها ، فهي تُبادل الخواطر بتلك الوسائل العجيبة ، فتفهُّم قولها هو من خوارق العادة للانسان في بعدي مادة الخاطرة وايصالها دون صوت ، والبشرية اليوم مهما وصلت الى استخدام الرادار اللاسلكي في نقل الأقوال ، لم تصل حتى الآن الى حد نقل الخواطر دون أية وسيلة صوتية ، وحتى إذا وصلت اليه يوماً مّا فليست لتفهم خواطر الحيوان أيّاً كان ، فانه من تعليم الملك المنّان ! .

وعلّ نملة هذه هي الملكة في واد النمل ، ـ كما يلمح لها تأنيثها ـ أو الخطيبة الممثلة لها ، فخاطبت النمل خطابها العجيب :

﴿ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ . . ﴾ .

ويا لمساكن النمل من أعاجيب في هندساتها وتنظيماتها ، وهل اتاك نبأ البيوت التي تتخذها تحت الأرض وتجعل لها أعدمة وبهوات متسعات :

الهواء والريح قد حملته فوقف وقال عليّ بالنملة ، فلما اتي بها قال سليمان : يا ايتها النملة اما علمت اني نبي الله واني لا اظلّم احداً ؟ قالت النملة : بلى قال سليمان : فلم حذرتيهم ظلمي وقلت « يا ايها النمل ادخلوا مساكنكم » قالت النملة : خشيت ان ينظروا إلى زينتك فيفتتنوا بها فيبعدوا عن الله تعالى ذكره ـ وفي العلل : فيعبدون غير الله تعالى ذكره ، وفي العيون : فيعبدون عن ذكر الله تعالى ، ثم قالت النملة : هل تدري لم سخرت لك الريح من بين سائر المملكة (الملكة) قال سليمان : مالي بهذا علم ، قالت النملة : يعني عز وجل بذلك : لو سخرت لك جميع المملكة كما سخرت لك هذه الريح لكان زوالها من يدرك كزوال الريح ، فحينئذ تبسم ضاحكاً من قولها . أقول : وللنظر في بعض فقراتها مجال إذ تخالف القرآن أم لا توافقه .

(صالات) في كل بهوة ابواب مفتّحات إلى حُجَر صغيرات تسكن فيها ، وآخر تخزن فيها الحبوب والغلال وبينها الطرق والمسالك والشوارع بحيث تهتدي بها إلى أعلى الأرض وتجتمع من تلك البيوت وبهواتها وحجراتها وأعمدتها قرى كاملة ذات بيوت كثيرة .

والأغرب من ذلك أنها قد تملك عدة قرى كأنها مستعمرات تصل بينها بطرق كما تفعل الأمم المتمدنة وتصل بين مستعمراتها بالسكك الحديدية .

وهي لا تقتصر على فن واحد من العمارت ، فقد تبني بيوتاً فوق الأرضية كما تحتها ، من اوراق الأشجار والأغصان وقصور الخشب المتساقطة من الأشجار العتيقة وتبني مساكن وترى أمام الناظر كأنها آكام ما بين عشرة أقدام إلى خمسة عشر قدماً ، ويكثر ذلك تحت شجر الصنوبر ، ثم نوع ثالث من مساكنها تنحت من الأشجار العتيقة بيوتاً كما نتخذ نحن من الجبال بيوتاً[1] .

مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

---

(١) للاطلاع إلى اجمال من حياة النمل راجع الى ما جمعه الشيخ الطنطاوي في تفسيره الجواهر ، مما وصل اليه العلم حتى الآن ، ومما جاء فيه ان النمل تفعل فعل الملوك فتدبر وتسوس كما يسوس الحكام ، فتراه كيف يتخذ القرى تحت الأرض ولبيوتها أورقة ودهاليز وغرفات ذوات طبقات منعطفات ، وكيف تملأ بعضها حبوباً وذخائر وقوتاً للشتاء ، وكيف تجعل بعضها بيوتها منخفضاً مصوباً تجري اليه المياة وبعضها يكون حولها مرتفعاً لئلا يجري اليه ماء المطر . ومن حكمة النمل ان الحبوب المخزونة عندها إذا اصيبت بماء المطر تنشرها ايام الصحو فيقطع حبة القمح نصفين ويقشر الباقلا والعدس والشعير ويقطع حب الكبربزة اربع قطع كيلا تنبت ، مما وصل اليه الانسان بعد تجارب عدة !.

* ذكاء النمل :

ومن عجائب تدبير النمل انه رأى رجل ان النمل يتكاثر على شجرة في حقوله فعمد

وهناك عجائب اخرى في حياة النمل قد يقتضي سردها مؤلفات عدة ، ثم لا نصل إلى كل اسرارها وكما قال الله « وما من دابة في الأرض ولا طائر

اليها وحفر حولها وملأ الحفرة ماء وظن انه نجا منها وبات ليلاً خالي البال منشرح الصدر مطمئناً على شجرته الغالية فاصبح فرأى الورق مغطى بالنمل ونظر الحفرة فوجدها مملوءة بالماء ، وبينما يتفقد السبب إذ رأى اوراقاً متراصة على سطح البركة من شاطئها الى جذع الشجرة والنمل يمر عليها كانها قنطرة الى حيث تطلع على تلك الشجرة !

ومن عجائب كدحه في عمله الجبار انه قضى عالم من علماء الرومان طول حياته في التنظر في حال النمل فشاهد نملة تشتغل طول يومها فحسب ما حفرته وبنته في ذلك اليوم نسبة الى جسمها وشغل الانسان وجسمه فوجد انها لو كانت رجلا مشتغلاً هذا الشغل لكان يحفر خليجين كل منها طوله اثنان وسبعون قدماً وعمقه ٤,٥ اقدام ، واخذ هذا الطين وصنع منه آجراً وبنى به اربع حيطان على الأربع الجوانب للخليجين كل حائط من قدمين الى ثلاثة ارتفاعاً ، ونحو ١٥ بوصة سمكاً وغلظاً ويدعك تلك الحيطان من الداخل فتصير ملساء وكل هذه الأعمال بلا مساعد آخر في النهار كله مع ان الأرض مملوءة بالأعشاب الصغيرة والأخشاب والأشجار وجذوعها الهائلة والأرض وعرة المسالك فيها آكام من الردم ! سبحان الخلاق العظيم .

* **قوة النمل :**

وقد تبلغ قوة نملة أقوى من إنسان ٣٠٠٠ مرة وكما يروى عن المستر , د. دي بوا ، العالم الطبيعي انه قال: رايت نملة تحمل حصاة من اسفل العرامة إلى أعلاها فوزنت النملة والحصاة وزناً دقيقاً بادق الموازين وقسمت ارتفاع العرمة فوجدت بعد الحساب ان الرجل لكي ينافس النملة في رفع الأثقال يجب ان يحمل حملاً وزنه نصف طن ويصعد به ٢٥ درجة من درجات السلالم الاعتيادية ، وقد اكد احد عارفي طبائع النمل انه إذا كان رجل يزن (١٥٠) رطلاً وله قوة بالنسبة الى وزنه كقوة النمل لاستطاع ان يحمل على ظهره قاطرتين من اكبر قاطرات السكك الحديدية من غير ترنُّح .

وقد روى الاستاذ رفنون ان في افريقيا نوعاً من النمل يسمى (بول دوج) يستطيع ان يمشي واثباً وكل وثبة نحو قدم ، فإذا رام الانسان ان يجاريه وجب ان يثب الوثبة الواحدة نحو ١٤٤ قدماً .

يطير بجناحيه إلّا أمم أمثالكم ما فرطنا في الكتاب من شيء ثم إلى ربهم يحشرون » (٦ : ٣٨) .

---

* حشم النمل :

ومن عجيب حياة النمل بقره وهو نوع من البعوض النباتي المائل الى الخضرة وهو كثير في الجنائن فالنمل يقنص هذا البعوض ويأخذه إلى عشه ويحميه ويغذيه ، وهذا البعوض يفرز مادة لزجة يستطيبها النمل والعجب انه لا يفرزها ما لم يدغدغه النمل بخرطومه وقد حاول دارون ان يجعل بعوضة تفرز عسلها إذ دغدغها فلم تفرز شيئاً فلما اطلق عليها نملة دغدغتها فافرزت العسل .

* النمل جراح :

وهل خطر لك ان النمل جراح حاذق ، ففي البرازيل نوع من النمل القاطع للورق يحسن الجراحة كأمهر جراح فمتى جاءت اليه نملة تقاسي من جرح خطراً يستدعي بعض الجنود الاختصاصيين ثم يضم شفتي الجرح معاً ويأمر الجندي ان يمسكهما معاً بفكيه ويبقى هذا ممسكاً بهما الى ان يخيطهما الجراح على طول الجرح بواسطة خيوط يفرزها من نفسه !.

* جبانة النمل :

ومن اغرب الأمور للنمل انه يدفن موتاه في مقبرة خاصة وذلك ان بعض النملات ترفع الجثة بواسطة خراطيمها وتتبعها النملات الأخرى في موكب جليل وتسير جميعاً خارج الوكر الى مكان معين تدفن فيه موتاها !.

* قرى النمل :

وقرية النمل تتشكل من ستة عشر قسماً : ١ ـ باب القرية ، ٢ ـ مدخل القرية ، ٣ ـ مكان الحرس لمنع دخول الغريب ، ٤ ـ أوّل طبقةلراحة العمال في الصيف ، ٥ ـ الطبقة الثانية لراحة العمال في الصيف ، ٦ ـ مكان تناول الغذاء ، ٧ ـ مخزن الأقوات ، ٨ ـ ثكنة الجنود ، ٩ ـ الغرف الملوكية حيث تبيض فيه ملكة النمل ، ١٠ ـ اصطبل لبقر النمل مع علفه ، ١١ ـ اصطبل آخر لحلب البقر ، ١٢ ـ مكان لتفقؤ البيض عن الصغار ، ١٣ ـ صغار النمل وبيضه ، ١٤ ـ صغار النمر ، ١٥ ـ مشتى النمل وبيمينه جبانة لدفن الموتى ، ١٦ ـ مشتى الملكة . وقد وردت روايات في عجائب شأن النمل ، يراجع فيه الى المفصلات كالبحار وسواه .

﴿ .. قَالَتْ نَمْلَةٌ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ ١٨ .

خطيبته متأمرة في شعبها تنادي مَن تحت إمرتها حفاظاً عليهم من التحطم ، سياسة قيادية حيادية للنمل الخارج عن مساكنها للحاجة المعيشية « ادخلوا مساكنكم » عن بكرتكم ، كي « لا يحطمنكم سليمان وجنوده » ثم حفاظاً على كرامة سليمان وجنوده وهي تعرفهم كما هم ، تعقب على نداءه « وهم لا يشعرون » إذ لا يرون ما تحت اقدامهم ، فلا يحطمونكم عمداً وعداءً ، وإنما غفلة لا شعورية ! وقد تعني « وهم لا يشعرون » جنوده دون نفسه ولكنه لا يناسب إضافة سليمان إلى جنوده في « لا يحطمنكم » . وأعجب بنملة من النمل تبرهن نداءها الحيادية بأن ذلك الحشد العظيم من الإنس والجن والطير « لا يشعرون » وهي النملة تشعر تحطيمهم لا عن شعورهم !

أدرك سليمان قالَة النملة وهشَّ لها وانشرح صدره بها كما يهش الكبير العادل الحنون للصغير الذي يحاول النجاة من أذاه ، دون ان يضمر أذاه :

« فتبسم ضاحكاً من قولها .. » تبسُّمةً ضاحكة ، فرْحةً بما عرف ، وتعجباً مما تعرّفت وقالت ، وكيف تبسم ضاحكاً وهو دون الضحك آتياً قبله ، فلا تبسُّم حال الضحك كي تصح « تبسم ضاحكاً » ؟ علّه لأنه تظاهر بحالة التبسم وهو ضاحك ، حفاظاً على سؤدد المُلك ، تبسماً يُخفي ظاهر الضحك فيه إلى باطنه ، كيلا يجلب انظار جنوده كيف يضحك سليمان لا من شيء يُضحكه ؟ إذ لم يسمع قالة النمل إلّا سليمان .

لقد شعرت النملة عصمة سليمان واعتصام من في إمرته من جنود ، لحد لا يحطِّمون النمل قاصدين ، فضلاً عن حطم الإنس ، فما لأناس ـ بعدُ ـ لم يشعروا أن الأنبياء

معصومون ؟! وترى النملة ارادت بما قالت الحذار عن حطم النمل بحياتها المادية ، ام حيويتها المعنوية إذ خافت هي على النمل - إذا رأت سليمان وجنوده في تلك الحشمة العالية - أن تتأرجف عما هي عليها فتقع في كفران نعمة الله ، وكما تلمح له قالة سليمان : « اوزعني ان أشكر . . » . وتحطيم الحيوية اخطر من تحطيم الحياة ؟ أم هي مريدة كلا الأمرين ، لا ندري . .

وهنا ندرس ان تحطيم النمل واي حيوان غير مسموح في شرعة الله اللهم إلّا دون شعور ، فليشعر الإنسان في مشيه ألا يحطِّم دون مبرر ، جوياً او برياً أو بحرياً ، وكما ندرس كف الأذى عن كل حيوان ، بل ونبات ، حالة الإحرام وفي حرم الله ، فتمرَّن هكذا حتى نعيش غير محطِّمين الضعفاء أياً كانوا وأيان حتى النبات والحيوان فضلاً عن الجن والإنسان .

﴿ فَتَبَسَّمَ ضَاحِكاً مِنْ قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحاً تَرْضَاهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ ﴾[١٩] .

« فتبسم » تبسم الفرحة بهذه النعمة الناعمة أن عُلِّم منطق النمل ، فاستفاد منه التحذر عن تحطيمها « وهم لا يشعرون » مما يُشعرنا أن علينا أن نشعر وندرك مَن حولنا وتحت أقدامنا ، فلا نتمشى تحطيماً غافلاً لذي روح ، فضلاً عما فوقه من تحطيم في تقصُّد .

والايزاع هو الحبس عن التفرق ، حبس الأوّل إلى الآخر والآخر إلى الأوّل وهو هنا حبس طاقات سليمان عن التمزق والتفرق ، جمعاً لجوارجه وجوانحه كلها في شكر الله ، وحشراً لطاقاته كلها في خدمة الله ، وهكذا إيزاع للشكر ليس - بطبيعة الحال - إلّا بطريقة الوحي والإلهام ، حيث الإنسان - اياً كان - لو خلي وطبعه ، لا يستطيع أن يجنِّد كل طاقاته وامكانياته

في سبيل شكر نعم الله كما يحق ويليق بساحته .

فسليمان هنا يتطلب الى ربه ان يُلهمه شكر نعمته ، اضافة الى ما تدعوه إليه فطرته وعقليته وشرعته ، شكراً إلهامياً ليس فقط من مقولة الألفاظ ، وليس الشكر ـ كذلك ـ قالةً تُلفظ ، بل هي حكاية عن واقع الشكر بجانحة أو جارحة ، فقد تعني « أوزعني أن أشكر . . » هنا ما تعنيه « وجعلناهم ائمة يهدون بأمرنا واوحينا إليهم فعل الخيرات وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة وكانوا لنا عابدين » (٢١ : ٧٣) ، ثم « وأن اعمل صالحاً ترضاه» كخلفيّة لذلك الإيزاع الحبسِ الإلهامِ ، أو هو مصداق عملي للشكر بعد مصداقه الروحي ، فإيزاع الشكر هنا يحلّق على الشاكر بكل كونه وكيانه ، وكأنه الشكر بعينه ، بقلبه وقالبه ، ولا يتيسر ذلك الشكر التام الطام إلّا بإلهام من الرحمن « فبأي آلاء ربكما تكذبان » !

« أوزعني أن أشكر نعمتك التي أنعمت علي . . . » وهي الوحيدة: ـ لمكان نعمتك ـ النعمة الرسالية ، معرفية وعملية ، ولحدٌ « علمنا منطق الطير » ـ ومنطق النمل وسائر الحيوان ! وكذلك التي « على والِدَيّ » : والدي داود حيث أوتي ما أوتي من ملك النبوة السامية ، ووالدتي إذ ولدتني من والدي بكل طهارة ونزاهة ، دون ما تتقوله التوراة المحرفة ، إن سليمان ولد من امرأة أورياه التي اغتصبها منه داود وحاشاه[1] وهو هبة الله لداود

مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

---

(١) ففي صموئيل الثاني الاصحاح ١١ « وكان وقت المساء ان داود قام عن سريره وتمشى على سطح بيت الملك فرأى من على السطح امرأة تستحم . وكانت المرأة جميلة المنظر جداً . فارسل داول وسأل عن المرأة فقال واحد أليست هذه بتشبع بنت اليعام امرأة أوريّا الحِثّي . فارسل داود رسلاً واخذها فدخلت اليه فاضطجع معها وهي مطهرة من طمثها . ثم رجعت الى بيتها وحبلت المرأة فارسلت واخبرت داود وقالت اني حبلى .

« ووهبنا لداود سليمان نعم العبد إنه أوّاب » (٣٨ : ٣٠) - « وان له عندنا لزلفى وحسن مآب » (٤٠) فهل إن الهبة الإلهية يولد من امرأة ذات بعل يغتصبها داود ؟! .

اجل وان سليمان هو من المشهود لهم بما نقول : واشهد انك كنت نوراً في الأصلاب الشامخة والأرحام المطهرة لم تنجسك الجاهلية بأنجاسها ولم تلبسك من مدلهمات ثيابها » وما هذه الفرية الوقحة التوراتية المزورة إلا تستراً لأهلها وراءها فيما يفتعلون من دعارات وافتضاحات ، وسليمان المفترى عليه يستوزع ربه شكر النعمة الغالية على والديه كما عليه ، ومنها عرض براءته في هذه الإذاعة القرآنية ، قضاء صارماً على هذه التهم المزورة .

« أن اشكر . . . وان اعمل صالحاً ترضاه » دون ما لا ترضاه مهما أنا ارضاه ، وإنما « صالحاً ترضاه » فسليمان الذي يستوزع شكر نعمة الله ، ليس ليقف على حالة الشكر وقالته ، بل و« صالحاً ترضاه » جمعاً لشكر العمل إلى شكر الحالة والقالة .

فأرسل داود إلى يوآب يقول ارسل اليّ اوريّا الحثّي . فارسل يوآب اوريّا الى داود . فأتى اوريّا اليه فسأل داود عن سلامة يوآب وسلامة الشعب ونجاح الحرب . وقال داود لاوريّا انزل الى بيتك واغسل رجليك - الى ان يقول في احتياله على اوريّا - اجعلوا اوريّا في وجه الحرب الشديدة وارجعوا من ورائه فيُضرب ويموت . . الى قوله : فلما سمع امرأة اوريّا انه قد مات اوريّا رجلها ندبت بعلها ولما مضت المناحة ارسل داود وضمها الى بيتها وصارت له امرأة وولدت له ابن . . . » .

هذا ! وفي انجيل متى ١ : ٦ - ان داود الملك ولد سليمان من اوريا !

لا فحسب بل داود نفسه ايضاً كما في المزامير ٥١ : ٥ : هانذا بالاثم صُوِّرت وبالخطيئة حبلت بي امي !

« . . وادخلني برحمتك في عبادك الصالحين » هنا وفي يوم الدين ، فنراه يضرع إلى ربه بعد ملكه ونبوته بنعمته ان يدخله في الصالحين ، وهكذا تكون الحساسية المرهفة بتقوى الله وخشيته ، والتشوُّف والتشرُّف إلى رضاه ورحمته في الآونة التي تتجلى فيها نعمته تعالى عليه .

والملاحَظ في ذلك المسرح من دعاء سليمان والتجاءه انه لا تُزهيه زهوة المُلك ورعونته ، خلاف كل من يزدهي من الملوك والزعماء بكل زهوة وزهرة ، فهم يسطون كلما ازدادوا سلطة وقوة ، وسليمان يزداد تطامناً في عبوديته وشكر النعمة الربانية عليه قائلاً : رب ازعني ـ كانه غير موزع : ان أشكر ـ كانه غير شاكر : وأن اعمل صالحاً ترضاه ـ كانه تارك أو مقصر : وادخلني برحمتك في عبادك الصالحين ـ كانه ليس من الصالحين ، حين يتخوف على نفسه مِن غَلَبِ النِعمة ان تنقلب عليه نَعمة ، ملتجياً إلى ربه مستدعياً أن يُثبته على الروحية الرسالية ويزداد .

﴿ وَتَفَقَّدَ الطَّيْرَ فَقَالَ مَالِيَ لَا أَرَى الْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ الْغَائِبِينَ[٢٠] لَأُعَذِّبَنَّهُ عَذَاباً شَدِيداً أَوْ لَأَذْبَحَنَّهُ أَوْ لَيَأْتِيَنِّي بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ ﴾[٢١] .

« الطير » هنا هي مختلفها من جنوده المحشورين معه في مسيرته ، ولما « تفقد الطير » كما تفقد الإنس والجن من جنوده ، فلم يجد الهدهد « فقال مالي لا أرى الهدهد » مما يلمح انه واحد منتخب من الهداهد ، ام قائد في جيش الهداهد ، وتعريفه باللام يخصصه بالتفقد ، إما لوحدة في شخصه أم شخصيته القيادية (١) .

---

(١) الدر المنثور ٥ : ١٠٥ ـ اخرج عبد بن حميد وابن ابي حاتم عن قتادة في الآية قال : ذكر لنا ان سليمان اراد ان يأخذ مفازة فدعا بالهدهد وكان سيد الهداهد ليعلم مسافة الماء وقد كان اعطي من البصر بذلك شيئاً لم يعطه شيء من الطير لقد ذكر لنا انه كان يبصر

والتفقد هو تعرُّف فقدان الشيء حين فقده لماذا فُقِد ، ولمكان « الطير » ككل لم يكن تفقده يختص بالهدهد ، بل يشمل جنود الطير كلها ، فلما لم يـر الهدهد من بينها « فقال مالي لا ارى الهدهد . . » مما يدل على ان سائر الطير كانت حاضرة لديه وهو يراها ـ بما فيها سائر الهداهد المجندة ـ إلّا أن تُعنى غُيَّب آخرون من « كان من الغائبين » ـ ولكنه هنا يعني الهدهد الخاص ، المعين لنوبته في ذلك العرض .

وقد يلمح ذلك التفقد لمدى اليقظة والدقة والحزم من سليمان في عرض جنوده ، حيث لا يتغافل عن جندي واحد من حشره الضخم الهائل من الجن والإنس والطير ، الذي يوزع جمعاً لأوله إلى آخره وآخره إلى أوّله كيلا يتفرق وينتكث .

وليدرس قواد الجنود من سليمان درسهم في هذه المراقبة التامة والتفقد الشامل ، تحكيماً لعرى التجنيد ، دونما تغلُّب ولا تلفُّت .

« فقال » هنا قولة جاهرة أمام الجيوش ، ليعلم الجميع ويعرفوا غائبهم ، فلو أسرّه أم اجمل شأن الغائب لكان سابقة سوء لكل الجند إذ لا يُعرف المتخلف بعينه ، « فقال مالي لا أرى الهدهد . . » ونراه هنا لا يوجه التخلف إلى « الهدهد » حين يتفقده فيفقده ، أخذاً بالحائطة متهماً نفسه : « مالي » كأنه حاضرٌ وهو لا يراه لنقص في رؤيته ، ام حاجز عن مرئيه ، فلما تأكد من سلامة نظره ، انتقل الى مرحلة ثانية « ام كان من الغائبين » وقد تلمح « كان » للغياب عن الحضور في حشر الجنود ، انه « كان من الغائبين » عن الحشر ، لا انه غاب بعد الحضور ، وإلا لم يكن لـ« كان » مكان .

كما قد يلمح جمع « الغائبين » ان هناك غيَّبٌ غير الهدهد ، أمن الجن أو

الماء في الأرض كما يبصر احدكم الخيال من وراء الزجاجة .

الإنس أو الطير أم ومن الهداهد ؟ لا ندري ، إلّا أن هناك « غائبين » وعلّ تخصيصه التحذير بخصوص هذا الجندي الغائب ، كان لحاجة حاضرة إليه ، وقد تكون دلالته على موضع الماء كما يروى [١] ولأن الغائب عن حشر الجنود

---

(١) نور الثقلين ٤ : ٨٣ في بصائر الدرجات بسند متصل عن ابي الحسن الأوّل (عليه السلام) قال قلت له جعلت فداك أخبرني عن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) ورث النبيين كلهم ؟ قال لي : نعم ، قلت من لدن آدم إلى أن انتهى الى نفسه ؟ قال : ما بعث الله نبياً إلا ومحمد (صلى الله عليه وآله وسلم) اعلم منه ، قال قلت : ان عيسى بن مريم كان يحيي الموتى باذن الله ؟ قال : صدقت ـ قلت : وسليمان بن داود كان يفهم منطق الطير هل كان رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) يقدر على هذه المنازل ؟ قال فقال : ان سليمان قال للهدهد حين تفقده وشك في امره « مالي لا أرى الهدهد ام كان من الغائبين » فغضب عليه فقال : « لأعذبنه عذاباً شديداً أو لأذبحنه أو ليأتيني بسلطان مبين » وانما غضب عليه لأنه كان يدله على الماء ، فهذا وهو طير قد أعطي ما لم يعط سليمان وقد كانت الريح والنمل والجن والإنس والشياطين المردة له طائعين ولم يكن يعرف ما تحت الهواء ، وان في كتاب الله لآيات ما يراد بها امر الا ان الى أن يأذن الله به مع ما يأذن الله مما كتبه للماضين جعله الله لنا في ام الكتاب ان الله يقول في كتابه « ما من غائبة في السماء والأرض إلا في كتاب مبين » ثم قال « ثم اورثنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا » فنحن الذين اصطفانا الله فورثنا هذا الذي فيه كل شيء .

وفيه عن تفسير القمي قال الصادق (عليه السلام) قال آصف بن برخيا وزير سليمان لسليمان (عليه السلامّ) أخبرني عنك يا سليمان صرت تحب الهدهد وهو أخس الطير منبتاً وانتنه ريحاً ؟ قال : انه يبصر الماء وراء الصفا الأصمّ ، فقال وكيف يبصر الماء من وراء الصفا وانما يواري عنه الفخ بكف من تراب حتى يؤخذ بعنقه ؟ فقال سليمان : قف باوقاف انه إذا جاء القدر حال دون البصر . . وفيه عن المجمع وروى العياشي بالاسناد وقال قال ابو حنيفة لأبي عبد الله (عليه السلام) كيف تفقد سليمان الهدهد من بين الطير ؟ قال : لأن الهدهد يرى الماء في بطن الأرض كما يرى احدكم الدهن في القارورة فنظر أبو حنيفة إلى اصحابه وضحك قال ابو عبد الله (عليه السلام) ما

دون إذن يؤدَّب كيلا يكرر غيابه وينتبه الآخرون فـ: «لأعذبنه عذاباً شديداً أو لأذبحنه» مما يلمح ثانية أن الحاجة إليه كانت مدفعة حيوية لصالح الجنود، وقد يعني شديدُ العذاب نتفَ ريشه[1]، واشد منه ذبحه، أو عذابه هو ما دون ذبحه في الشدة كأن يلقى بعد نتف ريشه في الشمس بين النمل ويقرن بالأضداد.

ولكن سليمان لم يكن ملكاً جباراً يحكم دون حجة، ولمّا يسمع حجة الهدهد الغائب، ولا حُكْمَ على الغائب، فلذلك يذّل تهديد العذاب والذبح بـ «أو ليأتيني بسلطان مبين» فما لم يأت بسلطان مبين فالحكم كما حكم لأنه عصى.

وترى الهدهد هو من المكلفين حتى يعصي أمراً فيهدَّد بشديد العذاب؟ بصورة عامة نعم! فيما يرجع إلى حيونة الشعور بالمحبور والمحظور: «وما من دابة في الأرض ولا طائر يطير بجناحيه إلاّ أمم أمثالكم ما فرطنا في الكتاب من شيء ثم إلى ربهم يحشرون» (٦:٣٨) ولا يعني حشرهم يوم الحشر إلاّ جزاءهم بما عملوا فضلاً وعدلاً.

ثم بصورة خاصة حين يأمر النبي حيواناً أو ينهاه بأمر الله، وهو يشعر

يضحكك؟ قال: ظفرت بك جعلت فداك، قال: وكيف ذلك؟ قال: الذي يرى الماء في بطن الأرض لا يرى الفخ في التراب حتى يؤخذ بعنقه؟ قال ابو عبد الله (عليه السلام) يا نعمان اما علمت انه إذا انزل القدر أغشي البصر؟

(١) ومن العذاب الشديد ايداعه القفص، والتفريق بينه وبين إلفه، والزامه صحبة الأضدادض، أو خدمتهم أو خدمة الأقران.

وفي البحار ١٤:١١٢ عن تفسير القمي في سرد القصة وقال الصادق (عليه السلام)... لأعذبنه عذاباً شديداً: لأنتفن ريشه..

مكـانة النبـوة ويعرف الله فهـو ـ إذاً ـ مكلف في ذلك الحقـل ، مهما لم تشمله الشرعة الإلهية العامة للمكلفين .

فآية الأنعام في وجهة عامة ، وآية النمل هـذه في وجهة خـاصة بـرهان قاطع لا مـرد له ان الهـدهد كسـائر الجنود من الطير والجن والإنس كـان من المكلفين في حقل التجنيد ، مهما اختصت الشرعة الإلهية ككل بـالجن والانس واضرابها من ذوي العقول .

و « سلطان مبين » من الهدهد الذي يخلصـه من شديـد العذاب ، هـو الحجة التي تبين عذره أن « كان من الغائبين » .

وفائدة أُخرى من ذلك التهديد السماح في تأديب الحيـوانات إذا عصت عارفة ولحد القتل ، إلاّ ان تتبين حجةٌ تعذرها فيما عصت ، وعدم السماح في إيـذاءِها دون تقصـير ، قصوراً أم بغـير قصور ، فقـد يعمل الحيـوان خـلاف رضاك وهو لا يعـرف رضاك فكيف تعـذبه بقصـوره ، إلاّ تنبيهاً لكيـلا يكرر فعلته شرطَ أن ينتبه .

مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

فحين تضرب حمارك العاصي في مشيته ، وقد عرّفته واجبه في مشيته ، فما انت ـ إذاً ـ بظالم ، انما انت مؤدب تأخذ حقك ممن تنفق عليه ، وأما إذا لم تنفق عليـه واجب النفقة فله العصيـان في واجب الخـدمـة ، ام إذا لم تعـرِّفه واجبـه ، فلا ضـرب هنا وهنـاك إذ لا تخلف تقصيـراً عن واجب الخـدمـة ، وضربتك هنا وهناك ضربة ظالمة تعاقَب بها وقت المعاقبة .

فحذار حذار عن ظلم من لا يجد عليك ناصراً إلاّ الله ، فانه من اظلم الـظلم وأنكاه ، أم كيف تـظلم من سخّره الله لـك ، وذلك مس من كـرامة الله ، فلتكرم حيواناً هو تحت إمرتك ، ولتنفق عليه ما يقيم أوده ، ويقـوى به على واجبه ، ولتعفُ عنه ما وجدت إليه سبيلاً ، ثم تأديبه تقصيراً عن خـدمة

ام تعديا عليك .

عليك ان تراعي الحيوان كما الإنسان ، بل والحيوان أحرى برعايتك إذ لا يقدر - في الأكثر - على الدفاع عن نفسه ، فلا تغتنم سلطتك عليه أن تعتدي عليه .

وهكذا ندرس في مدرسة الإحرام أن ظلم الحيوان حرام أياً كان ، إلاّ ما تستثنيه شرعة العدل وقضية العقل .

﴿ فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ ﴾[٢٢] .

هل إنه « فمكث » سليمان ، فانه ثبات مع انتظار ولم يكن إلاّ لسليمان،والهدهد كان ناظراً للرجوع دون مكوث؟ أم «فمكث» الهدهد في تفتيشه عن سبإٍ وهو بانتظار الرجوع خوفاً من سليمان ان يؤنبه أو يعذبه ؟ والمعنيان يناسبان ادب اللفظ والمعنى،فهما - إذاً - معنيّان ، تقريباً للأوّل لسابقه سليمان موضوعاً للقصة ، وللثاني لـلاحقه : « فقال احطت . . » .

و « غير بعيد » هو في زمن قريب لمكث سليمان والهدهد ، وغير بعيد أن تعني مكثَ الهدهد بعد رجوعه « غير بعيد » عن موقف سليمان ، إذ لم يكن يخافه لغيابه وله حجته وهو عدل لا يجور ، وقد يعني بُعدي الزمان والمكان ، وفي الثاني يخص مكث الهدهد والأول يعنيها ، إذاً فقد يعني من « فمكث غير بعيد » مثلث المعنى وهو غير بعيد .

« فقال احطت بما لم تحط به . . » مفاجأة - بداية لقاء سليمان - تطغي على موضوع غيابه ، وتكسر من حدة الغضب الملكي بغيابه ، حيث يترفع

عليه علماً بما جهل وحيطة بما لم يحط به .

وكيف تحيط الهدهد علماً بما لم يحط به سليمان وهو نبي معصوم ؟ ذلك حيث العلم المحيط ككل مختص بمن يحيط بكلِّ شيء ، ثم الحيطة بما لا صلةَ له لازمةً للرسالة ليست لزامَ الرسول ، فللّه ان يعلّمه مثل الهدهد دون الرسول ، وقد يروى انه « سئل علي (عليه السلام) وهو على منبر الكوفة عن مسألة فقال : لا أدري ، فقال السائل ليس مكانك هذا مكان من يقول : لا أدري ، فقال (عليه السلام) : بلى والله هذا مكان من يقول : لا أدري ، واما من لا يقول ذلك فلا مكان له ، يعني به الله [1] .

فقد كان المسئول عنه بين ما يختص علمه بالله ، ام لا صلة له بالرسالة والإمامة .

« . . احطت . . وجئتك من سبإٍ بنبإٍ يقين » وقد سميت سورة من القرآن بسبإٍ ، حيث اختصت بهم آيات سبع منها ، طياً لدورهم الحائر وكورهم البائر في دركاتهم السبع من نوازل البلاء بعد منازل الترح والخيلاء .

ونبأ سبإٍ اليقين هو خبر ذو فائدة عظيمة رسالية لسليمان لتصل دعوته إلى هؤلاء الضالين الساجدين للشمس من دون الله .

وتراه كيف يصدِّق في دعواه - وبين الشام واليمن مسيرة شهر أو اكثر - يصدِّق أنه طار في مكثه غير بعيد مسيرة شهرين في سفرته المرجَّعة إلى اليمن ومنه إلى الشام ؟ إنه حريٌ به ان يحتمل صدقه كما « قال سننظر . . » حيث المجال مجال خوارق العادات ، فما قالة النملة الحكيمة العاقلة وتفهُّم سليمان بأقل عجباً من هذه السفرة الطائلة ، ولا تجنُّد الطير له والجن بأقل خارقة منها .

---

(١) تفسير روح المعاني ١٩ : ١٨٨ .

﴿ إِنِّي وَجَدتُّ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ ﴾٢٣ .

« تملكهم » هي الملوكية المطلقة العنان وكأنهم عبيدها،وقد تعني « تملكهم » المِلك والمُلك معاً ، فإن عنى المُلك أتى بلفظه الخاص « امرأة ملكة » فقد عنى الأمرين وذلك انحس استبداد واستعباد .

فالسلطة المالكة للشعب هي الإستبدادية كما تؤيدها « والأمر إليك » مهما دلت « أفتوني في أمري ما كنت قاطعة أمراً حتى تشهدون » على لون من الشورى الملكية ، إلا أن « في أمري » هي امر السلطة المتأرجفة بما هددها سليمان ، فاضطرت الى استفتائهم ، ولا تدل « حتى تشهدون » بعد « ما كنت قاطعة امراً » إلاّ على أنها كانت تقطع أمورها برأيها على مشهدهم ومرآهم ، وعلّه دون شورهم وهواهم كما هو طبيعة الحال في الملكية،وقد تعني « تشهدون » شهودهم لقطع أمرها كرئيسة للشورى ، ولكنها لها امرها فيها إلاّ أن تقنع بعدم صلوحه لحقل الحكم ، كما في قصتها الحاضرة إذ لم تقبل آراءهم وخطّأهم فيما رأوا .

« وأوتيت من كل شيء » هي بمناسبة « تملكهم » ليست إلا من كل الأشياء المِلكية ، دون « من كل شيء » لداود وسليمان فانها بمناسبة الملكية الرسالية هي من لزامات السلطة الرسالية من خوارق العادات .

« ولها عرش عظيم » ما يدل على عُظمها في سلطتها الملكية ، فهو عظيم في كونه ، عظيم في كيانه السلطوي على شعبها ، فما العرشُ إلاّ رمزاً للسلطة الملكية ، وقد خص بالذكر بين الحزم الملكي وثراءه وسعته وجنوده المجندة ورعيته المطيعة المملوكة ، لأنه يكفي اشارة نموذجية اليها كلها .

ومملكة سبإ واقعة جنوبيّ الجزيرة باليمن ، وقد كانت في تلك الفترة

تملكها امرأة :

﴿ وَجَدْتُهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِنْ دُونِ اللهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ ﴾[٢٤] .

وتراهم حين « زين لهم الشيطان اعمالهم فصدهم عن السبيل فهم لا يهتدون » إذاً فهم قاصرون في ضلالهم حيث يخلي الله بينهم وبين الشيطان ليزين سوء اعمالهم فيحسبونها حسنة ، فهم ـ إذاً ـ مصدودون عن سبيل الله ولذلك لا يهتدون ؟.

ولكن الشيطان لا يقدر على ذلك التزيين والصد إلاّ لمن يطيعه تخلفاً عن الهدى ، وتجلباً الى الردى « فلما زاغوا ازاغ الله قلوبهم » والشيطان يزيدهم ضلالاً على ضلالهم ثم الله لا يحول بينه وبينهم جزاء وفاقاً لما ضلوا وهم مبصرون « ومن يعش عن ذكر الرحمن نقيض له شيطاناً فهو له قرين . وانهم ليصدونهم عن السبيل ويحسبون انهم مهتدون » (٤٣ : ٣٦) « وقيضنا لهم قرناء فزينوا لهم ما بين ايديهم وما خلفهم . . » (٤١ : ٢٥) .

ولقد كان الهدهد يعرف الله والشيطان والشمس والملكة وقومها ، ونظر إلى جو المملكة فوجد ما وجد ، وأنبأ سليمان كما وجد ، مما يدل على عقلية بارعة مؤمنة للهدهد ، وسليمان يسمعه دونما مهانة له ولا استصغار ، على صغاره وعظم نباءه وخارقة سفره ! مما ينبّه السلطات الملكية أن الإصغاء إلى المنبيءأدب بارع مهما كان صغيراً وكان نبأ غريباً محيراً وبعيداً عن التصديق ، وهو في نفس الوقت متخلف لغيابه دونما استئذان !. وهنا بعد عرض النبإ يلحّق تلحيقاً رسالياً كأنه رسول أو مرسل من جانب الرسول :

﴿ « أَلَّا يَسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبْءَ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ[٢٥] اللهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ﴾[٢٦] .

فان كانت الشمس تُخرج بعض الخبءِ اشراقاً عليه من ظلمة ، فالله يخرج كل خبء في السماوات والأرض دون إبقاء ، والشمس ايضاً من خبئها حيث اخرجها من دخان السماء وأشرقها !.

ومهما نحتمل ان الآيتين هما من كلام الله دون نقل لكلام الهدهد ، حيث السجدة واجبة عند سماعه أو استماعه أو قراءته ، ولكنه يناسب وكونه كلام الهدهد ، لأنه على أية حال كلام الله ، نقلاً أم سواه ، وظاهر السياق انه من كلام الهدهد تفسيراً لثالوث الشيطنات : « وزين .. فصدهم .. فهم لا يهتدون » وان كان ايضاً كلامه تعالى في ذلك المسرح ام هو الذي يفسر الثالوث بما فسّر ، فالمحتملان ـ إذاً ـ معنيّان ، وأعجِب بعظة الهدهد في ذلك الموقف الحرج ، ما ينقلها الله في القرآن ويصدقها ، سبحان الخلاق العظيم !

و « ألاّ » هنا مشددة « أن لا » كعطف تفسير لـ « أعمالهم » فـ « زيّن لهم الشيطان اعمالهم » ايجابية إذ « يسجدون للشمس من دون الله » وسلبه « أن لا يسجدوا لله .. » و « أن » هنا تفسيرية فـ « لا يسجدوا » نهي عن السجود لله بعد الأمر بالسجود لغير الله ، معاكسة المضادة لـ « لا إله إلاّ الله » فهما خطوتان رئيسيتان من خطوات الشيطان في صده عن سبيل الله .

فكلمة التوحيد بادئة بالسلب وخاتمة بالايجاب تأكيداً للايجاب الذي هو خالص التوحيد .

وكلمة الإشراك بادئة بايجاب العبادة لغير الله « يسجدون للشمس من دون الله » وخاتمة بالسلب « ألاّ يسجدوا لله » لا توحيداً ولا اشراكاً ، توحيداً في السجود لغير الله !

و « الخبء » مصدر بمعنى المفعول مبالغة في معناه وهو الإستتار

الشديد ، إذاً فهو المستور الأشد فلا تدركه الحواس الظاهرة ولا العقول الباطنة ، فما تدركه الحواس بآثاره قد يخرجه الإنسان في محاولات علمية ، وما تدركه العقول بآثاره قد تخرجه في محاولات عقلية ، واما « الخبء » المستور عن كل الإدراكات ، البعيد عن تناول العقل والعلم ، فالله هو الذي يخرجه في السماوات والأرض .

و « الخبء » هنا يعم كل خبء ، ١ ـ من المادة الأولية التي كانت خبأ في علم الله[٢] وقدرته، فأخرجها الى الوجود ، ٣ ـ ثم زبد الأرضين ودخان السماوات المخرَجان من تفجرة المادة الأولية ، ٤ ـ ثم كل منهما من اصله الثاني : دخان السماء وزبد الأرض فكانت السماوات وكانت الأرضون ، ٥ ـ ثم اخرج خبء الماء من السماء وخبء النبات من الأرض بماءِ السماء ، ٦ ـ ثم كل خلق من شيء في كلٍّ منهما وفي تبدلات كيماوية وفيزيائية ، مادة الى طاقة وطاقة الى مادة أماهيه و « الله خالق كل شيء » ، ٧ ـ ثم الخواطر المخبوءة لكلٍّ عن كلٍّ فقد يخرجها الله تعالى بعباد مخلصين « انه يعلم السر وأخفى » ، ٨ ـ ثم النيات والعقائد والأقوال والأعمال المخبوءة يوم الدنيا بعد مضيها حيث يخرجها الله يوم الأخرى « يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضراً وما عملت من سوء . . . » . .

ولكن « في السماوات والأرض » تختلف ظرفاً وسواه في هذه الثمانية ، ففي الأربعة الأولى ليست السماوات والأرض ظرفاً لإخراج الخبءِ فانهما هما الخبءُ فيهما على اختلاف مراحلهما ، فالمعنى إذاً « يخرج الخبءَ الكائن في السماوات والأرض » لا انه يخرجه فيهما .

ثم في الخامس والسادس هما ظرفان لإخراج الخبءِ حيث يخرج الله فيهما كل خبءٍ من خلق جديد شيئاً من شيء ، فيهما ، وفي السابع ظرف الإخراج خاص لعباد الله الخصوص ، وفي الثامن هو الآخرة ، فـ« يخرج

الخبء » الكائن في السماوات والأرض » يخرجه بعد انفطارهما ، في يوم الجزاء .

ومن الخبء وأخبءه وحي النبوة ، فانه غيب عمن سوى الله ، يخرجه عن غيب علمه في أم الكتاب الى غيوب القلوب الرسالية ملائكية وبشرية ، مراحل تسع من الخبء الذي يختص اخراجه بالله دون سواه « ويعلم ما تخفون » من سر أو اخفى « وما تعلنون » فلا خبء لنا ولا غيب إلاّ وهو خارج عنده دون اخراج ، وإنما يخرج لنا الخبء في السماوات والأرض . وذلك هو « الله » دون سواه « لا إله إلا هو » كما هو ، وهو لا سواه « رب العرش العظيم » السلطة الشاملة على كل خبءٍ باخراجه وإدارجه في مختلف مدارج الكون ، دون عرش ملكة سبإ وسواها من ملوك لا يملكون لأنفسهم نفعاً ولا ضراً ولا موتاً ولا حياةً ولا نشوراً .

هذا العرش الضئيل الذليل الرذيل الذي يؤتى به قبل ارتداد طرف من مسافة شهر ، وتأتي صاحبتها الى سليمان طائعة مستسلمة مسلمة ، فاين عرش من عرش ، واين صاحبة عرش من صاحب عرش ، فلا تشابه بينهما إلاّ في الإسم ! .

هنا وبعد ما تم العرض من الهدهد لسبب الغياب ، وان الله أخرج خبء سبإٍ لسليمان بما غاب جندي له عن حشره ، هنا لا يتسرع في تصديقه لزهوة الاتساع في ملكه ، ولا تكذيبه لاستصغاره وانه ادعى حيطة له علمية احوط من سليمان الملك النبي ، وانما يأخذ في التفتيش عن نبإه تأكداً من صدقه او كذبه :

﴿ قَالَ سَنَنظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ الْكَاذِبِينَ[٢٧] اذْهَب بِّكِتَابِي هَٰذَا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَانظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ ﴾[٢٨] .

« سننظر » هنا هي نَظْرة الواقع انتظاراً ، كما هي النظر في الواقع فلا

تحصل إلا نظرة نفس الواقع ، دون نبإٍ آخر من شاهد آخر ، ثم المحمَّل لذلك التحقيق هو الهدهد نفسه ، قطعاً لعذره ، وحملاً عليه ما ادعاه من سفرته البعيدة لوقت قريب غريب ، دون سائر الأمناء : عفريت من الجن أمَّن عنده علم من الكتاب ، فأحين بنظر في أمر يحمله صاحب الدعوى فيه !.

« إذهب بكتابي هذا » الذي كتبته اليها وقومها « فألقهْ اليهم » بهاء السكت في كل القراآت دون كسر ، دون أعطه اياهم ، علّه كيلا يأخذوك فيذبحوك أو يلصروك ، وانما « ألقه » وطبعاً من فوقهم جواً أو كوّة ، ولكي ينتبهوا من الإلقاء نفسه انه امرٌ خارق للعادة « ثم تولَّ عنهم » الى مكان بعيد عن اخذك ، غير بعيد عن نظرك « ماذا يرجعون » « فانظر » اليهم نظر البصر والسمع « ماذا يرجعون » القول بعضهم الى بعض ، و« يرجعون » كلهم الينا ، و« ماذا يرجعون » ردة فعل بعضهم الى بعض ثم الينا ، ثم خبِّرنا بما « يرجعون » .

﴿ قَالَتْ يَا أَيُّهَا المَلَأُ إِنِّي أُلْقِيَ إِلَيَّ كِتَابٌ كَرِيمٌ[٢٩] إِنَّهُ مِنْ سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ[٣٠] أَلَّا تَعْلُوا عَلَيَّ وَأْتُونِي مُسْلِمِينَ ﴾ [٣٠] .

ذهب بكتابه المختوم غير المعلوم فألقاه إليهم ، وطبعاً إليها كأصل في خطابه كما النص « اني القي الي » دون « إنّا » مهما كان خطاب الكتاب الى الكلّ ، وقد تلمح « ألقي » المجهول انها لم تعلم من ألقاه وكيف ألقاه مهما عرفت متاه ، فلو كانت عارفة لأعلنت هذه العجيبة المنقطعة النظير ، عجباً على عجب الإلقاء ، بعجب « كتاب كريم » ولتحرِّز الملأ اكثر مما حرضتهم على إفتاءهم في أمرها .

« قالت » بعدما قرأت الكتاب ، وهو طبعاً كان بلغتها لكي تفهمه « يا

أيها الملأ » وهم ملأ الحاشية الملكية المساعدة للسياسة في المملكة « اني القي الي » إذ تلقته بإلقاء دون إيتاء ، فهو تلقٍّ خلاف المتعود من لُقيا الكتاب ولكنه « كتاب كريم » وطبعاً من كريم ، فكتاب الكريم كريم الى أيٍّ كان ، وكتاب اللئيم لئيم الى ايٍّ كان ، وليدرس الدعات الى الله كيف عليهم ان يكتبوا كتاباتهم الدعائية الى اضدادهم ، فضلاً عن أعضادهم ، وكما نرى كتابات الرسول محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) الى الملوك والشيوخ وسائر الزعماء ، كيف تحوي كرامات وكرامات ، وقد أثرت في الأكثرية الساحقة منهم حُسناً .

لقد كانت لغة الكتاب الكريم وصيغته تحمل كل حزم وجزم ، ابتداءً ببسم الله وانتهاءً إلى الإسلام لله ، ولم يكن ليخفى صيت سليمان وصوته عن الملكة وملإها ، وعلى أية حال فقد حق كرم الكتاب رغم دعوته المُرة عندها ، لحد تصارح ملأها رغم مُلكتها البارزة أمامهم ، انه « كتاب كريم » .

مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

« انه من سليمان » مجرداً عن كل مواصفة وتعريفة به ، إذ كان معروفاً لديها وسائر الملوك « وانه » فالتأكيد الأوّل يؤكد كونه من سليمان ، والثاني مضمونَه في عرضها لمتنه الكامل،وقد تلمح « إنه » هنا وهناك انهما تعليلان لبيان كرم الكتاب ، فكونه من سليمان من كرمه ، وافتتاحه بسم الله الرحمن الرحيم ، من أكرمه ، حيث المشركون كانوا يتعقدون في الله انه رب الأرباب ، فلا يتأنفون ـ بطبيعة الحال ـ عن ذكر اسمه ، بل ويؤصِّلونه في عبادتهم لأصنامهم : « هؤلاء شفعاؤنا عند الله » ـ « ما نعبدهم إلاّ ليقربونا إلى الله زلفى » ! فـ« بسم الله الرحمن الرحيم » افتتاحية بارعة ترعبها ، وهي افضل آية في الوحي كله ، وعلّها تختص الرسالة القرآنية ، ومن قبل

لسليمان (عليه السلام) ، وكونها في النمل دليل قاطع لا مرد له انها آية من كتاب الله خلافَ ما يزعمه البعض من اخواننا السنّة إذ لا يبتدءون بها في الفاتحة أم وسواها من السور .

فكيف يصح كونها آية في النمل وليست آية في سواها وليست هي إلاّ هيه ؟! وهنا ندرس الأدب في مفتتح كل كتاب مهما كان الى المشركين ، وليعلموا شرعة الكاتب وعقيدته .

ثم « ألا تعلوا علي وأتوني مسلمين » هو كل محتوى الكتاب ، مسنوداً الى البسملة ، فـ« بسم الله الرحمن الرحيم ألا تعلوا علي واتوني مسلمين » لا باسمي وبِسَمة المُلك والقوة ، وإنما بسم الله ، فالعلو علي كرسول علوٌ على الله ، وإتياني مسلمين إتيان في الإسلام لله ، فقد فسّر متنُ الكتاب فرعاً من فروع « بسم الله » و« لا إله إلاّ الله » فـ« ألاّ تعلو علي » هي = « لا إله » « وأتوني مسلمين » = « إلاّ الله » فقد كان الكتاب « بسم الله ـ و ـ لا إله إلاّ الله » ! .

مركز تحقيقات كامپيوتري علوم اسلامي

ثم «وانه بسم الله ..» كمتن الكتاب ، قد تلمح أن سليمان كتب اسمه آخر الكتاب وكما هو قضية الحال في أدب الكتاب الحاوي اسم الله ألاّ يقدم عليه إسم لسواه .

وهنا « لا تعلوا علي » دون « على الله » تفسر « وأتوني مسلمين » ان ليس هو ـ فقط ـ الإسلام لله ، بل هو بالفعل اسلام لسليمان ، مهما كانت النتيجة الاسلام لله،فكما قالت « اسلمت مع سليمان لله رب العالمين » .

وقد تعني «لا تعلوا عليّ » كرسول، علواً على رسالة الله، إذاً « واتوني مسلمين » لله ، ولكنه قد يكون تكليفاً بالإسلام قبل وصول الحجة ، فليأتوا

مسلمين له حتى يجدوا مجالاً لإسلامهم لله .

﴿ قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي أَمْرِي مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّىٰ تَشْهَدُونِ ﴾[٣٢] .

بطبيعة الحال هؤلاء كانوا ملأ الفتيا السياسية في البلاط ، لا كل الملإ العائشين تحت إمرتها ، والفتوى من الفتى : الطري من الشباب ، فهي النظرية الفتية فيما يطرح من هامة المسائل التي هي محط السؤال والقيل والقال ، فـ« افتوني » تعني ابدوا لي بالرأي الفتي الناضج « في أمري » الإمر بأشد المآزق السياسية الملكية ، حيث حار دونها لبها ، فليشر عليها المشاركون معها في صالح المُلك ، لا سيما واني لا أخبئ عنكم امراً أقطعه في سياسة البلاد، وقد ابتليت بأمر هو المحور الأصيل فيها « ما كنت قاطعة امراً حتى تشهدونِ » كسراً : حتى تشهدوني كيف أقطعه ، استصواباً له بمشهدكم ، وقطع الأمر هو الرجوع بعد إجالة الآراء ومخض الأقوال الى رأي واحد يصح العزم على فعله ، والعمل عليه دون غيره ، تشبيهاً بالإسداء والإلحام في الثوب النسيج ، ثم القطع له بعد الفراغ منه ، فكانها أجالت الرأي عند ورود ما ورد عليها من دعاء سليمان لها الى الايمان به والاتباع له فميلت بين الاجابة والامتناع والملاينة والمخاشنة ، فلما قوي في نفسها امر الملاطفة عزمت على امرها ، وذلك هو قطع الأمر .

وحيث الكتاب الملقى اليها بمضمونه زلزل كيانها وكسر من سورتها فهي لا تضمر حرباً ضد سليمان ، وإلا فلماذا المشورة ، إلا ان رجال الحاشية حسب عادتهم أبدوا قوة واستعداداً للحرب ، وخضوعاً لأمرها على أية حال :

﴿ قَالُوا نَحْنُ أُولُوا قُوَّةٍ وَأُولُو بَأْسٍ شَدِيدٍ وَالْأَمْرُ إِلَيْكِ فَانظُرِي مَاذَا تَأْمُرِينَ ﴾[٣٣] .

« نحن » بكامل استعدادنا للحرب « اولو قوة » عِدَّةً وعُدَّة ، لا فحسب بل و « اولو بأس شديد » تقديماً لكافة قواتنا واستعداداتنا للذب عن العدو ، وعلى أية حال « والأمر » الملكي امراً أو نهياً في كل مأزق « إليك » وليس الينا ، مما يؤكد أن السلطة كانت فردية استبدادية ، مهما تشاورت الملكة في هذا الأمر الخاص ، ولكنهم عطفوه الى أمرها المتداول على سائل الأحوال « فانظري » انت في نفسك « ماذ تأمرين » ولكنها في موازنة القوة بين الجانبين مالت إلى سلاح الحيلة والملاينة ، قبل سلاح المخاشنة ، وبطبيعة الحال حين تنحل المشكلة بملاينة لا تصلح المخاشنة ، فتمهيداً للمصالحة تُنذرهم بإفساد الملوك المتغلبين في الحروب حين تلمّح ميل رجال الحاشية الى الحرب فزيفت هواهم وسفهت رأيهم في شوراهم ، وأبانت لهم ان الصلح خير وإن احضرت الأنفس الشح ، وأن الأجدر بذوي العقول الصائبة البداية بالتي هي أحوط واحسن فـ :

﴿ قَالَتْ إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً وَكَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ ﴾[٣٤] .

هذه شيمة الملوك وطبيعتهم قضيةَ زهوة المُلك والتوسع فيه ، فإذا دخلوا قرية أفسدوها عن بكرتها ، اباحة لذمارها وانتهاكاً لحرماتها ، وتحطيماً للقوات المدافعة عنها « وجعلوا اعزة اهلها » الحافظين لُمكتها « اذلة » تذليلاً لعناصر المقاومة فيها « وكذلك » البعيد البعيد عن الكرامة « يفعلون » بطبيعة أحوالهم .

ومما يطفيء نائرتهم ، ويسكن ثائرتهم وفائرتهم إعلان الحب وإعلام الود بذريعة « هدية » .

﴿ وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِمْ بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌ بِمَ يَرْجِعُ الْمُرْسَلُونَ ﴾[٣٥] .

ولماذا « بهدية » ومرسلة متعدية بنفسها ؟ لأن مفعولها محذوف هو المرسلون بها ، ولماذا « اليهم » دون « اليه » ؟ علّه حفاظاً على سؤددها وجبروتها ، كأنها لا تحسب هنا حساب الشخص ، ام انها تحسبه مثلها مشاوراً ملأه في امره كما شاورت ملأها في أمرها ، أم لأن الهدية تهدِّء من ثورة الحاشية فيهدء الملك . .

هدية هي في الحق تجربة ، فان قُبلت فما امرهم إلا لدنيا وبالامكان ان تعالج المشكلة بها ، حيث وسائل الدنيا تجدي في حل مشاكلها ، وان لم تُقبل فهو - إذاً - أمر العقيدة ، فلنتّبعها إن صحّت بحُججها . فلما إذاً المحاربة المفسدة المذلّة المدمّرة(١) ؟ .

إنها ترسل هديتها برسلها زعماً منها ان سليمان ملك كسائر الملوك الذين لا يريدون بالقتال إلاّ فتح البلاد وغنم الأموال وأسر العباد ، فعملت وفق ما زعمت وأرسلت إلى سليمان ما أرسلت .

هنا يسدل الستار على واقع تصميمها في ذلك المشهد المتضارب الآراء ، وإلى مشهد الهدية الواصلة الي سليمان :

﴿ فَلَمَّا جَاءَ سُلَيْمَانَ قَالَ أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ فَمَا آتَانِيَ اللهُ خَيْرٌ مِمَّا آتَاكُمْ بَلْ أَنْتُمْ بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ ﴾٣٦ .

---

(١) نور الثقلين ٤ : ٨٩ عن تفسير القمي في القصة : ثم قالت : ان كان نبياً من عند الله كما يدعي فلا طاقة لنا به فان الله عز وجل لا يُغلب ولكن سأبعث اليه بهدية فان كان ملكاً يميل إلى الدنيا قبلها وعلمت انه لا يقدر علينا فبعث حقة فيها جوهرة عظيمة وقالت للرسول قل له يثقب هذه الجوهرة بلا حديد ولا نار فاتاه الرسول بذلك فأمر سليمان ببعض جنوده من الديدان فاخذ خيطاً في فمه ثم ثقبها واخذ الخيط من الجانب الآخر . .

مركز تحقيقات كامپيوتري علوم اسلامي

« فلما جاء » الرسول بالهدية مهما كان معه غيره « سليمان قال » : « أتمدونني » : تجذبونني امداداً « بمال » ضئيل قليل وكل متاع الدنيا قليل ، أو تمهلونني لكي امهلكم ، أو أمهلكم في دعوتي « بمال » أو تؤجلونني تأخيراً عن دعوتي « بمال » إمداداً ضد الدعوة الرسالية « بمال » ؟ .

وهو بطبيعة الحال أقبل عليهم قبل إبراز المال بوجه طلق يرحب بقدومهم ويتهلل للقائهم كما هو دأب الداعية الربانية بالنسبة لكل وارد أو شارد ، ثم استشفَّ غرضهم من وفودهم وتعرَّف رأيهم ، فتقدموا بما حملوه من مال يبتغون بها رضىً وقبولاً من النبي الكريم .

و « الهدية على ثلاثة أوجه هدية مكافأة وهدية مصانعة وهدية لله عز وجل »[1] .

ولو كانت الهدية هدية التحية كان يقبلها ، كيف لا وقد قبل فخذ جرادة من نملة ؟ ولكنها كانت هدية المصانعة والتعمية عن الدعوة، رشاءً لعيناً بديلاً عن تصميم الداعية ، فاستنكر موقفهم استهزاءً بالمال ، وانها هدية مضلة في مجال التعويض عن عامة الدعوة الربانية ، اتقدمون هذا الرخيص التافه البخيس وعندي خير منه «فما آتاني الله» كرسول ملك « خير مما آتاكم » على الإطلاق ، وحتى في كل المنال ، فضلاً عن خير الحال والكمال ، فما عاد شيء من عرض الأرض التافه يسرني ، فكيف يرضى مثلي ان يُمدَّ بمال يصانع به دعوة ربه ، ولا يلهيني عن دعوتي ملءُ الأرض ذهباً ، ولا حيطتها مُلكاً .

« بل انتم بهديتكم تفرحون » في مقياس المُلك بقسطاس الزهوات والشهوات والمعطَيات المادية ، وانا لست ممن يصانع الملكة بمالها أو جمالها ،

---

(١) نور الثقلين ٤ : ٨٦ في كتاب الخصال عن ابي عبد الله (عليه السلام) .

اللهم إلّا بايمانها وكما لها « بل انتم بهديتكم تفرحون » ونحن بقضيتنا فارحون ، واين هدية مَلِكية من قضية رسالية ؟.

أنتم تهشّون بهذه القيم التي لا قيمة لها عندنا ؟ ولا نحسبها في حساب ، إلّا ما يرضي ربنا !.

هنا « آتاني » بيّن لا ريب فيه لسليمان فانه ككلّ عطيةٍ ربانية ، فكيف تقابله « ما أتاكم » وليست السلطة الجبارة الملكية مما آتاه الله ؟.

الجواب « تؤتي الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء ... » فكل المحاولات للحصول على الملك فاشلة إلّا ان يشاء الله ، ولكنها مشية المحنة والعذاب للملك الجابر : « أيحسبون انما نمدّهم من مال وبنين . نسارع لهم في الخيرات بل لا يشعرون » (٢٣ : ٥٦) فالملك الحق يحمل المشية التشريعية الربانية الى التكوينية ، والباطل يحمل الثانية وتخييراً دون تسيير ، ألا يحجز ـ احياناً ـ بين طالب الملك وطلبه ، مهما حجزه تشريعياً .

وكيف يخاطبهم وهم رسل الملكة « أتمدونني .. مما آتاكم » ولم يكن الإمداد إلّا من المَلِكة ، ولا ايتاء المُلك إلا لها ؟.

« اتمدونني » تعنيها بحاشيتها الملكية ورسلها الأعضاد ، حيث الهدية كانت بهم أجمع مهما كانت هي الأصل ، ثم في تعبير الجمع تصغير لشأنها ، قصداً الى دمجها في ملإها إذ لا يرى لها شأناً تليق به ان تُذكر باسمها أو رسمها وكما قالتها هي « اني مرسلة اليهم .. » إذ دمجت سليمان في ملإه ، وهكذا يُعنى من « ما آتاكم » حيث العطية الملكية تشملهم مهما كانت هي الأصلَ ، فهم باجمعهم يحملون أوزار المُلك بأوضاره .

﴿ إِرْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُمْ بِجُنُودٍ لَا قِبَلَ لَهُمْ بِهَا وَلَنُخْرِجَنَّهُمْ مِنْهَا أَذِلَّةً وَهُمْ صَاغِرُونَ ﴾٣٧ .

« ارجع » خطاباً للرسول الأصل ، وكما قال من قبل « فلما جاء » الرسول بالهدية « اليهم » الملكة بملإها ، وطبعاً رجوعاً بالهدية إذ لم يقبلها « فلنأتينهم بجنود لا قِبَل لهم بها » : لا طاقة لهم في قبالها ومقابلتها في عِدة أو عُدة أو قوة(١) تهديداً شديداً لهم ، حيث الهدية كانت ناطقة بانهم غير آتيه مسلمين ، وقد تطلّب منهم في كتابه : « ألّا تعلو علي وأتوني مسلمين » . « ولنخرجنهم منها اذلّةً » بعدما كانوا أعزة « وهم صاغرون » ، فقد يُخرَج المحارب من بلده ذليلاً غير صاغر ، بل هو مكابر تذله القوة ، ولكنهم « أذلة وهم صاغرون » حيث يلمسون الذل والصغار بكل كيانهم أمام جنود الله .

ولأن سليمان تلمَّح من حالة الملكة وقالتها وهويتها أنها لا تريد العداء ، بل ويدفعها ذلك التهديد الحديد أن تأتيه بملإها مستسلمين ، لذلك يعد لها عُدَّة لإيتانها إيّاه صاغرة مستسلمة ، فحاول في إحضار عرشها قبل حضورها لتفاجأ برؤ يته فتدفعها الى اسلامها بعد استسلامها ، حيث إن في هكذا مفاجاةٍ لرؤ يتها عرشَها حجة بارعة ربانية(٢) بعد حجة الكتاب الملقى اليها .

﴿ قَالَ يَا أَيُّهَا ٱلْمَلَأُ أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَنْ يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ ﴾٣٨ .

وهنا « الملأ » بطبيعة الحال هم الملأ القيادي سياسياً وروحياً ، لأنهم من أعضاد الملك الرسالي ، فهم النخبة المنتخبة من كل الإنس والجن الذين

---

(١) البحار ١٤ : ١١٢ وقال الصادق (عليه السلام) . . . « لا قبل لهم بها » يقول : « لا طاقة لهم بها » .

(٢) نور الثقلين ٤ : ٨٧ عن جوامع الجامع يروى انها امرت عند خروجها إلى سليمان فجعل عرشها في آخر سبعة ابواب ووكلت به حرساً يحفظونه فأراد سليمان ان يريها بعض

هم في حيطته الرسالية الملكية ، وليعرف بالنخبة بينهم اقترح عليهم « من يأتيني بعرشها » فتقدم في ذلك السباق « الذي عنده علم من الكتاب » فتبين انه الشخصية الثانية بعد سليمان (عليه السلام) .

وتراه متى « قال ... » أدون فصل عن رجوع المرسلين ولمّا يصلوا ؟ وصيغته الفاصحة « وقال .. » عطفاً على « ارجع » ثم و « قبل أن يأتوني » تلمح لما قبل وصولهم لا قبل شروعهم في سفرتهم ، فهنا اقتراح للإتيان بعرشها عنده قبل إتيانهم إياه ، وليست خارقة العادة في الإتيان بعرشها إلاّ أن يكون بعد خروجها ثم وصوله قبل وصولها ، وحراك العرش ـ بطبيعة الحال ـ أبطأ من حراكهم ، فليصل بعدهم ، فوصوله قبلهم حجة إلٰهية ، إضافة إلى أنه لم يكن له التصرف في عرشها بعد ان يأتوه مسلمين ، ثم وأراد أن يختبر عقلها « ننظر اتهتدي » ولا يجوز تنكير عرشها بعد إسلامها ، ولا تستفيد منه حجة إذا أتي به بعدها ! كما وأراد ألاّ يبقى لقلبها تعلق بما وراءها حين تأتيه مسلمة وقد كانت تحب عرشها هائمة فيه ! ولكن يبقى مجال القول في « قبل ان يأتوني مسلمين » إنه قبل رحيلهم حالة إسلامهم ، كما تؤيده قولها بعد ما رأت عرشها « وأوتينا العلم من قبلها وكنا مسلمين » وليؤكد سليمان أحلامها أمر أن ينكّروا عرشها اختباراً لفراستها ومدى إسلامها .

وهل عجز سليمان نفسه عن أن يأتي بعرشها قبل قيامه من مقامه أم قبل أن يرتد إليه طرفه ، فتطلّب إلى ملإه « أيكم يأتيني بعرشها » ؟ طبعاً لا ، فانه كان إمامهم وأقوى منهم كلهم في كلّما لهم ومنهم ، ثم « ولم يعجز سليمان عن معرفة آصف لكنه أحب أن يُعَرِّف أمته من الإنس والجن أنه الحجة من بعده وذلك من علم

ما يخصه الله به من المعجزات الشاهدة النبوية .

سليمان أودعه آصف بأمر الله ففهمه الله ذلك لئلا يختلف في إمامته ودلالته كما فهم سليمان في حياة داود ليُتعرَّف إمامته ونبوته من بعده لتأكيد الحجة على الخلق »(١) فقد امتاز من بين الملإ عفريت من الجن بين الجان ، والذي عنده علم من الكتاب بين الأنس ، وليُعلم من هو أحرى بخلافته بين الجن وبين الإنس ، فامتاز آصف بن برخيا وزير سليمان ، انه هو خليفة بين الملإ كلِّهم .

﴿ قَالَ عِفْرِيتٌ مِنَ الْجِنِّ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ تَقُومَ مِنْ مَقَامِكَ وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ ﴾٣٩ .

يقال : عفريت من الجن هو المارد الخبيث ! وكيف مارد ؟ وهو أول المستجيبين لسليمان في مهمة إلقاء الحجة الرسالية ! وكيف خبيث ؟ وهو « عليه لقوي أمين » !؟ وقضية القرآن البيان ان يرد على دعواه في قوته وأمنه لو كان خبيثاً مارداً ! والمارد الخبيث من الجن يعبر عنه بالشيطان كما « ومن الشياطين من يغوصون له ويعملون عملاً دون ذلك »(٢) .

---

(١) البحار ١٤ : ١٢٧ روى العياشي في تفسيره بالاسناد قال إلتقى موسى بن محمد بن علي بن موسى عليهم السلام ويحيى بن اكثم فسأله عن مسائل قال : فدخلت على اخي علي بن محمد عليهما السلام بعد ان دار بيني وبينه من الموعظ حتى انتهيت إلى طاعته فقلت له جعلت فداك أن يحيى بن اكثم سألني عن مسائل افتيه فيها فضحك فقال فهل افتيته ؟ قلت : لا قال : ولم ؟ قلت : لم اعرفها قال : وما هي ؟ قلت : قال اخبرني عن سليمان اكان محتاجاً إلى علم آصف بن برخيا ؟ ثم ذكر المسائل الأخرى قال : اكتب يا أخي : بسم الله الرحمن الرحيم سألت عن قول الله تعالى في كتابه « قال الذي عنده علم من الكتاب » فهو آصف بن برخيا ولم يعجز سليمان . .

(٢) البحار ١٤ : ١١٠ عن تفسير القمي في تفصيل القصة . . فلما اخبر الله سليمان باقبالها نحوه قال للجن والشياطين « أيكم يأتيني بعرشها قبل ان يأتوني مسلمين . قال

ثم « عفريت » لغوياً من عفره في التراب : مرّغه ودسّه فيه ، إشارة إلى قوته ، كما التعفير هو المس بالتراب ، ومن معاني العفريت النافذ في الأمر مع دهاءٍ ، وقد يكون تفسيره بالخبيث المنكر تفسيرياً لا لغوياً ، دون سناد إلى أية حجة إلّا تناقله بين المفسرين !.

وكما الذي عنده علم من الكتاب كان افضل من سواه بين الإنس ، فليكن عفريت من الجن افضل من سواه بين الجن ، وعله من مرسليهم، وكيف يؤتى المارد الخبيث من الجن تلك القوة الخارقة ولا يؤتاها المؤمن التقي منهم وبينهم رسل الجن ؟.

و « قبل ان تقوم من مقامك » قد تعني قيامه عن شغله المرسوم في سلطته ، وهو يناسب نصف النهار وإلى ساعة ودقيقة واقل منها ، إذ لم يعلم متى ـ هي ـ قالة عفريت .

أم قيامه من مقامه تحديد زمني قدر ما يعرف من الزمان لمجرد القيام عن الجلوس ؟ كلٌ محتمل ، وعلّ الثاني اضبط وافضل ، حيث الأوّل لنا غير محدَّد ، فلا يناسب كتاب البيان،ولكن العبارة الصالحة عنه « قبل قيامك » لا « قبل ان تقوم من مقامك » ! وقد تكفي في ذلك المجال معرفة الحاضرين عنده بمدى قيامه من مقامه ، ولنا اجماله ، وكما في « قبل ان يرتد اليك طرفك » إذاً فالأوّل أولى ، وأبعد تقدير لذلك القيام وهو نصف نهار ، يكفي خارقة للعادة في الإتيان بعرشها فيه من مسيرة شهر للسَفْر العادين فضلاً عن عرشها ، ثم القادر على ان يأتي به في ساعة أم سويعات من مسيرة

عفريت (من عفاريت الجن) أنا آتيك . . » اقول لو كان العفريت شيطاناً مارداً لما تحول عن الشيطان الى « عفريت من الجن » . وفي الدر المنثور ٥ : ١٠٨ ـ اخرج عبد بن حميد وابن المنذر وابن ابي حاتم عن ابي صالح في قوله : قال عفريت من الجن ، قال : عظيم كأنه جبل .

شهر ، قادر على الإتيان به في ثوان .

﴿ قَالَ الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِنَ الْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ فَلَمَّا رَآهُ مُسْتَقِراً عِنْدَهُ قَالَ هَذَا مِنْ فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَنْ شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ ﴾[٤٠] .

اترى من « الذي عنده علم من الكتاب » هنا ؟ وما هو الكتاب ؟ وما هو علمه ؟ وكيف اتى بعرشها قبل أن يرتد اليه طرفه وهو بحاجة إلى سرعة هائلة ودون موانع في الطريق لا تناسب وجسم العرش بثقله ؟

هل « الذي عنده علم من الكتاب » هو من الجن ، عفريت أقوى من الأوّل ؟ وتعبيره الصالح « عفريت آخر » ! ثم تَقابُله لعفريت من الجن يحكم أنه من الإنس ! وكيف يُحرم مؤمنوا الإنس عما يقدر عليه عفاريت الجن، والإنس افضل من الجن ـ ككل ـ ولا سيما في المجال الرسالي أصالة ووصاية . .

أم هو سليمان نفسه مخاطباً عفريت الجن ، حيث « الذي » للإشارة إلى شخص معين معلوم ولا معلوم هنا إلّا سليمان نفسه وقد مضى دور العفريت ولا ثالث هنا معروفاً في السياق ، وان القدسية الخاصة المتميزة لسليمان تقتضي ان تكون الخارقة بيده لا سواه ؟ .

لكنه لا يلائم السياق الفاصح الواضح ، حيث ان سليمان هو المتطلّب لإحضار العرش عنده ، فكما « انا آتيك » لعفريت الجن تعني إيتانه إلى سليمان ، كذلك « أنا آتيك » للذي عنده علم من الكتاب ليس يعني إلاّ سليمان ، كما « مقامك » و« رآه » و« عنده » و« قال . . » كلها تعني سليمان المُحضَر عنده العرش ! وحين يأتيه بعرشها أحدٌ من حواشيه ، لم يكن

هذا ليدل على أنه أقوى منه وأحرى[١] بل انما يدل على أن الآتي به بأمره يصلح أن ينوبه حياً وميتاً ! ثم « الذي » بوصفها تعرِّف مكانة الآتي به مسنوداً إلى لياقته ولباقته ، ومكانة سليمان عُرِفت من ذي قبل باكثر من ذلك !

أم هو « خضر » (عليه السلام) ؟ قد يجوز في نفسه ولكنه لا دليل عليه يُتبع ، مهما كانت لخضرمكانته العالية ، ثم لا رجاحة له على من سواه في ذلك المسرح مهما كان أرجح منهم في سواه ، حيث النص : « يا ايها الملأ من ياتيني بعرشها » ولم يكن خضر من ملاءِه وحواشيه وأعضاده الملكية .

إنه آصف بن برخيا وزير سليمان ووصيه وخليفته كما في متظافر الأحاديث.

ومنها ما يروى عن الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) : ذاك وصي أخي سليمان بن داود[٢] .

وأما الكتاب ! فهل هو كتاب التشريع ؟ وكثير هؤلاء الذين يعلمونه تماماً وفوق « علمٌ من الكتاب » اللامحة إلى بعض العلم ، ولا يقدرون على

---

(١) قد مضى رواية العياشي عن علي بن محمد الهادي عليهما السلام وفيه : وذلك من علم سليمان اودعه آصف بامر الله ففهمه الله ذلك لئلا يختلف في إمامته ودلالته . .

(٢) نور الثقلين ٤ : ٨٨ في روضة الواعظين للمفيد قال ابو سعيد الخدري سألت رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) عن قول الله جل ثناءه « قال الذي عنده علم من الكتاب » قال ذاك . .

ومثله ما عن بصائر الدرجات عن جابر عن الباقر (عليه السلام) وعن عمر الحلال عن ابي عبد الله (عليه السلام) وعن عيون الأخبار عن عمر بن واقد عن موسى بن جعفر عليهما السلام ، وعن الكافي عن ابي الحسن صاحب العسكر علي الهادي (عليه السلام) .

ذلك ولا مادونه من خارقة ربانية ! وليس الإتيان به من الواقعات الشرعية المكلف بها مُدراءُ الشرعة حتى يكفيهم علمهم بها لتحقيقها ! .

أم هو كتاب التكوين ـ المعبر عنه في احاديثنا بالإسم الأعظم وله ثلاثة وسبعون حرفاً ، وقد أوتي الذي عنده علم من الكتاب حرفاً منه وأوتي الرسول محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) وأهل بيته المعصومين ذلك الاسم إلا حرفاً واحداً ـ ؟

والتكوين والتشريع هما من مختصات الربوبية علماً وقدرة ، وليست الآيات الرسالية مما يعلمها أو يقدر عليها الرسل ، والرسول محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) وهو أول العابدين وافضل العارفين لم يكن عنده هذه الآيات مخوّلة : « وأقسموا بالله جهد أيمانهم لئن جاءتهم آية ليؤمنن بها قل إنما الآيات عند الله وما يشعركم أنها إذا جاءت لا يؤمنون » (٦ : ١٠٩) .

فإنما الرسل مجاري لتحقق الآيات الرسالية باذن الله على ايديهم ، لتدل على اختصاصهم بالله ورسالتهم من الله ، فقد خاف موسى من حية تسعى محولة عن عصى « قلنا لا تخف إنك انت الأعلى » فلو كانت آية بعلمه وقدرته لما خافها .

وفي عيسى « وتحيي الموتى باذني » وهو القدرة الإلهية بعلم هما المصدر لآياته وسائر افعاله الخاصة به .

وما علم آصف بن برخيا بجنب علم محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) بالكتاب إلا كقطرة من يم[1] فهل هو بعدُ كان عنده علم من كتاب

---

(١) تفسير البرهان ٣ : ٢٠٤ عن الكافي عن ابراهيم بن هاشم عن سليمان عن سدير قال : كنت أنا وأبو بصير وميسر ويحيى البزاز وداود الرقي في مجلس ابي عبد الله (عليه السلام) إذ خرج الينا وهو مغضب فلما اخذ مجلسه قال عجباً لأقوام يزعمون انا نعلم

تكوين لم يكن عند محمد ؟!

قد يعني « الكتاب » هنا كتاب المعرفة الربانية ، فكلما كانت معرفة الله اكمل فآيات الله الجارية بإذنه على ايدي العارفين به اكثر واكمل .

فعلم الكتاب كله يختص بالله ، إذ لا يعرف الله حق المعرفة إلاّ هو ، ثم المعرفة القمة الممكنة لمن سوى الله هي التي كانت لمحمد (صلى الله عليه وآله وسلم) وأهليه المعصومين ، وهي تنقص حرفاً واحداً من كتاب المعرفة الكاملة، وهو حرف الذات القدسية، ثم الاثنان والسبعون حرفاً الباقية[1] من

الغيب ما يعلم الغيب إلاّ الله لقد هممت بضرب خادمتي فلانة فذهبت عني فما عرفتها في أي البيوت هي من الدار فلما ان قام من مجلسه وصار إلى منزله دخلت انا وأبو بصير وميسر على أبي عبد الله (عليه السلام) فقلنا له جعلت فداك وسمعناك تقول في امر خادمك ونحن نعلم انك تعلم علماً كثيراً لا ينسب إلى علم الغيب ؟ فقال : يا سدير ما تقرأ القرآن ؟ قلت : قد قرأناه جعلنا الله فداك فقال هل وجدت فيما قرأت من كتاب الله « قال الذي عنده علم من الكتاب أنا آتيك به قبل ان يرتد إليك طرفك » قلت جعلت فداك قد قرأته قال فهل عرفت الرجل وعرفت ما كان عنده من علم الكتاب ؟ قال قلت فأخبرني حتى أعلم ، قال : قدر قطرة من المطر الجود في البحر الأخضر ما يكون ذلك من علم الكتاب ، قلت : جعلت فداك ما اقل هذا ؟ قال يا سدير ما اكثره لمن لم ينسبه إلى العلم الذي اخبرك به يا سدير فهل وجدت فيما قرأت من كتاب الله « قل كفى بالله شهيداً بيني وبينكم ومن عنده علم الكتاب » والله عندنا ثلاثاً .

(١) المصدر بصائر الدرجات محمد بن عيسى عن علي بن الحكم عن محمد بن الفضيل عن ضريس الوابشي عن جابر عن ابي جعفر عليهما السلام قال قلت : جعلت فداك قول العالم « انا آتيك به قبل ان يرتد إليك طرفك » فقال : يا جابر ان الله جعل اسمه الأعظم ثلاثة وسبعين حرفاً فكان عند العالم منها حرف فأخسفت الأرض ما بينه وبين السرير التقت القطعتان وحوّل من هذه على هذه وعندنا اسم الله الأعظم اثنان وسبعان حرفاً وحرف في علم الغيب .

اقول : وبهذا المعنى استفاضت الأحاديث عنهم عليهم السلام .

ذلك الكتاب تعني معرفة الله القمة لهم عليهم السلام إلاّ معرفة الذات ، فهم مهما حرموا من حق معرفته الخاصة به « ما عرفناك حق معرفتك وما عبدناك حق عبادك » ولكنهم زُوِّدوا المعرفة الحقة الممكنة في حقهم ، فهم يعرفون الله بكل حروف المعرفة وجوانبها إلاّ حرف الذات وجانبها .

والحرف الواحد من هذا الأسم الأعظم المختص بالله ، هو جانب الذات وصفات الذات وحقيقة الصفات الفعلية ، وسائر الحروف وهي سائر الجوانب المعرفية ، مقسمة بين المخلَصِين من عباد الله ، وكلما ازدادت هذه الحروف المعرفية ، زاد الله صاحبها حملاً لشرعته ، ومظهراً لأيات علمه وقدرته : « عبدي اطمعني حتى اجعلك مَثَلي انا اقول للشيء كن فيكون ، واجعلك تقول للشيء كن فيكون » مهما اختلفت « كن » التكوينية من الرب ، عنها في المربوبين ، فانها فيهم بأمر الله دون توكيل ولا تحويل ، فـ« انما الآيات عند الله » دون سواه ، فـ« الذي عنده علم من الكتاب » المعرفي في الأسم الأعظم ، يأتي به قبل ان يرتد إليه طرفه ، فأوتي من فوق سليمان وآصفه ما فوقها من الخوارق وكما يروى عن أئمتنا المعصومين عليهم السلام[(١)] .

---

(١) ومما ورد في علمهم عليهم السلام افضل من آصف ما في عيون الأخبار باسناده إلى عمر بن واقد قال : إن هارون الرشيد لما ضاق صدره مما كان يظهر له من فضل موسى بن جعفر عليهما السلام وما كان يبلغه عنه من قول الشيعة بامامته واختلافهم في السير اليه بالليل والنهار خشية على نفسه وملكه ففكر في قتله بالسم ـ الى ان قال ـ : ثم ان سيدنا موسى (عليه السلام) دعى بالمسيب وذلك قبل وفاته بثلاثة ايام وكان موكلاً به فقال له يا مسيب ! قال : لبيك يا مولاي ، قال : إني ظاعن في هذه الليلة إلى المدينة مدينة جدي رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) لأعهد الى ابني عليّ ما عهده إلي ابي وأجعله وصيي وخليفتي وآمره أمري ، قال المسيب : فقلت : يا مولاي كيف تأمرني ان افتح لك الأبواب

وهذه الحروف المعرفية من الأسم الأعظم يمنحها الله لمن يشاء ، فهي الكتاب المعني هنا ، فلا يعني الإسم الأعظم مقولة اللفظ ، إذ لا إسم لفظياً

واقفالها والحرس معي على الأبواب ؟ فقال : يا مسيب ضعف يقينك بالله عز وجل وفينا ؟ قلت : لا يا سيدي قال : فمه ؟ قلت : يا سيدي ادع ان يثبتني فقال : اللهم ثبته ، ثم قال : إني ادعو الله عز وجل باسمه العظيم الذي دعا به آصف حتى جاء بسرير بلقيس ووضعه بين يدي سليمان (عليه السلام) قبل ارتداد طرفه اليه حتى يجمع بيني وبين ابني علي بالمدينة ، قال المسيب فسمعته (عليه السلام) يدعو ففقدته عن مصلاه فلم ازل قائماً على قدمي حتى رأيتهُ قد عاد إلى مكانه واعاد الحديد إلى رجله فخررت له ساجداً لوجهي شكراً على ما انعم به عليّ من معرفته . . .

اقول : وما اهم السرعة الهائلة الخارقة لانسان دون تحوّل إلى طاقة فإنها الموت ـ من السرعة في جماد لا حياة له فلذلك يقول ابو عبد الله (عليه السلام) في رواية سدير عنه يا سدير الم تقرء القرآن ؟ قلت : بلى ـ قال : فهل وجدت فيا قرأت من كتاب الله عز وجل « وقال الذي عنده علم من الكتاب . . . » قال قلت : جعلت فداك قد قرأته ، قال فهل عرفت الرجل وهل عرفت ما كان عنده من علم الكتاب ؟ قال : قلت اخبرني به ، قال : قدر قطرة من الماء في البحر الأخضر ، فيا يكون ذلك من علم ، قال قلت جعلت فداك ما اقل هذا ؟! .

وفيه في الخرائج والجرائح روي ان خارجياً اختصم مع آخر إلى علي (عليه السلام) فحكم بينهما بحكم الله ورسوله فقال الخارجي : لا عدلت في القضية ، فقال (عليه السلام) اخسأ يا عدو الله ، فاستحال كلباً وطارت ثيابه في الهواء فجعل يبصبص وقد دمعت عيناه فرقّ له فدعا الله فأعاده إلى حال الإنسانية وتراجعت إليه ثيابه من الهواء ، فقال : آصف وصي سليمان قص الله عنه بقوله : « قال الذي عنده علم من الكتاب . . . » ايها اكبر على الله ؟ نبيكم ام سليمان ؟ فقيل : ما حاجتك إلى قتال معاوية إلى الأنصار ؟ قال : إنما ادعو على هؤلاء بثبوت الحجة وكمال المحنة ولو أذن لي في الدعاء لما تأخّر .

وفي البحار ١٤ : ١١٥ عن الاختصاص للمفيد بسند متصل عن ابان الأحمر ، قال قال الصادق (عليه السلام) يا ابان كيف تنكر الناس قول امير المؤمنين (عليه السلام) لمّا

له ثلاثة وسبعون حرفاً ! وحتى لو كان فلا أثر لما دون كل حروفه وان نقص حرفاً واحداً فضلاً عن حرف واحد منه ! ثم ولا تأثير للعلم بالإسم اللفظي

قال : لو شئت لرفعت رجلي هذه فضربت بها صدر ابن ابي سفيان بالشام فنكسته عن سريره ولا ينكرون تناول آصف وصيّ سليمان عرش بلقيس وإتيانه سليمان به قبل ان يرتد اليه طرفه ؟ اليس نبينا (صلى الله عليه وآله وسلم) افضل الأنبياء ووصيه افضل الأوصياء ؟ افلا جعلوه كوصي سليمان (عليه السلام) حكم الله بيننا وبين من جحد حقنا وانكر فضلنا .

أقول : وفي الأثر المستفيض ان من عنده علم الكتاب هو علي (عليه السلام) وبنوه المعصومون وممن اخرجه القرطبي في الجامع لأحكام القرآن ١ : ٣٣٦ عن عبد الله بن عطاء ما لفظه : قلت لأبي جعفر بن علي بن الحسين بن علي بن ابي طالب رضي الله عنهم زعموا ان الذي عنده علم الكتاب عبد الله بن سلام فقال : انما ذلك علي بن ابي طالب رضي الله عنه .

والدشتكي الشيرازي في روضة الأحباب والسيوطي في الاتقان ١ : ١٣ حيث قال : وقال سعيد بن منصور في سننه حدثنا ابو عوانة عن ابي بشر قال : سألت سعيد بن جبير عن قوله تعالى « من عنده علم الكتاب » أهو عبد الله ابن سلام ؟ فقال : كيف وهذه السورة مكية ، ومنهم الكشفي الترمذي في مناقب مرتضوي ٤٩ نقله عن المحدس الحنبلي انه روى عن ابي حنيفة انه قال « ومن عنده علم الكتاب» هو علي (عليه السلام) لشهادة قول النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) : انا مدينة العلم وعلي بابها ونقل عن الثعلبي في تفسيره عن عبد الله بن سلام انه سئل عن رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) عن الآية ؟ قال (صلى الله عليه وآله وسلم) : انما هو علي (عليه السلام) ، وسليمان القندوزي في ينابيع المودة ١٠٢ ، وروى الثعلبي وابن المغازلي بسنديهما عن عبد الله بن عطاء قال : كنت مع محمد الباقر رضي الله عنه في المسجد فرأيت عبد الله بن سلام فقلت هذا ابن الذي عنده علم الكتاب ؟ قال : إنما ذلك علي بن ابي طالب (عليه السلام) وروى الثعلبي وأبو نعيم بسنديهما عن زادان عن محمد بن الحنفية قال « من عنده علم الكتاب » علي بن ابي طالب (عليه السلام) وروى عطية العوفي عن ابي سعيد الخدري قال سألت رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) عن هذه الآية « الذي عنده علم من

اياً كان ، فاسم « الله » و « هو » هما اعظم الاسماء الإلٓهية على الإطلاق ، ولا تأثير لهما بمجرد العلم بهما ولقلقة اللسان فيهما فضلاً عن اسماء سواهما وهي كلها دونها ! .

وفي الحق إن الإسم وهو الدال على مسمى ، هو واقعه بدلالة واقعية ، والاسم اللفظ هو المعرفة الكاملة بالله وهي الاسم الأعظم معنوياً ، فالذي عنده علمٌ من الكتاب منحه الله ما ياتي به العرش من مسافة شهر قبل ارتداد الطرف ! وطبعاً بدعاءه ربه دونما استقلال ، فهل اتى به دون تغيير ولا تحوير فيه ولا في مسيره ؟ وموانع الجدران والأتلال والأشجار تمنعه ! وسرعة السير هكذا تحوِّله ، فان لكل عنصر قابلية خاصة لسرعةٍ مّا ، لو تجاوزها لتجاوز عن كيانه إلى ما يقبلها ! .

قد يقال ان ذلك كله بسيط بجنب القدرة الإلٓهية ، ما لم يكن محالاً ذاتياً ، وكما في السرعة المعراجية فوق الضوئية بملايين الأضعاف لأجتياز تلك المسافة الهائلة مرجِّعاً في سويعات ؟ ولكن المركبة الفضائية المعدة للسفرة المعراجية كانت تحافظ على الحياة الروحية والبدنية لصاحب المعراج دونما تحويل (راجع تفسير سورة النجم من الفرقان) .

الكتاب » قال : ذلك اخي سليمان بن داود ، وسألته عن قول الله عز وجل : « قل كفى بالله شهيداً بيني وبينكم ومن عنده علم الكتاب » قال : ذاك اخي علي بن ابي طالب (عليه السلام) وروى في المناقب عن احمد بن محمد عن موسى بن جعفر عليهما السلام وعن زيد بن علي (عليه السلام) ومحمد بن الحنفية وعن سلمان الفارسي وعن ابي سعيد الخدري واسماعيل السدي انهم قالوا في الآية : هو علي بن ابي طالب (عليه السلام) (ملحقات احقاق الحق للعلم الحجة السيد شهاب الدين الحسيني المرعشي ٣ : ٢٨٠ - ٢٨٢) .

وعلى أية حال فلا بد لهذه السرعة الهائلة للعرش من خارقة هي مصدَّقةٌ فلسفياً وعلمياً ، وقد أثبت علم الفيزيا إمكانية تحول كلٍّ من المادة والطاقة إلى الأخرى ، وواقع التحويل معروف على ضوء المحاولات الجادة العلمية المتحضرة الحاضرة .

وقد اثبت العلم إمكانية تحويل المواد إلى طاقات وأمواج بالإمكان إرسالها سريعاً كإرسال الصُوَر التلفزيونية والأصوات الراديوئية أماهيه ، مهما لم يقدر العلم حتى الآن على تحقيقه .

فقد يجوز أن عملية الإتيان بالعرش في هذه السرعة الهائلة كانت بتحويلها إلى طاقة وأمواج ثم استجلابها بسرعة تناسب « قبل ان يرتد إليك طرفك » ثم رجّعها إلى ما كانت عرشاً كما هو ، إذاً فهو مثلث من خوارق العادات دون محاولة علمية تجريبية ، وإنما بما أراد ابن برخيا بقدرة الله ، دون إرسالية للأمواج المحولة عن العرش في مكانه ، بل هو استرسال من مسافة شهر بارادة آصف مزودة بمشيئة الله !

وقد يعنيه المروي عن أئمتنا عليهم السلام « ان آصف بن برخيا قال لسليمان (عليه السلام) مُدَّ عينيك حتى ينتهي طرفك ، فمد عينيه فنظر نحو اليمن ودعا آصف فغار العرش في مكانه بمأرب ثم نبع عند مجلس سليمان بالشام بقدرة الله قبل ان يرد طرفه »(١) ! .

فلا يعني غوره ذهابه في الأرض كما هو مثل الماء الغائر ، حيث نبع ولا ينبع العرش بحاله كما لا يغور ، بل يلمح غوره إلى تحوّله إلى غيره من طاقة لطيفة ، فكما الماء يغور في جانب من الأرض ثم ينبع من جانب آخر ، كذلك

(١) نور الثقلين ٤ : ٨٧ في جامع الجوامع وروى ان آصف بن برخيا . . .

غار العرش في الجو غور الطاقات الموجية ، ثم نبع عند مجلس سليمان كما كان .

وقد يعنيه ايضاً انخساف الأرض وانخراقها بينه وبين العرش تأويلاً له بانخراق جو الأرض ، إذ لا يكفي في تخطي هذه السرعة الهائلة ـ فقط ـ تحويل العرش إلى الأمواج ، فلا بد لها من تعبيد المسيرة الجوية خرقاً وخسفاً حتى تتم الخارقة الربانية كما تمت وهذه خارقة رابعة .

والظاهر من ارتداد الطرف هو التقاء الجفنتين بعد افتراقهما ، فجفن العين هو دائم الإنطباق والإفتتاح كعملية أوتوماتيكية دون ارادة ، كما تلمح لها « يرتد » دون « يرُد » وذلك أبلغ ما يوصف به في السرعة ، وقد يعنيها « أو هو أقرب » بعد « كلمح البصر » فـ« قبل أن يرتد » أقل من طرفه إلى أن يبلغ إلى واحد الزمان الأم[1]

فليكن غور العرش تحولاً له إلى ابسط طاقة موجية كأخفها وزناً واسرعها قابلية للحركة لكي تجتاز مسيرة شهر في واحد من الزمان أم يزيد لأقل من إرتداد الطرف .

ومهما استطاع العلم في مستقبل ان يحوّل ـ حسب المحاولات والمعادلات الفيزاوية ـ مادة إلى طاقة موجية ولمّا ، فليس بمستطاعه ـ وإن بلغ القمة المستطاعة لمن سوى الله ـ ذلك المربع البارع من خرق العادة بمجرد المشيئة ودون محاولة عملية إلّا دعاءً[2] فتلك ـ إذاً ـ هي من آيات الرسالة

---

(١) نور الثقلين ٤ : ٨٨ بصائر الدرجات عن ابي عبد الله (عليه السلام) . . . ثم عادت الأرض كما كانت اسرع من طرفة عين . .

(٢) نور الثقلين ٤ : ٩٢ عن مهج الدعوات في دعاء العلوي المصري عن علي (عليه السلام) : الهي واسألك باسمك الذي دعاك به آصف بن برخيا على عرش ملكة

الربانية ، وهي هنا كحجة ثانية لاهتداء الملكة إلى الله كما اهتدت فاسلمت مع سليمان لله رب العالمين .

كلام حول تبدل المادة طاقة وموجة

فالذرة هي طاقة متكاثفة معقّدة كما الطاقة هي ذرة منطلقة متحررة ، ولا اختلاف بينهما إلاّ بالتكاثف والإنتشار ، والعلم الحديث بدء بمحاولة تبديل المادة إلى طاقة خالصة ، أي نزّع الصفة المادية للعنصر بصورة نهائية ، وذلك على ضوء جانب من النظرية النسبية لـ« البرت انيشتاين » إذ تُقرر أن كُتلة الجسم نسبية وليست ثابتة ، فهي تزيد بزيادة السرعة ، كما تؤكد التجارب التي اجراها علماء الفيزياء الذرية على الإلكترونات التي تتحرك في مجال كهربائي قوي ، ودقائق (بيتا) المنطلقة من نويّات الأجسام المشعّة [١] .

ولما كانت كتلة الجسم المتحرك تزداد بازدياد حركته ، وليست الحركة إلاّ مظهراً من مظاهر الطاقة ، فالكتلة المتزايدة في الجسم هي إذن طاقته المتزايدة .

فلم يَعُد في الكون عنصران متمايزان أحدهما المادة التي يمكن مسُّها ،

سبأ فكان اقل من لحظ الطرف حتى كان مصوراً بين يديه . . » وفيه (٩٠) عن الامام علي الهادي (عليه السلام) كان عند آصف حرف فتكلم به فانخرقت له الأرض فيما بينه وبين سبأ . . ومثله في سائر روايات القصة انه دعا ، فلم تكن منه المشية دون دعاء ، أو عملية علمية تجريبية .

(١) يقال اولى الاستحالات التي حصلت لعنصر ثابت كانت في ١٩١٩ م بواسطة راذفورد بآلية ساذجة جداً وقد فصل في كتاب الطاقة الذرية من السّلسلة العلمية : ماذا ادرى ص ٦١ .

وتتمثل لنا في كتلة ، والآخر الطاقة التي لا تُرى وليست لها كتلة ، كما كان يعتقد العلماء سابقاً ، بل أصبح العلم يعرف أن الكتلة ليست إلاّ طاقة مركزة .

ويقول انيشتاين في معادلته ان : « الطاقة = كتلة المادة × مربع سرعة الضوء ، وسرعة الضوء = ٨١٦٠٠٠ ميلاً في الثانية » كما ان الكتلة = الطاقة ÷ مربع سرعة الضوء ، وبذلك ثبت ان الذرة بما فيها من بروتونات والكترونات ليست في الحقيقة إلاّ طاقة متكاثفة ، بالإمكان تحليلها وإرجاعها إلى حالتها الأولى .

فهذه الطاقة هي الأصل العميم للعالم في التحليل الحديث وهي التي تظهر في اشكال مختلفة وصور متعددة : صوتية ومغناطيسية وكهربائية وكيماوية وميكانيكية أمّاهيه ؟ ، وعلى هذا الضوء لم يعُد الإزدواج بين المادة والإشعاع بين الجسمانيات والموجات ، أو بين ظهور الكهرب على صورة مادةٍ أحياناً ، وظُهوره على صورة كهرباء أحياناً أخرى ، لم يعد ذلك غريباً ، بل أصبح مفهوماً بمقدار ، ما دامت كل هذه المظاهر صوراً لحقيقة واحدة هي الطاقة .

ولقد إثبتت التجارب علمياً صحة هذه النظريات ، إذ أمكن للعلماء ان يحوّلوا المادة إلى طاقة والطاقة إلى مادة .

فالمادة تتحول إلى الطاقة عن طريق التوحيد بين نواة ذرة الهيدروجين ونواة ذرة ليثيوم ، فتنتج عن ذلك نواتان من ذرات الهليوم ، وطاقة هي في الحقيقة الفارق بين الوزن الذري لنواتين من الهليوم ، والوزن الذري لنواة هيدروجين ونواة ليثيوم .

والطاقة تتحول إلى المادة عن طريق تحويل أشعة « جاما » وهي أشعة لها

طاقة دون وزن ، تتحول إلى دقائق مادية من الإلكترونات السالبة والإلكترونات الموجبة ، التي تتحول بدورها إلى طاقة ، إذا اصطدم الموجب منها بالسالب .

ومن اعظم التفجيرات للمادة الذي توصّل إليها العلم ، هو التفجير الذي يمكن للقنبلة الذرية والهيدروجنية أن تُحققه ، إذ يتحول بسببها جزءٌ من المادة إلى طاقة هائلة .

وتقوم الفكرة في القنبلة الذرية على إمكانية تحطيم نواة ذرة ثقيلة بحيث تنقسم الى نواتين أو اكثر من عناصر أخف ، وقد تحقق ذلك بتحطيم النواة في بعض اقسام عنصر اليورانيوم ، الذي يطلق عليه اسم اليورانيوم ٢٣٥ نتيجة لاصطدام النيوترون بها .

وتقوم الفكرة في القنبلة الهيدروجينية على ضم نُوى ذرات خفيفة إلى بعضها ، لتكون بعد اتحادها نُوى ذرات اثقل منها ، بحيث تكون كتلة النواة الجديدة أقل من كتلة المكونات الأصلية .

وهذا الفرق في الكتلة هو الذي يظهر في صورة طاقة ، ومن أساليب ذلك دمج أربع ذرات هيدروجين بتأثير الضغط والحرارة الشديدين ، وإنتاج ذرة من عنصر الهليوم ، مع طاقة هي الفارق الوزني بين الذرة الناتجة والذرات المندمجة وهو كسر ضئيل جداً في حساب الوزن الذري .

رجوع إلى الآية بتكملتها :

« فلما رآه مستقراً عنده » استقراراً عن تلك السرعة الهائلة ، واستقراراً إلى أصله عن الموجة المحول إليها ، فقد تمت في ذلك الإستقراء خوارق اربع تكفي كل واحدة حجة بارعة .

« قال هذا من فضل ربي » ليس من فضلي أنا ولا آصف « ليبلوني ءأشكر أم أكفر » بلوى حسنة تبرز شكراناً أم كفراناً بهذه

النعمة السابغة الفائقة وسواها مما أنعم به عليَّ، ولقد استشعر أن النعمة كهذه الخارقة البارقة ابتلاءٌ مخيف ضخم، أمامها مسئولية هامة خطرة، فالمنعَم بحاجة إلى يقظة ليجتازها سليماً مسلماً شاكراً، فان زهرة الحياة وزهوة النعمة قد تدفع الإنسان إلى الكفران، بل هو طبيعة الحال إلّا لمن اعتصم بالله فعصمه الله.

« ومن شكرنا فانما يشكر لنفسه » دون ربه « ومن كفر فإن ربي غني كريم » غني عن ان يُشكر، وغني عن ألّا يُكفر، فإنما الشكران والكفران راجعان إلى الشاكر والكافر.

﴿ قَالَ نَكِّرُوا لَهَا عَرْشَهَا نَنظُرْ أَتَهْتَدِي أَمْ تَكُونُ مِنَ الَّذِينَ لَا يَهْتَدُونَ ﴾[41].

« نكروا لها » غيروا معالمه المميزة له بحيث لا يُعرف لأوّل وهلة « ننظر اتهتدي » إلى عرشها المستأنَس لها طيلَة مُلكتها، وكان من حقها في نظرتها البدائية ألّا تعرفه لتنكُّره واستبعادها الإتيان به بهذه السرعة.

ومن خلال ذلك الهدي « تهتدي » إلى ربها حيث تجوزُ خارقة السرعة، اهتداءً ذا بعدين في ذلك المضمار « ام تكون من الذين لا يهتدون » كملإها الذين كانوا معها، إذ لم يهتدوا لا إلى معرفة العرش، ولا بمعرفته إلى معرفة الله، وهنا تعرّف سليمان إلى ذكائها واسلامها بذلك الإختبار والاعتبار.

﴿ فَلَمَّا جَاءَتْ قِيلَ أَهَكَذَا عَرْشُكِ قَالَتْ كَأَنَّهُ هُوَ وَأُوتِينَا الْعِلْمَ مِن قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ ﴾[42].

هنا ينكّر السئوال « أهكذا عرشك » دون « أهذا » كما نكّر عرشها، فهو بين مثلث من التنكير ثالثه بُعد المسافة وسرعة السير، وانها مفاجأة ضخمة لا تخطر للملكة على بال، فاين عرشها في سبإٍ وعليها أقفالها

وحُرّاسها ، واين بيت المقدس بمسيرة شهر ، وكيف جيء به ومن ذا الذي جاء به ؟ ولكن العرش رغم كل ذلك التنكير هو عرشها ، وهي تعرفه ، فانتهت إلى جواب محتاط أريب أديب: « قالت كأنه هو » فروسية بارعة في مواجهة هذه الظاهرة المريبة العجيبة ، وما قولة « كأنه هو » في هذه المجالة المريبة إلاّ تصديقاً لأنه هو وكما يؤيده « وأوتينا العلم من قبلها وكنا مسلمين » فانه في ظاهر السياق من قولها تثبياً لـ« كأنه هو » وانها بعدُ ليست بحاجة إلى آية للإسلام .

وقد يعني الضمير المؤنث في « قبلها » آية العرش ، فقد علمنا من إلقاء الكتاب إلينا ومن مضمونها أنك على حق « وكنا مسلمين لك » وما قصة الهدية إلاّ تأكُدة لما علمنا أنك لست من أهل المُتع الدنيوية ، ويا للعرش آية مؤكدة لآيات سبقته ، وقد كان من قبل عرشاً للسلطة المشركة ، وهكذا يبدل الله آية الضلال آية الهدى .

وقد يعني « وأوتينا العلم من قبلها » أن عرشها أتي به قبل ارتداد طرف وهي بعدُ في قصرها ، حيث فقدته بأسرة دون ان تفتح الأبواب أو ترى حملة يحملونه ، وصالح الآية البينة يقتضيه حتى تعزم على الرحيل إلى سليمان مسلمة عارفة بالقضية ، مهما كان اسلام التسليم أم إسلام الإستسلام ، ولكنها أسلمت بعدُ مع سليمان لله رب العالمين .

﴿ وَصَدَّهَا مَا كَانَتْ تَعْبُدُ مِنْ دُونِ اللهِ إِنَّهَا كَانَتْ مِنْ قَوْمٍ كَافِرِينَ ﴾[٤٣] .

الصد ، بمعنى الفصل المانع ، يتعدى بنفسه إلى مفعول واحد وهو هنا « ها » الملكة ، و« ما كانت .. » فاعله ـ بطبيعة الحال ـ فالواو ـ إذاً ـ حالية ، والمصدود عنه هو سبيل الله ، فهي تقول هنا « وكنا مسلمين » حال انها قبل استسلامها واسلامها صدها ما كانت تعبد من دون الله عن عبادة

الله ، فانها كانت من قوم كافرين ، وقد زال ذلك الصد ـ منذ بلوغها كتاب سليمان القاءً إليها، ورجوع المرسلين بهديتها بما حملوه من تهديد ـ زال لحد الإستسلام ، ثم هنا الإسلام « وأسلمت . . » . واحتمال ان فاعل الصد هو سليمان بما فعل ، أو العرش بما تحول وارد ، مهما لا يُحتمل كلٌّ بمفرده إذ يقتضي تقدير « عن » لـ« ما » تعدية إلى ثاني المفعولين ، والجمع بينهما أحل وأحرى ، فكما صدها ما كانت تعبد من دون الله ، عن الله ، كذلك وبالمآل صدها سليمان والعرش عما كانت تعبد من دون الله « إنها كانت من قوم كافرين » إذاً فـ« ما كانت » فاعل ومفعول ، ويصح الثاني ضمن الأوّل حذفاً للجار فيه ودون حذف في فاعله .

﴿ قِيلَ لَهَا ادْخُلِي الصَّرْحَ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَنْ سَاقَيْهَا قَالَ إِنَّهُ صَرْحٌ مُمَرَّدٌ مِنْ قَوَارِيرَ قَالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾[44] .

« الصرح » هو القصر العالي ، ثم « حسبته لجة » و« ممرد من قوارير » ترفعانه على أرضية قارورية فوق الماء ، لذلك حسبته في تلك المفاجأة البديعة لجةَ الماء ، و« كشفت عن ساقيها » دليل على عمق طفيف للماء خفيف ، لا يُخاف منه الغرق .

فقد « كشفت عن ساقيها » كيلا تبتلّ ، وبعد خوض المفاجئة كشف لها سليمان عن سرّ الصرح « قال إنه صرح ممرد من قوارير » وهو المملّس منها ، لا فقط تملّساً أرضياً إذ ليس إلاّ أرضه ، والنص « صرح » فليكن كله مملساً من قوارير ، ومنه أرضه القائمة قواريرها على الماء ، لحد يحسبه غير العارف بحاله أنه لجة .

وهنا تقف الملكة مفجوءة مندهشة أمام هذه العظمة المنقطعة النظير

للملك النبيِّ (١) فترجع عقليتها متصاغرة أمام العظمة الرسالية ، معترفة أنها كانت ظالمة نفسها فـ« قالت رب اني ظلمت نفسي » في سابق حالي لحد الآن « وأسلمت مع سليمان لله رب العالمين » دون ارباب مختلِفة مختَلقة سواه ، والتعويض عن « رب » بـ« رب العالمين » للإفصاح الضريح عن رفضها لسائر الأرباب شمساً وسواها .

ومعية الإسلام هنا تصريحة أخرى بخالص الإسلام ، فليس إسلامي لسليمان لأنه وسيط ، وانما « اسلمت مع سليمان » تذرعاً برسالته الربانية « لله رب العالمين » وذلك بعد إسلامها له بمعنى التسليم والإستسلام قبل بلوغ الحجة واتضاح المحجة .

اجل وان رسل الله لا يدعون إلى أنفسهم ، وانما إلى الله ، فكل من أسلم لله كان معهم كإخوة في الله ، فاين سليمان النبي بأعلى درجات التوحيد ، وملكة سبإ باسفل دركات الشرك ، بون بعيد لا صلة فيه بينهما ، ولكنما الإسلام لله يرفعها إلى درجة الأخوة مع سليمان « واسلمت مع سليمان » !

وتراه تزوج بها ؟ قد يلمح له « وكشفت عن ساقيها » فما امرها بدخول الصرح وهو يعلم انها تكشف عن ساقيها ، إلاّ قاصداً زواجها فلينظر إلى ساقيها كما نظر إليها ، ولو كان القصد مجرد اظهار العزة لكان يكفي البيان

---

(١) ومن طريف ما يروى في ذلك المضمار ما في الدر المنثور ٥ : ١١٢ ـ اخرج ابو نعيم في الحلية عن مجاهد قال لما قدمت ملكة سبأ على سليمان رأت حطباً جزلاً فقالت لغلام سليمان هل يعرف مولاك كم وزن هذا الدخان ؟ فقال : أنا اعلم فكيف مولاي ؟ قالت : فكم وزنه ؟ فقال الغلام : يوزن الحطب ثم يحرق ثم يوزن الرماد فما نقص منه فهو دخانه ! .

قبل كشفها ، وطبيعة الحال في هذه الحالة العجيبة من تحوّلها إلى الإسلام ، أن يتزوجها سليمان إكراماً لها لكي تملك مؤمنة بعدما ملكت كافرة ، فلا يحسب اسلامها خساراً لها حتى في مُلكها[1] .

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ ﴿٤٥﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِٱلسَّيِّئَةِ قَبْلَ ٱلْحَسَنَةِ لَوْلَا تَسْتَغْفِرُونَ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٤٦﴾ قَالُوا۟ ٱطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَن مَّعَكَ قَالَ طَٰٓئِرُكُمْ عِندَ ٱللَّهِ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ ﴿٤٧﴾ وَكَانَ فِى ٱلْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا

---

(١) الدر المنثور ٥ : ١١٢ ـ اخرج البيهقي في الزهد عن الأوزاعي قال كسر برج من ابراج تدمر فاصابوا فيه امرأة حسناء دعجاء مدمجة كان اعطافها طي الطوامير ، عليها عمامة طولها ثمانون ذراعاً مكتوب على طرف العمامة بالذهب : بسم الله الرحمن الرحيم أنا بلقيس ملكة سبأ زوجة سليمان بن داود ملكت الدنيا كافرة ومؤمنة ما لم يملكه أحد قبلي ولا يملكه أحد بعدي صار مصيري إلى الموت فاقصروا يا طلاب الدنيا ، وفيه اخرج ابن عساكر عن سلمة بن عبدالله بن ربعي قال : لما اسلمت بلقيس تزوجها سليمان وامهرها باعلبك اقول كأنها بعلبك في لبنان .

وفي نور الثقلين ٤ : ٩٢ عن تفسير القمي وكان سليمان (عليه السلام) قد أمر أن يتخذ لها بيتاً من قوارير وضعه على الماء ـ إلى قوله ـ : فتزوجها سليمان وهي بلقيس بنت الشرح الحميرية . . .

يُصْلِحُونَ ﴿٤٨﴾ قَالُوا تَقَاسَمُوا بِاللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُ وَأَهْلَهُ ثُمَّ
لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ ﴿٤٩﴾
وَمَكَرُوا مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٥٠﴾
فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَاهُمْ وَقَوْمَهُمْ
أَجْمَعِينَ ﴿٥١﴾ فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً بِمَا ظَلَمُوا إِنَّ فِي ذَلِكَ
لَآيَةً لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٥٢﴾ وَأَنْجَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا
يَتَّقُونَ ﴿٥٣﴾

مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحاً أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ ﴾٤٥ .

تلخيصة لهذه الدعوة الرسالية ككلٍّ ـ مثل سائر الدعات إلى الله ـ فى توحيد العبادة لله ، و« أخاهم » مما يشدد عليهم الحجة أنه كان يعاشرهم طيلة حياته ، معروفاً لديهم غير منكر ، دون أن تسبق منه سابقة سوءٍ وضلالٍ ، فلم يكن غريباً عنهم مجهولاً لديهم حتى يشتبه أمره . « فإذا هم » إثر الدعوة « فريقان » بعد وحدتهم فى الضلال « يختصمون » مع بعض تصديقاً لصالح وتكذيباً ، والجمع هنا اعتباراً بالجمعين فى فريقين ، فرقة مستكبرة كافرة،وأخرى مستضعفة مؤمنة،ومن اختصامهم : « قال الذين استكبروا من قومه للذين استضعفوا لمن آمن منهم اتعلمون أن صالحاً مرسل

من ربه قالوا إنا بما أرسل به مؤمنون . قال الذين استكبروا إنّا بالذى آمنتم به كافرون » (٧ : ٧٦) .

و « لمن آمن منهم » هنا دليل ان آخرين منهم ظلوا ضالين تحت نير المستكبرين ، فالمختصمون ضد الرسالة كانوا هم الأكثرية الساحقة ، والإختصام هنا ذو بعدين ، اختصاماً لهم مع الفرقة المؤمنة ، وآخر مع صاحب الرسالة ، مهما كانت فجوته متروكة لآية أخرى لا تذكر هنا ان « إئتنا بعذاب الله إن كنت من الصادقين » (٢٩ : ٢٩) ـ:

﴿ قَالَ يَا قَوْمِ لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ لَوْلَا تَسْتَغْفِرُونَ اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾[٤٦] .

فالعاقل اللبيب يستعجل الحسنة دون السيئة ، والمتنازل عن عقله كعادة للطائشين يستعجل الحسنة قبل السيئة ، خلطاً بينهما ، والنازل إلى أسفل الدركات يستعجل السيئة قبل الحسنة ، فبدلاً من الايمان ولو تجربة ، يكفر ويجرب العذاب المهلك حتى لا يبقى ظرف لحسنة الإيمان ، إذ لا إيمان بعد نزول العذاب ، والمؤمن اللبيب يعيش حياة الإستعجال للحنسة ابتعاداً عن أية سيئة ، مستغفراً ربه عما أساء لعلّه يُرحم .

فحتى لو كان الايمان بالله ضلالاً فهو خير من عذاب الله القاضي على أصل الحياة ، فيا لهم ضلالاً ما ابعده ان يستعجلوا السيئة : العذاب قبل الحسنة : الايمان الصواب فالثواب ، كفرقة أمثالهم من كفار قريش القائلة : « اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب اليم » (٨ : ٣٢) ويا للهول من هؤلاء الأوغاد الأنكاد حيث يحملون الجحيم فى انفسهم نفسها ولمّا يدخلوها ! .

﴿ قَالُوا اطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَنْ مَعَكَ قَالَ طَائِرُكُمْ عِنْدَ اللَّهِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ

تُفْتَنُونَ ﴾[٤٧] .

التطيُّر هو التشاءم ، وهو من عادات المجاهيل المتَّبعين الخرافات الجارفة والأوهام الخارقة . حين يهم أحدهم بأمر يجهل صالحه من طالحه يلجأ إلى طائر يزجره فان مرّ سانحاً عن يمينه استبشر ماضياً فى أمره ، وإن مر بارحاً عن يساره تشاءم تاركاً امراً حيث يتوقع ضره ، وما يدري الطير غيب الخير أو الشر وهو حيوان ، فهذا الإنسان هو أحون من الحيوان وأضل سبيلاً .

هذا أصل التطيُّر ، ثم غلب استعماله فى التشاءم ، ولأن الخير والشر راجعان إلى الإنسان بعمله ، وأنَّ عمله معه لا يفارقه : أن يطير عنه إلى غيره أم إلى الفناء ، يسميه القرآن طائراً كما : « وكل انسان ألزمناه طائره فى عنقه ونخرج له يوم القيامة كتاباً يلقاه منشوراً . اقرء كتابك كفى بنفسك اليوم عليك حسيباً » (١٧ : ١٣) .

فطائر الإنسان ـ اياً كان ـ من خير أو شر ، هو معه كما هنا ، وهو عند الله كما في آيتنا : « قال طائركم عند الله » حيث الأعمال راجعة طائرة إلى الله ، محفوظة لدى الله حيث يستنتسخها الله : « هذا كتابنا ينطق عليكم بالحق إنا كنا نستنسخ ما كنتم تعملون » (٤٥ : ٢٩) إن خيراً فخير وإن شراً فشر ، فكيف « اطيرنا بك وبمن معك » حين لا تصدر اعمالكم خيرة أو شريرة إلاّ منكم فـ« طائركم معكم » ولا يصدر الجزاء الوفاق خيراً أو شراً إلاّ من عند الله فـ« طائركم عند الله » فما منا في هذا الميدان سلب ولا ايجاب ، اللهم إلاّ دلالة إلى الحق المبين بإذن الله ! وليس طائركم معنا على أية حال « بل أنتم قوم تُفتنون » بجِنَّة الأوهام وظِنَّه الأحلام ، فإن تعليق الخير والشر بغير العامل نفسه ، إفضاءٌ لكل عامل عن استقلالية الأعمال بآثارها ، وذلك أنزل دركاً وانذل من المكائن الأتوماتيكية ، فإن نتائجها ترجع إليها دون اختيار منها ،

وهذا الإنسان الغبيّ يحول خيره وشره بآثارهما إلى غيره وهو مختار « بل أنتم قوم تفتنون » ! وتراهم إطيرّوا به وبمن معه بمجرد الدعوة دون أمر سواها ؟ ومن مواد طيرتهم الاختلاف الناشب بينهم اثر الدعوة ! وعل منها إصابة الجوع كما يروى (١) .

هؤلاء المفتَنون الهاربون عن الايمان بالغيب الحق ، الناسبين اليه الخرافة الحمقاء ، نراهم يؤمنون بالغيب الباطل الموهوم ، من تطيّر وسواه من الخرافات الجارفة ، فنراهم يعلقون هامة ضخمة على العدد (١٣) بنحوسته أياً كان ، فالبيت المرقم به يكتب عليه ١ + ١٢ ، بديلاً عن ١٣ ! ، ويعلقون على مرور قط أسود يقطع الطريق أمامهم ، وعلى كثير من الغيب الموهوم الذي لا سند له ، مستبدلين الغيب اللامعقول بالغيب المعقول ، مبتهجين متبجّهين بما عندهم من الحضارات المادية ، والخرافات الروحية « وهم يحسبون انهم يحسنون صنعاً » ! .

« بل انتم قوم تفتنون » امتحاناً بفتنة الله ونعمته ، وامتهاناً بفتنة الشيطان ونَعمته ، فاليقظة الدائبة ومتابعة السنن وتتبع الحوادث والشعور بما وراءها من فتنة وبلاء هو الكفيل بتحقيق الخير في النهاية ، لا التطير بخلق الله .

فلا صدفة عمياء فيما يحدث من خير أو شر ، وإنما اصابة قاصدة هي من خلفيات الأعمال الفاسدة ، فـ« إنما طائركم عند الله » و « طائركم

---

(١) نور الثقلين ٤ : ٩٣ عن تفسير القمي في رواية ابي الجارود عن ابي جعفر (عليه السلام) في الآية . . « فانهم اصابهم جوع شديد قالوا : هذا من شؤمك وشؤم من معك اصابنا هذا القحط ، قال طائركم عند الله » يقول : خيركم وشركم من عند الله « بل انتم قوم تفتنون » يقول : تبتلون بالاختبار .

معكم » ولا ثالث يحمل طائراً لكم أو عليكم .

﴿ وَكَانَ فِي الْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴾٤٨ .

« تسعة رهط » من المستكبرين.والمستضعَفين الضالين تحت نيرهم ، احزاب عدة متراضّة واحدة في أصول الإفساد ، تسعة في مختلف محاولاته وشكلياته ، والرهط هو العصابة دون العشرة أم دون الأربعين ، فهم العصابات المتعصبة ضد الحق ، الصارمة في الإفساد الخالص حيث « يفسدون في الأرض ولا يصلحون » وإنْ في مجالة أو حالة واحدة ، مكرِّسين كل طاقاتهم وإمكانياتهم في مختلف حقول الإفساد ، عقيدياً وخُلقياً أمّا هو من الإفساد في النواميس الخمسة، التي هي محطات الإصلاحات الرسالية ، ومن افساد هؤلاء التسعة أن :

﴿ قَالُوا تَقَاسَمُوا بِاللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُ وَأَهْلَهُ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ ﴾٤٩ .

« قالوا » في تشاور بينهم على عديد رهطهم ، حيث الكفر ملة واحدة مهما اختلفت حقوله وعقوله « تقاسموا بالله » : تشاركوا في القسم بالله ، امراً هو حصيلة الشورى اللعينة بينهم ، وتكفي « قالوا » أن تكون « تقاسموا » أمراً ، وكيف التقاسم التشارك بالله وهم مشركون بالله ؟ لأنهم يؤمنون بالله كرب الأرباب مهما اشركوا به سواه ، فما التقاسم بالله عندهم بادنى من التقاسم بأرباب سواه ، بل وهو أحرى وأقوى !

وعجباً من هؤلاء الحماقى الأنكاد يتقاسمون بالله ليبيتوا داعي الله ، وبكأن الدعوة إلى عبادة الله وحده هتك لساحة الله حتى يُقسم بالله في قتل الداعية بأهله ! وهكذا كان يخيَّل إلى جماعة من المشركين أن عبادة الله هتك له

فليُعبد سواه ليقربهم إلى الله زلفى !

« لنبيتّنه » وهو قصد العدو ليلاً لقتله « وأهلَه » هم زوجته وولده وكل من هو تحت عيلولته ، « ثم لنقولن » بعد تبييته « لوليه » وهو بطبيعة الحال من غير اهله ، أو غير الآهلين معه في بيته ، وهو ولي دمه « ما شهدنا مهلك أهله » دون مهلكه وأهله ، ألأن غير الشاهد لمهلك أهله بأحرى ألّا يشهد مهلكه نفسه ؟ ولا أولولية في هذا البين ، وقد يكون عكس الأمر أولى أننا ما شهدنا مهلكه ، فبأولى مهلك أهله ، فانهم معه بطبيعة الحال ليلاً ! والنص « مهلك أهله » ! .

ضمير المفرد الغائب في « أهله » الثاني راجع إلى وليه فإنه أقرب مرجعا وأصح معنى ، فصالح وأهله هم أهل لوليه ، فـ« ما شهدنا مهلك أهله » أي القتلى الذين هم أهله ، وله المطالبة بدمائهم « وإنا لصادقون » في « ما شهدنا » .

ثم « مهلك » قد تعني هنا مثلث المعاني ، مصدراً وزماناً ومكاناً للهلاك ، اجتثاثاً لكل بنود الإتهام ، فلا خبر لنا إطلاقاً عن زمان الهلاك ولا مكانه ولا أصله .

احتيال ساذج غير ناضح يُطمئنهم فيما اعتزموه ، تخلصاً عن صالح ووليه و « إن ربك لبالمرصاد » :

﴿ وَمَكَرُوا مَكْراً وَمَكَرْنَا مَكْراً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ ٥٠ .

« وهم لا يشعرون » لا مكرهم ولا مكرنا ، شعوراً بضآلة مكرهم ، وشعوراً بعاقبته في مكرنا ، وأين مكر من مكر ؟ مكرٌ جاهل قاحل ، ومكرٌ عالم كافل ، مكرٌ عن عجز تبييت ، ومكر عن قدرة في تبييت .

﴿ فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ مَكْرِهِمْ إِنَّا دَمَّرْنَاهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ ٥١ .

حيث العاقبة الموافقة للمكر مكرٌ مثله إلاّ في دناءته وضئولته ، فقد فاجأهم عذاب الله : « إنا دمرناهم » وهم تسعة رهط المتقاسمون الماكرون « وقومهم » المشاركين معهم في كفرهم وتكذيبهم بالرسالة « اجمعين » .

وكم ذا وحتى متى يخطيء المستبكرون ؟ منخدعين بما يملكون من أموال وبنين ونَعمة هم كانوا فيها فاكهين ، غافلين عن العين الرقيبة عليهم التي لا تنام ، والقوة القاهرة فوق كل قوة ، حيث تباغتهم جيئة فجيعة تدمرهم عن بكرتهم « وهم لا يشعرون » ! :

﴿ فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً بِمَا ظَلَمُوا إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ[٥٢] وَأَنْجَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ﴾[٥٣]

« خاوية » : خالية عن كيانها كبيوت ، وعن كائنين فيها كأصحاب البيوت ، تدميراً لها بأسرها وأسرهم « بما ظلموا » وفروا عن الحق المُرام « ان في ذلك » التدمير « لآية لقوم يعلمون » ثم في ذلك التدمير الخواء « وانجينا الذين آمنوا وكانوا يتقون » منهم ، فقد خرجوا بايمانهم وتقواهم عن طغواهم ، فخارجون ـ إذاً ـ عن قومهم الهالكين اجمعين .

وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ ﴿٥٤﴾ أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴿٥٥﴾ ۞ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟ أَخْرِجُوٓا۟ ءَالَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْ ۖ إِنَّهُمْ

أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ﴿٥٦﴾ فَأَنجَيْنَهُ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ قَدَّرْنَهَا مِنَ ٱلْغَبِرِينَ ﴿٥٧﴾ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا فَسَآءَ مَطَرُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴿٥٨﴾

عرض خاطف عن لوط وقومه بدءً ختم في معارض الغابرين : « ولقد ارسلنا إلى ثمود اخاهم صالحاً .. ولوطاً إذ قال .. » فصالح يدعوا في مفتتح دعوته إلى عبادة الله حيث التخلف البارز فيهم كان هو الإشراك بالله ، ولوط ينهى عن الفاحشة ، لأنها كانت هي التخلف البارز فيهم مهما كانوا من المشركين .

فإتيان الرجال شهوة من دون النساء ظاهرة غريبة في تأريخ الشهوات الجنسية ، أن يصبح كقاعدة مطردة بين قوم ، بدلاً عن إتيان النساء المفطور عليه كلٌ من القبيلين ، فقد يشذ الإنسان غير الملتزم بالشرعة الإلّهية في حالات استثنائية كثكنات الجيش التي ليس فيها نساء ، أو السجون الطائلة ، أم لأمراض نفسية أو ملابسات أخرى وقتية ، فيميل الذكور لإتيان الذكور ، وأما ان يشيع ذلك الشذوذ دون أية أسباب أو ملابسات رغم توفر النساء ، فهذا هو الحادث الجلل في تأريخ الإنسان ، البارز بأبشع صوره في قوم لوط المجرمين .

« .. أتأتون الفاحشة » العملية المنكرة المتجاوزة عن حدها ، متجاوزة عن الشهوة الفطرية المتعودة إلى المتخلفة عنها ، المنحرفة المنجرفة إلى هواتها البعيدة المدى ، العميقة الردى ، ومتجاوزة عن التستر المتعود في عمل الجنس مهما كانت حلاًً، إلى أوساط النوادي جهاراً بكل اصرار ودون أي إسرار ،

وهـذه كلها معنيـة من هذه « الفـاحشة » لأنها المتجـاوزة في العصيـان المتعـود حدَّه .

« أتـأتـون .. وانتم تعلمـون » انها فـاحشـة خـلاف الفـطرة وخـلاف الشرعة الإلهية ، « وانتم تبصرون » خلفياتها البغيضة الحضيضة خُلقياً وجماعياً وإهلاكاً للنسل والعائلة « وأنتم تبصـرون » أن أهل نـوادي الفاحشـة ينظرون اليكم وانتم تفعلون مـا تفعلون « أئنكم لتأتـون الـرجـال وتقـطعـون السبيـل وتـأتـون في نـاديكم المنكر .. » (٢٩ : ٢٩) ؟، وإتيـان الفـاحشـة بمختلف الإبصار هكذا ، وبمسرح الأبصار ، مما يجعلها أفحش الفواحش النكيرة .

فهنا في اللواط المتعود هكذا بين قوم لوط جنبـات عدة من الفـاحشة ، التجاوز عن النساء إلى الرجال ، والتعـود في ذلك التجـاوز كقاعـدة مطردة ، وابرازها في ملإ النوادي ، مما يجعله فاحشة منقطعة النظير « ما سبقكم بها من احد من العالمـين » مهما لحقهم من لحقهم من انجلترا وسواهـا الذين سنّـوا حِلّها في مجالسهم النيابية !

« ... بـل انتم قـوم تجهلون » أمن الجهـل بمدى الفحشـاء ؟ « وانتم تبصـرون » تطارد جهلهم ! بل هو الجهالة أنهم يأتون الفاحشة وهم مبصـرون تجاهلاً عنها بنزوة الشهوة الطائشة العمياء ، ومن جهـالتهم الجهلاء الخـواء ، كخلفية لدعوة صالحة مُصلحة من لوط :

﴿ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ مِنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ﴾٥٦ .

و « آل لوط » هنا هم لوط نفسه بالرسـاليين المؤمنين معه ، لا فقط آل النسب أو السبب حيث الأقـرب منهم سبباً وهي زوجتـه « قـدرنـاهـا من الغابرين » فلم تكن هي من آله فيها « قالوا أخـرجوا آل لـوط .. » إذ لم تكن

من « اناس يتطهرون » إذاً فهم الأناس المتطهرون ، فـ« آل لوط » هنا هم أهل بيت الرسالة الذين يعيشون جوها ، أنسباء كانوا وأقرباء أم بُعداء وأغرباء .

ولماذا « أخرجوا آل لوط من قريتكم » ؟ لـ« انهم اناس يتطهرون » تهكماً ساخراً بالتطهر من ذلك الرجس البخيس النحيس ، فهم يتطلبون جو الحرية الطليقة لهذه الفاحشة المبصرة ، دونما أي رادع ولا مانع ، فمجرد وجود المتطهرين ـ وإن لم ينهوا عن هذه العملية ـ إنه ينغصّ عيشتهم المتخلفة .

والتطهر تكلف في الطهارة ، فقد يكون صادقاً فليكن ، أو قد يكون كاذباً فـ« اخرجوا . . » إذ هم كانوا يرونهم يتكلفون الطهارة عن فاحشة اللواط كاذبين ، حيث اصبحت لهم أولاء طبيعة ثانية كانها هي القاعدة في حظوة الجنس ، إذاً فآل لوط هم أناس يتطهرون ، لا يصلحون للمقام بيننا تكديراً لجو الشهوة الرائجة المائجة فينا .

« فانجيناه وأهله » لا آله فانهم أخص ـ كما بيناه ـ من أهله،حيث يشمل إمرأته دون آله « إلا امرأته قدرناها » على قَدَر تخلفها عن بيت الرسالة « من الغابرين » : الماكثين بعد مضي ما هو معهم من دعوة الحق وشقوة الباطل ، دون ان يهتدوا إلى هداهم ، فحقَّ عليهم أن يقدَّروا « من الغابرين » الماكثين في عواقب اعمالهم ، ومنها هنا « وامطرنا عليهم مطراً فساء مطر المنذَرين » وكما أمطروا في حياتهم الجهنمية أمطار السوء والبلاء ، فقد بدلوا مياه النطف لإحياءالنسل ، ذريعةً لإماتة النسل وإماطة حق العائلة ، وكذلك الله بدل مطر الإحياء إلى مطر الإماتة « فساءَ مطر المنذَرين » ! .

قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَٰمٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ
ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَآللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٥٩﴾ أَمَّنْ خَلَقَ
ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا
بِهِۦ حَدَآئِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنۢبِتُوا۟ شَجَرَهَآ
أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ ﴿٦٠﴾ أَمَّن جَعَلَ
ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَٰلَهَآ أَنْهَٰرًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَٰسِىَ
وَجَعَلَ بَيْنَ ٱلْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ
لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦١﴾ أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ
ٱلسُّوٓءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ قَلِيلًا
مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٦٢﴾ أَمَّن يَهْدِيكُمْ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ
وَمَن يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦٓ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ
تَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٣﴾ أَمَّن يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ
وَمَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ قُلْ
هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٦٤﴾ قُل لَّا يَعْلَمُ مَن

فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ ٱلۡغَيۡبَ إِلَّا ٱللَّهُۚ وَمَا يَشۡعُرُونَ
أَيَّانَ يُبۡعَثُونَ ﴿٦٥﴾ بَلِ ٱدَّٰرَكَ عِلۡمُهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِۚ بَلۡ هُمۡ
فِي شَكّٖ مِّنۡهَاۖ بَلۡ هُم مِّنۡهَا عَمُونَ ﴿٦٦﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ
أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبٗا وَءَابَآؤُنَآ أَئِنَّا لَمُخۡرَجُونَ ﴿٦٧﴾ لَقَدۡ
وُعِدۡنَا هَٰذَا نَحۡنُ وَءَابَآؤُنَا مِن قَبۡلُ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ
ٱلۡأَوَّلِينَ ﴿٦٨﴾ قُلۡ سِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَٱنظُرُواْ كَيۡفَ
كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُجۡرِمِينَ ﴿٦٩﴾ وَلَا تَحۡزَنۡ عَلَيۡهِمۡ وَلَا تَكُن
فِي ضَيۡقٖ مِّمَّا يَمۡكُرُونَ ﴿٧٠﴾ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلۡوَعۡدُ
إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴿٧١﴾ قُلۡ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ رَدِفَ
لَكُم بَعۡضُ ٱلَّذِي تَسۡتَعۡجِلُونَ ﴿٧٢﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو فَضۡلٍ
عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَشۡكُرُونَ ﴿٧٣﴾ وَإِنَّ
رَبَّكَ لَيَعۡلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمۡ وَمَا يُعۡلِنُونَ ﴿٧٤﴾
وَمَا مِنۡ غَآئِبَةٖ فِي ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ إِلَّا فِي كِتَٰبٖ
مُّبِينٍ ﴿٧٥﴾

جولة ختامية للسورة بآيات تذكيرية في استجوابات في أغوار النعم واطوار النقم ، فللمؤمنين النعم وللكافرين النقم ، مما يتطلب « الحمد لله » أولاً وأخيراً ، فانها مفتاح كل أمر بعد البسملة وختامه :

﴿ وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَامٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَىٰ آللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾٥٩ .

« قل الحمد لله » على العاقبة الصالحة للصالحين والطالحة للطالحين ، فكل « الحمد لله » دون سواه ، فانه هو الموفق لهداه على أية حال ، والمجازي لمن عاداه على أية حال « وقل .. سلام على عباده الذين اصطفى » وهم كل الدعات الله على مدار الزمن الرسالي « سلام » عليهم من الله و« سلام » عليهم منك ومن معك من المصطفَين والصحالين ، و« سلام » من الله عليهم أحياءً إذ كانوا يحملون رسالات الله ، و« سلام » من الله عليهم امواتاً ليستمروا في الحياة الروحية القمة ، ثم « سلام » مني عليهم إذ لا أقول لهم إلّا سلاماً وتصديقاً ، و« سلام » مني اليهم فانني مسلم معهم مقتد بهداهم : « اولئك الذين هدى الله فبهداهم اقتده » (٦ : ٩٠) فإن هداهم هداي مهما كانت درجات ، وخط الهدى واحد مهما كان له مقامات ، فليس اقتداء الرسول بهداهم إلّا المشي على خطهم مهما سبقهم ، كما اقتداء غير الرسول به وبهم مهما كانوا ادنى منهم ، فخط الرسالة الإلهية وهداها واحدة والطرق إلى الله بعدد أنفاس الخلائق .

إذاً «الله خير أما يشركون » بالله ما لم ينزل به سلطاناً ، ومقابل الخير هنا ـ وهو الخير المطلق ـ ليس إلا الشر المطلق ، وحتى إذا كان « خير » صيغة تفضيل فانه تهكم ، ام تنازل : أن لو كان ما يشركون فيه خير فهل ان الله اكثر خيراً أمّا يشركون ؟ .

﴿ أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنبِتُوا شَجَرَهَا ءَإِلَهٌ مَّعَ اللهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ ﴾٦٠ .

سلهم هل شارك الله سواه في « خلق السماوات والأرض » من المادة الأم ، وخلق المادة الأم لا من شيء ، ثم « وأنزل لكم من السماء ماء » ولم يكن في الأرض ماءٌ « فأنبتنا » انتقالة لطيفة حفيفة من الغياب إلى الحضور تدليلاً ضمنياً انه هو الذي خلق ما خلق وأنزل ما أنزل وأنبت ما أنبت « حدائق ذات بهجة » من غابات ام بساتين صناعية فان الإنبات ككل هو من صنيع الله و« ما كان لكم ان تنبتوا شجرها » بحولكم وقوتكم ، وإنما لكم تهيئة الوسائل والظروف لنباتها ثم المنبت هو الله ، وكما الخالق لكم ولهذه الوسائل واختيارها والتوسل بها هو الله « ءإله » إذاً « مع الله » يشاركه في الخلق والتدبير؟ لا « بل هم قوم يعدلون » شركائهم بالله « كذب العادلون بالله وضلوا ضلالاً بعيداً وخسروا خسراناً مبيناً » فيعدلون بالمآل عن الله إلى سواه تألّهاً له دون الله ، ان يعبدونه دون الله ، ويستشفعونه دون الله ، تنزلاً عن توحيده إلى الإشراك به وإلى توحيد غيره ، وكأن الله لا دور له في خلق ولا تدبير .

فالفطرة تصرخ ، والبداهة العقلية تصرح ، والكائنات تصارح أن لا إله إلّا الله في خلق ولا تدبير ، فليُعبد هولا سواه ، « ءإله مع الله بل هم قوم يعدلوا »! .

انظروا إلى « حدائق ذات بهجة » حيث تبهج الفِطَر والعقول والحواس ، وان تلوين زهرة واحدة من أزهارها يعجز عنه كل رجال الفنون ، بل والحيطة بأسرارها في تموُّج ألوانها وتداخل خطوطها وتنظيم وريقاتها ، مما تتقاصر وتتضاءل دونه العباقرة في الفيزيولوجية النباتية ، فضلاً عن الحياة النامية في

النباتات وهو سر الأسرار . فضلاً عن حياة الحيوان والإنسان والملائكة والجان « ءإله مع الله بل هم قوم يعدلون » وهو العِدل التسوية بالله حين يعني العدل بالله ، وهو العدول عن الله حين يعدلون عن الله فالعِدل بالله ما سواه هو ظلم وخلاف العَدل وضلال مبين في كافة الحقول ولدى كل العقول : « تالله إن كنا لفي ضلال مبين . إذ نسويكم برب العالمين » (٢٦ : ٩٨) والعدول عن الله ـ ككل ـ إلى ما سواه ، توحيداً له دون الله هو من أظلم الظلم ، وهذا هو الملموس في المشركين بالله في أحوالهم وأعمالهم أن لا إله إلاّ غير الله ، إذ لا يحسبون في كل الحياة دوراً لله ، ويكان الله انخلع عن ربوبيته ككل ، محولاً لها إلى شركاءه ! .

﴿ أَمَّنْ جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَاراً وَجَعَلَ خِلَالَهَا أَنْهَاراً وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِيَ وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزاً ءَإِلَٰهٌ مَعَ اللَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾[٦١] .

« ام » وبعد خلق الأرض « من جعل الأرض قراراً » ولم تكن قراراً ، حيث الجعل هنا مركب يتطلب مفعولين كما هما « الأرض قراراً » : « الله الذي جعل لكم الأرض قراراً والسماء بناءً وصوركم فأحسن صوركم ورزقكم من الطيبات ذلكم الله ربكم فتبارك الله رب العالمين » (٤٠ : ٦٤) .

ولقد بحثنا حول قرار الأرض في الغافر مشبعاً ، وانه من القرِّ : البرد والصرد ، دون السكون المطلق ، فالسكون المطلق في المادة عن أي حراك انعدام عن أصل الكيان ، فانما هو سكون نسبي ، حيث كانت الأرض حارة ذاتية ، فسريعة الحركات بكل شماس ، فجعلها الله ذلولاً بعد شماس « هو الذي جعل لكم الأرض ذلولاً » (٦٧ : ١٥) وقراراً في برد نسبي حسب تعديلها في حرارتها وحركاتها ، فقراراً مستقراً لساكنيها . ويا لقرار الأرض من أسرار بآلافات الملابسات والمرافقات ، لو اختلت واحدة منها أو كلّت أو قلت

لما كانت الأرض قراراً ، وقد تبقى أسرار قرار الأرض مفتوحة للأجيال ، كلما اتسع العلم وارتفع ادركوا طرفاً منها طريفاً لم يكونوا يدركونه من ذي قبل!.

ومن خلفيات قرار الأرض « وجعل خلالها انهاراً » فانها قبل قرارها ما كانت تحن لماء ولا كلاء لشماس الحرارة البالغة الذروة،وفي الحق أنهار الأرض هي شرايين حياتها بمن عليها ، منتشرة إلى أكنانها ومناكبها ، ريّاً لأطفالها النبات والحيوان والإنسان من تلكم الثُديّ الدائبة الإرضاع .

كما « وجعل لها رواسي » على اثر البرودة فالأمواج المائجة من موادها الثقيلة الداخلية والخارجية الممتدة في حركاتها المعدّلة الدورانية حسب قانون الفرار عن المركز،والرواسي هي في الأغلب منابع الأنهار حيث تجري منها مياه الأمطار إلى الوديان وتشق مجراها بسبب تدفُّقها من قمم الجبال العالية . « وجعل بين البحرين » حلواً ومالحاً « حاجزاً » وحجراً محجوراً لا يُرى : « مرج البحرين يلتقيان . بينهما برزخ لا يبغيان » (٥٥:١٩)[1] « . . . هذا عذب فرات سائغ شرابه وهذا ملح اجاج » (٣٥:١٢) .

« ءإله مع الله » في هذه الأفاعيل المحيرة العقول ؟ لا ! « بل اكثرهم لا يعلمون » فيتقولون قولتهم المشركة جهلاً حالقاً قاحلاً في تقليد أعمى ، ثم وأقلهم وهم المستبكرون يعلمون لكنهم « وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلماً وعلواً » (٢٧ : ١٤) .

إلى هنا استجواب في مشاهد الكون المشهودة لكل كائن عاقل أمّن دونه ، ثم إلى خاصة الأنفس في كل شارد ووارد :

﴿ أَمَّن يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ

---

(١) راجع تفسير الآية في ج ٢٧ : ٢٦ الفرقان ففيه تفصيل حاجز البحرين فلا نعيده هنا .

الْأَرْضِ ءَإِلَٰهٌ مَعَ اللهِ قَلِيلاً مَّا تَذَكَّرُونَ ﴾٦٣ .

هنا « المضطر » : الـذي هو في ضُـر أو أصابه ضرّ ، مـا يضر بحيـاته الراضية المرضية مادياً ومعنوياً ، دنيوياً وأخـروياً ، فـردياً وجمـاعياً سيـاسياً أو عقيدياً أو ثقافياً أو اقتصادياً أم أياً كان مما يضره من سوء . والإضرار هنا أعم من التكويني والتشريعي ، وما اختاره هو ام حصل له باضطرار ، فانما النص « المضطر » وهو الذي يضطر أياً كان ، ولكنـه اضطرار سـوء لقو له « ويكشف السوء » .

يجد نفسـه في ضـر حـالق خـانق يلمسـه ، حـين تضيق عليه كـل الحلقات ، وتشتـد الحنقـات والخنقـات ، وتتضـاءل كـل القـوى الـظاهـرة وتتخاذل ، وتهاوى الأسناد والمستندات ، فيجد المضطر نفسه منقطعة الصلاة عن كافة الأسبـاب ، حين تكـلّ فيكلّ هـو في ضره ، فيجـد نفسه في هـوة ، دون نـاصر ولا قـوة إلاّ الله وهنا «فالإضطـرار عين الـدين » (١) والاطمئنـان اليقين .

« إذا دعـاه » هو لا سـواه ، وبطبيعـة الحال،وقضيـة الفطرة يـدعـوه لا سـواه ، دعوة في عمق ، دون لقلق اللسـان ، ام تجربـة الجنان ، وانمـا دعوة منقطعة عن سواه ، متجهة اياه ، وكما هو متعلق الكون بـالله ، يصبح متعلق الكيـان بالله ، لا يهـوى سواه ، ولا يهـوي إلى سـواه ، امّن يجيبـه ـ إذاً ـ إلاّ الله ، وليس ليتركه في دعوته الفـطرية المنطلقة ، المـطلقة عن الحـواجز، وهـو الـذي فطره عليهـا ، فلسانها لسـان الله حيث فطره الله ، وسئـوال الله نفسه ـ طبعاً ـ لا يُرد !

---

(١) تفسير بيان السعادة ٣ : ١٧٧ ـ واليه أشار الصادق (عليه السلام) بقوله : . . .

هم توبودى اوّل آرندة دعا | هم توباش آخر إجابت وارجا
چون حذا ازخود سئوال وكدّكند | پس سئوال خويش راكي ردكند
هم دعا ازتو اجابت هم زتو | ايمنى ازتو مهابت هم زتو

وهنا كتاب التكوين : الفطرة ، وكتاب التشريع الآمر بالدعاء ، يتعانقان في ذلك الدعاء ويتجاذبان تعاملاً عشيقاً رفيقاً . فلسان الدعاء للمضطر وسواه هو لسان الله ، وطبعاً لسان الفعل دون الذات والصفات ، حيث كوّن ودوّن ما يقتضي ذلك الدعاء !

فهنا الدعاء المستجاب دون ردٌ له ركنان ، حالة الإضطرار التام ، وانه ضُرّ السوء ، لا الذي يخيَّل إليه ضراً وهو في الحق ليس به فـ« عسى ان تكرهوا شيئاً وهو خيرٌ لكم وعسى ان تحبوا شيئاً وهو شرٌّ لكم والله يعلم وانتم لا تعلمون » (٣:٢١٦) وليس الله بمجيب دعاء من يدعوا على نفسه تحسباً انه يدعوا خيراً أو زوال شر ، وهو في الحق ليس في اضطرار شرٌ ، فمن اركان الدعوة المستجابة في آياتها أن تكون صالحة للداعي شخصياً أم جماعياً ، فـ« إذا دعاه » دعوة حق وفي حق بصادق النية ولائق الطوية وصالح القضية ، فالإجابة ـ إذاً ـ حاضرة عاجلة ام آجلة دونما استثناء .

فـ« المضطر » وهو الذي يضطر في حالة سوء ، تستغرق كل مضطر دون ابقاء . فالدعوات غير المستجابة إنما تنقص من اركانها ، سوءً ، أو اضطراراً ، ام دعاءً خالصاً « وقال ربكم ادعوني استجب لكم ان الذين يستكبرون عن عبادتي سيدخلون جهنم داخرين » (٤٠ : ٦٠) « وإذا سألك عبادي عني فإني قريب اجيب دعوة الداع إذا دعان فليستجيبوا لي وليؤمنوا بي لعلهم يرشدون » . (٣:١٨٦) « إذا دعان » هنا و« إذا دعاه » في آية المضطر ، تشملان دعاء القال والحال والأفعال ، دون دعاء الذات ، فكل

الذوات هي متعلقة الكون والكيان بالله ، شعرت اصحابها أم لم تشعر ، أرادت أم لم ترد ، اعتقدت أم لم تعتقد ، فهي إذاً دائبة الدعاء ذاتياً و « إذا » هي دعاء أحياني باختيار .

والمهم في مثلث الدعاء هو دعاء الحال علماً واعتقاداً ، ثم الدعاء بالأعمال التي تبرز ان صاحبها يدعو الله ، ثم بالقال ، كإذاعة عن الحال والأعمال ، فالداعي بقالِه دون حاله وأعماله خاوٍ في دعاءه مستهزء ، والداعي بقاله وأعماله دون حاله منافق ، والداعي بحاله دون اعماله قليل الايمان ، والتارك لذلك المثلث كله لا ايمان له ، والجامع بين الثلاثة هو كامل الايمان ، والتارك قاله زائداً في حاله واعماله هو احياناً في قمة الدعاء ، ولكن الضابطة العامة في الدعاء ضم القال إلى الأفعال والأحوال ليصبح الداعي كله دعاءً دون ابقاء . والمضطر بطبيعة الحال يدعو بحاله ، ام وبأفعاله وقاله ، ولكنه قد لا يستجاب لأنه خاطيء في ضره ، فكم من مضطر في غير سوء وهو يحسبه سوءً يدعو فلا يستجاب رحمةً عليه ، وكم من سيِّء الحال في واقع الحال ولكنه ليس في حالة الإضطرار إذ يحسبه حسناً فلا يدعو فهل يستجاب دون دعوة ؟ وكم من مضطر في اسوء الحال ولكنه لا يدعوا الله دعوة صالحة وخالصة فلا يستجاب حيث ينقص « إذا دعاه » واما الداعي ربه مضطراً في سوء ، دعوة صالحة خالصة ، منقطعة الصلة عما سوى الله ، مطمئناً إليه لا سواه ، راجياً اياه ، فهو المستجاب كما وعد الله : « يجيب المضطر ـ ويكشف السوء ـ ويجعلكم خلفاء الأرض » إجابة عن حالة الاضطرار ، وكشفاً للسوء الذي اضطره فردياً ، بل وجماعياً حيث « يجعلكم خلفاء الأرض » قضاءً على ضر الحكم والسلطة غير الصالحة عن بكرتها ، فلا تعني خلافة الأرض هنا ما قد تعنيه « وهو الذي جعلكم خلائف في الأرض » (٦ : ١٦٥) وهي خلافة السكن الحيوية بعد الذين ضلوا ، فانها حاصلة

للمضطر في سوءٍ أياً كان ، فالدعوة لها والاستجابة فيها تحصيلة للحاصل ، بل هي الخلافة عن السلطات الجبارة المكدِّرة جو الحياة السليمة الإسلامية ، الخانقة الخانقة جو الإضطرار بسوءها والتقية ، الدافعة إلى سنة الإستتار والخفية .

فالإمام المنتظر المهدي عجل الله تعالى فرجه الشريف هو من أفضل المضطرين في سوء يجيبه الله بدعائه ودعاء المنتظرين قدومه ، آجلاً أم عاجلاً وكما يراه الله ويرضاه ، شرطَ أن يكون دعاءُ المضطرين سواه ، كاملةَ الدعائم ، شاهرة المعالم ، مزودة بالجهاد الدائب ، والصبر الصائب ، اللهم عجل فرجه وسهل مخرجه واجعلنا من اعوانه وانصاره، آمين يا مجيب دعوة المضطرين !

هنا « يجعلكم » تحلّق على كل خلافة أرضية صالحة ، جانبية نسبية غير شاملة كما حصلت أيا مّا أو تحصل على ضوء الدعوات الصالحة والجهادات المتواصلة . أم شاملة محلقة على كافة السلطات الأرضية كما في دولة القائم (عج) المظفرة العالمية فهو ـ إذاً ـ خليفة الله في الأرض كلها ، دون خلافة أخرى فيها إلّا لأصحاب ألويته الذين يديرون أمور السلطة الإسلامية في مشارق الأرض ومغاربها ، فهؤلاء الأكارم مع صاحب الأمر هم أصدق المصاديق للمعنيين بـ« ويجعلكم خلفاء الأرض » جمعاً بين الجعلين التكويني والتشريعي ، وكما سبق في داود وسليمان فلا « المضطر » هنا يختص بالمشركين ! ام فرقة خاصة من المضطرين المسلمين !، ولا أن خلافة الأرض هي الحياة الخلفية لكل قوم عن آخرين ، مهما كان الإمام المنتظر المهدي من آل محمد صلوات الله عليهم اجمعين ، بمن معه من المضطرين الصالحين ، هم أصدق المضطرين الداعين ، واصلح خلفاء الأرض [1] .

(١) نور الثقلين ٤ : ٩٤ عن تفسير القمي عن ابي عبد الله (عليه السلام) قال : نزلت

وهذه الخلافة المرموقة هي التي تشعر المسئولية الهامة لحدٍّ ينتفض منها أوّل الخلفاء وأعد لهم بعد الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) حين يقرء رسول الله « أمّ من يجيب المضطر إذا دعاه .. ويجعلكم خلفاء الأرض » فانتفض علي (عليه السلام) انتفاض العصفور ، فقال له النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) : ما شأنك تجزع ؟ فقال : ومالي لا أجزع والله يقول انه يجعلنا خلفاء الأرض ؟! فقال له النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) : لا تجزع والله لا يحبك إلاّ مؤمن ولا يبغضك إلاّ منافق »[1] .

في القائم من آل محمد عليهم السلام هو والله المضطر إذا صلى في المقام ركعتين ودعا إلى الله عز وجل فاجابه ويكشف السوء ويجعله خليفة في الأرض وفيه حدثني أبي عن ابن ابي عمير عن منصور بن يونس عن ابي خالد الكابلي قال قال ابو جعفر (عليه السلام) : والله لكأني انظر إلى القائم (عليه السلام) وقد اسند ظهره إلى الحجر ثم ينشد الله حقه ـ الى ان قال ـ : هو والله المضطر في كتاب الله في قوله : « امن يجيب المضطر .. » فيكون أوّل من يبايعه جبرئيل (عليه السلام) ثم الثلاثمائة والثلاثة عشر رجلاً فمن كان ابتلي بالمسير وافى ومن لم يبتل بالمسير فقد عن فراشه وهو قول امير المؤمنين (عليه السلام) : هم المفقودون عن فرشهم وذلك قول الله : فاستبقوا الخيرات اينما تكونوا يأت بكم الله جميعاً » قال : الخيرات الولاية .

(١) المصدر ٩٥ عن امالي الطوسي باسناده الى عمران بن الحصين قال : كنت انا وعمر بن الخطاب جالسين عند النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) وعلي جالس إلى جنبه إذ قرء رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) : « امن يجيب ... » ومثله محمد بن عباس عن عمران عنه (صلى الله عليه وآله وسلم) والمفيد في الأمالي عنه وانس بن مالك قال لما نزلت الآيات الخمس في طس « امّن جعل الأرض قراراً الآيات انتفض علي انتفاض العصفور فقال له رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) مالك يا علي ! قال : عجب يا رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) من كفرهم وحلم الله عنهم فمسحه رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) بيده ثم قال : أبشر فانه لا يبغضك مؤمن ولا

هذا ، وأما ما يروى عن رسول الهدي من واجب الطاعة لأية خلافة خيِّرة وشريرة ، يطارده فرض مطاردة السلطة الجائرة ودفع الفساد أياً كان ، ولا سيما الخلافة الفاسدة المفسدة التي تظلم الجو على الشعوب ، فما الرواية إلاّ مختلقة مصلحيةَ الحفاظ على كيان الخلفاء المتخلفين عن شرعة الله ، المستضعِفين عباد الله(١) .

يحبك منافق ولولا انت لم يعرف حزب الله (غاية المرام ٤٠٢) .

اقول : هذه التلحيقة انما طمأنت الامام (عليه السلام) حيث ضمنت عدله في الحكم لحد « لا يبغضك مؤمن ولا يحبك منافق » فان الحاكم غير العادل يبغضه المؤمن ويحبه المنافق .

(١) الدر المنثور ٥ : ١١٣ اخرج الطبراني عن سعد بن جنادة قال قال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) من فارق الجماعة فهو في النار على وجهه لأن الله تعالى يقول : « . . ويجعلكم خلفاء الأرض » فالخلافة من الله عز وجل فان كان خيراً فهو يذهب به وان كان شراً فهو يؤخذ به عليك انت بالطاعة فيما امر الله تعالى به .

اقول : مفارقة الجماعة المؤيدة لخلافة الزور واجبة في شرعة الحق التي تطارد هذه الخلافة ، فمن فارقها نقضاً لهذه الخلافة وتركاً لتأييدها فهو في الجنة ، ومن وافقها وقارفها فهو في النار واما ان الخلافة خيراً وشراً هي من الله ، فمن الناحية التكوينية صحيح ولكنها لا توجب الطاعة وليس شرها تشريعياً من الله حتى يرضاها الله ويأمر بطاعتها ، ثم وماذا يعني « فهو يذهب به إذا كان خيراً ؟ فهل ان الله يذهب بالخلافة الخيرة ويأتي بديلها بالشريرة ؟ ثم ماذا يعني : « وان كان شراً يؤخذ به » فهلاّ يؤخذ بخير الخلافة كما الله يذهب بها ، ثم يؤخذ بشر الخلافة لأن الله يأتي بها ، فما افضحها اختلاقاً في مطاردة الخلافة الحقة الإلٓهية ، وما أقبحها افتراءً على رسول الهدى (صلى الله عليه وآله وسلم) ! وان كان قد يعني « فهو يذهب به » ان خير الخلافة لصاحبه ، و« يؤخذ به » يعني ان شر الخلافة لصاحبه ، فما عليكم إلا الاتباع في كلتا الخلافتين ولكن الخلافة بشرها وخيرها تعم الخليفة والرعية ، فهم مستفيدون من خيرها ويضرهم شرها ، وهو يؤخذون ـ كما

وكيف يُستند إلى آية الخلافة الكاشفة السوء بدعاء المضطرين ، في فرض الطاعة للخلافة الخلاعة السوء ، التي هي سوء على سوء للمضطرين ؟!

كلا ! وإنها دعوة خير استئصالاً لضر وشرٍ وكما يروى عنه (صلى الله عليه وآله وسلم) قوله حين يُسأل يا رسول الله الا مَ ندعو ؟ قال : أدعو لي الله وحده الذي إن نزل بك ضر فدعوته كشف عنك ، والذي إن ضللت بأرض قفر فدعوته رد عليك ، والذي إن أصابك سنة فدعوته أنزل لك » [1] .

وهذه مصاديق متعودة فردية للضر والشر ، ثم اضر منها وأقفر ما المضطرون إلى كشفه عنهم أفقر وهو السلطة الصالحة في خلافة الأرض ، وقمتها العالية المنتظَرة لكافة المستضعفين المؤمنين الخلافة المهدوية العالمية عليه كل سلام وتحية ، فـ«يجعلكم» هنا ليست لتعني فقط الجعل التشريعي دون تكوين ولا التكويني دون تشريع ، لأن كلاًّ دون الآخر لا يُكشف به السوء الجماهيري المترقب من الخلافة الصالحة ، فانما واقع الخلافة الشرعية هو الذي يكشف به ذلك السوء ، وللمخاطبين في « يجعلكم » درجات حسب القابليات والفاعليات ثم و « يجعلكم » هذا هو نتيجة أدعية المضطرين بمن فيهم المستاهل لهذه الخلافة ، دعوات مقرونة بمحاولات صالحة لاجتثاث الخلافة عن الطالحين واختصاصها بالصالحين بمراتبهم ودرجاتها .

فالله هو المجيب المضطَر إذا دعاه ويكشف السوء ، وبالمآل

هو ـ بشرها لماذا استسلموا له دون معارضة ممكنة ؟ .

(١) المصدر اخرج احمد وابو داود والطبراني عن رجل من بلجم قال قلت يا رسول الله إلى مَ . . .

« يجعلكم خلفاء الأرض » دون سواه فـ « الله الذي خلق السماوات والأرض وأنزل لكم من السماء ماءً فأنبتنا به حدائق ذات بهجة . . . الذي جعل الأرض قراراً وجعل خلالها أنهاراً وجعل لها رواسي وجعل بين البحرين حاجزاً . . » هو الذي يجيبكم حال اضطراركم . . » ويجعلكم خلفاء الأرض . . » ففي الخلافة الأخيرة « تُبدَّل الأرض غيرَ الأرض والسماواتُ » حيث الحياة جديدة جادَّة نحو الحق ، وينزل عليكم من سماء الوحي والرحمة غزيرة ناصعة تروي العِطاش ، وينبت حدائق بهيجة في حقول المعرفة الربانية ، لكم فيها من كل الثمرات ، ويجعل الأرض المتأرجفة بمفسديها قراراً بذلك المصلح الكبير ، ويجعل خلالها انهاراً تروّي العالمين من المعرفة برب العالمين ، ويجعل فيها رواسي هي أصحاب الألوية الثلاثة عشر رجلاً من اصحابه الخصوص ، اعضاء الدولة العالمية ، ويجعل بين بحري المالح والعذب حاجزاً فلا خلط ـ إذاً ـ بين الحق والباطل . . . . « أمن يجيب المضطر إذا دعاه ويكشف السوء ويجعلكم خلفاء الأرض ءإله مع الله قليلاً ما تذكرون » ! .

فما دامت السلطات الجائرة مسيطرة على الشعوب فهم مضطرون ، وعليهم الدعاء الدائب بشروطاته الصالحة ليجعل الله لهم بالمآل خلافة الأرض صالحة مصلحة محلّقةً على العالمين اجمعين وكما وعد الله هنا و « العاقبة للمتقين » و « وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الأرض كما استخلف الذين من قبلهم وليمكنن لهم دينهم الذي ارتضى لهم وليبدلنهم من بعد خوفهم امناً يعبدونني لا يشركون بي شيئاً ومن كفر بعد ذلك فاولئك هم الفاسقون » (٢٤ : ٥٥) .

ولعمر إلهي الحق ان المضطر بالحق زمن الغيبة هو الامام المنتظر حيث

يرى المستضعفين تحت أنيار الظلم والضغط من المستكبرين الذين لا يدينون دين الحق .

﴿ أَمَّنْ يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَنْ يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْراً بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ ءَإِلَهٌ مَعَ اللهِ تَعَالَى اللهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾٦٣ .

« أمن يهديكم » هدي الحياة الدنيوية والروحية « في ظلمات البر والبحر » ظاهرية أو باطنية « ومن يرسل الرياح بشراً بين يدي رحمته » روحانية برياح الوحي وسواها بسائر الرياح « ءإله مع الله » يهديكم في أي هدي « تعالى الله عما يشركون » به في حقول الهدى .

وهنا « ظلمات البر والبحر » تعني فيما عنت باطن البر وخِضَمّ البحر غوراً وغوصاً فيها ، و« يهديكم » تشمل كل الوسائل المستقبلة لخوض الأعماق في البر والبحر .

﴿ أَمَّنْ يَبْدَءُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَمَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ ءَإِلَهٌ مَعَ اللهِ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾٦٤ .

استجوابات خمس تتجاوب أخراها وأولاها ، فهناك « أمن خلق . . » وهنا « أمن يبدء الخلق ثم يعيده » ويبدءُ الخلق قد يعم خلق المادة الأولية لا من شيء ، ثم خلق دخان السماء وزبد الأرض ، ثم سائر الخلق ومنه الانسان ، و« ثم يعيده » تخص الإعادة إلى الحالة الأولى فيما سوى الأولى لأنها لا شيء ولا إعادةَ لشيء إلى اللاشيء !

والاعادة إلى البدء عملية مكرورة على طول الخط في الجماد والنبات والحيوان والانسان يوم الدنيا،افيعجز المُبدِءُ عن الإعادة في الأخرى وهي أحرى قضية العدل الحساب ثم الثواب والعقاب ، وليس شيء من الإعادة المعنية هنا وهناك إعادةً للمعدوم حتى تدخل في نطاق تفلسف الإستحالة ،

وانما هي إعادة مواد الإشياء إلى أمثال صورها السابقة البادءة ، ومنها إعادة اجزاء الإنسان إلى مثل ما كان في الصورة ، فالمُعاد في المَعاد ليس بايجاد عن لا شيء ولا اعادة المعدوم ، بل هو ذرات البدن الأصيلة حيث تعاد إلى مثل الصورة الأولى ، وهو الروح حيث يعاد إلى نفس البدن الممثل كالأوّل فاين هنا إعادة المعدوم ؟

« قل هاتوا برهانكم » في هذه الحلقات الخمس ، ابطالاً لما اثبتت « ان كنتم صادقين » في تكذيبكم ، وأنّى لهم برهان ، وأنى لهم أن يعلموا هذه الحقائق المعلومة لدى ذوي العقول ، بل هم في جهالتهم طائشون ، جهلاً عن تقصير ، وهم يطالبون الغيب وأنّى يبعثون !

﴿ قُلْ لَا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللهُ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ﴾[٦٥]

هذه آيات اختصاصه تعالى بعلم الغيب ، بعدما خصت به الآيات السالفة غيب القدرة ، وهل الله هو ممن في السماوات والأرض حتى يستثنى عنهم بعلم الغيب؟ قد يكون الإستثناء متصلاً، والله قدرته النافذة وعلمه النافذة « في السماوات والأرض » دون ذاته لأنه خلقهما و « كان إذ لا كان » ! كما « هو الذي في السماء إلّه وفي الأرض إلّه » اي ألوهيته نافذة فيها ، لا ذاته سبحانه !.

أم هو منفصل تأكيداً لاستئصال علم الغيب عما سوى الله ككل ، والله هو الذي يعلم الغيب ، وطبعاً هو الغيب المطلق الذي ليس لينقلب إلى شهود ، لا مطلق الغيب ومنه ما يعلّمه الله من ارتضاه : « عالم الغيب فلا يظهر على غيبه أحداً إلّا من ارتضى من رسول . . » (٧٢ : ٢٦) .

ونموذجاً بارزاً للغيب المطلق وقت الساعة « وما يشعرون »

كل ما سوى الله عابدين ومعبودين « أيان يبعثون » ، وذلك نفي للعلم عنهم في أدنى مراحله وأغمضها وهو الشعور ، وهو من العلم الذي يستحيل لمن سوى الله وكما يقول الله عن رسول الله « ولو كنت اعلم الغيب لاستكثرت من الخير وما مسني السوء . . » (٧ : ١٨٨) .

وكما سئل علي (عليه السلام) : لقد اعطيت يا أمير المؤمنين (عليه السلام) علم الغيب ؟ فضحك وقال : ليس هو بعلم غيب ، وانما هو تعلم من ذي علم ، وانما علم الغيب علم الساعة وما عدده الله سبحانه بقوله « ان الله عنده علم الساعة وينزل الغيث ويعلم ما في الأرحام وما تدري نفس ماذا تكسب غداً وما تدري نفس بأي ارض تموت إن الله خبير عليم » (٣١ : ٣٤)ـ

فيعلم سبحانه ما في الأرحام من ذكر أو أنثى ، وقبيح أو جميل ، وسخي أو بخيل ، وشقي أو سعيد ، ومن يكون للنار حطباً ، أو في الجنان للنبيين مرافقاً ، فهذا علم الغيب الذي لا يعلمه إلا الله ، وما سوى ذلك ـ يعني به المعدود في آية الساعة ـ فعلم علمه الله نبيَّه (صلى الله عليه وآله وسلم) فعلمنيه ودعا لي أن يعيه صدري وتضطم عليه جوارحي »[1] .

فلقد منح الله الإنسان طاقات يستكشف بها الخبء في السماوات

---

(١) نور الثقلين ٤ : ٩٥ عن نهج البلاغة كلام يؤمي به (عليه السلام) الى وصف الأتراك : كأني اراهم قوماً كأن وجوههم المجان المطرقة يلبسون السرق والديباج ويعتقبون الخيل العتاق ويكون هناك استمرار قتل حتى يمشي المجروح على المقتول ويكون المفلت اقل من المأسور فقال له بعض اصحابه لقد اعطيت يا أمير المؤمنين علم الغيب ؟ فضحك . .

والأرض ، على قدر حاجته روحياً ومادياً ، وانكشاف سرّ الغيب ـ المخصوص علمه بالله ، أو الممكن تعليمه لمن سواه ـ ليس مما يبغيه في مهمة الحياة ، إلاّ الوحي الرسالي الذي يدار به حياته في مدار الحق ، إبعاداً له عن الأخطاء ، وأمّا ان يتطلع إلى كل أسرار الغيب كما الله فمستحيل ذلك على كل من سوى الله حيث يصبح كأنه الله ، أو يتطلع إلى أسرار ليست من هامة الحياة ، مهما امكن تطلعه عليها بتعليم الله ، إذ لا دافع فيه ، وكان فيه ارتفاع الإبتلاء في الحياة أن يعلم كلّ ما في قلب الآخر ، أو كان فيه تعطيل الاستعدادات عن التحرك نحو الكمال .

﴿ بَلِ ادَّارَكَ عِلْمُهُمْ فِي الْآخِرَةِ بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِنْهَا بَلْ هُمْ مِنْهَا عَمُونَ ﴾٦٦

إنهم مبلغهم من العلم في الأولى هو العلم الأعمى ، المنحصر فيها ، المنحسر عن الأخرى : « فاعرض عمن تولى عن ذكرنا ولم يرد إلاّ الحياة الدنيا . ذلك مبلغهم من العلم » (٥٣ : ٣٠) . فشكهم فيها وعماهم منها امتناع للعلم باختيار، فقد صرفوا كل علمهم في الأولى فلم يبق لهم علم بالأخرى « بل ادارك علمهم في الآخرة » تداركاً لما فوّتوه على انفسهم في الأولى ، للأخرى ، ولات حين مناص وقد فات يوم خلاص !

ولأن « ادّارك » هي من باب الإفعلاّل ، مبالغة في التدارك والدرك ، فقد تعني كمال الدرك والتدارك بعد نقص قصوراً وتقصيراً .

وتدارك علمهم، المقصرون فيه أو القاصرون، يشمل علم الساعة حيث يُتدارك عند الساعة بواقعها، فالمؤمن بالساعة يعلمها علم الايمان دون متاها، فيتدارك علمه بها بواقعها ، ثم والعلم بواقع اعمالهم السيئة التي كانوا يرونها حسنة : « لقد كنت في غفلة من هذا فكشفنا عنك غطاءك فبصرك اليوم

حديد » والعلم ان الله هو الحق المبين ، وسائر ما بالامكان ان يعلموه ثم للمؤمن يضم إلى علم اليقين عين اليقين حيث يعاين حقايق الأعمال بعد إيمانه بها .

إذاً فالآخرة هي مجالة العلم ، الميسور لغير الله ، ما قصروا عنه ام قصّروا فيه ، واما السابقون والمقربون فلا تدارك لعلهم إلا مزيد المعرفة الربانية بما قدموه إلى الأخرى ، وما هم فاعلون فيها ، وسائر العلم فهم حاصلون عليه يوم الدنيا كما يروى عن الامام علي (عليه السلام) قوله : « لو كشف الغطاء ما ازددت يقيناً » .

ثم « علمهم » قد تعني علم كل مكلف على قدره حيث يتدارك تتمياً وتطمياً ، إلّا العلم غير الممكن تداركه كالعلم بالله ، و « هم » هنا لا تختص بالكافرين .

وترى كيف « علمهم » وهم يجهلون المبدء والمعاد ، فليختص بالمؤمنين ؟ ولكن يطارده « بل هم في شكٍّ منها بل هم منها عمون » .

«علمهم» في الناكرين هو الفطري والعقلي والعلمي من سواهما، فقد يتجاهلونه فيجهلون ، فيتدارك علمهم المغطى في الآخرة « بل هم في شك منها » هنا في تغافل علمهم « بل هم منها عمون » هنا وهو أنزل من الشك ، فكل ذلك الثالوث يتدارك في الآخرة .

ثم « علمهم » في وجه أشمل يشمل كل علم ناقص قصوراً أو تقصيراً ، ولكن « بل هم . . » ليس اضراباً إلّا عن علم الناكرين .

ثم وليست العمى هنا هي فقد الجارحة المبصرة ، بل هي فقد الجانحة البصيرة ، تعامياً عن الحق المبين ، والذهاب على رِسلٍ صفحاً عن النظر

الموصل إلى اليقين ، إمّا قصداً وتعمداً ، أو تساهلاً وتجاهلاً ، ثم « اداركَ علمهم في الآخرة » إذ « علموا ما جهلوا في الدنيا »[١] .

وكيف « منها عمون » دون « عنها » ؟ حيث القصد شكهم فيها ، والإمتراء في صحتها ، فهم في عمىً منها ، إذ لا يعني ـ فقط ـ عمّاهم عن النظر إليها ، بل القصد ذكر عماهم بالشك فيها :

فقد عموا شاكين عن النظر فيها حتى عموا منها . وهذا إضراب ثالث عن حالتهم الرديئة وجاه الآخرة فهم على علمٍ مّا تجاهلوا فيه : « بل ادّارك علمهم في الآخرة » وعنه إلى شكٍ « بل هم في شكٍّ منها » ومنه إلى نكران « بل هم منها عمون » تنزلاً عن قضية العلم بها إلى نكرانها !

وقد تعني « من » السببية فانّ عماهم عنها ـ دون الأولى ـ مسببةٌ منها ، فانها دار حساب فثواب او عقاب ، وهم يبتغون زهرة الأولى وزهوتها ، والايمان بالآخرة والإبصار اليها يصدهم عما يهوون ، فهم ـ إذاً ـ « منها » فقط ، لا الدنيا « عمون » وهكذا يصف الدنيا مطلّقها الامام امير المؤمنين (عليه السلام) قائلاً : « من ابصر بها بصرته ومن ابصر إليها عمته » !

﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا ءَإِذَا كُنَّا تُرَاباً وَآبَاؤُنَا أَئِنَّا لَمُخْرَجُونَ٦٧ لَقَدْ وُعِدْنَا هَذَا نَحْنُ وَآبَاؤُنَا مِن قَبْلُ إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴾٦٨ .

وكيف يتحول التراب انساناً كما كان ؟ وقد تحول لأوّل مرة « أفعيينا بالخلق الأوّل بل هم في لبس من خلق جديد » (٥٠ : ١٥) « وهو أهون عليه » (٣٠ : ٢٧) بل هم أحون من الحَيوان واضل سبيلاً !

وي كأنهم يحيلون تحوُّل التراب إنساناً للمرة الآخرة ، وهم يرون

---

(١) نور الثقلين ٤ : ٩٦ في تفسير القمي في الآية قال قال . . .

مختلف التحولات الغامضة مدى الحياة ، فمن اين كانت الخلايا التي كوِّنت منها هياكلهم الأولى ، فقد كانت مفرَّقة في أطواء الأرض وأجواء الفضاء وأجواز البحر ، ومنها ما انبعث من جسد رمٍّ . . . ثم تمثلت ما تمثلت هذه الخلايا في مختلف الطعام والشراب والهواء والشعاع ، ثم تجمعت هيكلاً إنسانياً ينمو من بويضة عالقة في رحم حتى يطلع انساناً فإذا هو خصيم مبين : « أولم يرَ الإنسان انا خلقناه من نطفة فإذا هو خصيم مبين » (٣٦ : ٧٧) !

وكيف اصبح الوعد بالبعث من أساطير الأولين وخرافاتهم المودوعة في مسطوراتهم ، المتنقلة فيها بينهم خلفاً عن سلف ، وهو حقيقة تصدقها الفطرة والعقل والحس ، ويفرضها العدل ؟!

﴿ قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ ٦٩ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُنْ فِي ضَيْقٍ مِمَّا يَمْكُرُونَ ﴾ ٧٠ .

وذلك السير المأمور به تنبهة للغافلين يعم السير التاريخي الجغرافي ، والجغرافي التأريخي ، سيراً حثيثاً مسيساً في كتاب التكوين آفاقياً وأنفسياً ، أم تدوينياً، وافضل السير فيه واكمله دونما دجل ولا دَخَل أو دغل نجده في أكمل نسخة تدوينية عن نسخة التكوين وهو القرآن العظيم[1] حيث يسير بنا إلى مسرح الحياة الغابرة للأرض ومن عليها ، تبصرة وذكرى للذاكرين .

وليس السير في القرآن للمشركين حملاً لهم على تقليد دون برهان حيث القرآن هو بنفسه قاطع البرهان على صدقه نفسه وانه كلام الله ، فصدق أنباءه

---

(١) نور الثقلين ٤ : ٩٦ في كتاب الخصال وسئل الصادق (عليه السلام) عن قول الله تعالى : « اولم يسيروا في الأرض » قال : معناه : أولم ينظروا في القرآن ؟ .

الغيبية تصديقاً عن تحقيق ، والكون بكل جنباته حسياً وعقلياً وعلمياً وفطرياً وفكرياً يجاوب نسخته التدوينية : القرآن العظيم .

« قل سيروا . . فانظروا كيف كان عاقبة المجرمين » : القاطعين ثمرات الحياة قبل إيناعها ونضجها ، الجاعلين لطاقاتها ـ وجنى الثمرات غير الناضجة فيها ـ هباءً منثوراً ،فأصبحوا خواءً بالعراء « وهل ترى لهم من باقية » إلاّ باغية دائرة غامرة ، ضامرة هامرة .

وإذا هم لا يرحمون أنفسهم ولا يرعوون ف« لا تحزن عليهم » لماذا أجرموا وفنوا« ولا تكن في ضيق مما يمكرون » إذ « ما يمكرون إلا بأنفسهم وما يشعرون » (٦ : ١٢٣) فلا تضيق ـ إذاً ـ إلاّ أنفسهم بما يمكرون .

وإذا كانت عاقبة الإجرام هنا ـ وليست هي دار الجزاء ـ هكذا ، فباحرى العاقبة الأخرى وهي دار الجزاء الأوفى،فقد تلمح عاقبة العاجل لكونها أحرى واتم في الآجل !

وهنا نلمس حساسية مرهفة لذلك القلب الكبير الكبير كيف كان يحزن على مسير قومه الناكرين ومصيرهم كالسابقين ، وهم الماكرون به والمؤلبون عليه ، ثم الله يُطَمئِنه عن مكرهم ويخلصه عن الحزن عليهم ، ليداوم في دعوته الصالحة دونما فشل ولا عَطَل .

﴿ وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾[٧١] .

وَيكأن صدق الوعد لزامه العلم بمتاه ومداه ، فهل إنّ جهلهم بمتى الولادة والوفاة لأنفسهم يحملهم هذا على نكران الولائد من ذي قبل ووفاتهم لوقتٍ مّا ؟ فكيف اختص التصديق بـ« هذا الوعد » دون سواه ، بموقف العلم بمتاه ، فلولاه فكذبٌ هو من اساطير الأوّلين !

﴿ قُلْ عَسَىٰ أَنْ يَكُونَ رَدِفَ لَكُمْ بَعْضُ الَّذِي تَسْتَعْجِلُونَ[٧٢] وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ ﴾[٧٣] .

وإذا انتم تستعجلون « هذا الوعد » العذاب بكامله ، فـ« قل » لهؤلاء الحماقى الأنكاد « عسى ان يكون ردف لكم » وقرب منكم « بعض » الوعد « الذي تستعجلون » فهو - عساه - في آثاركم لاحقاً بكم دون إمهال ولا إمهال .

وطالما عذاب الناكر لهذا الوعد رِدفُه وهو معه لا يفارقه فانه عمله اللازم معه في عنقه ، ولكنه لا يردف له يوم الدنيا تأجيلاً إلى الآجل في الأخرى .

وعلّ اللام في « لكم » كما تختص ذلك العذاب بهم دون سواهم من المستحقين ، كذلك سخرية بهم كأنه لصالحهم وهم يتطلبون حاضر وعدهم ، فـ« عسى ان يكون ردف لكم » لصالحكم « بعض الذي به تستعجلون » رغم انه عليكم وليس لكم !

فـ« ردفكم » لا يخصهم في واقع العذاب الذي هو معهم ، و« ردف عليكم » لا يحمل ذلك الهزء بهم ، إذاً فـ« ردف لكم . . . » .

« وإن ربك لذو فضل على الناس » حيث لا يستعجل لهم عذابهم في الأولى « ولكن أكثرهم لا يشكرون » ذلك التأجيل ، عقيدياً كما الناكرون ، أو عملياً كما العاصون ، ايغالاً في المعاصي ، وادغالاً في المآسي ! : « يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضراً وما عملت من سوء تود لو ان بينها وبينه إمداً بعيداً » فخيرات كل نفس وشرورها هي ردفها هنا وردف لها هناك ، اللّهم إلاّ « بعض الذي تستعجلون » فقد يردف لهم هنا عذاب الإستئصال كيوم بدر قتلاً لهم ، وسواه صيّباً من السماء أو الأرض ، وهو بعض الذي به يستعجلون ، ثم عذابهم يوم الرجعة إذ يرجع من محضّ الكفر محضاً كمن

محّض الإيمان محضاً ، ثم كامل العذاب يوم البرزخ ، وإلى اكمله في الأخرى ، و « عسى » هي بأحرى للأوّل ، دون الثلاثة الأخرى فانها محتومة .

وكيف « عسى ان يكون . . » والله لا يرتجي شكاً وممن يترجّى ؟ « قل » هنا يحول ترجي « عسى » إلى ساحة الرسالة ، أنه يرجوا رَدْفه لهم هنا بما يتطلبون ويستحقون ، والعلم عند الله ، فالموقف الرسالي في هذه المقالة هو موقف الرجاء ، وليس الله ليترجّى ! .

ثم من واجهة أخرى قد تعني « عسى » هنا تنازلاً أمام المشركين الناكرين الوعد وتحقيقه بحق الكافرين ، حيث الرسول موقن انهم سوف يعذبون بعد الموت ، ولكنه غير موقن بعذاب قبل الموت إلاّ ان يعده ربه .

﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ٧٤ وَمَا مِنْ غَائِبَةٍ فِي السَّمَاءِ وَالأَرْضِ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ ﴾٧٥

علّهم خيل اليهم أن الله لا يعلم ما تكنه صدورهم ، إظهاراً لخلاف المكنون فيها ، فلا يعجل لهم العذاب ردفاً لهم لوعده قبل الأخرة ، إذ لا يعلم أسرارهم ، ولكنه إمهال وإملال عن علم ، فضلاً لمن يتنبّه امتحاناً ، وتأجيلاً لسواه امتهاناً ، وأن الأخرة هي دار الجزاء « وان ربك ليعلم ما تكن صدورهم » فضلاً عما يعلنون « ولا تحسبن الله غافلاً عما يعمل الظالمون انما يؤخرهم ليوم تشخص فيه الأبصار . . » .

وليس فحسب « ليعلم ما تكن صدورهم » أولاء ، بل « وما من غائبة . . إلاّ في كتاب مبين » وهو العلم المكنون لدى الله .

وعلّ « غائبة » هي المبالغة بتائها كالبصيرة والعلامة ، فأغيب الغيب في الكون كله هو « في كتاب مبين » علماً وقدرةً ، فضلاً عن سائر الغيب ، ام

هي صفة لـ« أشياء ـ امور ـ حالات ـ طويات » أما هيه من صالحة لهذه الصفة ، وعلّ المبالغة أولى وهي تشملها بالأولى ، ام لكليهما مبالغة وتأنيثاً .

وقد تعني « مبين » انه تعالى يبين كل غائبة لمن ارتضاه[1] ، إلّا ما اختص الله بعلمه .

إِنَّ هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَقُصُّ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ
أَكْثَرَ ٱلَّذِى هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٧٦﴾ وَإِنَّهُۥ لَهُدًى وَرَحْمَةٌ
لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٧٧﴾ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِى بَيْنَهُم بِحُكْمِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ
ٱلْعَلِيمُ ﴿٧٨﴾ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۖ إِنَّكَ عَلَى ٱلْحَقِّ ٱلْمُبِينِ ﴿٧٩﴾
إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ وَلَا تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا
وَلَّوْا۟ مُدْبِرِينَ ﴿٨٠﴾ وَمَآ أَنتَ بِهَـٰدِى ٱلْعُمْىِ عَن ضَلَـٰلَتِهِمْ ۖ
إِن تُسْمِعُ إِلَّا مَن يُؤْمِنُ بِـَٔايَـٰتِنَا فَهُم مُّسْلِمُونَ ﴿٨١﴾

(١) نور الثقلين ٤ : ٩٦ عن اصول الكافي عن ابي الحسن الأوّل (عليه السلام) انه قال : وقد اورثنا نحن هذا القرآن الذي فيه ما تسير به الجبال وتقطع به البلدان ويه يحيى الموتى ونحن نعرف الماء تحت الهواء وان في الكتاب لآيات ما يراد بها امر إلا أن يأذن الله به ما قد يأذن مما كتبه الماضون جعله الله لنا في ام الكتاب ان الله يقول : وما من غائبة في السماء والأرض إلا في كتاب مبين » ثم قال : « ثم اورثنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا » فنحن الذين اصطفانا الله عز وجل ، وأورثنا هذا الكتاب فيه تبيان كل شيء .

* وَإِذَا وَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَآبَّةً مِّنَ
ٱلْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ ٱلنَّاسَ كَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا لَا يُوقِنُونَ ﴿٨٢﴾
وَيَوْمَ نَحْشُرُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجًا مِّمَّن يُكَذِّبُ بِـَٔايَٰتِنَا
فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿٨٣﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُو قَالَ أَكَذَّبْتُم بِـَٔايَٰتِى
وَلَمْ تُحِيطُواْ بِهَا عِلْمًا أَمَّاذَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٨٤﴾ وَوَقَعَ
ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِم بِمَا ظَلَمُواْ فَهُمْ لَا يَنطِقُونَ ﴿٨٥﴾ أَلَمْ
يَرَوْاْ أَنَّا جَعَلْنَا ٱلَّيْلَ لِيَسْكُنُواْ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا ۚ إِنَّ
فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٨٦﴾ وَيَوْمَ يُنفَخُ
فِى ٱلصُّورِ فَفَزِعَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ
إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ ۚ وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَٰخِرِينَ ﴿٨٧﴾ وَتَرَى
ٱلْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِىَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ ۚ صُنْعَ
ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ ۚ إِنَّهُۥ خَبِيرٌۢ بِمَا تَفْعَلُونَ ﴿٨٨﴾
مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيْرٌ مِّنْهَا وَهُم مِّن فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ
ءَامِنُونَ ﴿٨٩﴾ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَكُبَّتْ وُجُوهُهُمْ

فِي النَّارِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٩٠﴾
إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَٰذِهِ الْبَلْدَةِ الَّذِي حَرَّمَهَا
وَلَهُ كُلُّ شَيْءٍ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿٩١﴾
وَأَنْ أَتْلُوَ الْقُرْآنَ فَمَنِ اهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ
وَمَن ضَلَّ فَقُلْ إِنَّمَا أَنَا مِنَ الْمُنذِرِينَ ﴿٩٢﴾ وَقُلِ
الْحَمْدُ لِلَّهِ سَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ فَتَعْرِفُونَهَا وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ
عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾

﴿ إِنَّ هَٰذَا الْقُرْآنَ يَقُصُّ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَكْثَرَ الَّذِي هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴾٧٦ .

« وما انزلنا عليك الكتاب إلّا لتبين لهم الذي اختلفوا فيه وهدى ورحمة لقوم يؤمنون » (١٦ : ٦٤) .

« ان هذا القرآن » دون سواه من قرائين الوحي السابقة عليه « يقص » قصاً من الأنباء المذكورة في كتب الوحي الإسرائيلية « على بني اسرائيل » وهم المحور الأصيل في شرعتهم مهما كانت تعم كافة المكلفين « اكثر الذي هم فيه يختلفون » وذلك الأكثر هو بطبيعة الحال يحمل أهم الخلافات في أصول الشرعة وفروعها وما تحمل كتاباتها من قصص النبيين وسواهم ، ثم الأقل الذي هم فيه يختلفون قد يلوح من طيات الأكثر .

و « الذي هم فيه يختلفون » يشمل كافة الإختلافات الإسرائيلية التي

تخلّفها اختلاقاتهم وتحريفاتهم كتاباتِ الوحي التوراتي عن جهات أشراعها طول الزمن ما داموا هم موجودين لمكان « يختلفون » الدالة على الإستمرارية في بشارات بحق هذا الرسول الإسماعيلي لأنه ليس من إسرائيل ، وقصص رسالية ، وأحكام كتابية أمّا هيه ، كما هي بينة في سرد القصص القرآنية عن افتعالاتهم في مختلف حقولها .

وذلك القص الساحق هوقضية الهيمنة القرآنية على كتابات الوحي السالفة ، وليدل أهل الكتاب على مدى ضلالهم ، دفعاً لهم إلى الهدى القرآنية الصادقة ، كما :

﴿ وَإِنَّهُ لَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾[٧٧] .

مِنهم ومَن سواهم ممن يقرع آذانهم صارم الوحي القرآني السامي ، « هدى » تقيهم من خلافاتهم العارمة ، توحيداً للنهج وتوصيلاً إلى المبلج ، وذلك الاهتداء بهدي القرآن هو قضية الايمان بقضيته ، والمنهج القرآني هو الوحيد المنقطع النظير في استعادة النفوس عن ورطاتها ، وتركيبها وفق الفطرة الساذجة والعقلية الناضجة دون تكلُّف ولا تخلُّف عن السنن الكونية ، تجاوباً رائعاً بين كتابي التكوين والتدوين .

والمصدران يشيان لمحتد القرآن انه مصدر الهداية والرحمة ، فانه خالصها دون شوب ، وكأن هو الهدى والرحمة ! .

﴿ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ بِحُكْمِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾[٧٨] .

« إن ربك » الذي رباك بهذه التربية القمة القرآنية « يقضي بينهم بحكمه » هنا في القرآن قضاءً صارماً يفصل بينهم بالحق ، وهنا يوم الجزاء قضاء عملياً جزاءً وفاقاً « وهو العزيز » تغلباً على المتخلفين المختلفين « الحكيم » في عزته بقضاءه وحكمه .

ثم وبعد ما أوحي اليك يا رسول الهدى هذا الكتاب المهيمن في هداه دون نقص ولا ركس :

﴿ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ إِنَّكَ عَلَى الْحَقِّ الْمُبِينِ ﴾٧٩ .

إنه ليس التوكل على الله إتكالية دون سعي ، وإنما هو زاد الطريق الشاق الطويل المليء بالأشواك والدماء والأشلاء ، بعد التزود بكل الطاقات والإمكانيات المحوِّلة والمخوَّلة ، فقد خُوِّل إلى الرسول ذلك الحق المبين ، وحول اليه تحقيق هذا الحق المتين ، إذاً « فتوكل على الله » في تحقيق هذه الرسالة الشاقة « انك على الحق » المطلق « المبين » لكل حق وكما يبين « اكثر الذين هم فيه يختلفون » .

وهذه تسلية لخاطر الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) الجريح القريح ، وتأسية على جموع المشركين والكتابيين ولجاجهم وإصرارهم على النكران بعد الجهد الشاق في النصح والبيان ، و :

﴿ إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ الْمَوْتَىٰ وَلَا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَاءَ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ ﴾٨٠ .

« إنك » على محتدك الرسالي « لا تُسمع الموتى » إذ لا سمع لهم ، وترى كيف الموتى لا يسمعون الأحياء وهم في حياة برزخية قد يسمعون أكثر منا وأقوى ، ولا سيما ان المُسمع هو رسول الهدى ؟ إن الموتى ليسوا في حياة التكليف حتى ينفعهم سمعهم هكذا، والمقصود هنا السمع في حياة التكليف لتكاليف الشرعة ، فهؤلاء الموتى عن الروحية الانسانية وسمع الانسان اذناً وقلباً « إنك لا تسمعهم ، حيث الإسماع بحاجة إلى سمع « وانهم عن السمع لمعزولون » وقد يسمع الصُم الدعاء إذا تسمّعوا أم لم يولوا مدبرين ، « ولا تسمع الصم الدعاء إذا ولو مدبرين » كما و « لا تسمع الموتى إذا ولوا

مدبرين » عن الحياة الدنيوية ، إسماعاً ينفعهم هناك .

فظرف السمع للدعاء الرسالي هو القلوب الحية والآذان الصاغية ، للمؤمنين بآيات الله ، دون ميتات القلوب والصم الأسماع هنا ، ودون الأموات حيث لا يُدعون للشرعة :

﴿ وَمَا أَنْتَ بِهَادِي الْعُمْيِ عَنْ ضَلَالَتِهِمْ إِنْ تُسْمِعُ إِلَّا مَنْ يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ مُسْلِمُونَ ﴾[81] .

« وانها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور » (٢٢ : ٤٦) « وما انت بهادي العمى » عن أبصار القلوب « عن ضلالتهم » فلا إسماع للموتى والصمِّ العمي « ان تسمع إلّا من يؤمن بآياتنا » آفاقية وانفسية هي لهم مرئية فهم مبصرون ، ومسموعة فهم سامعون « فهم مسلمون » إسلاماً لله بما يرون ويسمعون ويعقلون من آياتنا .

وقد تكون « الصم والعمى » بياناً للموتى فلا قصور فيك كرسول ، ولا في آياتنا إبصاراً بها وإسماعاً ، وانما القصور التقصير في الموتى والصم الذين لا يسمعون، والعمي الذين لا يبصرون فلا يستجيبون « إنما يستجيب الذين يسمعون والموتى يبعثهم الله ثم إليه يرجعون » (٦ : ٣٦) ، ومن الموتى المستعدون للحياة من يسمع فيحيى : « أوَمن كان ميتاً فاحييناه وجعلنا له نوراً يمشي به في الناس كمن مثله في الظلمات ليست بخارج منها كذلك زين للكافرين ما كانوا يعملون » (٦ : ١٢٢) .

فما دامت آيات الله بينات ، وهناك أموات يتحرون عن الحياة ، وهنا رسول يُسمعهم تلكم الآيات ، فالإسلام لله حاضر دون تلكؤٍ ولا تحميل ، حيث الإسلام هو نداء الفطرة ، ما إن وجدت نداء الحق اقبلت اليها وقبلت ، فليس نكران الموتى عن الحيوية الانسانية ، بالذي يدل على قصور

في تلكم الآيات ام تقصير في إسماعها ، فـ« ان تسمع الا من يؤمن بآياتنا فهم مسلمون » .

وإلى تهديد شديد حديد في الأولى قبل الأخرى يوم القائم المهدي من آل محمد عليهم السلام :

﴿ وإذا وقع القول عليهم أخرجنا لهم دابة من الأرض تكلمهم أن الناس كانوا بآياتنا لا يوقنون ﴾[٨٢] .

هذه والثلاث اللاتي بعدها عرض لعذابهم الأدنى دون العذاب الأكبر وكما وعد الله : « ولنذيقنهم من العذاب الأدنى دون العذاب الأكبر لعلهم يرجعون » (٣٢ : ٢١) ثم الرابعة « ويوم ينفخ في الصور . . » تصريحة اخرى ـ بعد تلميحة من الأربع ـ ان وقوع القول عليهم وحشرهم قبل القيامة الكبرى ، وليس يعني اصل القول في وعد العذاب إذ صدر قبل ، ولا واقع القول في اصل العذاب فان فيه موتهم فكيف تكلمهم دابة من الأرض ، إذاً فهو وقوع أوانه ولمّا يقع حتى يسمعوا قالة الدابة المنذِرة بهم ثم يقع ، وتكلم الدابة المخرجة من الأرض قبل الرجعة هو من اشراطها وكما للساعة اشراط ، وانما تكلمهم الدابة منذرة مهينة اياهم ، فقد انذرهم الرُسُل فعموا وصموا فلم يك ينفعهم تواتر الأنذار ، فلتنذرهم دابة الأرض تناسقاً بين المنذِر والمنذَر وهم شر منها : « ان شر الدواب عند الله الصم البكم الذين لا يعقلون » (٨ : ٢٢) .

« وإذا وقع القول عليهم » هؤلاء الموتى الصم العمى ، لا فقط خصوص الموجودين زمن نزول القرآن ، بل هم كل اولئك الذين يحملون ثالوث النكبات على مدار الزمن طول التاريخ الرسالي ، ومن « القول » هو

كلمة العذاب وكما تأتي بهذه الصيغة في آيات عدة ، أياً كان العذاب في الأولى كما هنا وفي الأخرى كما في سواها ، ومنه سائر القول كوعد الرجعة إلى الحياة الدنيا ليذوقوا فيها عذاباً قبل الأخرى ، وهو المقصود هنا إذ لو كان واقعَ العذاب فلا مستمع منهم لقالة دابة الأرض .

« أخرجنا لهم » أولاء ككل ودون إبقاء « دابةً من الأرض تكلمهم . . . » تكلمهم أولاء الموجودين زمن إخراج الدابة ولمّا يرجع الراجعون يوم الرجعة ، لأنها يوم حشرهم عن بكرتهم في مثلث الزمان ولمّا يأت ، فانه يوم آخر للقول هو يوم واقع العذاب بعد رجوعهم كلهم : « ويوم نحشر من كل امة فوجاً . . » .

فالحَمْلة الأولى لخطاب الانذار التنديد من الدابة هم الأحياء زمن اخراجها ، والموجَّه إليهم ذلك الخطاب ـ وهؤلاء الأولون يحملونه ـ هم كل المكذبين بآيات الله الراجعون يوم الرجعة .

وما هي دابة الأرض هذه التي تكلّمهم بلغة الإنسان ؟ هي « دابة الأرض » أياً كان من الحيوان الدابة ، فليس من ملائكة الله ولا الطير ، ولا من أولياء الله،حيث الدابة ليست تعبيراً لائقاً بهم في أدب القرآن الذين يخاطب أدنى المؤمنين بالذين آمنوا فكيف يعبر عن اكبر أولياء الله بعد الرسول محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) بـ« دابة الأرض » ؟ كما في مختلقات مروية عندنا أنها الإمام امير المؤمنين علي (عليه السلام)[1] !!!

---

(١) نور الثقلين ٤ : ٩٨ في تفسير القمي في الآية حدثني ابي عن ابن ابي عمير عن ابي بصير عن ابي عبد الله (عليه السلام) قال : انتهى رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) إلى امير المؤمنين (عليه السلام) وهو قائم في المسجد قد جمع رملاً ووضع رأسه عليه فحركه برجله ثم قال : قم يا دابة الأرض ، فقال رجل من اصحابه : يا رسول الله

ولا ما تصفها روايات في كتب اخواننا ان طولها ستون ذراعاً ، ذات زغب وريش وحافر ، لها لحية ، رأسها رأس ثور وعينها عين خنزير وأذنها أذن

(صلى الله عليه وآله وسلم) أيسمي بعضنا بعضاً بهذا الاسم ؟ فقال : لا والله ما هو إلاّ له خاصة وهو الدابة الذي ذكره الله في كتابه فقال عز وجل : « وإذا وقع القول . . . » ثم قال : يا علي ! إذا كان آخر الزمان أخرجك الله في أحسن صورة ومعك ميسم تسم به اعداءك . . . ، وفيه قال ابو عبد الله (عليه السلام) قال رجل لعمار بن ياسر يا ابا اليقظان ان آية في كتاب الله افسدت قلبي وشككتني ؟ قال : وأيّة آية هي ؟ قال : قوله عز وجل « وإذا وقع القول . . » فأية دابة هذه ؟ قال عمار : والله ما اجلس ولا آكل ولا أشرب حتى اريكها فجاء عمار مع الرجل إلى أمير المؤمنين (عليه السلام) وهو يأكل تمراً وزبداً فقال : يا ابا اليقظان هلم ، فاقبل عمار وجلس يأكل معه فتعجب الرجل منه فلما قام الرجل قال: سبحان الله انك حلفت ان لا تأكل ولا تشرب ولا تجلس حتى تريني الدابة؟ قال : أريتكها إن كنت تعقل ، وفيه عن المجمع عن العياشي هذه القصة بعينها عن أبي ذر ايضاً وروى محمد بن كعب القرظي قال سئل علي (عليه السلام) عن الدابة ؟ فقال : اما والله مالها ذنب وان لها للحية ، وفي تفسير البرهان ٣ : ٢١٠ محمد بن العباس بسند عن ابي عبد الله الجدلي قال دخلت على علي (عليه السلام) فقال : أنا دابة الأرض ، وفيه عنه بسند عن الأصبغ بن نباتة قال دخلت على أمير المؤمنين (عليه السلام) وهو يأكل خبزاً وخلاً وزيتاً فقلت يا أمير المؤمنين قال الله . . . فما هذه الدابة ؟ قال : هي دابة تأكل خبزاً وخلاً وزيتاً ، وفيه عنه عن الأصبغ بن نباتة قال : قال لي معاوية يا معاشر الشيعة تزعمون ان علياً دابة الأرض ؟ فقلت : نحن نقوله واليهود يقولون ، قال : فأرسل إلى رأس الجالوت فقال له: ويحك تجدون دابة الأرض عندكم مكتوبة؟ فقال: نعم، فقال: ما هي أتدري ما اسمها ؟ قال : نعم اسمها ايليا ، قال : فالتفت الي فقال : ويحك يا إصبغ ما اقرب ايليا من علي ! ، وفيه سعد بن عبد الله عن عبد الله بن يسار قال قال أبو عبد الله (عليه السلام) قال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) : في حديث قدسي يا محمد عليٌ أوّل من اخذ ميثاقه من الأئمة عليهم السلام يا محمد علي آخر من اقبض روحه من الأئمة عليهم السلام وهو الدابة التي تكلم الناس .

فيل وقرنها قرن إبل وعنقها عنق نعامة وصدرها صدر أسد ولونها لون نمر وخاصرتها خاصرة هرٍّ وذنبها ذنب كبش وقوائمها قوائم بعير[1] !!!

فهذه تجمع لهذه الدابة مختلف هيئات لمختلف الدابة ، وتلك تقول انها مجمع فضائل الانسانية القمة ، فهي بين مفرِطة ومفرَّطة ، والنص « دابة من الأرض » لا هكذا إنسان ولا هكذا حيوان ، وبينهما احاديث عن الفريقين عوان نصدق منها ما صادق القرآن[2] .

اقول : هذه مختلقات زور على الله وعلى رسوله (صلى الله عليه وآله وسلم) وعلى علي (عليه السلام) وعلى بعض المعصومين من ذريته . إن علياً (عليه السلام) هو دابة الأرض ، والله والرسول والأئمة منه براء !.

(١) الدر المنثور أخرج ابن ابي حاتم وابن مردويه عن ابي الزبير انه وصف الدابة فقال : رأسها . . .

(٢) الدر المنثور ٥ : ١١٤ ـ اخرج نعيم بن حماد وابن مردويه عن ابن عمر قال قال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) : إذا كان الوعد الذي قال الله : اخرجنا لهم دابة من الأرض تكلمهم . . . فيكون خروجها من الصفا ليلة منى فيصبحون بين رأسها وذنبها لا يدحض داحض ولا يخرج خارج حتى إذا فرغت مما امرها الله فهلك من هلك ونجا من نجى كان اول خطوة تضعها بانطاكية ، وفيه ١١٥ ـ اخرج ابن مردويه عن ابي هريرة ان رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) قال : تخرج الدابة يوم تخرج وهي ذات عصب وريش . . وفيه ١١٦ ـ اخرج ابن جرير عن حذيفة بن اليمان قال ذكر رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) الدابة فقال حذيفة يا رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) من اين تخرج ؟ قال : من اعظم المساجد حرمة على الله بينها عيسى يطوف بالبيت ومعه المسلمون إذ تضطرب الأرض من تحتهم تحرك القنديل وتشق الصفا مما يلي المسعى وتخرج الدابة من الصفا أوّل ما يبدو رأسها ملمعة ذات وبر وريش لن يدركها طالب ولن يفوتها هارب . . .

وفي نور الثقلين ٤ : ٩٧ في كتاب كمال الدين وتمام النقمة باسناده الى النزال بن

وقول القائل تبريراً لكون المعني منها الإمام علي (عليه السلام) - ولا سمح الله -: إنّ الدابة جنس تشمل كل حيوان وإنسان أياً كان ، مردود إليه بان ذكر الجنس الشامل لسائر الحيوان قصداً إلى أفضل انسان ، هو من أسوء التعبير وأشنعه ، بل والتعريف له بمطلق الإنسان أن علياً (عليه السلام) كان انساناً ، وصالح التعريف أياً كان هو التعريف بالفصل الخاص والصفة المتميزة الخاصة كما المؤمن - العادل - الامام - ولي الله أماذا من اخص الفصول القريبة المميزة له عن سواه .

وفي هذا المجال المختلق ضد الامام علي (عليه السلام) قيل له ان ناساً يزعمون انك دابة الأرض ؟ فقال : والله ان لدابة الأرض ريشاً وزغباً

سيارة عن امير المؤمنين (عليه السلام) حديث طويل قال فيه - بعد ان ذكر الدجال - ومن يقتله واين يُقتل ؟ ألا ان بعد ذلك الطامة الكبرى ، قلنا : وما ذلك يا أمير المؤمنين ؟ قال : خروج دابة الأرض من عند الصفا معها خاتم سليمان وعصى موسى عليهما السلام تضع الخاتم على وجه كل مؤمن فينطبع فيه هذا مؤمن حقاً وتضعه على وجه كل كافر فيكتب هذا كافر حقاً حتى ان المؤمن لينادي الويل لك حقاً يا كافر وان الكافر ينادي : طوبى لك يا مؤمن وددت اني كنت مثلك فافوز فوزاً عظيماً ، ترفع الدابة رأسها من بين الخافقين باذن الله جل جلاله وذلك بعد طلوع الشمس من مغربها فعند ذلك ترفع التوبة فلا تقبل توبة ولا عمل يرفع « ولا ينفع نفساً ايمانها لم تكن آمنت من قبل أو كسبت في ايمانها خيراً » ثم قال : لا تسألوني عما يكون بعد هذا فانه عهد إليّ حبيبي رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) الآ أخبر به غير عترتي .

اقول : من جملة ما يرد على هذه الرواية - اضافة الى قصة من هو الدابة - خروجها بعد الدجال ، والدجال يكون في زمن المهدي وبعد الرجعة وخروج الدابة هو قبلها فانه من اشراطها !.

ومالي ريش ولا زغب وان لها لحافراً ومالي من حافر »[1] وهنا اصبحت رواية إخواننا السنّة بحق الإمام (عليه السلام) أرحم من رواية اصحابنا الشيعة ! وهنا ندرك أبعاد الشكيمة اللئيمة على الإمام (عليه السلام) بلسان أشياعه المجاهيل دفعاً لهم اليها من أعاديه ، فهم أولاء الحماقى يذيعون عليه (عليه السلام) هذه الواصفة النكدة وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعاً ، رغم انهم من الأخسرين اعمالاً !

ولماذا يفسَّر « دابة من الأرض تكلمهم » بعلي (عليه السلام) ؟ ألأن تكلم الدابة خارقة ربانية فلتكن له (عليه السلام) ؟ وليس تكلم الإمام بخارقة ، بل الخارقة هي تكلم الدابة ؟

ومن المظنون ان دابة ناصبة معاندة للإمام استغفل دابة ممن يدعي انه من أشياع الإمام فحملته على ذلك التأويل العليل ، إذ خيِّل إليه انه غنيمة من التأويل حيث يختص الإمام بهذه الكرامة الغالية ! وليس تكلم الإنسان كرامة لأي إنسان فضلاً عن الإمام !

فما حديث دابة الأرض تفسيراً لها بالإمام إلاّ تلقيناً لعينا من دابة ناصبة إلى دابة راسبة في شعورها تدعى أنها من الشيعة ، مهما تظافر نقله في كتابات شيعية والامام علي (عليه السلام) براءٌ من هكذا هتك وفرية .

وانها حسب الآية وروايات من الفريقين حيوان وليس أي إنسان ، « دابة من الأرض تكلمهم » هؤلاء الكفرة الأنكاد : « ان الناس » : وهم هؤلاء وأضرابهم « كانوا بآياتنا لا يوقنون » .

اخراج دابة من الأرض تكلمهم هو من اشراط الساعة وليس فيها

---

(١) الدر المنثور ٥ : ١١٧ ـ اخرج ابن ابي حاتم عن النزال بن سبرة قال قيل لعلي بن ابي طالب . . .

كانوا بآياتنا لا يوقنون ؟ والعبارة الصالحة له « انهم كانوا » لأنهم هنا الناس !

علّهم هم الحاضرون في ذلك المسرح ، و « الناس » هم كل الكافرين على مدار الزمن الرسالي ، فهي - إذاً - تكلمهم هؤلاء الحضور ، « أن الناس » وهو يعمهم وكل اضرابهم ولمّا يُحشروا « كانوا » على طول الخط الرسالي « بآياتنا لا يوقنون » وهم المحشورون ككل بعد يوم الدابة « ويوم نحشر من كل فرقة . . » . فقد تكون هذه الدابة إذاعة معلنة للذين كانوا بآياتنا لا يوقنون قبل حشرهم ، ولكي يُعرَفوا في مسرح الحشر أمام انفسهم والذين هم كانوا بآياتنا يوقنون .

وترى ما هو كلامها ؟ هل هو كلْمها ووسْمها إيّاهم دون تكلم بلفظة ؟ وهذا كَلْمٌ وذلك تكليم ، والنص يرفض رواية الكلم مهما كثرت رواته ، ويرجِّح روايات التكليم مهما قلت رواته[1] ورواية الكلم تكلِم

---

(١) في الدر المنثور يروي الرواية الأولى عن رسول الله (صلى الله عليه عن ابن عمران : ليس ذلك حديثاً ولا كلماً ولكنه سمة تسم من امرها الله به ، وعن ابي هريرة عنه (صلى الله عليه وآله وسلم) . . فتنقط في وجه المؤمن نقطة بيضاء فيبيض وجهه وتنقط في وجه الكافر نقطة سوداء فيسود وجهه ، وعن حذيفة بن يمان عنه (صلى الله عليه وآله وسلم) تسم الناس مؤمن وكافر . . وعن ابي هريرة عنه (صلى الله عليه وآله وسلم) فتجلو وجه المؤمن بالخاتم وتخطم أنف الكافر بالعصا .

وفيه يروي الرواية الثانية عن ابن عباس عن رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) تخرج دابة الأرض . . وتنادي باعلى صوتها ان الناس كانوا بآياتنا لا يوقنون . . وعن ابي هريرة قال قال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) تخرج منه الدابة فتصرخ ثلاث صرخات فيسمعها من بين الخافقين ، وفي نور الثقلين ٤ : ٩٨ عن تفسير القمي حدثني ابي عن ابن ابي عمير عن ابي بصير عن ابي عبد الله (عليه السلام) : . . . فقال رجل له (عليه السلام) ان العامة يقولون ان هذه الآية انما تكلمهم ؟ فقال : كلمهم الله في نار جهنم انما هو تكلمهم من الكلام ، وفيه جوامع الجامع عن الباقر (عليه السلام):

القرآن كَلَّمَ الله راويها ومختلقها خلاف نص القرآن !.

والمكذبون هنا قد تعنيهم آية الأنبياء فيمن تعنيهم «وحرام على قرية اهلكناها انهم لا يرجعون . حتى إذا فتحت يأجوج ومأجوج وهم من كل حدب ينسلون . واقترب الوعد الحق فإذا هي شاخصة ابصار الذين ظلموا ... » (٢١ : ٩٧) .

﴿ وَيَوْمَ نَحْشُرُ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجاً مِّمَّنْ يُكَذِّبُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ يُوزَعُونَ٨٣ حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوا قَالَ أَكَذَّبْتُم بِآيَاتِي وَلَمْ تُحِيطُوا بِهَا عِلْماً أَمَّاذَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ٨٤ وَوَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِم بِمَا ظَلَمُوا فَهُمْ لَا يَنطِقُونَ ﴾٨٥ .

«كل امة» تعني كل الأمم الرسالية الموجهة اليهم الرسالات الخمس الإلهية ، وهذا الحشر لا يعمهم هنا كلهم ، وانما «من كل امة فوجاً ممن يكذب بآياتنا» فـ«من» الأولى للتبعيض ، والثانية للتبيين ، إذاً فكل المكذبين بآياتنا من كل أمة يحشرون في ذلك اليوم .

وكما «كل امة» تعني الأمم الخمس بكل انبيائها ورسلها ، كذلك «آياتنا» تعني كل الرسل اصولاً وفروعاً ، بآياتهم الرسالية معجزات وكتابات ، فـ«آياتنا» إذاً هي مثلث الآيات رسولياً ورسالياً .

والحشر هو الجمع ، إنْ أحياءً فأحياءٌ وإنْ أمواتاً فامواتٌ ، وهنا الجمع بينهما فإنهم المكذَّبون ـ ككل ـ من كل امة ، من الأحياء الحضور في ذلك اليوم والأموات قبله .

فهل إن ذلك اليوم بعدُ هو القيامة الكبرى ، حشراً خاصاً لخصُوص العذاب وكما في نظيرتها : «ويوم يحشر أعداء الله إلى النار فهم يوزعون حتى إذا ما جاءوها شهد عليهم سمعهم وأبصارهم وجلودهم بما كانوا يعملون»

كلم الله من قرأ يكْلِمهم ولكن تكلُّمه بالتشديد .

(٤١ : ٢٠) ؟

وهذه في الحشر إلى النار قطعاً هو خاص بأعداء الله بعد الحشر العام ليوم القيام ، وتلك حشر للإستجواب وهو يعم كل المحشورين مؤمنين وكافرين ، اللهم إلاّ السابقين وأصحاب اليمين « كل نفس بما كسبت رهينة . إلا اصحاب اليمين » (٧٤ : ٣٩) !

ذلك حشر خاص في يوم خاص لحياة التكليف ، فقد جاء بعد شرط من اشراط الساعة وهو خروج الدابة ، وقبل الساعة نفسها : « ويوم ينفخ في الصور . . » وهو خاص بـ« من يكذب بـآياتنا » وهو من محض الكفر محضاً وكما آية النور والوعد في الزبور[١] تختصان الحشر بمن محض الايمان محضاً ، فالمستفيضة المروية عن ائمتنا عليهم السلام « لا يرجع إلاّ من محض الايمان محضاً ومن محض الكفر محضاً »[٢] مستفيضة من هذه الثلاث الدالة على الحشر الخاص .

فكما الذين آمنوا وعملوا الصالحات في النور ، وعبادي الصالحون في وعد الزبور محلّقان على كافة المؤمنين الصالحين لوراثة الأرض ، فهم محشورون لها في مستقبل منير ، كذلك « من يكذب بآياتنا فهم يوزعون »

---

(١) آية النورهي « وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الأرض كمااستخلف الذين من قبلهم . . » والثانية « ولقد كتبنا في الزبور من بعد الذكر ان الأرض يرثها عبادي الصالحون » .

(٢) نور الثقلين ٤ : ١٠٠ عن تفسير القمي حدثني ابي عن ابن ابي عمير عن حماد عن ابي عبد الله (عليه السلام) قال : ما يقول الناس في هذه الآية « يوم نحشر من كل امة فوجاً » ؟ قلت يقولون انها في القيامة ؟ قال : ليس كما يقولون ، انها في الرجعة ، أيحشر الله في القيامة من كلٍ فوجاً ويدع الباقين ؟ انما آية القيامة « وحشرناهم فلم نغادر منهم احداً » .

منعاً عن التفرق في موقف حشرهم ، فريقان متفارقان يحشران قبل « يوم ينفخ في الصور ففزع من في السماوات ومن في الأرض إلاّ من شاء الله وكل أتوه داخلين » (٨٧) لا فحسب « من يكذب بآياتنا » ولا فحسب المؤمنون الصالحون ، بل « وحشرناهم فلم نغادر منهم احداً » (١٨ : ٤٧)(١) .

فقد يرجعون لمّا يدعون ويستجابون ، وروايات الرجعة - ككل - هي فوق حد التواتر ، وهي معنوياً اجمالياً تدل على رجعة اموات قبل القيامة الكبرى(٢) .

---

(١) المصدر عن تفسير القمي حدثني ابي عن ابن ابي عمير عن المفضل عن ابي عبد الله (عليه السلام) في الآية قال : ليس احد من المؤمنين قتل إلا ويرجع حتى يموت ولا يرجع إلاّ . . . وفي البحار ٥٣ : ٣٩ عن ابي عبد الله (عليه السلام) . . وان الرجعة ليست بعامة وهي خاصة لا يرجع إلا من محض الايمان محضاً أو محض الشرك محضاً فهم يرجعون » .

(٢) اليكم اسماء البعض من رواة الرجعة عن المعصومين عليهم السلام :

بريد الأسلمي عن الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) وكافة الأئمة الاثنى عشر - عباية الأسدي - مسعدة - الثمالي عن علي امير المؤمنين (عليه السلام) . ابو خالد الكاهلي عن علي بن الحسين عليهما السلام - بكير بن اعين - ابو بصير - جابر بن يزيد الجعفي - ابن المغيرة - حمران - داود بن راشد - عاصم بن حميد - صالح بن ميثم - ابو حمزة الثمالي - ابن عيسى - عامر بن معقل - محمد بن مسلم - عبد الله بن عطا - سدير - زرارة - أبو الصباح - عبد الرحيم القصير عن الامام الباقر (عليه السلام) .

حمران بن أعين - ابو الخطاب - زرارة - محمد بن مسلم - محمد بن الطيار - ابن بكير - فيض بن أبي شيبة - عبد الكريم بن عمرو الخثعمي - سليمان الديلمي عن ابيه - معلي بن خنيس - ابن مسكان - معاوية بن عمار - موسى الحناط - زيد الشحام - جميل بن دراج - سالم بن المستنير - صالح بن سهل - مفضل بن عمر - صفوان بن مهران - عبد الله بن القسم - عمار بن مروان - احمد بن عقبة عن الامام الصادق (عليه السلام) .

القسم - محمد بن عبد الله الحسيني عن الامام الكاظم (عليه السلام) .

موسى بن عبد الله الخثعمي عن الامام علي النقي (عليه السلام) .

« حتى إذا جاءوا » الى حشر الرجعة الموزعة أحياءً وأمواتاً « قال » الله لهؤلاء المحشورين « أكذبتم بآياتي » والحال انكم « لم تحيطوا بها علماً » تكذيباً جاهلاً قاحلاً عن تقصير « امّاذا » من اعمال في مسرح الآيات « كنتم تعملون » ثم بعدئذٍ :

« ووقع القول عليهم » عن بكرتهم بأسرهم « بما ظلموا » من ذي قبل « فهم لا ينطقون » إذ اصبحوا سكوتاً بعد وقوع القول عليهم خامدين ، وكما كانوا سكوتاً حين وقوع القول إذ لا يؤذن لهم في كلام ، لا اعتذاراً ولا اعتراضاً !، وكما يوم القيامة « هذا يوم لا ينطقون » (٧٧ : ٣٩) وقد تتعلق بـ« بما ظلموا » بـ« فهم لا ينطقون » كما يتعلق بـ« فوقع القول عليهم » - « فهم لا ينطقون » بما وقع القول عليهم وبما ظلموا . .

فلقد نطقت الدابة بما ظلموا « فهم لا ينطقون بما ظلموا » فهم ساكتون واجمون ، من وطأة الموقف الرهيب ، والعذاب العسيب،والله من ورائهم رقيب،فكيف ينطقون ؟! ثم وبطبيعة الحال ليس لسئوال التهكم التأنيب « أكذبتم . . . » جواب إلاّ « فهم لا ينطقون » .

ولقد صرحت كتابات من العهدين بهذه الرجعة وراجعيها في الدولة المظفرة المهدوية عليه آلاف سلام وتحية وكما في دانيال ١٢ : ١ - ١٦ « وفي ذلك الزمان يقوم ميكائيل الرئيس العظيم القائم لبني شعبك ويكون وقت ضيق لم يكن منذ كانت امة إلى ذلك الزمان[1] ، وفي ذلك الزمان ينجو شعبك

أبو القاسم بن العلاء عن الامام الحسن بن علي العسكري (عليه السلام) .
الحسين بن روح عن الامام محمد بن الحسن المهدي (عج) .

هذا شطر ممن روى حديث الرجعة من اصحابنا الإمامية ، وكذلك الروات من اخواننا السنّة كثير وأقل التقدير في رواة الرجعة من اصحابنا قرابة ٦٠٠ شخصاً (المصدر البحار ج ١٣ القديم) .

كل من يوجد مكتوباً في الكتاب[٢] وكثيرون من الراقدين في تراب الأرض يستيقظون بعضهم للحياة الأبدية وبعضهم للعار والرذل الأبدي[٣] . . . سمعت ولم أفهم فقلت يا سيدي ما آخر هذه[٩] فقال اذهب يا دانيال فان الأقوال مغلقة ومختومة إلى وقت الانقضاء[١٠] إن كثيرين يتنعمون ويتبيضون ويُمَحَّصُون والمنافقون ينافقون ولا أحد من المنافقين يفهم اما العقلاء فيفهمون[١٢] طوبى لمن ينتظر ويبلغ إلى الف وثلاثمائة وخمسة وثلاثين يوماً[١٣] وانت اذهب إلى الانقضاء وستستريح وتقوم في قرعتك إلى انقضاء الأيام »[١٤] !.

وقد يرجو زرد شت ان يكون ممن يحيي حياةً جديدة في ذلك الزمان كما في « كاتها ـ يسناها ٣٠ : ٩» ترجمةٌ حرفية عن الأصل الأوستائي البهلوي : « فحينئذٍ أي مزدا! يقيم بَهمن مُلكك في خاتمة الأيام لهؤلاء الذين يستبدلون الصدق بالكذب[٨] ونرجو ان نكون ممن يحيى حياةً جديدة اي مزدا ! . . . »[٩] . . اجل وفي ذلك الزمان ينكسر عالم الكذب بفلاح الصدق وكذلك في عالم الخير (القيامة) . . »[١٠].

« بهمن » هنا حسب اللغة الأوستائية هو الممثل العظيم للقدرة والمعرفة الربانية ، فهو زعيم الدولة[(١)] الأخيرة الامام المهدي عليه آلاف سلام وتحية !.

وقد يؤمر داود (عليه السلام) بعد آيات من الزبور بتبشيره بما بشرت آية الأنبياء : « ولقد كتبنا في الزبور من بعد الذكر ان الأرض يرثها عبادي الصالحون » يؤمر في ختامها : « انتظر الرب واحفظ طريقه فيرفعك لترث الأرض . عند استئصال المنافقين تنظر » (مزمور ٣٧ : ١٣٤)فهو من الراجعين

---

(١) يراجع للتفصيل إلى كتابنا « رسول الاسلام في الكتب السماوية » ٢١١ ـ ٢١٤ .

في رجعة اخص الخاص .

والرجعة ايام المهدي (عج) تحلق على اخص الخواص وهم المرسلون والأئمة المعصومون ، ثم الخواص وهم من محض الايمان محضاً ـ احتراماً ـ ومن محض الكفر محضاً ـ اختراماً ـ وهما رجعة بالاستعداد ، وثالثة هي الرجعة بالإستدعاء للمتوسطين في الإيمان .

وهنا نقلة من مشهد واقع القول على المكذبين الحائرين المائرين في حشر الرجعة ، إلى مشهدهم قبل حشرهم :

﴿ أَلَمْ يَرَوا أَنَّا جَعَلْنَا اللَّيْلَ لِيَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِراً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾[٨٦] .

فهذان المشهدان المتواتران طول الحياة حقيقان خليقان لإيقاظ الإنسان ان هناك يد الرحيم الرحمان تقلب الليل والنهار « فبأي آلاء ربكما تكذبان » ؟ .

« قل أرأيتم إن جعل الله عليكم الليل سرمداً إلى يوم القيامة مَن إله غير الله يأتيكم بضياء أفلا تسمعون . قل أرأيتم إن جعل الله عليكم الليل سرمداً إلى يوم القيامة من إله غير الله يأتيكم بليل تسكنون فيه افلا تبصرون . ومن رحمته جعل لكم الليل والنهار لتسكنوا فيه ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون » (٢٨ : ٧٣) .

ففي سكن الليل وإبصار النهار « لآيات لقوم يؤمنون » من عدة جهات ، منها الرحمة المتعالية باختلاف الليل والنهار ، والتدليل على أن وراءهما قدرة عالمة قاصدة ، لا ذات نسق واحد لمكان اختلاف الخلق ، ولا فوضى الشتات حيث الحكمة فيه باهرة ، كما ومنها إمكانية الحياة بعد الموت ، كما يقظة النهار حياة نسبية بعد نومة الليل .

﴿ وَيَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّورِ فَفَزِعَ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَن شَاءَ اللَّهُ وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَاخِرِينَ ﴾ ٨٧ .

الصور هو الناقور حيث ينفخ فيه مرة للاماتة واخرى للإحياء ، وليس جمع الصورة لمكان ضميره المفرد في آية الزمر : « ثم نفخ فيه اخرى » .

وتراها هنا الأولى ؟ « وكل أتوه داخرين » لا تلائمها ! أم هي الثانية ؟ وقد لا تناسبها « وترى الجبال تحسبها جامدة وهي تمر مرّ السحاب » ! وكذلك « فزع من في السماوات والأرض » الظاهرة في حياتهم دنيوياً أو برزخياً ، ثم في الأولى الصعقة وليست فقط الفزعة : « ونفخ في الصور فصعق من في السماوات ومن في الأرض إلاّ من شاء الله ثم نفخ فيه اخرى فإذا هم قيام ينظرون » (٣٩ : ٦٨) .

قد تعني النفخة هنا المرتين لمكان الإشارتين ، فالفزعة في الأولى تشملها والصعقة والموتة،وفي الثانية فزعة الإحياء لأنها بعد فزعة الموت،ثم الفزعة يوم القيامة شاملة حيث يحشرون إلاّ « من جاء بالحسنة فله خير منها وهم من فزع يومئذٍ آمنون » (٨٩) .

فـ« إلاّ من شاء الله » في الصعقة للنفخة الأولى ، هم اخص « ممن شاء الله » في الفزعة للنفخة الثانية ، فالسابقون والمقربون أو وجمع من اصحاب اليمين لا يصعقون في الأولى لا موتاً عن الحياة البرزخية ولا دون الموت من صعقة ، وكما لا يفزعون ، والباقون يصعقون موتاً ام دونه ، ثم وفي الثانية يفزع المحشورون إلاّ من جاء بالحسنة وهم اعم منهم بكثير حيث تشمل كل الصالحين على درجاتهم « وهم من فزع يومئذٍ آمنون » .

ثم في الثانية « وكل اتوه داخرين » صاغرين ، مهما اختلف صغار الآمنين عن غير الآمنين ، فالآمنون صاغرون هناك كما هنا أمام العظمة الربانية بذلّ العبودية وصغارها امام المعبود ، وغيرهم صاغرون أذلاّء مهتكون

بذل الاستكبار عن عبادته : « إن الذين يستكبرون عن عبادتي سيدخلون جهنم داخرين » (٤٠ : ٦٠) واين داخرين من داخرين ؟ .

و« اتوه » هنا تعني الرجوع إلى الله دون أن يملكوا لأنفسهم نفعاً ولا ضراً إلّا ما شاء الله حسب الأعمال صالحةً وطالحةً « ففريق في الجنة وفريق في السعير »(١) .

﴿ وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ صُنْعَ اللهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ إِنَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَفْعَلُونَ ﴾٨٨ .

الرؤية قد تكون بصرية مجردة، ام ببصيرة حاصلة أم محصلة علمية، أم ببصيرة الوحي، اترى « وترى » هنا تعني الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) ام وكل راءٍ سواه ؟ إنها تعني الرسول كمخاطب أوّل بوحي القرآن ، ثم سائر المكلفين بما يحمله الرسول إليهم ، اللّهم إلّا بقرينة قاطعة تخص الخطاب به وليست هنا فليس .

ثم وحقل الرؤية من أيٍّ كان هل هو يوم الدنيا تدليلاً على حركة الأرض غير المرئية بدائية بالبصر ، والوحي يُرِي أنها « تمرّ مر السحاب » كما العلم أرى في العصور المتاخرة عن وحي القرآن زاوية من مرِّها .

فكل راءٍ إلى الجبال كقواعد للأرض يحسبها بقواعدها جامدة لا حراك لها « وهي تمر مرّ السحاب » خارجاً عن الإحساس ، والرسول هنا كسائر الناس إلّا أن يوحى إليه بما يتجاوز الإحساس ، وقد اوحي إليه « وهي تمر » وما أجمله تعبيراً وأمثله مثالاً حيث السحاب المارة لا ترى بداية الرؤية أنها تمر ، إلّا بعد

---

(١) راجع آية الزمر تجد على ضوءها فصل القول حول النفخة والصعقة .

رجوع البصر وقياس بعضها إلى بعض، فهي متحركة يحسب انها جامدة كما كانت الأرض محسوبة على جمود ، ومن حراك الجبال ان قسماً منها تتنقل من قواعدها إلى اخرى خلال ردح بعيد من الزمن كما كشف عنها علم معرفة الأرض .

وقد يقرب عناية الحركة الأرضية من الآية « صنع الله الذي اتقن كل شيء » فمرور الجبال مرّ السحاب من الصنع المتقن للأرض في حركاتها المعتدلة المتعدِّلة .

أم تعني الرؤية يوم قيامة الإماتة : « وسيرت الجبال فكانت سراباً » إذ حُفَّت الآية بآيات القيامة ؟ وترى كيف يراها الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) ـ فيمن يرى ـ جامدة ، وكل ناظر يرى حراكها ؟

قد يحسبها حينذاك جامدة لأن حراكها لا تزعجه فإنه ممن شاء الله فلا ينصعق بالصعقة ولا ينفزع بالفزعة ، مشغولاً بنفسه في ضيافة ربه ، ام ان « ترى » هنا تختص بغيره حيث « ترى الناس سكارى وما هم بسكارى ولكن عذاب الله شديد » (٢٢ : ٢) فلا يشعرون حركات الجبال المسيَّرة يوم القيامة لأنهم في شغل عنها إلى ما هو أفزع منها كزلزال الأرض .

اترى كيف تناسبها القيامة وهي يوم التدمير ، وتلك « صنع الله الذي اتقن كل شيء » ؟ إن التدمير كما التعمير من الله إتقان من صنع الله ، لا سيما وان بعده تعمير الدار الآخرة ، فليس التدمير منه خلاف صنعه المتقن .

وقد تجمع الرؤيةُ النشأتين ، في الأولى وفي الأخرى ايا كان الرائي ، ولكلٍّ كما يناسبه ، فالأرض هي راجفة على طول الخط ، قبل ذِلّها وبعده ، في قيامة الإماتة والإحياء و« هو الذي جعل لكم الأرض ذلولاً » (٦٧ : ١٥) تدل على حركتها المضطربة قبل ذِلّها ، ثم المعتدلة بذِلّها : « وعدَّل حركاتها

بالراسيات من جلاميدها . . فسكنت على حركتها من ان تميد باهلها أو ان تسيخ بجملها . . » .

ثم و « يوم ترجف الراجفة . تتبعها الرادفة » تثبت لها ـ على ضوء آية الذلول ـ أربع رجفات أولاها رجفة شماشها قبل ذِلّها ، والثانية رجفة ذِلُها بعد شماسها وهي بهما سميت « الراجفة » ، ثم و « يوم ترجف » هي الرجفة الثالثة : الإماتة ، و « الرادفة » هي الرابعة : رجفة الإحياء ، فقد تمت لها اربع رجفات اثنتان في الأولى والأخريان في الأخرى ، وآية الرؤية قد تعني مرّ الأرض مر السحاب في النشاتين ، وكل ذلك « صنع الله الذي اتقن كل شيء » .

وقد تعني « جامدة » فيما عنت الوقوف عن كل حركة داخلية وخارجية « وهي تمر مر السحاب » مراً داخلياً وآخر خارجياً ، فالحركة الداخلية تعني الجوهرية الشاملة كل شيء ، حيث الوقوف عن مطلق الحراك في اي كائن هو وقوف له عن كونه ، لا فحسب عن كيانه الحركي .

ام وتعني تتابع الإيجاد لكلٍّ كائن ، وهو تجدد الأمثال بنحو الاتصال ، حيث يراه الرائي استمراراً للكون الأوّل ، كالشعلة الجوالة التي تخيّل انها دائرة نارية وليست هيه .

فالأشياء ـ وقد مثل بالجبال لظهورها لكل راءٍ ـ كلها متجددة الأمثال في كونها وكيانها ، ام ـ وباحرى ـ هي متجددة الحراك في أخذ الكون والكيان من الرب المنان ، فـ« كل يوم هو في شان . فبأي آلاء ربكما تكذبان » ؟

وذلك كل آن كأصغر أبعاد الزمان ، هو تبارك وتعالى في شأن من إبقاء ما أحدث ، وإحداث ما لم يحدُث ، حركة دائبة في الخلق والتدبير دونما غفلة ولا فتور !

فقد تعني الآية كل هذه المعاني ما صلحت لفظياً ومعنوياً تحليقاً على النشأتين!

﴿ مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِنْهَا وَهُمْ مِنْ فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ آمِنُونَ ﴾ ٨٩ .

« الحسنة » هنا هي الحياة الحسنة[1] وكما تستدعيها قضية الايمان : « ربنا آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب النار » وخير الحسنات في الحياة ولاية الله وعلى ضوءها ولاية أولياء الله ، ولأن ولاية علي (عليه السلام) هي خاتمة الولايات فقد تفسر الحسنة انها ولاية علي[3] كمصداق مختلف فيه يصدِّق حق الولاية لله والرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) و « خير منها » هو الصورة الوضاءة من الولاية - كيفما كانت - في الأخرى ، فانها تبرز بحقها وحقيقتها ما لم تكن تبرز يوم الدنيا .

فمن جاء ربه بالحياة الحسنة وهي الإيمانية الصالحة « فله خير منها » حياةً حسنة حيث ان « الأخرة خير لك من الأولى » - « وهم من فزعٍ » يعم اهل الحشر ويطم « يومئذ آمنون » - « لا يحزنهم الفزع الأكبر وتتلقاهم

---

(١) نور الثقلين ٤ : ١٠٣ معاني الأخبار عن ابي ايوب الخزاز قال سمعت ابا عبد الله (عليه السلام) يقول: لما نزلت هذه الآية على النبي (صلى الله عليه واله وسلم) «من جاء بالحسنة فله خير منها » قال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) اللهم زدني فانزل الله عز وجل « من ذا الذي يقرض الله قرضاً حسناً . . » فعلم رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) ان الكثير من الله لا يحصى وليس له منتهى .

(٢) نور الثقلين ٤ : ١٠٣ في كتاب سعد السعود لابن طاوس وقد نقل عن الفرار في قوله « من جاء بالحسنة » لا إله إلاّ الله - والسيئة الشرك اقول ، تعني الحياة التوحيدية والشركة وهما الحياة الحسنة والسيئة .

(٣) نور الثقلين ٤ : ١٠٢ في تفسير القمي عن ابي جعفر (عليه السلام) فالحسنة والله ولاية علي (عليه السلام) .

نفسها ، فانها بعد هنيئة « ويوم ينفخ في الصور . . » وما أنسب هؤلاء الدواب الذين لا يوقنون ان تُكلمهم دابة من الأرض في حشر خاص : « ويوم نحشر من كل أمة فوجاً ممن يكذب بآياتنا . . » و« إن شر الدواب عند الله الصم البكم الذين لا يؤمنون » .

فتكلم الدابة معهم وهم شر الدواب يناسب كيانهم المنكوس المركوس كما يناسب جو السورة في حوار بين النملة والهدهد وسليمان ، تناسقاً ذا بعدين يحمل شرطاً من أشراط الساعة وكما يروى عن رسول الساعة (صلى الله عليه وآله وسلم) : « إن بين يدي الساعة الدجال والدابة ويأجوج ومأجوج والدخان وطلوع الشمس من مغربها »[1] ـ « تخرج من أعظم المساجد حرمة على الله : المسجد الحرام[2] ومن الجياد[3] ، وايا كان مخرجها فهي « تكلمهم » ومَن هم الذين تكلمهم ؟ أهم كل هؤلاء الذين

---

(١) الدر المنثور ٥ : ١١٦ ـ اخرج ابن مردويه عن ابي هريرة قال قال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) : . . . .

(٢) المصدر ١١٥ ـ اخرج نعيم بن حماد وابن مردويه عن ابن عمر قال قال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) إذا كان الوعد الذي قال الله « اخرجنا لهم دابة من الأرض تكلمهم » قال : . . . فيكون خروجها من الصفا ليلة منى . . واخرج ابن مردويه عن ابن عباس قال قال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) تخرج دابة الأرض ولها ثلاث خرجات فاول خرجة منها بارض البادية والثانية في اعظم المساجد واشرفها واكرمها على الله ، واخرج ابن جرير عن حذيفة بن اليمان قال ذكر رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) الدابة فقال حذيفة يا رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) من اين تخرج ؟ قال من اعظم المساجد حرمة على الله أقول والأحاديث فيه متظافرة .

(٣) الدر المنثور ٥ : ١١٧ ـ اخرج خروجها من جياد ابن مردويه والبيهقي في البعث عن ابي هريرة قال قال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) بئس الشعب جياد مرتين او ثلاثاً قالوا وبم ذاك يا رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) قال تخرج منه الدابة ـ اقول : خروج الدابة من جياد لا صلة له بكون شعبه سيئين إلا لوجه آخر .

الملائكة هذا يومكم الذي كنتم توعدون » (٢١ : ١٠٣) .

و« فزع » المنفي هنا عن « من جاء بالحسنة » يخص نفخة الإحياء وفي الحياة الأخرى ، وأمّا النفخة الأولى فهي مصعِقة « إلاّ من شاء الله » وهم المخصوص من عباد الله ، من السابقين والمقربين ، فلا يعم كلّ من جاء بالحسنة ، فلهم فزع الصعقة موتاً وسواها لأقل تقدير ، ثم إن زلزلة الساعة تفزع الكل دون إبقاء ، وتُصعق « إلاّ من شاء الله » .

و« فزع » منكراً قد تعني الفزع الأكبر ، لا أي فزع كان ، حيث الحياة الإيمانية ليس لزامها العصمة ، فهناك معاصٍ كبيرة قد يجزون بها حين لا تشملها شفاعة ، فلا يأمنون كل الأفزاع إلاّ « الفزع الأكبر » وهو دخول النار أم خلودها .

﴿ وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَكُبَّتْ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾٩٠ .

« ومن جاء » بالحياة « السيئة » وهم الكافرون واضرابهم « فكبت وجوههم في النار » ويقال لهم هناك كما هنا « هل تجزون إلاّ ما كنتم تعملون » فما الجزاء النار إلاّ نفس العمل حيث يظهر بملكوته « لقد كنت في غفلة من هذا فكشفنا عنك غطاءك فبصرك اليوم حديد » .

فالحياة الحسنة الايمانية مصيرها إلى الجنة مهما كانت درجات ، والحياة السيئة اللاإيمانية مصيرها إلى النار مهما كانت دركات : « ربنا آتنا في الدنيا حسنة.وقنا عذاب النار » .

﴿ إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَذِهِ الْبَلْدَةِ الَّتِي حَرَّمَهَا وَلَهُ كُلُّ شَيْءٍ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴾٩١ .

لقد كانت العرب تدين بحرمة « هذه البلدة » وهي مكة المكرمة[1] ، وكانت تستمد سيادتها على مَن سواها منها ، وتُعلّق آمالها واصنامها على كعبتها تقرباً إلى الله زلفى ، فـ« إنما أمرت أن أعبد رب هذه البلدة التي حرمها » تعريضة عريضة على هؤلاء الذين يعظمون البلدة والبيت ويحترمون ، ثم لا يعظمون صاحب البيت بل ويحترمون ، إذ يعبدون اصناماً يظلون عليها عاكفين ، وما اظلمهم عبادة واضلهم !

و« حرمها » لحرمتها سلبياً وايجابياً فوق كل بلدة حيث يُحج بيتها ويُصلى إلى قبلتها ، وهو الملجأ للخائفين ، وقد حرّمت فيها - لا سيما حالة الإحرام - من الشهوات المباحة في غيرها .

ثم وليس فقط : رب هذه البلدة ، بل « وله كل شيء » سواها،وانما لها نصيب زائد على غيرها من كائنات العالم فانها أم القرى تكوينياً حيث دُحيت الأرض من تحتها ، وتشريعياً إذ بعثت فيها أم الرسالات بخاتم المرسلين وسيد الخلق اجمعين (صلى الله عليه وآله وسلم) .

إنه تعالى « رب هذه البلدة » لا سواه فلم تعبدون سواه ، « وله كل

---

(١) نور الثقلين ٤ : ١٠٥ في الكافي عن ابي عبد الله (عليه السلام) كما قال : ان قريشاً لما هدموا الكعبة وجدوا في قواعده حجراً فيه كتاب لم يحسنوا قراءته حتى دعوا رجلاً فقرأه فإذا فيه : أنا الله ذوبكة حرمتها يوم خلقت السماوات والأرض ووضعتها بين هذين الجبلين وحففتها بسبعة املاك .

وفيه عن زرارة قال سمعت ابا جعفر (عليه السلام) يقول : حرم الله حرّمه ان يختلى خلاه ويعضد شجره إلا الأذخر او يصاد طيره .

وفيه عن معاوية بن عمار قال قال رسول الله (صلى الله عليه وماله وسلم) يوم فتح مكة : إن الله حرم مكة يوم خلق السماوات والأرض وهي حرام إلى ان تقوم الساعة لم تحل لأحد قبلي ولا تحل لأحد بعدي ولم تحل لي الا ساعة من نهار .

شيء » لا فحسب هذه البلدة كالأصنام التي تختص كلٌّ جانباً من الكون بزعمكم ، فلم تعبدون سواه .

« وامرت أن أكون من المسلمين » له لا سواه ، امراً بوحي كما أمرت فطرياً وعقلياً ، فما أمر توحيد العبادة والتسليم لله ـ فقط ـ امراً تعبدياً ، بل والآيات الآفاقية والأنفسية متجاوبة في ايجاب هذه الفريضة الربانية ، والاسلام هنا هو فوق الايمان خالصاً لرب العالمين ، وهو أوّل من أسلم كما هو أوّل العابدين .

﴿ وَأَنْ أَتْلُوَا الْقُرْآنَ فَمَنِ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَقُلْ إِنَّمَا أَنَا مِنَ الْمُنْذِرِينَ ﴾ ٩٢ .

التلاوة بجامع معناها هي الإتمام ، وقد اختصرت وانحصرت رسالة الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) في هذه التلاوة المباركة طول حياته الرسالية في بعدين : ان يأتم بالقرآن وقد فعل لحد اصبح نفسه القرآن وافضل منه وكما سمي به في يس « وما علمناه الشعر وما ينبغي له ان هو إلا ذكر وقرآن مبين » فقد أصبح تجسيداً لواقع القرآن وتفسيراً وتأويلاً ككل دونما ابقاء ، وتطبيقاً له في نفسه ورسالياً ، فهو ـ إذاً ـ افضل من القرآن .

وبعدٌ ثان أن يتلوه عليهم كما يتلوا نفسه عليهم ليتأتم به الناس في كل اقوالهم واحوالهم وأفعالهم ، فما لم تكمل تلاوته في نفسه لم يأهل أن يكون تالياً له عليهم ، فهو ـ إذاً ـ « يتلوا عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وان كانوا من قبل لفي ضلال مبين » .

وان سنته السنية قولية وعملية وتقريرية هي تلاوة للقرآن ، فانه الإمام في كل حلقات رسالته « فمن اهتدى » بتلك التلاوة المباركة « فانما يهتدي لنفسه » لا لربه ولا لمن سواه « ومن ضل فقل انما انا من المنذرين » فلست

احمل احداً على الهدى إذ ما علي إلّا البلاغ انذاراً وتبشيراً .

وحين تنحصر الرسالة الاسلامية - بعد توحيد العبادة والإسلام لله - بـ« ان اتلوا القرآن » فما دور السنة أمام القرآن ، إلا دوراً هامشياً لتلاوة القرآن إيضاحاً له وتبييناً .

وملا تلاوة سنته الموحاة اليه عليهم إلا تلاوة القرآن القائل « وما ينطق عن الهوى . إن هو إلّا وحي يوحى » و« من يطع الرسول فقد اطاع الله » أمّا شابهها من آيات .

﴿ وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ سَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ فَتَعْرِفُونَهَا وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾[٩٣] .

« وقل »: أظهر قالاً وحالاً واعمالاً ان « الحمد » كله « لله » لا سواه ، حيث النعم كلها من الله لا سواه ، وكما اراكم آياته من ذي قبل « سيريكم آياته » من بعد ، كآية الدابة التي تكلمهم يوم الرجعة ، وسواها من آيات يوم الدنيا وما بعدها ، « فتعرفونها » شئتم أم ابيتم ، ولم يك ينفعكم ايمانكم عند آيات العذاب لا في الأولى ولا الأخرى : « سنريهم آياتنا في الآفاق وفي انفسهم حتى يتبين لهم انه الحق أولم يكف بربك انه على كل شيء شهيد » ؟ « وما الله بغافل عما تعملون » - « ولا تحسبن الله غافلاً عما يعمل الظالمون انما يؤخرهم ليوم تشخص فيه الأبصار . . » .

مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

(٢٨) سورة القصص مكية وآياتها ثمان وثمانون

مركز تحقيقات كامپيوتری علوم اسلامی

مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

طسٓمٓ ﴿١﴾ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ﴿٢﴾ نَتْلُوا۟
عَلَيْكَ مِن نَّبَإِ مُوسَىٰ وَفِرْعَوْنَ بِٱلْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٣﴾
إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ
طَآئِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَآءَهُمْ وَيَسْتَحْىِۦ نِسَآءَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ
مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٤﴾ وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟
فِى ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴿٥﴾
وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَنُرِىَ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا
مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَحْذَرُونَ ﴿٦﴾ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ

أَرْضِعِيهِ ۖ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا
تَحْزَنِي ۖ إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿٧﴾
فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا ۗ إِنَّ فِرْعَوْنَ
وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا خَاطِئِينَ ﴿٨﴾ وَقَالَتِ امْرَأَتُ
فِرْعَوْنَ قُرَّتُ عَيْنٍ لِي وَلَكَ ۖ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰ أَنْ يَنْفَعَنَا
أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٩﴾ وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ
مُوسَىٰ فَارِغًا ۖ إِنْ كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ لَوْلَا أَنْ رَبَطْنَا عَلَىٰ
قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠﴾ وَقَالَتْ لِأُخْتِهِ
قُصِّيهِ ۖ فَبَصُرَتْ بِهِ عَنْ جُنُبٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١١﴾
* وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ مِنْ قَبْلُ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ
عَلَىٰ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وَهُمْ لَهُ نَاصِحُونَ ﴿١٢﴾
فَرَدَدْنَاهُ إِلَىٰ أُمِّهِ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ
وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٣﴾

هذه من الطواسين الثلاث في حروفها الثلاثة المقطعة ، وتماثُلُ القصص مع الشعراء في « طسم . تلك آيات الكتاب المبين » يجعل السورتين متشابهتي الأهداف،ومنها قصص موسى المسرودةهنا بصورة مفصلة أكثر مما في الشعراء ، وعلّها لذلك تتسمى بالقصص حيث الجو الغالب عليها القصص وكانها سورة موسى إذ تأتي بصورة وضاءة لموسى منذ الولادة حتى الرسالة وإلى نهاية أمره ، وهي تقدمات وطمأنينات للرسول محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) كأصل تتمحوره السورة في قصصها ، انتقالاً حثيثاً من الرسالة الموسوية بآياتها إلى الرسالة المحمدية بآياتها الخالدة القرآنية .

تنزل القصص في مكة والمسلمون قلة مستضعفة والمشركون ثلة قوية مستكبرة ، ولكي يطمئن المؤمنون القلة يأتي بسرد شامل لقصص موسى وفرعون وقارون ، ليعرفوا أن ليست القوة مع الجاه والمال والمنال ، بل إنّما القوة لله ولا حول ولا قوّة إلّا بالله .

وآية الوعد لرده (صلى الله عليه وآله وسلم) إلى معاد آية أنها نزلت في أحرج المواقف لرسول الهدى ، فلم تنته السورة إلّا وقد أحرجوه فأخرجوه عن أم القرى ، فكما الله رد موسى إلى أمه : « فرددناه إلى أمه كي تقر عينها ولا تحزن » كذلك نردك إلى أم القرى : « إن الذي فرض عليك القرآن لرادك إلى معاد قل ربي اعلم من جاء بالهدى ومن هو في ضلال مبين » (٨٥) واين رد من رد ؟ .

﴿ طسم١ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ٢ نَتْلُوا عَلَيْكَ مِنْ نَبَإِ مُوسَى وَفِرْعَوْنَ بِالْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾٣ .

الأوليان من هذه الثلاث مفسرتان في الشعراء ، و « نتلوا » في الثالثة من التلاوة القراءة لنتلوا متابعة ككل ومنها القراءة على الكل ، والنبأ خبر ذو

فائدة عظيمة ، و« من » تُبعِّضه عناية إلى أهم الحلقات من ذلك النبإ كما هو اللائق بالذكر الحكيم ، وهنا المتلو عليه هو الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) لكي يتلوه على كل المرسل اليهم ، ولكنه بالمآل « لقوم يؤمنون » فمن آمن من قبل يزداد به ايماناً واطمئناناً ، ومن يتحرّى عن ايمان ولمّا يؤمن - إذ فيه مادة الايمان وقابليته - فهو يكسب ايماناً ، و« يؤمنون » يشملهما .

أجل وإن هذه التلاوة لذلك النبإ تُلقي ظلال العناية والإهتمام التام « لقوم يؤمنون » ، دون الذين«سواء عليهم ءأنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون » وهذه تكرمة ربانية « لقوم يؤمنون » أن الله يتلوا الأنباء الرسالية على رسوله لأجلهم لأنهم هم المستفيدون ، وكما القرآن ككل « هدىً للمتقين » مهما كان القصد منه هداهم اجمعين كحجة على كافة المكلفين ، كذلك أنباءه الرسولية والرسالية هي « لقوم يؤمنون » والآخرون هم الخاسرون ، و« بالحق » هنا قد تتعلق بـ« نتلوا .. نبإ .. تؤمنون » نتلوا بالحق - نبإ موسى وفرعون بالحق - لقوم يؤمنون بالحق ، والباء هنا تعم السببية والمصاحبة ، تلاوة النبإ لقوم يؤمنون في مثلث الحق .

نبأ موسى يبدء في الأغلب من حلقة الرسالة ، وهنا يبدء من الولادة إلى الرسالة وإلى النهاية ، فانه عرض كامل كافل شامل كل الحلقات الحيوية لموسى ، والعمليات المضادة من فرعون ، لتصبح درساً حافلاً « لقوم يؤمنون » .

وليعلموا أن الشرَّحين يتمخض ويتمحَّض يحمل هلاكه ودماره في نفس ذاته ، إذ تتدخل القدرة الرحيمة الربانية لتأخذ بأيدي المستضعفين فتجعلهم أئمة وتجعلهم الوارثين ،وهنا حلقات خمس من عرض النبإ بين قصيرة وطويلة كلها قاصدة راشدة ، حلقة المولد وما أحاط به من قاسية راسية فرعونية ،

وعناية ربانية ، ثم حلقة الفتوة وملابساتها في الجو الفرعوني ، ثم حلقة النداء الرسالية ، ومن ثم مواجهة فرعون الطاغية ، ثم العاقبة للمتقين غرقاً لفرعون بجنوده واستخلافاً لموسى بحشوده ، ولكل حلقة مشاهدها العدة : خمسة ثم تسعة ثم اربعة ، بينها فجوات وحلقات ومشاهد ، ما يثير العجب من دقة الأداء الفني للقصة .

والأوليان هما الجديدتان في هذا العرض العريض ، إذ تكشفان عن مدى تحدي القدرة الفرعونية ، إخفاقاً لصوت الحق وإخماداً لثائرته في زَنده ، ثم مدى القدرة الإلٰهية حيث تربيّ قاصم ظهر فرعون في حِجره :

﴿ إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ ﴾ ٤ .

إن الإفساد الفرعوني هنا مبني على قواعد خمس مهما اختلفت دركاتها : العلو في الأرض ـ جعْلُ أهلها شيعاً ـ استضعاف طائفة منهم ـ تذبيح الأبناء ـ استحياء النساء ، مهما كانت الأربعة الأخيرة من خلفيات الأولى .

إن العلو في الأرض وجعلْ أهلها شيعاً ، واستضعاف الشعوب،هي من شيمة الطغاة الشنيعة على مدار الزمن ، فلماذا بعدُ تذبيح الأبناء واستحياء النساء : إبقاءهن أحياءً للخدمة ، وإزالة حياءهن ؟

لا بد وأن تكون هناك خوفة هارعة من الأبناء الاسرائيليين في ذلك التصميم العميم لإبادتهم ، استبقاءً للسلطة الفرعونية وكما يروى عن رسول الهدى (صلى الله عليه وآله وسلم) وأهل بيته الكرام عليهم السلام : « . . فان فرعون لما وقف على ان زوال ملكه على يده (موسى) امر باحضار الكهنة فدلوه على نسبه وانه يكون من بني اسرائيل ولم يزل يأمر أصحابه بشق بطون الحوامل من نساء بني اسرائيل حتى قتل في طلبه نيفاً وعشرين ألف مولود

وتعذر عليه الوصول إلى قتل موسى لحفظ الله تبارك وتعالى اياه . . »[1] .

إن العلو في الأرض باستعلاء غاشم ظالم ، واستبداء خانق جاشم ،

---

(١) بحار الأنوار ٥١ : ٢١٩ ـ حديث حافل لمولد الامام المهدي (عج) وطول غيبته وان فيه سنن الأنبياء وحذول النعل بالنعل والقذة بالقذة عن الكافي بسند متصل عن سدير الصيرفي قال دخلت انا والمفضل بن عمر وابو بصير وابان بن تغلب على مولانا ابي عبدالله جعفر بن محمد عليهما السلام فرأيناه جالساً على التراب وعليه مسيح خيبري مطوق بلا جيب مقصر الكمين وهو يبكي بكاء الواله الثكلى ذات الكبد الحرّى قد نال الحزن من وجنتيه وشاع التغيّر عارضيه وابلى الدموع محجريه وهو يقول :

سيدي ! غيبتك نفت رقادي وضيقت عليّ مهادي وأسرت مني راحة فؤادي ، سيدي ! غيبتك أوصلت مصابي بفجائع الأبد وفقد الواحد بعد الواحد يفني الجمع والعدد ، فما أحسّ بدمعة ترقي من عيني ، وأنين يفتر من صدري عن دوارج الرزايا وسوالف البلايا إلاّ مثّل لعيني عن عوابر اعظمها وأفظعها وتراقي اشدها وانكرها ونوايب مخلوطة بغضبك ، ونوازل معجونة بسخطك ؟

قال سدير : فاستطارت عقولنا ولهاً وتصدعت قلوبنا جزعاً من ذلك الخطب الهائل والحدث الغائل وظننا انه سمة لمكروهة قارعة أوصلت به من الدهر بائقة فقلنا لا أبكى الله يابن خير الورى عينيك من اي حادثة تستنزف دمعتك وتستمطر عبرتك واية حالة حتمت عليك هذا المأتم ؟

قال : فزفر الصادق (عليه السلام) زفرة انتفخ منها جوفه واشتد منها خوفه وقال : ويلكم إني نظرت في كتاب الجفر صبيحة هذا اليوم وهو الكتاب المشتمل على علم المنايا والبلايا والرزايا وعلم ما كان وما يكون إلى يوم القيامة الذي خص الله تقدس اسمه محمداً والأئمة من بعده عليه وعليهم السلام وتأملت فيه مولد قائمنا وغيبته وابطاءه وطول عمره وبلوى المؤمنين به من بعده في ذلك الزمان وتولد الشكوك في قلوبهم من طول غيبته وارتداد اكثرهم عن دينهم وخلعهم ربقة الاسلام من اعناقهم التي قال الله تقدس ذكره « وكل انسان ألزمناه طائره في عنقه » يعني الولاية ، فأخذتني الرقة واستولت عليّ الأحزان فقلنا : يابن رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) كرّمنا وشرفنا باشراكك إيانا في

يخلُف نفس العلو فيها لأنه فساد فإفساد فيها ، ويلات وويلات في دويلات مستعلية وسلطات متخلفة عن الحق ، وليس فاسد العلوّ في الأرض يختص بالفرعوني وأضرابه ، بل والدّينون ايضاً لا يحق لهم أيُّ علو ، فذلك علو أمام الله ، وهذا علو أمام خلق الله وكلاهما مرفوضان في شِرعة الله : « تلك الدار

بعض ما انت تعلمه من علم ـ قال : إن الله تبارك وتعالى ادار في القائم منا ثلاثة ادارها في ثلاثة من الرسل ، قدر مولده تقدير مولد موسى (عليه السلام) وقدرغيبته تقدير غيبة عيسى (عليه السلام) وقدر إبطاءة تقدير إبطاء نوح (عليه السلام) وجعل من ذلك عمر العبد الصالح اعنى الخضر (عليه السلام) دليلاً على عمره ـ فقلت : اكشف لنا يابن رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) عن وجوه هذه المعاني ـ قال : اما مولد موسى (عليه السلام) فإن الله لما وقف . . . كذلك بنو امية وبنو العباس لما وقفوا على ان زوال ملكهم والأمراء والجبابرة منهم على يد القائم منا ناصبونا العداوة ووضعوا سيوفهم في قتل آل بيت رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) وابادة نسله طمعاً منهم في الوصول إلى قتل القائم (عليه السلام) ويابى الله ان يكشف امره لواحد من الظلمة إلاّ ان يتم نوره ولو كره المشركون ـ واما غيبة عيسى (عليه السلام) . . .

وفي نور الثقلين ٤ : ١١٣ في كتاب كمال الدين وتمام النعمة باسناده الى محمد الحلبي عن أبي عبد الله (عليه السلام) قال : ان يوسف بن يعقوب عليهما السلام حين حضرته الوفاة جمع آل يعقوب وهم ثمانون رجلاً فقال : ان هؤلاء سيظهرون عليكم ويسومونكم سوءالعذاب وانما ينجيكم الله من ايديهم برجل من ولد لاوي بن يعقوب اسمه موسى بن عمران غلام طوال جعد ادم فجعل الرجل من بني اسرائيل يسمي ابنه عمران ويسمى عمران ابنه موسى ، فذكر ابان بن عثمان ابي الحصين عن ابي بصير عن ابي جعفر (عليه السلام) انه قال : ما خرج موسى حتى خرج قبله خمسون كذاباً من بني اسرائيل كلهم يدعي انه موسى بن عمران فبلغ فرعون انهم يرجفون به ويطلبون هذا الغلام فقال له كهنته وسحرته ان هلاك دينك وقومك على يدي هذا الغلام يولد من بني اسرائيل فوضع القوابل على النساء وقال : لا يولد العام ولد إلاّ ذبح ووضع على ام موسى قابلة . . . » .

الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علواً في الأرض ولا فساداً والعاقبة للمتقين » (٢٨ : ٨٣) فإذا كانت ارادة العلو في الأرض تُمْنَع الدار الآخرة ، فبأحرى نفس العلو فيها لأنه فساد فإفساد فيها ، فبمجرد ان الطاغية أحس ـ ولّما يلمس ـ أن هناك خطراً يحدق بملكه من إسرائيل ، وهم مئات الألوف لا يمكن نفيهم عن البلاد، ولا القضاء عليهم أجمع ، ابتكر حينذاك طريقة همجية جهنمية للقضاء على الخطر المحسوس من هذه الطائفة المنسجمة ، غير المعتقدة في ربوبيته الأعلى من نواحي أربع : أن « [١]جعل أهلها شيعاً » « [٢]يستضعف طائفة منهم » ـ « [٣]يذبح ابناءهم » ـ « [٤]ويستحيي نساءهم » : « إنه كان من المفسدين » ومن خلفيات العلوّ النحسة جعل الأهلين في أرضٍ شيعاً متفرقين ليذوق بعضهم بأس بعض ، فهم « من الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعاً » (٣٠ : ٣٢) وبئس اللباس لباس الشيع للمجتمع : « أو يلبسكم شيعاً ويذيق بعضكم بأس بعض » (٦ : ٦٥) « ولقد ارسلنا من قبلك في شيع الأولين » (١٥ : ١٠) « ولقد أهلكنا أشياعكم فهل من مدّكر » (٥٤ : ٥١) . فالشِيَع والأشياع في الدين والدينين مما يزيّغه الدين الحق ، اللهم إلّا شيعة الحق بلا أشياع متخلفين عنه أو مختلفين فيه ، وهذه شيطنة مدروسة من الطاغية في علوه ان « جعل اهلها شيعاً » متفرقين وهو من بابِ فرِّق تسد ، وبالإمكان حينئذٍ أن يستضعف كلَّ الشِيع ، مهما كان استضعافهم دركات ، وقد كان من أسفلها استضعاف بني اسرائيل ، وكما « استخف قومه فاطاعوه » .

فلقد فرق ـ فيمن فرق بينهم من القاطنين في مصر ـ شَعبَ اسرائيل ، حيث استقدم يوسف من قبلُ ابويه وإخوته وأهله أجمعين من كنعان إلى مصر فتكاثروا واصبحوا شعباً كبيراً ، فأخذت النعرة القومية والطائفية الفرعونية

يجعلهم شيعاً كما جعل الآخرين كذلك شيعاً ، وكان أشد الإستضعاف على هؤلاء الذين كان يخافهم على عرشه ، فتفرقت كلمة بني إسرائيل أيادي سبا واستفاد الطاغية بِشيَعِهِمْ أن أخذ يذبِّح أبناءهم ويستحيي نساءهم « انه كان من المفسدين » .

تذبيح الأبناء كان يعم شق بطون الحوامل من بني اسرائيل أم ذَبح الولائد بعد الولادة حيث ما ثُقِفوا ، واستحياء النساء من الحياة إبقاءً لهن بشأن الخدمات الإجبارية منزلية وسواها ، ومن الحياء إزالة لحيائهن في الدعارات ، فقد كانت هذه لهن استحياءً أشر من تذبيحهن ، ثم الرجال الذين فقدوا أبناءهم ونساءهم أمرهم أمرُّ وأنكى ، وذلك ثالوث العذاب بحق الشعب الإسرائيلي بعد عذاب الشِيَع فيهم والعداء الشائع بينهم .

هذه هي خماسية المخططات الفرعونية الجهنمية تدميراً لهذا الشعب عن بكرته ولكيلا يَطْلَعَ موسى من وسطهم ، كما أرادها فرعون بخيله ورجله تجنيداً لكل حِيلَهِ ، ولكن الله يريد غير ما يريده الطاغية ولا يكون إلّا ما أراد الله مهما قويت الداهية الدهياء ، من الطاغية اللعناء :

﴿ وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ ۝ وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُمْ مَا كَانُوا يَحْذَرُونَ ﴾٦ .

هؤلاء المستضعفون المضغوطون تحت أنيار الظلم وأنياب العضّ الفرعوني ، المرذُولون المعذبون بألوان العذاب(١) يريد الله أن يمن عليهم

---

(١) الدر المنثور اخرج ابن ابي شيبة وابن المنذر وابن ابي حاتم عن علي بن ابي طالب (عليه السلام) في الآية : قال : يوسف وولده .

ويجعلهم أئمة ويجعلهم الوارثين ويمكن لهم في الأرض ويُري فرعون وهامان وجنودهما منهم ما كانوا يحذرون من السلطة الموسوية ، أيادٍ جليَّة من فرعون وملإه ، ويدٌ خفية من رب العالمين تتصارعان ، وبطبيعة الحال لا تُصرع إلّا ايادي فرعون بجنوده حيث « فنبذناهم في اليم وهو مليم » (٥١ : ٤٠) .

وهذه الإرادة المستمرة « ونريد » ليست لتختص مستضعفي بني اسرائيل ، بل هي متواصلة ـ قضيةالعدل والرحمة الربانية ـ على مدار الزمن غابراً وحاضراً وإلى يوم النشور ، مهما اختلفت درجاتها حسب مختلف الفاعليات والقابليات والظروف المقتضية لتحقيق إرادة الله ، فكما أن « نريد » هنا حكاية لحالٍ ماضية ، كذلك هي إخبار للحال والأحوال المستقبلة بعد الماضية .

وافضل المستضعفين هم أهل بيت الرسالة المحمدية عليهم آلاف سلام وتحية ، وكما يروى عن الامام علي (عليه السلام) : « لتعطفن الدنيا علينا بعد شماسها عطف الضروس على ولدها »[(١)] ، فـ« هم آل محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) يبعث الله مهديهم بعد جهدهم فيعزهم ويذل عدوهم »[(٢)] .

---

(١) نهج البلاغة .. وتلا عقيب ذلك « ونريد ان نمن على الذين استضعفوا في الأرض ونجعلهم ائمة ونجعلهم الوارثين » ورواه مثله السيد الرضي في الخصائص عن الصادق (عليه السلام) عنه (عليه السلام) . .

(٢) نور الثقلين ٤ : ١١٠ كتاب الغيبة للشيخ الطوسي باسناده الى محمد بن الحسين عن ابيه عن جده عن علي (عليه السلام) في الآية قال : . . . وفيه عن اصول الكافي عن أبي الصباح الكناني قال : نظر ابو جعفر إلى ابي عبد الله عليهما السلام يمشي فقال : ترى هذا ؟ هذا من الذين قال الله عز وجل : ونريد . .

اجل والقائم المهدي من آل محمد صلوات الله عليهم أجمعين هو آخر هؤلاء المستضعفين[1] وله المن الأوفر من الإمامة وخلافة الأرض اللهم عجّل فرجه وسهل مخرجه . .

---

(١) المصدر في كتاب كمال الدين وتمام النعمة باسناده الى حكيمة قالت : لما كان اليوم السابع من مولد القائم (عليه السلام) جئت إلى ابي محمد (عليه السلام) فسلمت عليه وجلست فقال : هلمي إليّ ابني فجئت بسيدي وهو في الخرقة ففعل به كفعله الأول ثم ادلى لسانه في فيه كأنما يغذيه لبناً وعسلاً ثم قال : تكلم يا بني قال : اشهد ان لا إله إلا الله وثنى بالصلاة على محمد وعلي وعلى الأئمة الطاهرين صلوات الله عليهم اجمعين حيث وقف على ابيه (عليه السلام) ثم تلا هذه : « بسم الله الرحمن الرحيم . ونريد ان نمن على الذين استضعفوا في الأرض . . . » .

وفي تفسير البرهان ٣ : ٢١٩ روى العياشي عن علي بن الحسين عليهما السلام قال والذي بعث محمداً (صلى الله عليه وآله وسلم) بالحق بشيراً ونذيراً إن الأبرار من أهل البيت وشيعتهم بمنزلة موسى وشيعته وان عدونا واشياعه بمنزلة فرعون واشياعه . وفيه ابو جعفر محمد بن جرير الطبري في مسند فاطمة عليها السلام بسند متصل عن زادان عن سلمان قال قال لي رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) ـ وفيه تفصيل اسماء الأئمة الأثني عشر الى ان قال (صلى الله عليه وآله وسلم) : . . . ثم محمد بن الحسن الهادي المهدي الناطق القائم بحق الله ثم يا سلمان انك مدركه ومن كان مثلك ومن تولاه بحقيقة المعرفة ، قال سلمان فشكرت الله كثيراً ثم قلت يا رسول الله واني مؤجل الى عهده ؟ قال يا سلمان اقرء : فإذا جاءوعد أولاهما . . . قال سلمان فاشتد بكائي وشوقي ثم قلت يا رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) بعهد منك ؟ فقال : اي والله الذي ارسل محمداً (صلى الله عليه وآله وسلم) بالحق مني ومن علي وفاطمة والحسن والحسين والتسعة عليهم السلام وكل من هو منا ومضام فينا اي والله يا سلمان وليحضرن ابليس وجنوده وكل من محض الايمان محضاً ومحض الكفر محضاً حتى يؤخذ بالقصاص والأوتار والأثوار « ولا يظلم ربك أحداً » وتحقق تأويل هذه الآية « ونريد ان نمن على الذين استضعفوا في الأرض . . يحذرون » .

وقد يروى عن رسول الهدى (صلى الله عليه وآله وسلم) مخاطباً اياهم عليهم السلام : انتم المستضعفون بعدي . . . »[1] . وذلك الإستضعاف الذي يقتضي الرحمة الخاصة الإلهية بمنح الإمامة ووراثة الأرض ليس استضاعفاً روحياً عقائدياً ، وإنما هو الضغط عليهم في تحقيق الشرعة الإلهية كيلا تتحقق كما تحق ، فلا تقصير منهم في هذاالمجال ، فحياتهم الإيمانية هي حياة التقية حتى يأتي الفرج من الله بما قدموا من ظروفه المواتية له .

وهكذا يُعلن ربنا في هذه الإذاعة القرآنية أن حياة الفرعنة الطاغية لا تدوم ، إعلاناً صارخاً بواقع الحال وما هو مقدر في المآل عاجلاً أم آجلاً ، أن تقف القوتان وجهاً لوجه ، فقوة الله هي التي تتهاوى دونها كل القوى فانه شديد القوى .

وترى « الذين استضعفوا في الأرض » هنا هم كل المستضعفين في التاريخ الرسالي ؟ ومنهم مقصرون ظالمون موعودون بالنار : « إن الذين توفاهم الملائكة ظالمي أنفسهم قالوا فيم كنتم قالوا كنا مستضعفين في الأرض قالوا ألم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها فاولئك مأواهم جهنم وساءت مصيراً » (٤ : ٩٧) .

ومنهم قاصرون « إلاّ المستضعفين من الرجاء والنساء والولدان لا

---

(١) المصدر في كتاب معاني الأخبار باسناده الى محمد بن سنان عن مفضل بن عمر قال : سمعت ابا عبد الله (عليه السلام) يقول : ان رسول الله (صل الله عليه وآله وسلم) نظر إلى علي والحسن والحسين عليهم السلام فبكى وقال : انتم المستضعفون بعدي - قال المفضل : فقلت له : ما معنى ذلك يا ابن رسول الله (صل الله عليه وآله وسلم) قال : معناه انكم الأئمة بعدي ان الله عز وجل يقول : « ونريد ان نمن . . . » فهذه الآية جارية فينا إلى يوم القيامة .

يستطيعون حيلة ولا يهتدون سبيلاً . فاولئك عسى الله أن يعفو عنهم وكان الله عفواً غفوراً » (٤ : ٩٩) فمن لا يستطيع حيلة ولا يهتدي سبيلاً كيف يصبح من أئمة المؤمنين ؟

انهم هم المظلومون تحت أنيار الظلامات والظلمات ، حيث يتبلور ايمانهم وتقوى هداهم وتقواهم ، مهما اختلفت درجاتهم ومن أدناهم القاصرون ، فالأئمة منهم هم القادة الهداة الى الله .

وكما الإمامة والوراثة للمستضعفين درجات حسب القابليات والمعطَيات ، كذلك أرض التمكين لهم درجات ، من أرض مصر أو ما والاها للأئمة الإسرائيليين ، امّا هيه من أرض بعدها ، ومن كل الأرض كما في دولة الامام المهدي عجّل الله تعالى فرجه .

وقد دلت آية النور على ذلك التمكين المكين ، الرصين الأمين « . . . وليمكنن لهم دينهم الذي ارتضى لهم وليبدلنهم من بعد خوفهم أمناً . . » .

وهم الورثة والذين يعيشون تحت إمرتهم أولاء ، وقد جمعت بينهما آية الأنبياء[1] والنور[2] : أن ارادة المن المستمرة لهؤلاء المستضعفين تتمحور قواعد اربع هي « ونجعلهم أئمة » وهم الرعيل الأعلى منهم « ونجعلهم الوارثين » وهي تجمع المأمومين الى هؤلاء الأئمة ، كما « ونمكن لهم في الأرض ونري فرعون وهامان وجنودهما منهم ما كانوا يحذرون » حيث يرى كل فراعنة التاريخ وجنودهم من هؤلاء الأكارم « ما كانوا » هؤلاء الأنكاد « يحذرون » منهم،وترى كيف يولد موسى وعيون المراقبات الفرعونية ترقب الحوامل ،

---

(١) « وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الأرض كما استخلف الذين من قبلهم . . » .

(٢) « ولقد كتبنا في الزبور من بعد الذكر ان الأرض يرثها عبادي الصالحون » .

فتشق بطونها قبل الولادة ، إلّا أن تفلت عنهن فالتة ؟

علّها من الفالتات القلة ، أم « انه لما حملت به امه لم يظهر حملها إلّا عند وضعها له »[١] وكما كان الحمل بصاحب الأمر عجل الله تعالى فرجه[٢] ستراً ستيراً عن عيون المراقبات في الدولة العباسية ليقضي الله امراً كان مفعولاً .

---

(١) نور الثقلين ٤ : ١١١ عن تفسير القمي عن ابي جعفر (عليه السلم) قال : ... وكان فرعون قد وكل بنساء بني اسرائيل نساءً من القبط يحفظونهن وذلك انه كان لما بلغه عن بني اسرائيل انهم يقولون انه يولد فينا رجل يقال له موسى بن عمران يكون هلاك فرعون واصحابه على يده فقال فرعون عند ذلك لأقتلن ذكور اولادهم حتى لا يكون هلاك فرعون واصحابه على يده فقال فرعون عند ذلك لأقتلن ذكور اولادهم حتى لا يكون ما يريدون وفرق بين الرجال والنساء وحبس الرجال في المجالس فلما وضعت ام موسى بموسى (عليه السلام) نظرت اليه وحزنت عليه واغتمت وبكت وقالت : يذبح الساعة ؟ فعطف الله عز وجل قلب الموكلة بها عليه فقالت لأم موسى : مالك قد اصفر لونك ؟ فقالت : اخاف ان يذبح ولدي ، فقالت : لا تخافي وكان موسى لا يراه أحد إلّا أحبّه وهو قول الله : « والقيت عليك محبة مني » فاحبته القبطية الموكلة بها وانزل الله على أم موسى التابوت ونوديت امه ضعيه في التابوت فاقذفيه في اليم وهو البحر « ولا تخافي ولا تحزني انا راده اليك وجاعلوه من المرسلين » فوضعته في التابوت واطبقته عليه وألقته في النيل .

(٢) المصدر في كتاب كمال الدين وتمام النعمة وباسناده الى حكيمة بنت محمد بن علي بن موسى الرضا (عليه السلام) عمة ابي محمد الحسن (عليه السلام) انها قالت : كنت عند ابي محمد (عليه السلام) فقال : بيتي الليلة عندنا فانه سيلد الليلة المولود الكريم على الله عز وجل الذي يحيي به الله عز وجل الأرض بعد موتها ، فقلت : ممن يا سيدي ؟ ولست أدري بنرجس شيئاً من اثر الحمل ؟ فقال : من نرجس لا من غيرها قالت : فوثبت اليها فقبلتها ظهر بطن فلم أر بها اثر الحبل فعدت اليه فأخبرته بما فعلت فتبسم ثم قال لي : إذا كان وقت الفجر يظهر لك الحبل لأن مثلها مثل أم موسى لم يظهر بها الحبل ولم يعلم أحد إلى إلّا وقت ولادتها لأن فرعون كان يشق بطون الحبالى في طلب موسى وهذا نظير موسى ... » .

موسى الرسول (عليه السلام) يولد في تلك الضغطة الفرعونية الوحشية ، وأمه حائرة ، تخشى أن يصل نبأ هذه الولادة المباركة إلى الجلادين فيذبحوه ، وهي عاجزة عن حمايته وإخفاءه فإذا الوحي الحنون يتلقف قلبها الرنون :

﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴾[٧] .

« أوحينا » هنا تعني وحي الإلهام دون وحي النبوءة والرسالة ، وادنى منه الوحي إلى النحل وللأرض ، وأعلى منه ومن كل وحي إلاّ الأخير وحي الإلهام إلى قلوب الأئمة المعصومين المحمديين صلوات الله عليهم اجمعين .

« أن ارضعيه » ليس عليك فيه أمر إلاّ الرضاعة : « إذ أوحينا إلى أمك ما يوحى . أن اقذفيه في التابوت فاقذفيه في اليم فليلقه اليم بالساحل يأخذه عدو لي وعدو له وألقيت عليك محبة مني ولتصنع على عيني . إذ تمشي اختك فتقول هل أدلكم على من يكفله فرجعناك إلى أمك كي تقر عينها ولا تحزن . . » (٢٠ : ٤٠) .

« أن أرضعيه » ما لم يهجس هاجس أو يحدث حادث « فإذا خفت عليه فألقيه في اليم . . » وهو النيل فإنه في عُظمه كأنه البحر ، واليم يشمل البحر والنهر الكبير كالنيل ، اتراها ما كانت خائفة عليه ، وهي خائفة منذ حبلت حتى وضعت ؟

الخوف له مراحل ، فقد يُتحمل إذ لا يعدو الخيال ولمّا تقع واقعة ، وذلك خوفها من قبلُ ، أم لا يتحمل حين تُشرِف الواقعة لتقع فلا بد من محاولة قاطعة للفرار عنها ، وقد تعنيه « فاذا خفت عليه » خوفاً شديداً لا قبل لها به بعد المتعوِّد في ذلك الجوِّ المُخيف .

أمٌ حنونة ترضع ولدها خائفة عليه ، فكيف تسمح لنفسها أن تلقيها في

اليم فراراً عن حفرة إلى بئرٍ ؟ لكن « ولا تخافي » من غرقه أو قتله « ولا تحزني » من فراقه لـه « إنا رادوه إليك » لترضعيه « وجاعلوه من المرسلين » لما بلغ أشده .

وهذه طمأنة ربانية ورَبطة إلهية على قلبها أن تلقي وليدها الرضيع بيدها إلى اليم !، أجل «لا تخافي» من غرقه فان عين الله ترعاه ، ويده تراعيه حين تخفيه عن بأس فرعون ، تلك القدرة التي تجعل النار لجده ابراهيم برداً وسلاماً ، وتجعل له البحر ملجأ ومناماً ! « ولا تحزني » حيث الفراق لا يدوم « إنا رادوه إليك وجاعلوه من المرسلين » .

﴿ فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوّاً وَحَزَناً إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا خَاطِئِينَ ﴾٨ .

هنا بين الوحي إليها والإلتقاط فجوة مذكورة في طه : « فليلقه اليم بالساحل » أمراً تكوينياً لليم بإلقاء ما تلقاه بالساحل ، ثم « يأخذه عدو لي وعدو له » أمرٌ ثانٍ لعدوه فرعون تكوينياً ، وبالنتيجة « فالتقطه آل فرعون » ـ إذ « ألقيت عليك محبة مني ولتُصنع على عيني » !.وهنا أصبح موسى لُقَطة يلتقطها آل فرعون ، قصداً إلى « قرة عين لي ولك » ولكن الواقع المجهول لديهم « ليكون لهم عدواً وحزناً » فاللام هنا تعني واقع الغاية ، و« قرة عين لي ولك » تعني ظاهرها وهم خاطئون واقع الأمر « إن فرعون وهامان وجنودهما كانوا خاطئين » : خطأً عارماً في كل حياتهم الجهنمية الطاغية حيث ذبح آلافاً للحصول على موسى (عليه السلام) ، وهنا خطأً عما يُرام للعرش الفرعوني حيث استقدموا بذات أيديهم بوارهم ودمارهم ، وهذا خطأً منهم لصالح الرسالة الموسوية ، وكل حياتهم خطأً لطالحها وصالح موسى ، وقد جمعها « كانوا خاطئين » .

فهل كانت أمه تخاف إلاّ ذلك الإلتقاط ؟ كلاّ إلاّ أن القدرة الربانية تتحدى باسلوب سافر ، ففي حين يجند فرعون وهامان وجنودهما كل إمكانياتهم وعيونهم وإرصادهم على بني اسرائيل كيلا يتفلّت منه موعودهم ، فها هي ذي يد القدرة تُلقيه في أيديهم مجرداً من كل قوة بحنان لهم ومحبة « قرة عين لي ولك عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولداً » ! ـ لماذا ؟ « ليكون لهم عدواً وحزناً » ويكون لأمه قرة عين ولشعب اسرائيل نجاةً عن فرعون وملإه ! :

﴿ وَقَالَتِ امْرَأَةُ فِرْعَوْنَ قُرَّةُ عَيْنٍ لِي وَلَكَ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَى أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَداً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾٩ .

« لا تقتلوه » خطاب الجمع للحشد القاتل من آمر ومأمور وسبب ومباشر ، وهذه شفاعة من ملكة البلاط ، وطبعاً تؤثر أثرها إثرها ، لا سيما وانها مشفوعة بـ« قرة عين لي ولك عسى ان ينفعنا أو نتخذه ولداً » ترغيباً في الإبقاء عليه بعد الترعيب عن قتله ، خطوتان مباركتان منها في سبيل الحفاظ عليه كما أراد الله !

« وهم لا يشعرون » الخطر الحادق بهم من هذا الوليد اللقيط ، رغم ان التقاطه هكذا من اليم كان يُشعرهم أنه من بني اسرائيل ، وإلاّ فلماذا يلقى بتابوته في اليم ؟ طبعاً هو إلقاء قاصد ترجيحاً لغرقه بطبيعة الحال على ان يقع في فخ فرعون وملإه .

هنا « ألقيت عليك محبة مني ولتُصنع على عيني » تجعله محبوباً لآل فرعون ، لا سيما امرأته المؤمنة إذ تقول له قالتها : « قرة عين لي ولك » إذ ليس لنا ولدٌ نأنس به فـ« لا تقتلوه » تدليلاً على تصميمهم لقتله « عسى ان ينفعنا » في ملكنا؛ أم وأقرب من ذلك « أن نتخذه ولداً » ـ « وهم » كلهم « لا يشعرون » مَن هو هذا اللقيط ؟

وهنا النص ساكت عما رده فرعون على قالة امرأته ، إلاّ أنه ما قتله ،

وأما أنه قرة عين له فلا خبر عنه ، فـ« لو قال فرعون قـرة عين لي ولـك لكان لهما جميعاً »(١) .

فيا للقدرة القاهرة الباهرة التي تسخر منهم بتحدٍ سافر « وهم لا يشعرون » ، ويا لفؤاد أم موسى متفئداً فارغاً من فراقه ، وكيف ألقته في اليم فألغته في خضم أمواجه ؟! :

﴿ وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَى فَارِغاً إِنْ كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ لَوْلَا أَنْ رَبَطْنَا عَلَى قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾١٠ .

الفؤاد هو القلب المتفئّد إما بنور العرفان : « ما كذب الفؤاد ما رأى » (٥٣ : ١١) أم نار النكران : « نار الله الموقدة . التي تطلع على الأفئدة » (١٠٤ : ٧) أم نار الهجران على محور الايمان ولمّا يتم في القلب ويطم ، وهكذا

---

(١) الدر المنثور ٥ : ١٢١ ـ اخرج ابن جرير عن محمد بن قيس قال قالت امرأة فرعون : قرة عين لي ولك لا تقتلوه ، قال فرعون : قرة عين لك أمالي فلا ، قال محمد بن قيس قال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) : لو قال . . . » .

وفي نور الثقلين ٤ : ١١٥ عن تفسير القمي عن ابي جعفر (عليه السلام) في عرض القصة . . وكان لفرعون قصر على شط النيل منتزهاً فنظر من قصره ومعه آسية امرأته إلى سواد النيل ترفعه الأمواج والرياح تضربه حتى جاءت به إلى باب قصر فرعون فامر فرعون بأخذه فأخذ التابوت ورُفع اليه فلما فتحه وجد فيه صبياً فقال : هذا اسرائيلي ! فألقى الله في قلب فرعون لموسى محبة شديدة وكذلك في قلب آسية رحمة الله عليها وأراد فرعون ان يقتله فقالت آسية « لا تقتلوه عسى ان ينفعنا أو نتخذه ولداً وهم لا يشعرون » انه موسى .

وفي المجمع قال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) والذي يحلف به لو أقر فرعون بان يكون له قرة عين كما اقرت امرأته لهداه الله به كما هداها ولكنه ابي للشقاء الذي كتبه الله عليه .

أصبح فؤاد أم موسى فارغاً عما كان من اطمئنان بوحي وعن كل شيء إلّا همُّ موسى ! وهي طبيعة الحال في قلوب الأمهات في هذه الحالات الفارغة التي تُفرغ عن العقل واللب فتوصل القلب إلى حالة فارغة عما فيه من اطمئنان وايمان ، متعلقاً بفلذة كبدها و « اصبح فارغاً » لحدٍ « إن كادت لتبدي به » أنه ولدها وقد قذفته في اليم ، صارحة صارخة دون تفكير في العاقبة في تلكم الأجواء المراقبة ، فتقول هاتفة كالمجنونة : أنا التي ألقيته فألغيته ، فأغيثوني في ولدي الغريق في خضمِّ اليم !

« إن كادت لتبدي به لولا ان ربطنا على قبلها » ربطة لاحقة لما سبقت من طَمأنة الوحي « لتكون من المؤمنين » بما وعدناها ، فيملأ قلبها من الايمان الإطمئنان فلا تبدي من أمره شيئاً حتى يأتي وعد الله .

اجل وفي مثل هذه الحالة الموحشة المضطربة لا يتمكن انسان ايا كان أن يملك نفسه وقلبه الفارغ إلّا ان يدركه الملك المنان .

وقد تعني « فارغاً » الفراغ عن كل هم وغم ، لّما رأته في البلاط الفرعوني قرة عين ، « فارغاً » وفرحاً لحد « إن كادت لتبدي به » انه ولدها « لولا ان ربطنا على قلبها » تضبيطاً له كيلا تتفلت في مصارحة لا اختيارية « ربطنا . . لتكون من المؤمنين » .

ولكن « لتكون من المؤمنين » تشي إلى ضعف في ايمانها بفراغ قلبها ، فلما « ربطنا على قلبها » خرج عن فراغها إلى ايمانها بوعد الله : « إنا رادوه اليك وجاعلوه من المرسلين » .

ثم « واصبح » هنا بعد اللتيا والتي ـ لا عند الوحي اليها ـ لا تناسب إلّا فراغ اللّااطمئنان ، وهذه طبيعة الحال في فؤاد غير المعصوم مهما اوحي اليه ما يُطَمئنه ، ثم « ربطنا على قلبها » تحكيم على قلبها المتقلب المتمزق المتفرق ، الفارغ الخاوي عما وعد الله .

وقد تؤيد ذلك الفراغ « ولتعلم ان وعد الله حق » بعد ردّه اليها، والفراغ عن كل هم وغم هو العلم بان وعد الله حق !

وقد يلمح ذلك الفراغ لفؤادها ، أنها لمحت بالتقاطه ففزعت ، فلذلك :

﴿ وَقَالَتْ لِأُخْتِهِ قُصِّيهِ فَبَصُرَتْ بِهِ عَنْ جُنُبٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾[11] .

فهذه القالة بفراغ الفؤاد لمحة لامعة بقضية الحال ، أنها لما قذفته في اليم تبعته ناظرة إلى الأمواج اين تحوّله ، فبصُرت به يلتقطه آل فرعون ، فاصبح فؤادها فارغاً فقالت لأخته قصيه ، ولولا أنها لمحت به خارج اليم لم تكن لقالتها هذه أية مناسبة !

« قصّيه » إتبعي أثره نحو القصر « فبُصرت به عن جنب » إبصار البصيرة ، لا فقط ابصار البصر ، فـ « أبصر » هي في ابصار البصر ، و« بُصر به » هي البصيرة ، ام الإبصار في خفية ، ولقد بصرت به خفية وبكل وجودها « عن جنب » : مكان بعيد ومجانبة مزورة في نظرتها ألاّ يُنظر إليها وإلى نظرتها ، فالجنب يشملها « وهم لا يشعرون » أنها بصُرت به ، رغم الرقابة التامة التي هي قضية الحال في مثل ذلك اللقيط ! أم « لا يشعرون » انها أخته لأنها ما بصُرت به كأخت إلى أخ ، وإنما كمتفرج إلى القصر بشاطيء البحر ، وعلى أية حال كان بصرها به في خفية وسُترة كيلا يخيّل اليهم إن رأوها أن لها صلة بموسى[1] ؟

---

(١) الدر المنثور ٥ : ١٢١ ـ اخرج ابن عساكر في تاريخ دمشق عن ابي روّاد ان رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) قال لخديجة : اما علمت ان الله قد زوجني معك في الجنة مريم بنت عمران وكلثوم اخت موسى وآسية امرأة فرعون ؟ قالت : وقد فعل الله ذلك يا رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) ؟ قال : نعم ، قالت : بالرفاء والبنين ، وفيه

هنا اطمأنت أم موسى عن فراغ فؤادها ، متأكدة أنه آمنٌ في البلاط ، ولكنها راجية بعدُ رجوعَه لترضعه كما وعد الله ، وكان كما رجت :

﴿ وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ مِن قَبْلُ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وَهُمْ لَهُ نَاصِحُونَ ﴾[١٢] .

ما كانت الخطوة الأولى إلّا للحفاظ على حياة موسى وكونه ، ثم إلى الخطوة الثانية لحيويته وكيانه ، إذ لا يصلح أن يرتضع من أية مرضعة ولا سيما القبطيات المشركات « وحرمنا عليه المراضع من قبل » حرمة تشريعية وتكوينية ، وهو الله تعالى المتكفل لإبعاده عن المراضع إلّا أمه ، وهو الملهم له ألّا يرتضع من أية مرضعة إلّا أمه فكان كما اراد الله وارتضاه .

و « المراضع » جمع مَرْضَع وقد يجمع هنا المصدرَ ومكانَ الرضعة وزمانَها ، فمكانها هو الثدي فلا يقبل أي ثدي ، وزمانها زمان الحاجة إلى الرضاع ، والحرمة حلقت على كل زمان وكل مكان للرضعة ، وحتى إذا أخذ لبن من مرضعة حتى يشربه دون مرضعة فكذلك الأمر ، حيث التحريم شامل للرضعة بأصلها وزمانها ومكانها .

و « من قبل » قد تعني من قبل اقتراح اختها ، وأخذهم اياه من اليم ، ومن قبل ولادته وانعقاد نطفته ، حيث المراضع غير الصالحة لا تناسب الرسالة الصالحة ، « ولتصنع على عيني » لا تتناسب الرضعة الطالحة « فقالت . . . » .

هنا فجوة بين القصة ، وطبعاً هي انه لم يقبل اي مرضع وكان جائعاً

اخرج الطبراني وابن عساكر عن ابي امامة قال قال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) : ما شعرت ان الله زوجني مريم بنت عمران وكلثوم اخت موسى وامرأة فرعون فقلت : هنيئاً لك يا رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) .

عطِشاً ، فكانوا نـاظرين إلى مـرضع يقبله ، فجاءت اخته فيمن جئن حسب الطلب ، للإدلاء إلى من ترضعه « قالت » متساءِلة لصالحهم ، متنكـرةً « هل أدلكم عـلى أهل بيت يكفلونه لكم » كفالة الرضاعة وسواها ، لا فحسب بل « وهم له ناصحـون » كما يناسب لقيط البلاط وقـرة عين فـرعون وزوجـه . وبـطبيعة الحـال هم يَقبلون ويُقبلون إلى أهل بيت يكفلونـه في بعدي الكفـالة اللائقة المرغوبة المرمـوقة ، وطبعـاً بجعلٍ عـلى الكفالـة « . . ترضـع ولدهـا وتأخذ أجرها »(١) ، وتـراهم كيف لم يتفطنـوا بما قـالت انها على معـرفة بمن ينـاسب تلك الكفالـة ، فيفتشوا عن مصـدره ومـورده علّه أهـل بيت مـوسى نفسه ؟

لقد اعماهم الله عن ذلك وهم في حالة محرجة مخرجة لهم عن كل همٍ إلّا الحصول على من يكفله . وأخيراً :

﴿ فَرَدَدْنَاهُ إِلَىٰ أُمِّهِ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ ١٣

لقد ارتدت اللقطة إلى أمه الملهوفة ، بـارادة الله ، لـ« كي تقر عينهـا » بحضانته « ولا تحزن » لفراقه « ولتعلم ان وعد الله حق » بعدما ربط الله عـلى قلبـها ووعدهـا من قبلُ أن يـرده إليها « ولكن اكثر الناس لا يعلمـون » حقَّ الوعد والـوعد الحق من الله لـلأولى أو الأخرى ، و« لا يعلمـون » هذا يعني

---

(١) الدر المنثور ٥ : ١٢٣ ـ اخرج ابو داود في الراسيل عن جبير بن نفير قـال قال رسـول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) مثل الذين يغزون من امتي ويـأخذون الجعل يعني يتقوون على عدوهم مثل ام موسى ترضع ولدها وتأخذ اجرها .

وفي البحار ١٣ : ٢٧ قال الراوي قلت لأبي جعفر (عليه السلام) فكم مكث موسى غائباً عن امه حتى رده الله عليها ؟ قال : ثلاثة ايام .

جهل التجاهل والتغافل عن تقصير دون قصور ، اللهم إلاّ بتقصير .

وما الذي حصل بعدُ حتى بلغ أشده ؟ النص ساكت عن هـذه الفجوة لأنها ليست من صحيح القصص المُرام في الدعوة القرآنيـة ، فانما ينتقل من رضاعه إلى بلوغ أشده مع العلم أنه في هذه الفترة كان كما قال الله « ولتصنـع على عيني » اينما كان وأبان .

وَلَمَّا بَلَغَ
أَشُدَّهُۥ وَٱسْتَوَىٰٓ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى
ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٤﴾ وَدَخَلَ ٱلْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا
فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَٰذَا مِن شِيعَتِهِۦ وَهَٰذَا مِنْ
عَدُوِّهِۦ ۖ فَٱسْتَغَٰثَهُ ٱلَّذِى مِن شِيعَتِهِۦ عَلَى ٱلَّذِى مِنْ
عَدُوِّهِۦ فَوَكَزَهُۥ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ ۖ قَالَ هَٰذَا مِنْ عَمَلِ
ٱلشَّيْطَٰنِ ۖ إِنَّهُۥ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ
نَفْسِى فَٱغْفِرْ لِى فَغَفَرَ لَهُۥٓ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٦﴾
قَالَ رَبِّ بِمَآ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِّلْمُجْرِمِينَ ﴿١٧﴾
فَأَصْبَحَ فِى ٱلْمَدِينَةِ خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ فَإِذَا ٱلَّذِى ٱسْتَنصَرَهُۥ

مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

بِالْأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُ قَالَ لَهُ مُوسَىٰ إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُّبِينٌ ﴿١٨﴾
فَلَمَّا أَنْ أَرَادَ أَن يَبْطِشَ بِالَّذِي هُوَ عَدُوٌّ لَّهُمَا قَالَ يَا مُوسَىٰ
أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًا بِالْأَمْسِ إِن تُرِيدُ إِلَّا
أَن تَكُونَ جَبَّارًا فِي الْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَن تَكُونَ مِنَ
الْمُصْلِحِينَ ﴿١٩﴾ وَجَاءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ
قَالَ يَا مُوسَىٰ إِنَّ الْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَاخْرُجْ
إِنِّي لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ ﴿٢٠﴾ فَخَرَجَ مِنْهَا خَائِفًا يَتَرَقَّبُ
قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٢١﴾

﴿ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَىٰ آتَيْنَاهُ حُكْماً وَعِلْماً وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴾[١٤]

الأشُد جمع الشدّ وأقله ثلاث شُدات هي : شدّ العقل والرشد إلى شد الجسم ، وترى « حكماً وعلماً » هنا هما الرسالة وعلمها ؟ وآية الشعراء تؤجلها إلى ما بعد رجوعه إلى مدين ! : « ففررت منكم لما خفتكم فوهب لي ربي حكماً وجعلني من المرسلين » (٢١) فلم يكن قبلئذٍ رسولاً فهو حكم غير رسالي !

علّها من ذي قبل حكمُ النبوءة وعلمها قبل الرسالة ، حيث الحكم والعلم للأنبياء درجات ، ابتداءً من الوحي غير الرسالي وهو النبوءة ، ثم الرسالي ، ومن ثم النبوّة وهي الرفعة بين المرسلين ، ثم ولاية العزم وهي

الإمامة بين سائر المرسلين ، وفي الختام إمامة الأئمة الرسالية ككل وهي الخاصة بخاتم النبيين (صلى الله عليه وآله وسلم) وقد تدرَّج موسى إلى ما قبل الأخيرة ، وكما ان بلوغ الأشد هو اكتمال هذه الثلاث وهو في العادة بين ١٨ سنة و ٣٠[١] ، كذلك « استوى » بعدُ هو القيام بنفسه في حاجيات الحياة وهو إلى الأربعين بل هو من منتجات بلوغ الأشد ، وهنا « آتيناه حكماً وعلماً » .

وهذه هي ضابطة الحكم والعلم الرباني « وكذلك نجزي المحسنين » كلًا على قدر أحسانه ، وما قدّره الله من كيانه ، من مؤمن امتحن الله قلبه بالايمان إلى أوّل العابدين وخاتم النبيين (صلى الله عليه وآله وسلم)،ولأن الحكم الرسالي وعلمه ليسا جزاء الإحسان ، وإلّا اصبح كل محسن رسولاً ، فلا يعني « حكماً وعلماً » هنا الرسالة ، فقد تكون نبوءة الوحي أمّا دونها من إلهامات غيبية هي من مخلفات الحالات التصفوية للمحسنين .

فكون الحكم والعلم جزاء إحسانه كما « وجعلني من الرسلين » بعد رجوعه من مدين، هذان برهانان ساطعان على أن «حكماً وعلماً » هنا لا يعنيان الرسالة .

وهنا نتلمح ان بلوغه اشده واستواءه كان عند بلوغه الثلاثين حيث الرسل يرسلون عند الأربعين ، وكان بين الحكين عشر سنين .

اتراه في هذه الفترة وهي زهاء ثلاثين سنة أم تزيد ، تراه ظل يترعرع

---

(١) نور الثقلين ٤ : ١١٧ عن معاني الأخبار بسند متصل عن الأحول عن ابي عبد الله (عليه السلام) في قول الله عز وجل « فلما بلغ اشده واستوى » قال : اشده ثمان عشر سنة واستوى التحى . وفي احاديث متظافرة انه لم يبعث نبي إلا على رأس أربعين سنة ، اللهم إلا يحيى في وجه من الآية « وآتيناه الحكم صبياً » .

في البلاط الفرعوني ، مستريحاً في حياة تحضيرية لتلك الرسالة السامية ، وهو يرى كيف يُسام قومه سوء العذاب بتذبيح الأبناء واستحياء النساء وسائر البغي اللئيم ، وابشع صورة للفساد الشايع الأثيم ؟

ليست هذه سيرة المحسنين الذين يجزون حكماً وعلماً ! بل كانت حياته في تلك الفترة إحساناً حسب المكنة بشعبه منذ غلمته[1] وكما اغاث الذي من شيعته على الذي من عدوِّه ، فقد كان عطوفاً بشيعته ، رقيباً عليهم ، وبطبيعة الحال منعزلاً عن التأثر من جو البلاط الطاغي كما يمكن في تقية تحافظ على كيانه على قدر امكانه ، وتلمح لهذه الحالة اجمالة « وكذلك نجزي المحسنين » تعقيباً رقيباً على بيتّه قبل ان يؤتى حكماً وعلماً هكذا ، وكما دخوله المدينة على حين غفلة من أهلها لمحة صارحة باتباعده عن المدينة خوفة من جلاوزة البلاط ! :

﴿ وَدَخَلَ الْمَدِينَةَ عَلَى حِينِ غَفْلَةٍ مِنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَذَا مِنْ شِيعَتِهِ وَهَذَا مِنْ عَدُوِّهِ فَاسْتَغَاثَهُ الَّذِي مِنْ شِيعَتِهِ عَلَى الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ فَوَكَزَهُ مُوسَى فَقَضَى عَلَيْهِ قَالَ هَذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ عَدُوٌّ مُضِلٌّ مُبِينٌ ﴾١٥ .

---

(١) نور الثقلين ٤ :١١٧ عن تفسير القمي : . . فلما درج موسى كان يوماً عند فرعون فعطس موسى فقال : الحمد لله رب العالمين ، فأنكر فرعون ذلك عليه ولطمه وقال : ما هذا الذي يقول ؟ فوثب موسى على لحيته وكان طويل اللحية فهلبها أى قلعها فالمه ألماً شديداً فهم فرعون بقتله فقالت له امرأته : هذا غلام حدث لا يدري ما يقول وقد لطمته بلطمتك إياه فقال فرعون : بل يدري ، فقالت له : ضع بين يديه تمراً وجمراً فإن ميز بين التمر والجمر فهو الذي تقول ، فوضع بين يديه تمراً وجمراً وقال له كل فمد يده إلى التمر فجاء جبرئيل (عليه السلام) فصرفها إلى الجمر فأخذ الجمر في فيه فاحترق لسانه وصاح وبكى فقالت آسية لفرعون : الم أقل لك إنه لم يعقل ؟ فعفى عنه .

« ودخل المدينة » فيه احتمالان اثنان ، أن كان خارج المدينة خوفة من فرعون وملإه ثم دخلها فرأى ما رأى ؟ أم كـان القصر الملكي خـارج المدينـة « فلم يزل موسى عند فرعون في اكرم كرامة حتى بلغ مبلغ الرجال وكان ينكر عليـه ما يتكلم بـه موسى من التوحيد حتى همّ بـه فخرج مـوسى من عنـده ودخل المدينة . . »[1] .

كـلٌ محتمل والجمـع اجمل ، فعلّه كـان يتـردد في القصـر ويقـول قـالـة التوحيد ويفعل فعلته عندهم فهمّ به فـرعون حتى « دخـل المدينـة . . » لآخر مـرة ثم لم يـرجـع إلى فـرعـون إلاّ بعـد رجـوعـه من مـدين رسـولاً ، ولقـد كـان من المحسنين حين كان في البـلاط ، دون أي تأثر بذلـك الجو المـظلم الظالم ولا تربٌ إلاّ ربـوة جسدانيـة « قال ألم نـربك فينـا وليداً ولبثت فينـا من عمرك سنين »(٢٦ : ١٨) وعلى أية حال « دخل المدينة » وهي بـطبيعة الحـال مصر « على حين غفلة من أهلها » وحين الغفلة قد تلمح أنه كـان ملاحَقـاً في المدينة من قِبَل السلطة وعيون القصـر إذ « همّ به فـرعون »[2] وقـد تلمح

---

(١) البحار ١٣ : ٢٧ عن ابي جعفر الباقر (عليه السلام) في تفصيل القصة .

(٢) البحار ١٣ : ٣٦ بسند متصل عن سعيد بن جبير عن سيد العـابدين عـلي بن الحسين عليهما السلام عن ابيه سيد الشهداء الحسين بن علي عليهما السلام عن ابيـه سيد الـوصيين عـلي بن أبي طالب (عليـه السلام) قـال قال رسـول الله (صلى الله عليـه وآلـه وسلم) لما حضرت يوسف الوفاة جمع شيعتـه وأهل بيتـه فحمد الله وأثنى عليـه ثم حدثهم بشدة تنالهم يقتل فيها الرجال وتشق بطون الحبالى وتذبح الأطفـال حتى يظهـر الله الحق في القائم من ولد لاوي بن يعقوب وهو رجل اسمر طويل ووصفه لهم بنعته فتمسكـوا بذلـك ووقعت الغيبة والشدة ببني اسرائيل وهم ينتظرون قيام القائم اربعمائة سنة حتى إذا بشـروا بـولادته ورأوا عـلامات ظهـورته اشتـدت البلوى عليهم وحمل عليهم بـالخشب والحجـارة وطلب الفقيه الذي كانوا يستريحون إلى أحاديثه فـاستتر وتـراسلوه وقالـوا : كنا مـع الشـدة

« حين » انه وقت الإستراحة النوم لأهل المدينة ، ولكنه دخول قاصد ذلك الحين إذ كان يخافهم من فرعون وملإه ، وإلاّ فلماذا دخلها على حين غفلة من أهلها ؟ .

« فوجد فيها رجلين يقتتلان هذا من شيعته وهذا من عدوه » وهذا مما يدل على أنه كان معروفاً لدى شعبه وأتباعه في الايمان ، خلاف الآخرين ، فان « من شيعته » دون من اشياعه ، و « من عدوه » دون من أعداءه ، مما يوضح ذلك في بعدين ثانيهما ان « هذا » الأوّل صادر منه صدور الأشياء من مصادرها وهو هنا مصدر الايمان ، و « هذا » الثاني صادر من عدوه فرعون وهو مصدر الكفر ، إذاً فالأول موحد والثاني مشرك ، والمشرك المحارب يجوز أو يجب قتاله وقتله إلا في ظروف استثنائية تتغلب على صالح الموقف .

« فاستغاثه الذي من شيعته على الذي من عدوه » وهذه الإستغاثة مما يؤكد وجوب إغاثة المؤمن على الكافر .

« فوكزه موسى فقضى عليه » والوكز هو الضرب بجميع الكف وليس هو قتلاً ، فلا أنه قصد قتله ، ولا أن الوكز مما يقتل في العادة ، ولكنه صادَف أن « قضى عليه » بوكزه إذ كان قوياً ، وحالة الدفاع عن المؤمن حالة استثنائية تقوي الضعيف فضلاً عن القوي ، فقد وقع ما لم يقصد وقصد ما لم

نستريح إلى حديثك فخرج بهم إلى بعض الصحارى وجلس يحدثهم حديث القائم ونعته وقرب الأمر وكانت ليلة قمراء فبينما هم كذلك إذ طلع عليهم موسى (عليه السلام) وكان في ذلك الوقت حديث السن وقد خرج من دار فرعون يظهر النزهة فعدل عن موكبه واقبل اليهم وتحته بغلة وعليه طيلسان خزٌ فلما رآه الفقيه عرفه بالنعت فقام اليه وانكب على قدميه فقبلهما ثم قال : الحمد لله الذي لم يمتني حتى ارانيك فلما رأى الشيعة ذلك علموا انه صاحبهم فاكبوا على الأرض شكراً لله عز وجل فلم يزدهم على ان قال : ارجو ان يعجل الله فرجكم ثم غاب بعد ذلك وخرج إلى مدينة مدين . . .

يقع فـ« قال هـذا من عمل الشيطان إنه عـدو مضـل مبين » ، اتـراه يشـير بـ« هذا » إلى عمله ؟ وكيف يكون عمـل موسى ـ الـذي أتاه الله حكـماً وعلماً بإحسانـه ـ من عمل الشيـطان !

لا ريب أن دفاعه عن الذي من شيعته بـوكزتـه كان قضيـةَ الايمان ومن عمل الرحمن ، وحاشاه ان ينسبه الى الشيطان ، فقـد « يعني الإقتـتال الذي كـان وقع بـين الرجلين لا مـا فعله موسى من قتله »[1] بـوكـزه دون تقصُّـد لقتله .

---

(١) بحار الأنوار ١٣ : ٣٢ ح ، ن في خبـر ابن الجهم قـال سـأل المأمـون الرضـا (عليه السلام) عن قـول الله عز وجـل « فوكـزه موسى فقضى عليـه قال هـذا من عمل الشيطان » قال الرضا (عليه السلام) : إن موسى (عليه السلام) دخل مدينة من مدائن فرعون على حين غفلة من أهلها وذلك بين المغرب والعشاء فوجد فيها رجلين . . . فقضى موسى (عليه السلام) على العـدو بحكم الله تعالى ذكـره فوكـزه فمات قـال : هذا من عمـل الشيطان ، يعني الاقتتـال الذي كـان وقـع بـين الرجلين لا مـا فعله مـوسى (عليه السلام) من قتله ، إنه : يعني الشيطان ، عدو مضل مبين » .

قـال المأمـون : فما معنى قـول موسى : رب اني ظلمت نفسي فـاغفر لي » ؟ قـال : يقول : إني وضعت نفسي غير موضعها بد خولي هذه المدينـة « فاغفـر لي » أي استرني من اعدائك لئلا يظفروا بي فيقتلونيّ « فغفر له إنه هو الغفور الرحيم ، قال مـوسى : « رب بما انعمت علي » فن القوة حتى قتلت رجلاً بوكزة « فلن اكون ظهيراً للمجرمين» بل اجاهـد في سبيلك بهذه القوة حتى تـرضى « فاصبـح » موسى (عليـه السلام) « في المـدينة خـائفاً يـترقب فإذا الـذي استنصره بـالأمس يستصرخـه » على آخـر « قال لـه موسى إنـك لغوي مبين » قاتلت رجـلاً بالأمس وتقـاتل هـذا اليوم ؛ لأودبنك واراد أن يبطش به . فلما أراد أن يبطش بالذي هو عدو لهما » وهو من شيعته قال يا مـوسى اتريـد ان تقتلني كما قتلت نفسـاً بالأمس ان تريد إلا ان تكون جباراً في الأرض وما تريد ان تكون من المصلحين .

قال المأمون جزاك الله خيراً يا ابا الحسن فما معنى قـول موسى لفـرعون « فعلتهـا إذاً

أم يعني «هذا» الذي «من عـدوه » أنه من عمـل الشيطان كـما قـال الله لنوح عن ابنه « إنه عمـل غير صالح » «إنه عدو مضل مبين » يعمل أشياعاً لـه كهـذا العدو ، ثم يحملهم عـلى عمله ؟ أم ان « هذا » يعنيهـما ، هذا العـدو وعمله ، وما أجمله جمعاً ، وهما مما أجّـلا الرسـالة الموسوية،معجّـلاًلـه ارادة القتل « ولهم علي ذنب فـأخـاف أن يقتلون» وتـراه إذا لم يكن عمله من عمل الشيطان فكيف يستغفر ربه فيه بما ظلم :

﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ »[١٦] .

« نفسي » هنا دون غيري مما يذود عن ساحته القتـل ظلماً ، فانمـا يعني بظلمه نفسه هنا الإنتقاص غير القاصد بقتل الذي من عـدوه في نصرة الـذي من شيعته ، إذ خلّف ملاحقته الشديدة من قبل السلطة الفرعونية ، فقتلاً لـه بقتله أو تأخيراً لرسالته الموعودة ، فطالما الظلم هنا لا يعني التعدي الى غيره ، كذلك لا يعني في انتقاص نفسه انه كان قـاصداً فيـه ، فطلب من ربـه الغفر الكامل والستر الشامل عما يرصده من قتل « فغفر له » فدفـع كيد فـرعون ثم ارسله اليه بعد ردح من زمن رحلته إلى مدين .

فالغفر لموسى (عليه السلام) كما الغفر لرسول الهدى في الفتح « ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر » مهما كان بينهما بون من ناحية اخرى هي

وانا من الضالين » قال الرضا (عليه السلام) إن فرعون قال لموسى (عليه السلام) لما اتاه « وفعلت فعلتـك التي فعلت وانت من الكافـرين » بي قـال مـوسى « فعلتهـا إذاً وانـا من الضالين » عن الطريق بوقوعي إلى مدينة من مدائنـك « ففرت منكم لـما خفتكم فوهب لي ربي حكماً وجعلني من المرسلين » . . (عن الاحتجاج ٢٣٤ وعيون الأخبار ١١٠) .

اقول : هو من شيعته اختلاق كما يأتي ، كما لأوذنبك .

الخطاء فيما فعله موسى ولم يخطأ رسول الهدى (صلى الله عليه وآله وسلم) ! ولولا ذلك القتل الخاطيء دونما تقصُّد لم يضطر موسى (عليه السلام) إلى الفرار ، ولا تأخرت رسالته عشر سنين .

والغفر في خلفية القتل كان عاجلاً في الذب عن قتله ، وآجلاً في بداية رسالته بعد ذلك الردح البعيد من الزمن « ثم جئت على قدر يا موسى » (٢٠ : ٤٠) .

﴿ قَالَ رَبِّ بِمَا أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيراً لِلْمُجْرِمِينَ ﴾١٧ .

وقد تعني هذه النعمة اضافة الى نعمة النبوءة والايمان نعمة الذب عن قتله والغفران ، والقوة الدفاعية القاضية على عدوٌ له ، و « لن » تحيل باختياره ان يكون ظهيراً للمجرمين ، كما لم يكن ظهيراً لهم وهو يعيش في قصر الإجرام ، ثم لما رأى قتالاً بين عدو له وشيعة نصر شيعته على عدوه مهما اخطأ في قتله ، حيث الظروف ما كانت تساعد على ذلك القتل- مهما كان مسموحاً في اصله[1] ـ إذ خلّف الفرار عن مسرح الدعوة ، وخوفة الانتقام في فترة من الزمن بعيدة،وليس يعني الذي من شيعته فيمن يعنيه « المجرمين » إذ بطش مرة ثانية لتخليصه وهذه مظاهرة ، مهما كان من المجرمين من أوقع غيره في جرم أو من أدت إعانته إلى جرم ، إذ لم تكن وكزته جرماً حيث لم يقصد قتله ، وانما قصد تخليص الذي من شيعته ، كما ولم تكن المقاتلة من ناحية المؤمن قصداً إلى إدخال موسى في الجرم ! .

وهنا ندرس ان وكزة الدفاع مقصورة على قَدَر الدفاع حتى مع الكافرين

(١) الدر المنثور ٥ : ١٢٢ ـ أخرج احمد في الزهد عن وهب قال قال الله عز وجل بعزتي يابن عمران لوان هذه النفس التي وكزت فقتلت اعترفت لي ساعة من ليل أو نهار بأني لها خالق لأذقتك فيها طعم العذاب ولكن عفوت عنك في أمرها أنها لم تعترف لي ساعة من ليل أو نهار إني لها خالق أو رازق .

فضلاً عن المؤمنين ، اللهم إلاّ في جهاد العدو في الدين ، فهنا القتل مسموح مهما كان بدائياً أو وقائياً ، فموسى يقضي بوكزة واحدة على عدوه المهاجم على شيعة له ، مما يشي يبالغ قوته وفتوته ، مصوراً مدى انفعاله وغضبه ، وما كان يخالجه من الضيق بفرعون وملإه الظالمين بحق أشياعه المضطهدين ، ولكن لما رآه جثة هامدة خامدة بين يديه ندم على هذه الصدفة الهائلة فاستغفر ربه وأناب اليه واستنجده لموقفه الحرج المخيف ، فأنجده الله .

﴿ فَأَصْبَحَ فِي ٱلْمَدِينَةِ خَائِفاً يَتَرَقَّبُ فَإِذَا ٱلَّذِي ٱسْتَنْصَرَهُ بِالأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُ قَالَ لَهُ مُوسَى إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُبِينٌ ﴾ ١٨ .

مضى يوم « فأصبح » لغده « خائفاً » خلفيَّة قتله بالأمس « يترقب » الفرج من ربه ، ام و« يترقب » مَنفذاً عن مضيَقة،أو يترقب الفضيحة في انكشاف امره وخلفية الأذى ، ملتفتاً متوجساً يتوقع الشر في كل لحظة ، مما يؤكد حساسية القصر ضده منذ أمد ، وإلاّ فما أرخص لرجل القصر ، المتبنّى لفرعون ، أن يقتل أياً كان من الشعب ، فقد كان حين دخل المدينة منفصلاً عن القصر ، معروفاً لدى شيعته لحد عرفه هذا الذي من شيعته ، كما عرفه عدوه الثاني إذ « قال يا موسى أتريد ان تقتلني كما قتلت نفساً بالأمس . . . » !

مضى يوم عن الواقعة وهو « خائف يترقب » ـ « فإذا الذي استنصره بالأمس» من شيعته «يستصرخه» في اقتتال ثان مع عدو لهما ثان ، محنة بعد محنة ، مما يحرِّج موقفه اكثر مما كان ، فـ« قال له موسى إنك » دون شك « لغوي » عن صراط الحق « مبين » غوايتك ، والإستصراخ هي طلب الصرخة أن تَطلُب من موسى بصرخة ان يصرخ على عدوه الثاني قالة وفعالة كما فعل بالأمس على الأوّل .

وتـراه كيف يهتف بشيعة لـه حالـة اقتتالـه مع عـدو لـه « انـك لغـوي مبين » ؟ لأن اقتتال شيعته مع الأعداء الفرعونيين ـ ولمّا يحن حينه ، ولا قويت لموسى يمينه ، وهو في بدايـة أمره ـ ذلـك القتال العجـال غير صـالح في هـذا المجـال ، كما وان رسـول الهدى (صـلى الله عليه وآلـه وسلم) واصحـابـه لم يقـاتلوا أو يدافعـوا في العهد المكي إذ مـا حان ـ بعـدُ ـ حينه حتى جـاءالعهد المدني فسمح له في الدفاع والجهاد .

ثم الدعوة الـرساليـة مهما كـانت قويـة ، ليست لتبدء بـالقتال والقتـل والقسـوة ، وإنما بـالحكمة والموعظة الحسنـة والجدال بـالتي هي احسن ، ثم القتال إذا وُجد له مجال .

فموسى الذي هم به فرعون ، وهو هارب من بأسه فيدخل المدينـة على حين غفلة من أهلها ، كيف يجوز لشيعة له ان يكـدِّر عليه الجو اكثر مما كان فيقاتل عدواً لهما ، فيفرض عليه نصره فقفزه فـالقضاء عليـه ، ثم يكرر بعـد يوم نفس المسرح ، مما يحرِّج موقفه الرسالي اكثرمما حـرّج أول مرة ، إذاً فحقٌ له هتافه « إنك لغوي مبين » .

اجل ، غوي بعراكه هذا الذي لا ينتهي إلاّ إلى ثائرة نـائرة عـلى موسى وبني اسرائيل ككل .

وهم بعدُ ضعفاء ، ما حانت لهم الثورة « مبين » تلك الغواية في المدينة حيث ضاعت وشاعت وتشيـع اكثر ممـا كانت فتجتث اصـول الثورة المستقبلة الرسالية،وقد تلمح « انك لغوي مبين » انه ممن أشير إليه من ذي قبل بـ« هذا من عمل الشيطان » لا فحسب الذي من عدوه ، والمقـاتلة ، بل والـذي من شيعته حيث اقدم على المقاتلة ، إذاً فـ« هذا » ثالوث الشيطنة وموسى قد ابتلي بهـا لحد يستغفـر ربه من خلفيـاتها ولم يعمـل هو إلاّ واجبـه دفـاعـاً عن نفس مؤمنة ، مهما اخطأ طورَة بقفزه القاتل دون تقصُّد .

فـ« إني ظلمت نفسي » تعنيه كرسول ، وفي ذلك القتل قتل له أو لرسالته « فاغفر لي » ستراً لما يُتربص بي من دوائر السوء « فغفر له » نجاةً عن قتله وإبقاءً لرسالته وإن تأخرت عشر سنين .

لقد وقع موسى هنا في مأزق ثان كالأول ، فهل يقفز تعجيلاً فكالأول ، ام هل يحفز تأجيلاً،والحفاظ على النفس المؤمنة واجب ؟ فإنما يبطش بالفعل دون قفز قاض ولا حفز منحاز :

﴿ فَلَمَّا أَرَادَ أَنْ يَبْطِشَ بِالَّذِي هُوَ عَدُوٌّ لَهُمَا قَالَ يَا مُوسَى أَتُرِيدُ أَنْ تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْساً بِالْأَمْسِ إِنْ تُرِيدُ إِلَّا أَنْ تَكُونَ جَبَّاراً فِي الْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْمُصْلِحِينَ ﴾[١٩] .

« الذي هو عدو لهما » طبعاً هو القبطي الفرعوني ، اترى « قال يا موسى » هي قالة الإسرائيلي لأنه اغتاظ بكلامه « انك لغوي مبين » فظن انه يقصد ببطشه إلى قتله ، فوبخه ببطشته تأنيباً له « اتريد ان تقتلني . . . » فعرف القبطي ان موسى هو الذي قتل منهم نفساً بالأمس فاخبر فرعون الخبر فائتمروا بموسى فجاء رجل من اقصى المدينة يسعى . . ؟

وإرادة البطش بالذي هو عدو لهما ظاهرة الهدف ان ليس هو الذي من شيعته ! وغواية المؤمن لا تقتضي قتله وهو يحارب المشرك ! ولا مرجع صالحاً لضمير الغائب في « قال » إلاّ « الذي هو عدو لهما » فإنه الأقرب لفظياً ومعنوياً ! و« كما قتلت نفساً بالأمس » لا تناسب إلا نفساً كهذه النفس وهي العدوة لهما ، إذ لا صلة ولا مماثلة بين قتل الإسرائيلي المؤمن المهاجَم ، وقتل القبطي الكافر المهاجِم ! ثم ولا تأنيب في قتله نفساً بالأمس إذ كان دفاعاً عن الذي من شيعته فكيف يؤنبه فيه ! ثم وكيف يليق به القولة الفاتكة « إن تريد إلاّ أن تكون جباراً في الأرض وما تريد ان تكون من المصلحين » فإنه ارتداد

عن الايمان فطرياً يستحق به القتل فليقتله به [١] ! ولعمر إلهي الحق ليس ذلك إلا تسفيراً للقرآن عن مغزاه ومرماه وليس تفسيراً [٢] ، فإن هي إلا قولة الذي هو عدوٌ لهما ، ولم تكن القتلة السابقة مما تخفى ـ وهي القاتلة ـ من داعية اسرائيلي رباه فرعون عُمُراً من قبلها ، فشاعت في المدينة ، والقتلة المكررة من داعية تجعله جباراً في الأرض وتنفي عنه كونه مصلحاً فيهما ، حسب الظاهرة في بداية الدعوة .

وهذه شيمة شنيعة من المتجبرين المستكبرين ان الدفاع عن الظلم إفساد وجبر ، حتى ليسمي القبطي دفاع موسى عن الاسرائيلي تجبراً في الأرض يطارد الإصلاح !.

فقد تفسد الفطرة العامة الإنسانية لحد يرون الظلم فلا يثورون عليه ، بل وينكرون على الثائرين ضد الظلم ، إذ لا يعطون حق الدفاع للمظلومين المضطهدين ، وفوق كل ذلك يسمون الدافع عنهم وعن الظلم « جباراً في الأرض » كما قاله القبطي ، لأنهم ألفوا الطاغية تطغى ولا ثورة ضده ،

---

(١) بحار الأنوار ١٣ : ٢٧ القمي عن ابي جعفر (عليه السلام) في رواية القصة .. فلما كان من الغد جاء آخر فتشبث بذلك الرجل الذي يقول بقول موسى فاستغاث بموسى فلما نظر صاحبه إلى موسى قال له : أتريد أن تقتلني كما قتلت نفساً بالأمس فخلى صاحبه وهرب ..

اقول : وهذا هو الصحيح الملائم للآية .

(٢) نور الثقلين ٤ : ١١٩ في عيون الأخبار باسناده إلى علي بن محمد بن الجهم قال : حضرت مجلس المأمون وعنده الرضا (عليه السلام) فقال له المأمون .... ـ إلى أن قال ـ: « قال له موسى إنك لغوي مبين » قاتلت رجلاً بالأمس وتقاتل هذا اليوم لأؤدبنك وأراد أن يبطش به « فلما اراد ان يبطش بالذي هو عدو لهما » وهو من شيعته « قال يا موسى ... »!

اقول كيف هو من شيعته وهو عدو لهما أي موسى والقبطي أن هذا إلّا بهتان مبين !

فحسبوا ان الطغيان حقه المطلق والثورة تخلُّفة عن الإصلاح ! فإذا رأوا مظلوماً يصرخ أو يستصرخ ، أم عطوفاً يجيب إلى صرخته فيدافع عنه،حسبوه جباراً في الأرض ، متخلفاً عن السنة المتبعة وهي الحياد أمام الطاغي والإنقياد للباغي !.

أجل إنه لا يُنكر أن الإشتباكات الفردية للداعية شبكات لانزلاقه في الفخ ، إذ لا تجدي في قلب الأوضاع الغاشمة ، كما كف الله المسلمين في العهد المكي عن تلكم الإشتباكات حتى آن أوانه ، ولذلك يخاطب موسى مَن سبَّبها بـ« إنك لغوي مبين » واعترف على نفسه « « إني ظلمت نفسي » ولكنه ليس بذلك جباراً في الأرض ، وإنما وقع في فخ من وكزته دفاعاً واجباً عليه في الظرف المختلَق خلاف ما يهواه .

لقد تفشى خبر قتله بالأمس رجلاً من رجال فرعون ، وهو طبيعة الحال ، قضية استطارة الغضب من آل فرعون على موسى الملاحَق من قبله ، واستطارة الفرح في بني اسرائيل ، فالقبيلان ـ إذاً ـ هما إذاعتان لإشاعة ذلك النبإ حتى فشى وتطاير بين كل الجماهير ، ومنهم هذا الذي اراد موسى ان يبطش به ، فائتمروا به ليقتلوه فنجاه الله من القوم الظالمين :

﴿ وَجَاءَ رَجُلٌ مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ يَسْعَى قَالَ يَا مُوسَى إِنَّ الْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَاخْرُجْ إِنِّي لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ[٢٠] فَخَرَجَ مِنْهَا خَائِفاً يَتَرَقَّبُ قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴾[٢١] .

ويا لرجال من أقصى المدينة ، ليسوا في أوساطها كالأغلبية الساحقة من المترفين ، بل هم العائشون في حوامشها البعيدة القاصية ، يا لهم من رجولات وبطولات للحفاظ على الرسالات الإلهية ، فهنا « رجل من اقصى المدينة » إلى موسى ، وهناك « رجل من اقصى المدينة » إلى رسل عيسى ،

ولا رجل من اوساطها هنا وهناك ينصر المرسلين،وقد يكون هذا الرجل هو مؤمن من آل فرعون « وقال رجل مؤمن من آل فرعون يكتم ايمانه اتقتلون رجلاً ان يقول ربي الله . . . » (٤٠ : ٢٨)[١] .

وقد يتعلق « من اقصى المدينة » بمقدر كما تتعلق بـ« جاء » فـ« رجلٌ من اقصى المدينة جاء من اقصى المدينة » ـ « يسعى » مسرعاً إلى موسى « قال يا موسى إن الملأ » الفرعوني « يأتمرون » فرعون « بك ليقتلوك » كما قتلت نفساً بالأمس وهممت اليوم بطشاً بآخر « فأخرج » منها إلى مكان سحيق لا يعرفونه « إني لك من الناصحين » وبالنتيجة :

« فخرج منها خائفاً » من ائتمارهم «يترقب» الفرج والنجاة الموعود حينما استغفر ربه فغفر له « قال ربِّ نجني من القوم الظالمين » فهو المظلوم في ذلك المسرح وليس بظالم إلاّ نفسه غير متقصد !وان موسى قتل منهم نفساً فخرج منها خائفاً يترقب ، والحسين (عليه السلام) لم يقتل منهم نفساً وخرج من المدينة خائفاً يترقب ! واين خروج من خروج[٢] . ؟

---

(١) نور الثقلين ٤ : ١١٩ في تتمة القصة على طولها عن ابي جعفر الباقر (عليه السلام) وكان خازن فرعون مؤمناً بموسى (عليه السلام) قد كتم إيمانه ستمائة سنة وهو الذي قال الله عز وجل : « وقال رجل . . . » ويلغ فرعون خبر قتل موسى الرجل فطلبه ليقتله فبعث المؤمن إلى موسى (عليه السلام) ان الملا يأتمرون بك ليقتلوك فأخرج إني لك من الناصحين . فخرج منها « كما حكى الله عز وجل « خائفاً يترقب » قال : يلتفت يمنة ويسرة ويقول : « رب نجني من القوم الظالمين » اقول : « فبعث . . » خلاف نص الآية انه « جاء يسعى » ثم وبجيئه بنفسه إلى موسى لا يناسب كونه خازن فرعون لأنه تهدير لدمه، فقد يجوز انه قبطي مؤمن غير معروف في البلاط جاء بنفسه ليحذر موسى .

(٢٢) المصدر ٤ : ١٢٠ في ارشاد المفيد في مقتل الحسين (عليه السلام) فسار الحسين (عليه السلام) إلى مكة وهو يقرء « فخرج منها خائفاً يترقب قال رب نجني من القول الظالمين » ولزم الطريق الأعظم فقال له أهل بيته : لو تنكبت الطريق الأعظم كما صنع ابن

وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَآءَ
مَدْيَنَ قَالَ عَسَىٰ رَبِّىٓ أَن يَهْدِيَنِى سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴿٢٢﴾
وَلَمَّا وَرَدَ مَآءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ ٱلنَّاسِ يَسْقُونَ
وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ ٱمْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ ۖ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا ۖ
قَالَتَا لَا نَسْقِى حَتَّىٰ يُصْدِرَ ٱلرِّعَآءُ ۖ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ ﴿٢٣﴾
فَسَقَىٰ لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّىٰٓ إِلَى ٱلظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّى لِمَآ أَنزَلْتَ
إِلَىَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ﴿٢٤﴾ فَجَآءَتْهُ إِحْدَىٰهُمَا تَمْشِى عَلَى
ٱسْتِحْيَآءٍ قَالَتْ إِنَّ أَبِى يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ
لَنَا ۚ فَلَمَّا جَآءَهُۥ وَقَصَّ عَلَيْهِ ٱلْقَصَصَ قَالَ لَا تَخَفْ ۖ
نَجَوْتَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٥﴾ قَالَتْ إِحْدَىٰهُمَا يَٰٓأَبَتِ
ٱسْتَـْٔجِرْهُ ۖ إِنَّ خَيْرَ مَنِ ٱسْتَـْٔجَرْتَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْأَمِينُ ﴿٢٦﴾
قَالَ إِنِّىٓ أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ٱبْنَتَىَّ هَٰتَيْنِ عَلَىٰٓ أَن
تَأْجُرَنِى ثَمَٰنِىَ حِجَجٍ ۖ فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِندِكَ ۖ وَمَآ
أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ ۚ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ

﴿ٱلصَّٰلِحِينَ ٢٧ قَالَ ذَٰلِكَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ أَيَّمَا ٱلْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلَا عُدْوَٰنَ عَلَيَّ وَٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ٢٨﴾

« مدين » هي مدينة شعيب ، المرسل إلى أهله : « وإلى مدين أخاهم شعيباً قال يا قوم اعبدوا الله » (٧ : ٨٥) وقد جاء ذكرها عشر مرات في الذكر الحكيم ، وهي واقعة تجاه تبوك على بحر القلزم،بينهما ست مراحل،وهي اكبر من تبوك،وبها البئر التي استقى منها موسى لغنم شعيب عليهما السلام،وبينها وبين مصر مسيرة ثمان وقد كانت خارجة من سلطان فرعون .

﴿ وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَاءَ مَدْيَنَ قَالَ عَسَىٰ رَبِّي أَنْ يَهْدِيَنِي سَوَاءَ السَّبِيلِ ﴾٢٢ .

تلقاء الشيء حذاءه وقباله حيث يُلقى به ، من « لَقّى تلقيةً وتلقاءً » ولكنه لقاءٌ من بعيد يوصِل إلى لقاء القريب ، فقد خرج من المدينة متوجهاً تلقاء مدين فريداً طريداً خائفاً يترقب الفرج ، منزعجاً بنذارة الرجل من أقصى المدينة دون تزود بزاد ولا ترحُّل براحله ، راحلته رجلاه ، وزاده ترجي هدى الله « قال عسى ربي ان يهديني سواء السبيل » إلى مدين وارداً سليماً وإلى المدينة راجعاً رسولاً منذراً ، وبينهما السبيل إلى تشكيل العائلة .

فهنا نجد موسى بعد ردح من عمره منذ ولادته حتى رجولته في نعومة العيش في البلاط ، نجده في قلب المخافة ، يطارده فرعون وملأه ، لينالوا منه

الزبير لئلا يلحق الطلب ، فقال : لا والله لا افارقه حتى يقضي الله ما هو قاض ، ولما دخل الحسين (عليه السلام) مكة كان دخوله اليها ليلة الجمعة لثلاث مضين من شعبان دخلها وهو يقول : « ولما توجه تلقاء مدين قال عسى ربي ان يهديني سواء السبيل » .

اليوم في رجولته ما لم ينالوه منه في طفولته ، ولكن اليد التي حمته هناك أحرى أن يحميه هنا : « ولتُصنع على عيني » ! وتراه كيف عرف الطريق إلى مدين ولم تسبق له سابقة منه وليس يكفيه سئوال الرجل الناصح لاهتداءه على طول الخط في الطريق ؟٠

« توجه تلقاء » دون « توجه إلى » قد تلمح انه توجه تلقاءه تلقائياً وما يدري هو انه متوجه تلقاءه ، وإنما الله هو الذي يدله إلى مدين ، و « عسى ان يهديني » دليل أنه ما كان يعرف الطريق ، و « توجه تلقاء مدين » دليل واقع التلقاء بما لقّاه الله ، وغير صحيح أن يسأل الناس عن الطريق وهو في مفازة المخافة ، متستراً مقصده عنهم فراراً عن كيد المؤتمرين به ليقتلوه .

﴿ وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِنَ النَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِنْ دُونِهِمُ امْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لَا نَسْقِي حَتَّى يُصْدِرَ الرِّعَاءُ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ ﴾[٢٣].

لقد وصل إلى مدين وورد ماءه ، وهو بطبيعة الحال بداية وِرده البلدة ، وصل مكدوداً مجهوداً وهو بحاجة إلى رياحة فـ« وجد عليه أمة من الناس يسقون » جماعة من مختلف الرعاء وسواهم يسقون أنفسهم وأنعامهم « ووجد من دونهم » أبعد منهم إلى الماء بفصل فاصل « امرأتين تذودان » والذود هو المنع ، ولأن المتعلَق هنا مطلق فقد يعم ذودهما اغنامهما عن التفرق ، وعن الخلط بأغنام الناس ، وعن ورد الماء حتى يصدر الرعاء ، وذودهما الناس عن أغنامهما ، وذود انفسهما عن الإختلاط بالرجال ، وعن الاستعجال لورد الماء حتى يصدر الرعاء ، والذود عن أن ينظر إليهما ، وكل ذود هو قضية الأدب في الشرعة الإلهية للنساء بين الرجال .

فهل من الوجدان في ذلك الوجدان ألّا يتأثر موسى من حالتهما

الحرجة ، على كونه مكدوداً ؟ كلاّ ! وهو الرءوف الحنون حتى بشيعته الغوي المبين ، فكيف لا يرأف بامرأتين ضعيفتين في هذا البين ، فليسأل عنهما وقد سأل : « قال ما خطبكما » والخطب هو الأمر العظيم الذي يكثر فيه التخاطب والتساؤل ، ولقد كان أمرهما ـ في أصل السقي وهما امرأتان ، وفي التأخر عن السقي ـ كان يبعث للتساؤل والتخاطب ، فجاء الجواب عن الأمرين في ذلك الخطب الجلل .

أما التأخر عن السقي فـ« لا نسقي حتى يصدر الرعاء » إنهاءً لسقيهم وإخلاءً للماء حتى نسقي ولا رعاء ، مهما جئنا قبلهم ام قبل بعضهم ، إذ نحتشم عن الخلط بالرجال الغرباء .

وأما أصل السقي لنا ولأنعامنا ونحن امرأتان ؟ فـ« وابونا شيخ كبير » لا يقدر على الرعي ومجالدة الرجال ، فنحن على أنوثتنا وضعفنا أقوى منه ، وبطبيعة الحال ليس له أبناء حتى يكفوا عنه وعنّا ، فسقيُنا ـ إذاً ـ ضرورة معيشية تسمح لهكذا كدّ وكدح للسقي .

هنا تثور الغيرة الموسوية للإقدام على السقى لهما رغم حالته المحرجة ، حيث لا تمنعه عن القيام بواجبه الحاضر ، فيصبح خير ناصر لمن لا يعرفهما ، ولكنه عارف عجزهما وحاجتهما إلى معين ، ويعرف مرضات الله في تلك الإعانة .

﴿ فَسَقَى لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّى إِلَى الظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ﴾[٢٤] .

« فسقى لهما » وكيف سقى ، طبعاً قبل ان يصدر الرعاء كلاً أو بعضاً ، فإن سقيه لهما بعد إصدارهم عن آخرهم ليست فيه معونة زائدة على سقيهما بعد الإصدار .

أتراه سقى لهما حسب النوبة ؟ أم تطلّب منهم تقدم النوبة ؟ كلٌّ محتمل ، ولكن القوة المعروضة في قالة إحداهما « إن خير من استأجرت القوي الأمين » إنها تُخرج حالة السقي لها عن العادة ، فلتكن قوة بارعة خارقة أقوى من كل الرعاع ، وهنا قد يصدق ما يروى انه كان يجتمع على الدلو رجال حتى يخرجوه من البئر لعظمه وثقله[1] فاستقل موسى بمفرده لإخراجه ، مما سمح له منهم ان يسقي لهما قبل النوبة .

واضف اليها القوة النفسية التي أوقعت في قلوب الرعاة هالة الإنجذاب إليه ، حيث الناس يتأثرون بالقوات النفسية اكثر من البدنية ، فمن الجائز أنهما لمستا منه القوتين فاعترفتا عند أبيهما انه « قوي » .

---

(١) نور الثقلين ٤ : ١٢٠ القمي في تتمة القصة عن ابي جعفر الباقر (عليه السلام) .. ومر نحو مدين وكان بينه وبين مدين مسيرة ثلاثة ايام فلما بلغ باب مدين رأى بئراً يستقي الناس منها لاغنامهم ودوابهم فقعدنا حية ولم يكن اكل منذ ثلاثة ايام شيئاً فنظر إلى جاريتين في ناحية ومعهما غنيمات لا تدنوان من البئر فقال : ما لكما لا تسقيان فقالتا كما حكى الله عز وجل : « لا نسقي حتى يصدر الرعاء وابونا شيخ كبير » فرحمهما موسى (عليه السلام) ودنا من البئر فقال لمن على البئر أسقي لي دلواً ولكم دلواً وكان الدلو يمده عشرة رجال فاستقى وحده دلواً لمن على البئر ودلواً لبنتي شعيب وسقى أغنامهما ثم تولى إلى الظل فقال : رب اني لما انزلت الي من خير فقير ـ كان شديد الجوع .

وفيه عن كتاب كمال الدين وتمام النعمة عن ابي عبد الله (عليه السلام) .. فانتهى إلى اصل شجرة فنزل فإذا تحتها بئر وإذا عندها امة من الناس يسقون وإذا جاريتان ضعيفتان وإذا معهما غنيمة لهما ، قال ما خطبكما قالتا : ابونا شيخ كبير ونحن جاريتان صغيرتان لا نقدر ان نزاحم الرجال فإذا سقى الناس سقينا فرحمهما فأخذ دلوهما فقال لهما : قدما غنمكما فسقى لهما ثم رجعتا بكرة قبل الناس ثم تولى موسى إلى الشجرة فجلس تحتها وقال « رب .. » فلما رجعت إلى ابيهما قال : ما اعجلكما في هذه الساعة ؟ قالتا : وجدنا رجلاً صالحاً رحمنا فسقى لنا فقال لأحداهما اذهبي فاعديه لي فجاءته إحداهما ... » .

ثم الضعف الطاريء من أعباء السفر الشاق الطويل ، على تخوّف ، وحرّ الشمس كما « ثم تولى » منها « الى الظل » هذه مما يُنهك القوي ، فما أقواه موسى ان تغامض عن كل ذلك وسقاهما قبل أن يصدر الرعاء دونما أجر حاضر ولا موعود ، إلاّ مرضات الله .

« فسقى لهما ثم تولى » عنهما « إلى الظل » ليستريح عن حرّ الشمس ووعثاء السفر ، « تولّى » دونما تساءُل آخر عنهما كيلا يخيَّل إليها أنه يريد منها أجراً ، أو يهواهما زواجاً بديلاً عما سقا لهما ، وذلك هو العفاف القاصد القاسط أمام المحاويج من النساء الأغارب ، أن تقضى حوائجهن ثم يتولّى عنهن ، وهذا أرغب لهن إلى الزواج إن أردنه ، حيث التأبي الظاهر من الرجل القوي الأمين مما يثير رغباتهن .

« تولى إلى الظل فقال رب إني لما أنزلت إلي من خير فقير » وما هو ما أنزل اليه ربُّه ؟ أهو الحكم والعلم ؟ وقد أوتيهما من قبل ! أم هو طعام يطعمه إذ كان جائعاً مدقعاً[1] فقد « والله ما سأله إلاّ خبزاً يأكله لأنه كان يأكل بقلة الأرض ولقد كانت خضرة البقل ترى من شفيف صفاف بطنه لهزاله وتشذب لحمه »[2] ؟

---

(١) الدر المنثور ٥ : ١٢٥ ـ اخرج ابن مردويه عن انس بن مالك قال قال رسول الله (صلى الله عليه السلام) لما سقى موسى للجاريتين ثم تولى إلى الظل فقال رب اني لما انزلت إلى الظل فقال رب إني لما انزلت إلي من خير فقير ـ قال : انه يومئذ فقير إلى كف من تمر .

(٢) نهج البلاغة قال (عليه السلام) وان شئت ثنيت بموسى كليم الله صلوات الله عليه إذ يقول « إني لما انزلت الي من خير فقير » والله . . .

وفي نور الثقلين ٤ : ١٢١ في الكافي عن ابن ابي عمير عمن ذكره عن ابي عبد الله (عليه السلام) في الآية قال : سأل الطعام ، والعياشي عن حفص البختري عن ابي عبد

و « ما انزلت » تدل على خيرِ منزلٍ عليه ماضٍ ، ولو كان هو الطعام الحاضر لم يكن بحاجة إلى دعاء الإفتقار ، والصيغة الصالحة له « رب اني جائع » ام « فقيرٌ لما تنزله من طعام » ام ما شابه ! اللهم إلا أن يُعنى بـ« من خير » القوة البدنية ـ اضافة إلى الروحية ـ التي استطاع بها ان يسقي لهما ، ففقره إلى هذه القوة يتطلب طعاماً يتقوى به ليستمر في هكذا إعانات في وجه الله ، ام خيرِ قضاء الحاجة حيث أنزله الله إليه فأدّى واجبه ، ثم يتطلب من ربه قضاء حاجة الجوع جزاءً وفاقاً ، و « لما انزلت » دون « إلى ما انزلت » لمحة لطيفة إلى أنه يتسبب بما انزل إليه من خير لقضاء حاجته ، حيث اللام هي السببية .

أم يعني خيرَ قضاءِ حاجتهما ، فهو مفتقر إلى مثله ، متأهب لقضاء كل حاجة نازلة اليه من عنده تعالى وذلك من شيم الخيّرين أن الحاجة المعروضة لديهم مهما كانت صعبة القضاء ، هي خيرُ منزّل من الرب .

كما ويعني الإمرأتين ، أني بحاجة إلى زواج إحداهما ، وقد تعني « ما أنزلت الي من خير» كلما ذكر من خير الوحي والقوة البدنية والروحية ، وخير قضاء الحاجات، وخير حاجة البطن: الطعام، وخير حاجة الجنس: الزواج ، إظهاراً للإفتقار إلى كل ذلك ، وقد ذكرت اللام في « لما انزلت » لتعم السبب والغاية ، لسبب ما انزلت وإلى ما أنزلت الي من خير فقير ، وقد

الله (عليه السلام) في قول موسى لفتاه : آتنا غداءنا وقوله « رب إني لما انزلت إلي من خير فقير» قال : انما عنى الطعام فقال ابو عبد الله (عليه السلام) ان موسى لذو جوعات ، وعن ليث بن سليم عن ابي جعفر (عليه السلام) شكى موسى إلى ربه الجوع في ثلاثة مواضع : « آتنا غداءنا . . » « لاتخذت عليه اجراً » ـ « لما انزلت إلي من خير فقير » .

أجاب ربه دعاءَه من فوره،وقد يستبعد من ذلك المحتد الرسالي طلب الطعام وله من القوة ما يسقي لها و « لا تحل الصدقة لغني ولا لذي قوة سوي » [(١)] اللهم إلاّ ضمن طلباته ليقوى على ما أعان ، فعلى أية حال فليس يختص « ما انزلت علي » بطعام يأكله ، إذ لم ينزل عليه بعد إلاّ عند شعيب ، وقد أنزل عليه من قبل الجاريتين بحاجتهما ، ولذلك فرع مجيئهما بدعاءه كإجابة عاجلة :

﴿ فَجَاءَتْهُ إِحْدَاهُمَا تَمْشِي عَلَى اسْتِحْيَاءٍ قَالَتْ إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا فَلَمَّا جَاءَهُ وَقَصَّ عَلَيْهِ الْقَصَصَ قَالَ لَا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴾٢٥ .

لما « قال رب إني لما انزلت الي من خير فقير » - « فجاءته احداهما » دون فصل إلاّ قدر السير المرجَّع إلى ابيها ، حال انها « تمشي على استحياء » فان أمرها ظاهر ، ولا سيما أنها تجيء إليه وهو خلاف المتعود من خِطبة النساء ، وقد تلمح « على » بتأكد الإستحياء وأنها علت عليه بما جاءته ، وإلا ما كانت لتجيئه ، وان « استحياء » منكرة تعظمه حيث المعرف « الاستحياء » هو المعروف المتعوَّد من العفائف ، فقد كان استحياءً عظيماً منقطع النظير ، وبالفعل جاءته . . . . و « قالت أن أبي يدعوك ليجزيك اجر ما سقيت لنا فلما جاءه . . » جاءته جيئة جيَّةً في غير ما تبذُّل ولا تبرُّج أو إغراء ، وإنما للايواء إلى كريم البواء ، جاءته يدعوه في أقصر لفظ واكثر معنى يحمل استدعاء إجزاء الجزاء دون لفظة أخرى تتغنج بها الفتاة بطبيعة الحال فيتهيج بها الفتى في نفس الحال ، كلاّ وإنما « أبي يدعوك ليجزيك أجر ما سقيت لنا » ! .

وتراه كيف ساغ له اتباع امرأة في قولها ، ثم المشي معها وهي

---

(١) التفسير الكبير للفخر الرازي ٢٤ : ٢٤٠ - اليس انه (عليه السلام) قال : . . .

أجنبية ، وذلك يورث عظيم التهمة ؟ وكيف ساغ لشعيب (عليه السلام) ان يبعث بنته الشابة إلى شاب ولمّا يعرفه بالعفة ؟ وكيف ساغ لموسى تقبُّل أجرٍ ـ كما قالت ـ وقد أعانها لوجه الله ، وهذا خلاف المروءة بل وخلاف الشرعة الإلهية إذ لم يعمل ما عمله بجعالة ، لا سيما وانه عرف عجز ابيها وفقر العائلة ، ولموسى من القوة ما يحصل بها على مال يحتاجه من غير فقير بمحاولة يسيرة ؟ .

والجواب ان موسى انما استجابها إذ عرف من قبل عفافها،فلمحةُ الصدق من قولها ، وهو غريب في مدين يفتش عن قريب في العقيدة والمأمن .

ثم ولم يستجبها طلبَ الأجرة ، وهي جائزة دون طلب ، مهما كانت مطالبتها غير جائزة دون جعل ، وانما استجابها إذ تلمَّح منها ومن مجيئها كأنها تعني تحقيق دعائِه في الزواج بها ، وليس هو في الحق أجراً مهما سمته أجراً ، إذ أنكحها بثماني حجج أو عشرٍ ، وقد ينقل متظافراً أنها لما قالت ليجزيك كرهه(١) ولما دخل على شعيب إذا هو بالعشاء فقال له كل ، قال موسى (عليه السلام) اعوذ بالله ، قال : ولِمَ ، ألست جائعاً ؟ قال : بلى ولكن أخاف ان يكون هذا عوضاً لما سقيت لهما وأنا من أهل بيت لا نبتغي شيئاً من عمل الأخرة بملءِ الأرض ذهباً ! قال : لا والله ولكنها عادتي وعادة آبائي نقري الضيف ونطعم الطعام فجلس موسى (عليه السلام) فأكل(٢) .

وهذه طبيعة الحال في كل التحيات ، فقد حياه موسى ان سقى

---

(١) التفسير الكبير للفخر الرازي ٢٤ : ٢٤١ وروي انها قالت : . . .

(٢) الدر المنثور ٥ : ١٢٥ ـ اخرج ابن عساكر عن ابي حازم قال لما دخل موسى على شعيب . . .

لابنتيه ، فحيّاه بأحسن منها أن أطعمه وأنكحه إحدى ابنتيه ، وقبول التحية المردودة من آداب الايمان : « وإذا حييتم بتحية فحيوا بأحسن منها أو ردوها » (٤ : ٨٦) ، وقد ساغ لشعيب أن يبعثها إليه لما عرف من قوته وأمانته ، وذلك أحرى من بعثها لسقى الغنم ، « فلما جاءه وقص عليه القصص » السابق ذكره « قال » : شعيب « لا تخف نجوت من القوم الظالمين » إذ ليس مدين داخلاً في سلطان فرعون ولا أنه عارف بمكانك ، و تراه كيف مشى معها ابتعاداً عن التهمة ، وعن النظر اليها ؟ لقد تقدمها لكي يأمن عن النظر اليها[1] وبذلك عَرفت أمانته إذ قالت : « إن خير من استأجرت القوي الأمين » :

﴿ قَالَتْ إِحْدَاهُمَا يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ ﴾ ٢٦ .

---

(١) نور الثقلين ٤ : ١٢٢ عن تفسير القمي من حديث القصة الطويلة عن الباقر (عليه السلام) .. فقام موسى معها ومشت امامه فسفقتها الرياح فبان عجزها فقال لها موسى : تأخري ودليني على الطريق بحصاة تلقيها امامي اتبعها فانا من قوم لا ينظرون في ادبار النساء ..

وعن كتاب كمال الدين وتمام النعمة عنه (عليه السلام) قال لها : وجهيني إلى الطريق وامشي خلفي فإنا بني يعقوب لا ننظر في اعجاز النساء .. وعن من لا يحضره الفقيه روى صفوان بن يحيى عن ابي الحسن (عليه السلام) في قول الله « يا أبت استأجره ان خير من استأجرت القوي الأمين » قال قال لها شعيب يا بنية هذا قوي قد عرفتيه برفع الصخرة ، الأمين من اين عرفتيه ؟ قالت يا أبه اني مشيت قدامه فقال : امشي من خلفي فان ضللت فأرشديني إلى الطريق فانا قوم لا ننظر في ادبار النساء وعن المجمع قال امير المؤمنين (عليه السلام) لما قالت المرأة هذا قال شعيب : وما علمك بأمانته وقوته ؟ قالت : أما قوته فانه رفع الحجر الذي لا يرفعه كذا بكذا ، واما امانته فانه قال لي : امشي خلفي فأنا اكره ان تصيب الريح ثيابك فتصف لي جسدك .

قد تكون « إحداهما »-هذه-هي التي جاءته فزوجه شعيب اياها (١) وعلّها أصغرهما(٢) لا ندري ، حيث العادة جارية على تقديم الكبرى على الصغرى إلاّ إذا كانت هي الأولى والأحرى بمن يريدها ، ثم ولا مزرئة على الأخرى .

وعلى أية حال « قالت إحداهما يا أبت استأجره » إذ نحن بحاجة إلى رجل يعيننا و« ان خير من استأجرت القوي الأمين » وقد جرّبنا قوته وامانته (٣) فلتكن القائلة هذه القولة هي التي جاءته إذ جرّبت أمانته ، مهما كانت تجربة القوة لهما معاً ، وكيف تجرأت ان تقول « يا ابت استأجره » واستيجار مثل هذا الرجل القوي الأمين مهانة ؟ علّها لأنها لم تجد صيغة أخرى أحرى منها لاستجلابه لزواجها عرضاً على أبيها ، فقد لمحت إلى مهرها

---

(١) بحار الأنوار ١٣ : ٢٩ عن ابي عبد الله (عليه السلام) سُئِل ايتهما زوجة شعيب من بناته ؟ قال : التي ذهبت إليه وقالت لأبيها : يا ابت استأجره . . » وفيه (عليه السلام) بسند عن البزنطي قال سألت الرضا (عليه السلام) عن قوله تعالى : « إن ابي يدعوك . . » أهي التي تزوج بها ؟ قال : نعم . وفي نور الثقلين ٤ : ١٢٣ مثلهما في التي تزوج بها .

(٢) الدر المنثور ٥ : ١٢٧ ـ اخرج ابن مردويه عن ابي هريرة قال قال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) قال لي جبريل يا محمد ان سألك اليهود أي الأجلين قضى موسى ؟ فقل أوفاهما ، وان سألوك ايها تزوج فقل : الصغرى وفيه اخرج الخطيب في تاريخه عن ابي ذر قال قال لي رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) إذا سئلت اي الأجلين قضى موسى فقل خيرهما وأبرهما ، وإذا سئلت أي المرأتين تزوج ، فقل الصغرى منهما وهي التي جاءت فقالت يا ابت استأجره . .

(٣) في احاديث متظافرة مضت أن شعيب سألها دليل قوته وامانته فقالت ، قوته أن سقى لنا ما لم يقدر عليه احد من الرعاء وامانته انه مشى امامي تحرزاً عن النظر إلى خلفي .

بـاجرة الاستئجـار ، وإلى زواجها بـاستدعـاءه أن يـظل عنـدهم ، وذلـك لا يناسب إلاّ بزواج ، والقوة والأمانة هما الدعامتان في صالح الحياة الجماعية ، ولا سيما تأسيس الأسرة . فـ« نجوت من القـوم الظالمين » كانت خـطوة أولى تُطمئنه نفسياً ، ثم « يا أبت استأجره » خطوة ثانية فيها حظوة الجنس ورياحة الجسم من صوت الأنوثة الأنيسة ، وما ألطفه دعاءً للزواج .

وهنـا يحس الأب الشيخ الكبير تجاذبـاً بين الجـانبين وثقـة متبادلـة بين الطرفين ، بعد ما تأكد صلوحـاً في موسى قـوةً وأمانـة ، فاستجـاب من فوره لاقتراح ابنته :

﴿ قَالَ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ابْنَتَيَّ هَاتَيْنِ عَلَى أَنْ تَأْجُرَنِي ثَمَانِيَ حِجَجٍ فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْراً فَمِنْ عِنْدِكَ وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللهُ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴾[٢٧] .

وتـرى « إحـدى ابنتي » هي التي قـالت يـا ابت استأجـره ؟ وصيغتـه الصـالحـة الصـريحة « اني اريـد ان انكحـك إيـاهـا » ! ، أم هي الأخـرى ؟ فالأخرى !

إن التعمية هنا هي أولاً ستار على موقف الأولى ابعاداً عن رخـاصتها ، وهي ثانياً تخيير له في اختيار أيتهما شاء دونما تسيير عليه بحصر على الأولى .

وقد نتعرف هنا إلى الصيغة الصـالحة للنكـاح « انكحك احـدى ابنتي » حيث المفعـول الأوّل المنكَح هـو الزوج ، والثـاني المنكَح لـه الزوجـة وكـما في اخـرى « زوجناكهـا » (٣٣ : ٣٧) « وزوجناهم بحـور عـين » (٤٤ : ٥٤) فـلا معاكسة في صيغة النكاح كـ« زوجتكِ نفسي » أمّا شابه .

وهكذا عرضت إحدى ابنتيه ان يـأجره أبـوها ، ثم عـرض الأب عليه بكل بساطة زواجه بها لما عرف الكفائة من الجانبـين ، عرضـاه في غير التـواء

ولا تحرّج ، خلاف التقاليد المصطنعة الباطلة التي اصبحت سنة الزواج ، إذ تحتم خِطبة النساء على الرجال وأوليائهم أو وكلائهم ، دون جانب المرأة ، رغم المخالطة والمكاشفة أحياناً بين بعضهم لبعض دونما خِطبة ولا نكاح ، فأما إذا حان حين الزواج فلتكن الخطبة من جانب الزوج ، وإلّا فهي رخيصة بخيسة إذ عرضت نفسها للزواج أو عُرِضت له !

ولقد كانت النساء يعرضهن انفسهن على النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) فيؤوي إليه من يشاءُ منهن ويُرجي من يشاء ، فيعرضها على من يستصلحه لها ، مزوداً لهن بترغيب ودونما تعييب أو تأنيب ، ونموذجاً من ذلك نص الأحزاب « وامرأة مؤمنة ان وهبت نفسها للنبي ان أراد النبي أن يستنكحها خالصة لك من دون المؤمنين » (٥٠) .

وترى كيف يصح كون الصداق لصالح ولي البنت وبقراره : « على أن تاجرني . . » والصدُقات تخص البنات دون الأولياء ؟ .

علّه لأنه كان مؤذوناً في الأمرين كما تطلّبت اليه : « يا ابت استأجره » فاستأجره كما استصلح لصالح العائلة عامة وللبنت خاصة ، إذ هي من ضمن من يستفيدون من ذلك الايجار ، ام انه يحق لولي « إلّا ان يعفون أو يعفو الذي بيده عقدة النكاح » (٢ : ٢٣٧) مهما كان موردها العفو عن نصف الصداق بطلاق قبل وقاع ، إذ لو لم يكن له حق في صداقها لما حق له العفو عنه نصفاً أمّاذا ، وكيف يصح هكذا قرار للصداق حيث لا يعلم الوفاء به إذ ما تدري نفس متى تموت ؟ إنه قد لا يصح هكذا ، إلّا « أن موسى علم أنه سيتم له شرطه »[1] فحين لا يعلم الوفاء كان الصداق معلقاً غير مقطوع به

---

(١) نور الثقلين ٤ : ١٢٣ عن المجمع روى الحسن بن سعيد عن صفوان عن ابي عبد الله (عليه السلام) قال : ـ لما قيل له : فدخل بها قبل ان يمضي الشرط أو بعد انقضاءه ؟

فغير صالح للنكاح ، أم إن له بديلاً مما ترك بعد موته إن كانت له تركة ، وحتى إذا لم تكن فالتصميم على الوفاء مع إمكانيته في ظاهر الحال يكفي صدقاً للصداق ، فمن هذا الذي يعلم بيقين أنه يوفي بما وعد في أية معاملة من المعاملات ، ومنها الصداقات المؤجلة ، بل والمعجلة بعد هنيئة من عقد النكاح إذ من الجائز عدم قدرته على الإنجاز لموت أو فقد مال، وهنا «ثماني حجج» وهي ثماني سنين ، تصريحة على سابق الفرض في حج البيت ، لحدِّ كانت تسمى كل سنة حجة[1] والحجج الثمان هي الصداق الأصيل،والإتمام عشراً نافلة هو بالخيار فيها ، وقضية الكرم من مثل موسى إتمامها عشراً وقد أتم وكما يروى عن الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) وعن اهل بيته الكرام عليهم السلام[2] .

قال : قبل ان ينقضي ، قيل له : فالرجل يتزوج المرأة ويشترط لأبيها اجارة شهرين ايجوز ذلك ؟ قال : ان موسى علم انه سيتم له شرطه ، قيل : كيف؟ قال : علم انه سيبقى حتى يفي .

(١) في تفسير العياشي قال الحلبي سئل ابو عبد الله (عليه السلام) عن البيت أكان يُحج قبل ان يُبعث النبي (صلى الله عليه السلام) ؟ قال : نعم وتصديقه في القرآن قول شعيب حين قال لموسى عليهما السلام حيث تزوج « على ان تأجرني ثماني حجج » ولم يقل ثماني سنين .

(٢) الدر المنثور ٥ : ١٢٦ ـ اخرج ابن ماجه والبزار وابن المنذر وابن ابي حاتم والطبراني وابن مردويه عن عقبة بن المنذر السلمي قال : كنا عند رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) فقرأ طس حتى بلغ قصته موسى (عليه السلام) قال : ان موسى آجر نفسه ثماني سنين أو عشراً على عفة فرجه وطعام بطنه فلما وفي الأجل قيل يا رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) أي الأجلين وفي موسى ؟ قال : ابرهما وأوفاهما فلما أراد فراق شعيب أمر امرأته ان تسأل اباها ان يعطيها من غنمه ما يعيشون به فاعطاها ما ولدت من غنمه . . . ورواه مثله في ابر الأجلين وأوفاهما أبو هريرة عن ابي سعيد الخدري عنه (صلى الله عليه

أوليس شاقاً على موسى على محتده وعلو مقامه وواجب تحضيره للرسالة المستقبلة أن يو آجر نفسه ثماني حجج أو عشراً ؟ حسب الظاهر نعم ، وفي الحق لا كما وضحه أبوها « وما أريد أن أشق عليك » في أصل الثمان ولا في التكملة ، وإنما هي مصلحة ككلٍّ من صالح إلى صالح « ستجدني إن شاء الله من الصالحين . . »

ومن الصالح في هذه الحجج أن يصبح موسى من رعاة الأغنام قبل ان يرسل رسولاً إلى الأنام ، فلقد لبث من عمره ردحاً في بلاط النعمة والنعومة، فليعش ـ ما بينه وبين الرسالة إلى فرعون وملإه وسائر المكلفين ـ راعياً لأغنام وذلك قَدَرُه الذي قدّره له ربه « . . وقتلت نفساً فنجيناك من الغم وفتناك فتوناً فلبثت سنين في أهل مدين ثم جئت على قدرٍ يا موسى . واصطنعتك لنفسي » (٢٠ : ٣٠ ـ ٤١) .

ويا له من اصطناع بارع ليصنع بعدُ أمةً صارمة ضد الفراعنة المجرمين ، فقد نقلته يد القدرة الرقيبة الربانية منذ رضاعته إلى طفولته وإلى رجولته وحتى ذلك الحين وقد حان حين الوحي الحبيب ، وفي هذا الخط الطويل قبل الرسالة وبعدها تجاربُ منقطعة النظير ـ إلّا لمحمد (صلى الله عليه وآله وسلم) ـ من تجربة الحياة في جو الفرعنة ، ثم الخوف والفزع والمطاردة ، و تجربة الجوع والوحدة والغربة ، و تجربة رعي الغنم والخدمة بعد حياة القصر .

وآله وسلم) وأبو هريرة نفسه عنه .

وفي نور الثقلين ٤ : ١٢٥ عن المجمع روى الواحدي بالاسناد عن ابن عباس قال سئل رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) أي الأجلين قضى موسى ؟ قال : أوفاهما وابطأهما ، وفيه مثله عن ابي ذر عنه (صلى الله عليه وآله وسلم) وعن تفسير القمي عن الصادق (عليه السلام) لما قيل له : اي الأجلين قضى ؟ قال : اتمها عشر حجج . . .

وهكذا تكون الرسالة الإلهية ضخمة الجوانب والتبعات في مقدمات ومؤخرات ، يحتاج صاحبها إلى عظيم الزاد في سفرته الشاقة الطويلة المليئة بالأشلاء والدماء والحرمانات عن المشتهيات في هذه الأدنى ليجتاح دون عبثه كل العرقلات،والرسالة الموسوية هي اضخم الرسالات ـ بعد الرسالة الختمية ـ فليستعد موساها لكل إعداداتها حتى يجيء على قَدَر فيها .

وعرض قصص موسى في معرض القرآن أكثر من سائر القصص ، لأنه أعرض القصص الرسالية ، وأشبهها بقصص الرسول محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) وليستأنس به في هذا السبيل الشاق الطويل .

﴿ قَالَ ذَٰلِكَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ أَيَّمَا الأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلَا عُدْوَانَ عَلَيَّ وَاللهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ﴾[٢٨] .

« ذلك » الميعاد « بيني وبينك » مخيراً بين الأجلين لا مسيّراً « والله على ما نقول » في شرط الزواج « وكيل » دونما حاجة إلى شهود آخرين ، مما يدل على أن الإشهاد في النكاح غير واجب ، مهما كان واجباً في الطلاق .

فقد تمت هنا مواضع العقد بشروطه بلا مجال فيها لغموض ، وهنا التعمية من موسى (عليه السلام) « أيما الأجلين قضيت » تأكيداً للتخيير ، وفسحاً لمجال الإكرام بأوفاهما ، وذلك مما نُدب إليه في الشرعة الإلهية ، أن يزاد في الأجر مهما كانت مماكسة فيه في البداية .

* فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى الْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِۦٓ ءَانَسَ مِن جَانِبِ الطُّورِ نَارًا قَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوٓا إِنِّيٓ ءَانَسْتُ نَارًا لَّعَلِّيٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِّنَ النَّارِ لَعَلَّكُمْ

تَصْطَلُونَ ﴿٢٩﴾ فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِىَ مِن شَـٰطِىِٕ ٱلْوَادِ ٱلْأَيْمَنِ
فِى ٱلْبُقْعَةِ ٱلْمُبَـٰرَكَةِ مِنَ ٱلشَّجَرَةِ أَن يَـٰمُوسَىٰٓ إِنِّىٓ أَنَا ٱللَّهُ
رَبُّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٣٠﴾ وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ ۖ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا
جَآنٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ ۚ يَـٰمُوسَىٰٓ أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ ۖ
إِنَّكَ مِنَ ٱلْـَٔامِنِينَ ﴿٣١﴾ ٱسْلُكْ يَدَكَ فِى جَيْبِكَ تَخْرُجْ
بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ وَٱضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ ٱلرَّهْبِ ۖ
فَذَٰنِكَ بُرْهَـٰنَانِ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِي۟هِۦٓ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟
قَوْمًا فَـٰسِقِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّى قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا
فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ ﴿٣٣﴾ وَأَخِى هَـٰرُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّى
لِسَانًا فَأَرْسِلْهُ مَعِىَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِىٓ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن
يُكَذِّبُونِ ﴿٣٤﴾ قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُمَا
سُلْطَـٰنًا فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا ۚ بِـَٔايَـٰتِنَآ أَنتُمَا وَمَنِ ٱتَّبَعَكُمَا
ٱلْغَـٰلِبُونَ ﴿٣٥﴾ فَلَمَّا جَآءَهُم مُّوسَىٰ بِـَٔايَـٰتِنَا بَيِّنَـٰتٍ
قَالُوا۟ مَا هَـٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّفْتَرًى وَمَا سَمِعْنَا بِهَـٰذَا فِىٓ ءَابَآئِنَا

ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣٦﴾ وَقَالَ مُوسَىٰ رَبِّىٓ أَعْلَمُ بِمَن جَآءَ بِٱلْهُدَىٰ
مِنْ عِندِهِۦ وَمَن تَكُونُ لَهُۥ عَٰقِبَةُ ٱلدَّارِ ۖ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ
ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٣٧﴾ وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم
مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى فَأَوْقِدْ لِى يَٰهَٰمَٰنُ عَلَى ٱلطِّينِ فَٱجْعَل لِّى
صَرْحًا لَّعَلِّىٓ أَطَّلِعُ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ مِنَ
ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٣٨﴾ وَٱسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُۥ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ
ٱلْحَقِّ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لَا يُرْجَعُونَ ﴿٣٩﴾ فَأَخَذْنَٰهُ
وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذْنَٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ
ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٠﴾ وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ ۖ وَيَوْمَ
ٱلْقِيَٰمَةِ لَا يُنصَرُونَ ﴿٤١﴾ وَأَتْبَعْنَٰهُمْ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا لَعْنَةً ۖ
وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ هُم مِّنَ ٱلْمَقْبُوحِينَ ﴿٤٢﴾

« قضى موسى الأجل » المعروف بينهما وهو آجل الأجلين دون الأعجل ، إكراماً لشعيب ومعاملة بمعروف مع أهله كما هو المأمور به في الشرعة الإلهية ، وكما يروى عن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) : « تزوج

صغراهما وقضى أوفاهما »[(١)] .

وبالفعل « قضى موسى الأجل » ومضى ما مضى حيث أمضاه ، ولا إشارة هنا إلى كيف مضت العشر إذ لا تدخل في صميم القصص الرسالي ، مهما اجمله في « ثم جئت على قدر يا موسى » مما يلمح إلى الصالح الرسالي المستقبل في هذه العشر العشيرة مع الأهل ، « وسار بأهله » مسيره المترقَّب المعهود إلى مصر « آنس من جانب الطور ناراً . . » وقد شرحناه في طه والنمل فلا نعيد إلّا ما أعيد هنا تكراراً يناسب تفصيل القصص ، و« اهله » هنا هم زوجته وولده[(٢)] وهم ذكور أو بينهم ذكور لمكان الجمع المذكر « امكثوا » .

مسير الإياب هنا هو مسير الذهاب نفسه واين مسير من مسير ، فهناك كان فريداً شريداً خائفاً يترقب ، وهنا « سار بأهله » مستأنساً بهم وبالنار التي آنسها من جانب الطور وارفاً يتأهب ، ليناديه به ويناجيه بما ينجيه وسائر المستضعفين فيرثوا الأرض « ونري فرعون وهامان وجنودهما منهم ما كانوا يحذرون » !

﴿ فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ مِنْ شَاطِيءِ الْوَادِ الأَيْمَنِ فِي الْبُقْعَةِ الْمُبَارَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ أَنْ يَا مُوسَى إِنِّي أَنَا اللهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴾ ٣٠ .

وهذه اجمال عما فصل في « طه » : « إنني أنا الله لا إله إلّا أنا فاعبدني وأقم الصلاة لذكري إن الساعة آتية أكاد أخفيها لتجزى كل نفس بما تسعى » (١٤ - ١٦) مما يلمح أن هذه الأصول الثلاثة مستفادة من كلمة التوحيد بإجمال .

---

(١) تفسير الفخر الرازي ٢٤ : ٢٢٤ - اعلم انه روي عن النبي (صل الله عليه وآله وسلم) انه قال : . . .

(٢) في سفر الخروج من التوراة ٤ : ٢٠ - انه حمل معه إلى مصر امرأته وبنيه .

وأما محل ذلك النداء فهو « من شاطىء الواد الأيمن » وهو الجانب الأيمن الجامع ليمين الجانب ويُمنه « في البقعة المباركة » وهي التي كانت فيها الشجرة ، بوركت ببركة الوحي وقُدِّست: « فاخلع نعليك إنك بالواد المقدس طوى » (٢٠ : ١٢) ـ « نودي ... » وهذا هو جانب الطور الأيمن : « وناديناه من جانب الطور الأيمن » (١٩ : ٥٢) فليس إلّا مكان الطور[1] في القدس دون سواه ، كربلاء[2] وسواها،فقد جاء يقتبس ناراً فاقتبس بديلها نوراً « من الشجرة » فلقد كان صوت النداء من سمت الشجرة وهي الزيتونة ، لا شرقية ولا غربية ، بل هي الشرق الأوسطية، حيث الوحي الرباني لا ينحاز إلى شرق أو غرب ، بل هو الوسط الرباني المحلِّق على مشارق الكون ومغاربه من امكنة المرسل إليهم .

وهنا الشجرة ليست إلّا وسيط الوحي بحجابها ، لا أن الله حل فيها كما لا يحل في سائر حجب الوحي ووسائطه : « وما كان لبشر أن يكلمه الله إلّا وحياً أو من وراء حجاب أو يرسل رسولاً فيوحي بإذنه ما يشاء إنه علي حكيم » (٤٢ : ٥١) .

فـ« وحياً » هنا يعنيه دون أي حجاب كما حصل للرسول الأقدس محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) ليلة القدر وليلة المعراج أماهيه من نهار أو ليلة ، و« من وراء حجاب » يعني كل حجب الوحي ، كلاماً في منام أم بواسطة ملك الوحي أم شجرة أمّاهيه ، فالوحي إلى موسى يحمل حجابين اثنين :

---

(١) نور الثقلين ٤ : ١٢٧ عن المجمع روى ابو بصير عن ابي جعفر (عليه السلام) قال : لما قضى موسى الأجل وسار بأهله، نحو البيت المقدس اخطأ الطريق فرأى ناراً . .

(٢) المصدر (١٢٦) عن تهذيب الأحكام بسند متصل عن مخرمة بن ربعي قال قال ابو عبد الله (عليه السلام) شاطيء الوادي الأيمن الذي ذكره الله في القرآن هو الفرات والبقعة المباركة هي كربلاء .

الشجرة ولفظ الكلام ، و« أوحى إلى عبده ما أوحى » كان معنى مجرداً أجرد عن كل حجاب إلّا حجاب الذات ، وذلك حين لم يكن بينه وبين الله أحد في مقام «دنى» أم ولا نفسه فضلاً عن سواه من سائر الحجب في مقام « أو أدنى » حيث « دنى فتدلى فكان قاب قوسين أو ادنى . فأوحى إلى عبده ما أوحى . ما كذب الفؤاد ما رأى » رؤية معرفية-في قمتها- الله ، ورؤية الوحي القمة !

لقد تلقى موسى بازغ الوحي بملء كيانه ، ووقف في أكرم موقف يلقاه إنسان حيث أصبح موسى الأجير الراعي للأغنام ، الرسول الراعي للأنام !

هنا « نودي . . إني انا الله رب العالمين » وفي طه « نودي إني أنا ربك » وفي النمل « نودي ان بورك من في النار ومن حولها وسبحان الله رب العالمين . يا موسى إنه أنا الله العزيز الحكيم » (٩) مع العلم انه لم يكن النداء إلّا بصيغة واحدة علّها هي أولاها فانها أشملها حيث تعني شامل الربوبية له ولسائر العالمين .

ثم « اني » تعني الله المتكلم من إذاعة الشجرة دون الشجرة نفسها وكما يُسمع من مسجلة الصوت الآية « إني أنا الله » وليست المسجلة هي القائلة بل هي وسيط إذاعة الصوت أياً كان ، فالشجرة كانت - إذن - مذياع النداء ، وكما رسول الوحي إلى الرسل ينقل « إني انا الله » ثم الرسل ينقلونها لأممهم « إني أنا الله » ، فلا أن الله حلّ في الشجرة وسبحانه ، ولا أنها حلّت إلى مرقى الربوبية ، وإنما الله هو الذي تكلّم بحجاب الشجرة كما يتكلم بسائر الحجب .

لقد أتاه بازغ الوحي مصحوباً بآية الرسالة الربانية ، مُطَمئِنَة إياه في عقبات الدعوة الشاقة :

﴿ وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَآهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّى مُدْبِراً وَلَمْ يُعَقِّبْ يَا مُوسَى أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ الْآمِنِينَ ﴾ ٣١ .

« نـودي .. ان يـا مـوسى .. وأن ألق عصـاك » إلقـاء الإلغـاء حيث كانت متكاك ، عساك ان تأتي فرعون وملأه ببرهان مبين ، فألقاهـا فاصبحت كانها جان « فلما رآها تهتز كأنها جان » تتلوّى على كبرها ، وكأنها حيـة صغيرة تجن نفسهـا و تخفيها « ولّى » مـوسى خـوفـة منهـا « ولم يعقب » ليـراهـا مـرة اخرى ، فقلنا « يـا موسى أقبـل » إليها « ولا تخف» منهـا « إنك من الآمنـين » عندنا ، لا يصيبك منّا أية أذى فـ« إني لا يخاف لدي المرسلون . إلاّ من ظلم ثم بدل حسناً بعد سوءٍ فإني غفور رحيم » (٢٧ : ١١) .

ومهما ظلمت أنت نفسك بما قتلت القبطي خـطأ ولكنك بـدلت حسناً بعد سوء ، من حسن التوبة ، وحسن الغربة اجيراً في مدين « ثم جئت عـلى قدر ياموسى » (٢٠ : ٤٠) ، فهنا « لا تخف » في مقـام الخوف المتعـوّد لـه« انك من الآمنين » وأما في مقـام الأمن فيقال : « خف » عن زهـوة الأمن وزهـرة حياة الأمن وكلٌ في محلّه فلكلٍ مجالٍ حالٌ .

﴿ أَسْلُكْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ وَاضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ الرَّهْبِ فَذَانِكَ بُرْهَانَانِ مِنْ رَبِّكَ إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَإِهِ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْماً فَاسِقِينَ ﴾ ٣٢ .

« أسلك يدك .. » تعني : « أدخل يدك في جيبك تخرج بيضاء من غير سوء » (١٢ : ٢٧) و « اضمم يدك إلى جناحك تخرج بيضاء من غـير سوء آيـة اخرى » (٢٠ : ٢٢) فقد كان ادخالاً خاصاً بضمٍ إلى جنـاحه وسلك فيـه وهو النافذ الراكز ، تعابير ثـلاثة عن ذلـك الإدخال ، وكيف هنـا « واضمم اليك جناحك » وفي طه« واضمم يدك إلى جناحك »؟(٢٢) إن جناح طه هو الجيب هنا المُسلكة يده فيه وهو تحت إبط اليسرى ، والجناح هنا هـو اليد اليمني التي

اصبحت مرتخية كالجناح فليضممها الى اليسرى، وإنما سميت اليد جناحاً بعد ما أصبحت بيضاء لأنها أصبحت من الرهب كالجناح ، كانها تريد ان تطير من رهبها ورهب حية العصا .

« تخرج بيضاء » ولم تكن ، لكنها « من غير سوء » من برص خلاف نص التوراة : « ادخل يدك في عبّك فأدخل يده في عبّه ثم اخرجها واذا يده برصاء مثل الثلج » (الخروج ٤ : ٦) !

« فذانك » قلب العصا حية تسعى واليد البيضاء « برهانان من ربك إلى فرعون وملإه إنهم كانوا قوماً فاسقين » وماذا تعني إذاً « واضمم يدك إلى جناحك من الرهب »؟ اتعني نفس السلك ؟ وقد ذكر قبلُ دون فصل ! أم ان يضم جناحه اليه من رهب جان العصا ، ان يجمع يديه على صدره إذا عرضه خوف عند مشاهدة حية العصا ليذهب ما في قلبه من الروع ؟ وقد سبق « اقبل ولا تخف إنك من الآمنين » كما ولا يناسبه الفصل بينهما بآية اخرى !.

أم تعني أن يتخذ لنفسه سيماء الخاشع فلا يزدهي بزهوة المكانة الرسالية مفرجاً بين عضديه وجنبيه كالمتمطي في مشيته ، بل يخفض جناحه للمؤمنين كما أمر الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم):« وأخفض جناحك للمؤمنين » (١٥ :٨٨) ؟ ولا تناسبه « من الرهب » حيث الرسالة لا تُرهب الرسول بل تُعجبه وتُرغبه ! ثم وموقف الرسالة إلى فرعون وملإه ليس موقف خفض الجناح !، فقد تعني ضم جناحه من رهب الآيتين ، فكما حية العصا تُرهب ، كذلك اليد البيضاء ترهب فترتخي كجناح الطائر الخائف ، فليضممها إليه استئصالاً لظاهرة الرهب .

أم وكما أمر بأخذ عصاه « خذها ولا تخف سنعيدها سيرتها الأولى » (٢٠ : ٢١) كذلك امر بضم يده التي اصبحت كجناح الطائر المرتخي ، ضماً

إليه من الرهب ، فـ« من » قد تكون سببية تعني أن الرهب يسبب ضم جناحه إليه ليزول ذلك الرهب بزوال البياض الطاريء من إدخالها في جيبه . أم ان « من الرهب » متعلقة بمحذوف « جناحك » الكائن « من الرهب » إذ أصبحت يدك من الرهب جناحاً ، فاضممها إليك قبضاً عن الإنبساط والإرتخاء استئصالاً للرهب وزوالاً للبياض المسبب للرهب .

وعلّ « جناحك » تعني يديه إذ تطلق على الجناحين واليدين الجانحين ، مهما كانت اليمنى هي الأصل في ذلك الضم ، رجعاً لها إلى ما كانت من قبل ليذهب عنه الرهب .

« فذانك برهانان من ربك إلى فرعون » من ربك تربية رسالية ، إلى فرعون إنذاراً رسالياً لـ « إنهم كانوا » على مرّ حياتهم الجهنمية « قوماً فاسقين » خارجين عن طورهم .

وكيف هنا « برهانان » وفي النمل « وادخل يدك في جيبك تخرج بيضاء من غير سوء في تسع آيات إلى فرعون وقومه انهم كانوا قوماً فاسقين » (١٢) .

علّه لأنهما الأصل فيها كلها ، ام ان الباقية صادرة عنهما إذاً فهما التسع في الأصل وباقي التسع فروعهما !

﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْساً فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ ٣٣ وَأَخِي هَارُونَ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَاناً فَأَرْسِلْهُ مَعِيَ رِدْءاً يُصَدِّقُنِي إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ ﴾ ٣٤ .

« قال رب » الذي ربيتني لهذه الرسالة السامية ، إن أمامي عقبتين كئودتين قد تعرقلان الدعوة أو الداعية ، اما الداعية فـ« إني قتلت منهم نفساً فأخاف أن يقتلون » وأما الدعوة ، فان لم يقتلوني « إني أخاف أن يكذبون » فانا إذاً بين قتل الدعوة وقتل الداعية . وليس هذا اعتذاراً عن أصل الرسالة

وتقاعصاً عنها وانتكاساً ، وإنما يعرض حاله الحرجة ليُطَمئنه ربُّه فيها ، ولا سيما بالنسبة لتصديق الدعوة ، فإنها هي المهمة الأولى للداعية مهما قتل دونها ، ولذلك تراه لم يتطلب من ربه علاجاً صراحاً عن قتله، وإنما العلاج المستدعى فى « إني أخاف أن يكذبون » وهو « أخي هارون هو افصح مني لساناً فأرسله معي ردءاً يصدقني » مما يبين ان مهمة الداعية هي نفاذ الدعوة مهما قتل في سبيلها!.

وكيف « أخي هارون هو أفصح مني لساناً » ولا بد لولي العزم من الرسل أن يكون أفصح من سائر الرسل كما هو أصلح ؟ إنها فصاحة وقتية وليست أصلية ، فقد كانت في لسان موسى عقدة عن الإفصاح الكامل ، لا لرتَّة في لسانه ، بل لأنه قتل منهم نفساً ، والمذنب عند قوم لا ينطلق لسانه كما يجب : « ويضيق صدري ولا ينطلق لساني فارسل إلى هارون » (٢٦ : ١٣) - « قال رب اشرح لي صدري ويسر لي امري واحلل عقدة من لساني يفقهوا قولي واجعل لي وزيراً من اهلي هارون أخي اشدد به أزري واشركه في امري . . . » (٢٠ : ٣٢) وقد شرحناها في طَه بما لا مزيد عليه فلا نعيد .

وهلاّ يكذبون أخاه هارون وهو أهون تكذيباً منه كولي له في الرسالة ؟ إنه يعني افصاحاً كاملاً للدعوة ، بعيداً عن التكذيب ، أو أن يوثر فيها التكذيب ، وإنما أنا المذنب عندهم لا ينطلق لساني في بزوغ الدعوة كما يجب ، وقد يأخذني الغضب فيحرِّج موقف الدعوة والداعية ، واخي هارون هو أفصح مني في صيغة الدعوة ، وإن كُذِّبتُ يصدقني فيها تزويداً في البيان وتأكيداً لصدق الدعوة ، وتبيناً للبرهنة ، إذ لا تكفي الآية المبصَرة ما لم تزود بآية الحجة البصيرة ، ومزيج الآيتين يأتي حجة بينة لا مدخل إلى تكذيبها .

ولأن « ردءًا » هي المتابعة للإعانة فقد تطلَّب إلى ربه أن يجعله وزيراً له يَزِرُ عنه عِبء الرسالة الحرجة ، و« ردءً » مصدراً مبالغة في تلك الوزارة المعنية ألّا شغل له في ذلك الحقل إلّا الوزارة دونما استقلال ولا استغلال .

﴿ قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَانًا فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا بِآيَاتِنَا أَنتُمَا وَمَنِ اتَّبَعَكُمَا الْغَالِبُونَ ﴾٣٥ .

« عضدك » هنا هو عضد الرسالة ان يعاضَد فيها بأخيه « ونجعل لكما سلطاناً » قاهراً على فرعون وملإه ، دون اي سلطان لهم عليكما لا قتلاً ولا تكذيباً ، إذاً فهو سلطان القوة إلى سلطان الحجة لمكان « فلا يصلون إليكما » قتلاً أو تكذيباً « بآياتنا » التي هي السلطان نفسه ، فذلك السلطان ـ الآيات ـ له جانبان ، جانب المُنعة عن الوصول إليكما : « فلا يصلون اليكما بآياتنا » وجانب الغلبة لكما عليهم : « بآياتنا انتما ومن اتبعكما الغالبون »[1] ، وقد تعني « آياتنا » هنا كل التسع التي أرسل بها إليهم ، وهي الطالعة من العصا ومن يده البيضاء ، ومن تلك الغلبة الموعودة الشاملة تلمح أن السحرة ما صلبوا بما آمنوا ، لأنهم اصبحوا من افضل « من معكما » فقد غلبوا على فرعون كوناً إذ لم يُصلبوا وكياناً في الحجة الغالبة لأن سحرهم ـ فقط ـ كان حجة ، وهم اولاء الذين آمنوا بموسى دونما تخوف من تألُّب أو تصلُّب وسواه ، متصلبين في هداه .

وهذه طمأنة ربانية للداعية على طول خط الدعوة فلا يخاف عقبة في أولاها وعقباها ، فانهما لم يذهبا إلى الطاغية مجردين حتى يخافاه ، بل هما

---

(١) فـ« بآياتنا » هنا تتعلق بـ« لا يصلون » و« الغالبون » وما اجمله جمعاً بينهما .

مزوّدان بسلطان لا يقف له أي سلطان ، من أيٍّ كان وأيان ، سياج صارم لا قبل لهم به .

﴿ فَلَمَّا جَاءَهُمْ مُوسَى بِآيَاتِنَا بَيِّنَاتٍ قَالُوا مَا هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُفْتَرًى وَمَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي آبَائِنَا الْأَوَّلِينَ ﴾[٣٦] .

« جاءهم موسى » ومعه هارون « بآياتنا » التسع حالكونها « بينات » لا خفاء فيها ولا ريبة تعتريها « قالوا » فرعون وملأه « ماهذا » الذي جاء به موسى « إلاّ سحرٌ مفترىً » على الله « وما سمعنا بهذا » الذي يقوله « في آباءِنا الأوّلين » .

وكيف ما سمعوا بهذا في آباءهم الأولين ، فالموحدون منهم أسمعوهم التوحيد والوحي مصدقين ، والمشركون كذلك مهما كانوا مكذبين ؟ .

وكيف « ما هذا إلاّ سحرٌ مفترى » به على الله انه آية ؟ « أفسحر هذا أم لا تبصرون » (٥٢ : ١٥) « أسحر هذا ولا يفلح الساحرون » (١٠ : ٧٧) فأتوا بسحر مثله إن كنتم صادقين ، أنتم وآباءكم الأوّلون .

وإنها قولة لعينة لئيمة مكرورة على طول الخط ضد الرسالات الربانية ، فنفس الصيغة نجدها من المشركين زمن الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) كأنهم تواصوا بها في سلسلتهم النكيدة المكيدة !

﴿ وَقَالَ مُوسَى رَبِّي أَعْلَمُ بِمَنْ جَاءَ بِالْهُدَى مِنْ عِنْدِهِ وَمَنْ تَكُونُ لَهُ عَاقِبَةُ الدَّارِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ ﴾[٣٧] .

رد مهذب مبرهن مؤدب ، وكأنه لا يحمل برهاناً عليهم وهو يحمل اتقن برهان « ربي اعلم بمن جاء بالهدى من عنده » وهي كحجة مرسلي المسيح (عليه السلام) « قالوا ربنا يعلم إنا اليكم لمرسلون » (٣٦ : ١٦) فالتربية الربانية الرسالية باهرة فيّ أعمالاً وأقوالاً وأحوالاً ، وفيها معي من

آياتٍ بيناتٍ ، و « اعلم » بـ« من تكون له عـاقبة الـدار » وهي الحياة العـاقبة حيث تعقب حيـاة العرقلة الكـافـرة « والعـاقبـة للمتقـين » لهم - فقط - دون الطاغين ، لـ« انه لا يُفلح الظالمون » بل يَفلجون مهما ارعدوا وعربـدوا لِرَدْحٍ من الزمن طال أم قصر . وقد تعني الـدار هنا الـدار الدنيـا إلى جنب الآخرة حيث تشملهما لفظة الـدار : « قال مـوسى لقومـه استعينوا بـالله واصبروا إن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده والعـاقبة للمتقين » (٣ : ١٢٨) - « تلك الـدار الآخـرة نجعلهـا للذيـن لا يـريـدون علواً في الأرض ولا فـســاداً (٢٨ : ٨٣) .

فالحال الحاضرة لنا بكل حجة باهـرة تضمن لنا البقـاء دونكم ، ثم لنا - لا لكم - عاقبة الدار ، فلو كنا مفترين على الله كـذباً فلن نفلح إذاً ابـداً ، ونحن المفلحـون في العاقبـة الآجلة كما نحن في العـاجلة بما معنـا من سلطان مبين .

وما كان رد فرعون على هذه الحجـة الأدبية العجيبـة إلّا كلمة مكـرورة رديئة :

﴿ وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا أَيُّهَا ٱلْمَلَأُ مَـا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْـرِي فَأَوْقِـدْ لِي يَا هَامَانُ عَلَى ٱلطِّينِ فَٱجْعَل لِّي صَرْحاً لَّعَلِّيٓ أَطَّلِعُ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ مِنَ ٱلْكَاذِبِينَ ﴾[٣٨] .

هذه قالة الفرعنة اللعينة المهينة « ما علمت لكم من إلـه غيري » كـأنه يحيط علماً بكـل شيء فإذ لا يعلم إلهـاً غيره فـلا إلـه - إذن - غيـره ، يقـولها فـرعون قـاهراً دون ان يسمـح لمخ أن يفكـر ، ولا للسـان أن يعبـر إلّا سمعاً وطـاعة ، وتشبهها قالتـه الأخرى : « مـا أريكم إلّا ما أرى ومـا أهديكم إلّا سبيل الرشاد » (٢٠ : ٢٩) .

ولقد قلّب هنا امر كلمة التوحيد : « لا إله إلا الله » بمقلوبها « ما علمت لكم من إله غيري » أي : لا إله إلاّ أنا !

وقد يعني بـ« ما علمت . . » جهلَه ، ولذلك يأمر ببناء صرح ويقول « إني لأظنه من الكاذبين » فلو كان يعني بـ« علمت » عدم إله غيره بصورة قاطعة لما صحت حيلته الثانية والثالثة ، اللهم إلاّ تماشياً وتنازلاً من علمه المحيط المدّعى ، وهو بدون هذه الدعوى الخاوية ليست حيلته الأولى حجة على السلب بل هي سلبٌ للحجة ، وقد يحتج بسلبها لعدم ثبوت إله غيره ، فليفتش عنه في السماوات بأسبابها بعد الأرض ، ولو كان لبان ! ثم ولكي يؤكد سلبيته الماكرة يامر هامان ببناء صرح رفيع يصعد عليه لعله يطلع إلى إله موسى ، فيتأكد انه ليس في السماء كما لم يجده في الأرض ، وكأن إله موسى ساكن السماء أو ساكن الأرض !. و« ما علمت لكم » قالة مكرورة على ألسنة الماديين الناكرين لوجود الله كشريطة تُدار ، إننا ما وجدناه بأيٍّ من حواسنا ، فليس ـ إذن ـ كائناً ، متجاهلين عن ان الكائنات لا تنحصر بالإدراكات الحسية ، وحتى لو انحصرت بها فلا يحيط بها أحد علماً حتى يصح القول : ما لا نجده فهو غير موجود ! أجل يصلح القول : ما علمت فليس كائناً ، للذي يحيط علماً بكل شيء وهو الله تعالى شانه العزيز : « ويعبدون من دون الله ما لا يضرهم ولا ينفعهم ويقولون هؤلاء شفعاءنا عند الله قل أتنبئُون الله بما لا يعلم في السماوات ولا في الأرض سبحانه وتعالى عما يشركون » (١٠ : ١٨) . هناك كيد أوّل « ما علمت . . » وكيد ثان « فاوقد لي يا هامان . . » وثالث « إني لأظنه من الكاذبين » كلها ادعاءات جوفاء خواء يصارح بها على ملإه ولا يخاف رداً عليه ولا نكيراً .

وقد نلمس عمق الحمق الفرعوني من كيده الأوسط وهو بناء صرح ، وقد كان يكفيه ان يصعد أعلى جبل في مصر ، وهو دون شك أرفع مما يبنيه

هامان خلال سنين ! ثم السماء لا تخص محل الصرح لا طولاً ولا عرضاً ، حتى إذا لم يطلع إلى إله موسى من على صرحه فليس الإله ـ لو أنه في السماء ـ في سائر السماء ! .

فمثله كمثل الذي ينكر وجود الذهب في الكون كله ، لأنه لم يجدها عنده أو في الأفق الذي يعيشه ! وما أحمق هؤلاء الذين سمعوا قالته هذه الحمقاء ولم يردوا عليه ! وأحمق منها قالته الأخرى : « يا هامان ابن لي صرحاً لعلّي أبلغ الأسباب . أسباب السماوات فاطلع إلى إله موسى وإني لأظنه كاذباً . . » (٤٠ : ٣٧)[1] .

وكيف بالإمكان بلوغ أسباب السماوات بالصعود على صرح ، ولو كان هو الإله فكيف يترجى ذلك البلوغ وما هو ببالغ ؟

و « إله موسى » هنا وهناك ـ وعلّهما واحدٌ مذكور بصيغتين ـ إنه تعريض عليه لو أن هناك إلهاً غيري فليس إلا إله موسى وليس إلهي وإلهكم !

لقد تقولها الطاغية في بداية المواجهة ، كما تقول اخرى في النهاية « أنا ربكم الأعلى » وبين الكلمتين اربعون سنة[2] .

﴿ وَاسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لَا يُرْجَعُونَ ﴾٣٩ .

ولما يبلغ الاستكبار إلى هذا العمق من الحمق ، أن لا إله إلا أنا ، ظناً

---

(١) هناك في تفسير آية المؤمن بحث فصل عن اسباب السماوات فليراجع .

(٢) الدر المنثور ٥ : ١٢٩ ـ اخرج ابن مردويه عن ابن عباس قال قال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) كلمتان قالها فرعون . . . كان بينهما اربعون عاماً فأخذه الله نكال الآخرة والأولى .

منهم « انهم الينا لا يرجعون » وهم يحسبونه علماً ألّا إله إلّا فرعون ، ولا مرجع إلى الله ، فلا علاج لهؤلاء الحماقى الأنكاد إلا أخذاً ونبذاً :

﴿ فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ ﴾[٤٠] .

هذه عاقبتهم يوم الدنيا فكيف ـ إذن ـ عاقبتهم يوم الدين ، وقد تبين « من تكون له عاقبة الدار ولا يفلح الظالمون » .

ويا له من اختصار حاسمٍ قاصم ، أخذٌ ونبذ في اليم كما تُنبذ الثفالات وتحذف الحصاة ، نبذ في ذلك اليم تمليصاً ، اليم الذي القي فيه موسى تخليصاً ، هذا مأمن وملجأ ، وذلك مكمن غليه ومهلكة ومضجع « فانظر كيف كان عاقبة الظالمين » .

﴿ وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ لَا يُنْصَرُونَ ﴾[٤١] .

جعلٌ تكويني لإمامتهم النارية يعني أنه تعالى ما منعهم عنها كما لم يمنعهم قسراً عن كفرهم ، فخلى بينهم وبين ضلالهم واضلالهم ، ثم يذرهم في طغيانهم يعمهون « واملي لهم ان كيدي متين » (٧ : ١٨٣) .

فـ « جعلناهم » بين مثلث التكوين تخييراً في ضلال وإضلال ، ثم ايكالاً لهم إلى انفسهم جزاءً وفاقاً : « فلما زاغوا ازاغ الله قلوبهم » ـ « وقيضنا لهم قرناء فزينوا لهم ما بين ايديهم وما خلفهم » (٤١ : ٢٥) « ومن يعش عن ذكر الرحمن نقيض له شيطاناً فهو له قرين . وانهم ليصدونهم عن السبيل ويحسبون انهم مهتدون » (٤٣ : ٣٦) « ألم ترَ أنا أرسلنا الشياطين على الكافرين تؤزهم أزّاً » (١٩ : ٨٣) . هكذا جعلناهم بما بغوا وطغوا ، كما عكسناه لآخرين « وجعلنا منهم أئمة يهدون بأمرنا لما صبروا وكانوا بآياتنا يوقنون » (٣٢ : ٢٤) واين جعل من جعل ، والآخر تشريعي إلى كونه تكوينياً جزاءً

وفاقاً(١) .

ولقد كانت الفراعنة في كل التاريخ أئمة الضلال « يدعون إلى النار » مناوئين لأئمة الهدى الذين يدعون إلى النور .

﴿ وَأَتْبَعْنَاهُمْ فِي هَٰذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ هُمْ مِنَ الْمَقْبُوحِينَ ﴾٤٢ .

« اتبعناهم » بدعواتهم اللعينة « في هذه الدنيا لعنة » حيث « ليحملن اثقالهم واثقالاً مع اثقالهم وليسألن يوم القيامة عما كانوا يفترون » (٢٩ : ١٣) « ونكتب ما قدموا وآثارهم وكل شيء أحصيناه في إمام مبين » (٣٦ : ١٢) .

فكل لعنة تابعة لضلال من ضل باضلالهم ، « اتبعناهم » اياها مع تابعيهم ، كلاً على قَدَرِه وقَدْرِه « ولا يظلمون نقيراً » ، فـ« من سن سنة سيئة كان عليه وزمن عمل بها إلى يوم القيامة ولا ينقص اولئك من أوزاهم شيء » .

فهم من المقبوحين في الدارين ، والملعونين في النشأتين ، عائشين أجواء الإشمئزاز والتقزُّز ، خلاف الصفة الهادية ، حيث تعيش جوّ الإعزاز والتعزز .

وكما فرعون وملأه هم أقبح المستكبرين في التاريخ ، كذلك موسى الرسول (عليه السلام) هو أفضل الرسل في التاريخ الرسالي بعد خاتم النبيين محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) وقد جاء ذكره في الذكر الحكيم مائة

(١) نور الثقلين ٤ : ١٣٠ في أصول الكافي عن ابي عبد الله (عليه السلام) قال قال : إن الأئمة في كتاب الله عز وجل امامان قال الله تعالى : « وجعلناهم أئمة يهدون بامرنا » لا بأمر الناس يقدمون امر الله قبل امرهم وحكم الله قبل حكمهم ، قال : وجعلناهم ائمة يدعون إلى النار » يقدمون امرهم قبل امر الله وحكمهم قبل حكم الله ويأخذون بأهوائهم خلاف ما في كتاب الله عز وجل .

وستة وثلاثين مرة في أربع وثلاثين سورة بتفصيل قصصه أو إجماله كما تقتضيه الحال ويناسبه المجال ، مما يدل على أن له المكانة الثانية بعد الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) في الرسالة النبوة الإمامة ، فقد كان « رسولاً نبياً » (١٩ : ٥٢) إماماً من أولي العزم (٣٣ : ٧ و٤٢ : ١٣) كما وكتابه إمام (٤٦ : ٥٢) وفرقان وضياء وذكر (٢١ : ٤٨) فيها هدى ونور (٥ : ٤٤) .

وبين التوراة الحاضرة والقرآن اختلافات شاسعة في قصص موسى وهارون مع فرعون :

فالقرآن يوحّد فرعون الذي أخذه ورباه والذي أرسل إليه ، والتوراة تفرق[١] ثم وهنا بازغ النداء الرسالي إلى موسى من الشجرة المباركة في القدس بعد الرحيل عن مدين ، وهناك في مدين نفسه[٢] وهنا ألقى السحرة سجداً قالوا آمنا برب هارون وموسى ، وهناك لم يؤمنوا بل عارضوا موسى[٣] وهنا صانع العجل هو السامري ، وهناك هارون النبي (عليه السلام)[٤] وهنا ملقي العصا هو موسى (عليه السلام) وهناك هو هارون بامر موسى (عليه السلام)[٥] وإلى امثال هذه من اختلافات تكشف عن اختلاقات توراتية اهمها البشارات المحمدية فيها ، وقد نذكرها مقارنة بطيات الآيات .

---

(١) سفر الخروج ٢ : ٢٣ .
(٢) في التوراة ان ابا زوجة موسى هو يثرون كاهن مديان دون شعيب .
(٣) الخروج الاصحاح ٧ و ٨ .
(٤) الاصحاح ٣٢ من الخروج .
(٥) الاصحاح السابع من الخروج .

وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا
مُوسَى ٱلْكِتَـٰبَ مِنۢ بَعْدِ مَآ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ ٱلْأُولَىٰ
بَصَآئِرَ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٤٣﴾
وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلْغَرْبِىِّ إِذْ قَضَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَى ٱلْأَمْرَ وَمَا
كُنتَ مِنَ ٱلشَّـٰهِدِينَ ﴿٤٤﴾ وَلَـٰكِنَّآ أَنشَأْنَا قُرُونًا فَتَطَاوَلَ
عَلَيْهِمُ ٱلْعُمُرُ ۚ وَمَا كُنتَ ثَاوِيًا فِىٓ أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ
ءَايَـٰتِنَا وَلَـٰكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ﴿٤٥﴾ وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلطُّورِ
إِذْ نَادَيْنَا وَلَـٰكِن رَّحْمَةً مِّن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن
نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٤٦﴾ وَلَوْلَآ أَن تُصِيبَهُم
مُّصِيبَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَيَقُولُوا۟ رَبَّنَا لَوْلَآ أَرْسَلْتَ
إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ ءَايَـٰتِكَ وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾
فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ مِنْ عِندِنَا قَالُوا۟ لَوْلَآ أُوتِىَ مِثْلَ
مَآ أُوتِىَ مُوسَىٰٓ ۚ أَوَلَمْ يَكْفُرُوا۟ بِمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ ۖ
قَالُوا۟ سِحْرَانِ تَظَـٰهَرَا وَقَالُوٓا۟ إِنَّا بِكُلٍّ كَـٰفِرُونَ ﴿٤٨﴾ قُلْ

مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

فَأْتُوا۟ بِكِتَـٰبٍ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ هُوَ أَهْدَىٰ مِنْهُمَآ أَتَّبِعْهُ إِن
كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴿٤٩﴾ فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَكَ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا
يَتَّبِعُونَ أَهْوَآءَهُمْ ۚ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيْرِ
هُدًى مِّنَ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٥٠﴾
۞ وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ ٱلْقَوْلَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٥١﴾
ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَـٰهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ مِن قَبْلِهِۦ هُم بِهِۦ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾
وَإِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِهِۦٓ إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّنَآ
إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِۦ مُسْلِمِينَ ﴿٥٣﴾ أُو۟لَـٰٓئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم
مَّرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا۟ وَيَدْرَءُونَ بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ وَمِمَّا
رَزَقْنَـٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٥٤﴾ وَإِذَا سَمِعُوا۟ ٱللَّغْوَ أَعْرَضُوا۟ عَنْهُ
وَقَالُوا۟ لَنَآ أَعْمَـٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَـٰلُكُمْ سَلَـٰمٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِى
ٱلْجَـٰهِلِينَ ﴿٥٥﴾ إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَـٰكِنَّ ٱللَّهَ
يَهْدِى مَن يَشَآءُ ۚ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴿٥٦﴾

﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِ مَا أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ الأُولَى بَصَائِرَ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾[43] .

« ولقد » تأكيدان اثنان توكدان ضرورة إيتاء الكتاب « من بعد ما أهلكنا القرون الأولى » وهي التي قبل قرنه منذ قرن نوح وعاد وثمود إلى قرن فرعون ومَن بينهم من المهلَكين « آتينا موسى الكتاب » : التوراة « بصائر للناس » : تبصِّرهم تأريخ الهالكين وعاقبة الظالمين . تأتي البصائر توصيفة غالية في الذكر الحكيم خمساً ، ثلاثاً تخصه نفسه : « قد جاءكم بصائر من ربكم » (٦ : ١٠٤) ـ « هذا بصائر من ربكم وهدىً ورحمة لقوم يؤمنون » (٧ : ٢٠٣) ـ « هذا بصائر للناس وهدىً ورحمةٌ لقوم يوقنون » (٤٥ : ٢٠) .

ورابعة للآيات الرسالية الموسوية : « ما أنزل هؤلاء إلّا رب السماوات والأرض بصائر » (١٧ : ١٠٢) وخامسة للتوراة كما هنا .

والقرآن هو مجمع البصائر في كلتا المرحلتين ، هما مقسومتان على توراة موسى ومعجزاته واين بصائر من بصائر ؟ .

ثم « بصائر » هي جمع « بصيرة » وقد تكون تاءها للمبالغة كما « الإنسان على نفسه بصيرة » (٧٥ : ١٤) مبالغة اطلاعه على نفسه ، وبصيرة التوراة وآيات موسى فضلاً عن بصيرة القرآن هي مبالغة في الإبصار ، كأنها التي تبصر الناظرين إليها ، أو تبصر نفسها لهم لشدة التماعها واشراقتها كما « وجعلنا آية النهار مبصرة » (١٧ : ١٢) بصيرة تجلب إلى الإبصار إليها لمحجتها البيضاء .

« بصائر للناس وهدىً » مصدراً هي نفس الهداية وخالصها دون شوب ، « ورحمةً » وذلك المثلث البارع من الإضاءة والإلماع « لعلهم يتذكرون » الحقّ فبه يؤمنون .

﴿ وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ الْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَا إِلَى مُوسَى الأَمْرَ وَمَا كُنتَ مِنَ الشَّاهِدِينَ ﴾٤٤ .

« وما كنت » بطبيعة الحال ولمّا كوّنت « بجانب الغربي » من الوادي « إذ قضينا إلى موسى الأمرَ » الرساليَّ بإنزال التوراة « وما كنت من الشاهدين » صورة القضية إذ ذاك ، ولكنا بيناها لك وضْحَ الشمس في رابعة النهار .

﴿ وَلَكِنَّا أَنْشَأْنَا قُرُوناً فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ وَمَا كُنْتَ ثَاوِياً فِي أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا وَلَكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ﴾[٤٥] .

« ما كنت . . ولكنا انشأنا قروناً » منهم « فتطاول عليهم العمر» أغفالاً وجهالاً ثم أشهدناك قصصهم « وما كنت ثاوياً » مقيماً « في أهل مدين » لترى ما مضى على شعيب وموسى فيها « ما كنت . . تتلوا عليهم آياتنا » لترى ردة الفعل منهم « ولكنا كنا » على طول خط التكليف « مرسلين » دونما وقفة في إرسال الرسل ، و « مرسلين » إياك لـ« تتلوا عليهم آياتنا » .

﴿ وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا وَلَكِنْ رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ لِتُنْذِرَ قَوْماً مَا أَتَاهُمْ مِنْ نَذِيرٍ مِنْ قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾[٤٦] .

« جانب الطور » من شاطيء الواد الأيمن في البقعة المباركة من الشجرة «إذ ناديناه» أول ما ناديناه «ما كنت» لا هنا ولا هناك لتسمع النداء والوحي فتعلم ما عُلِّمه موسى « ولكن » ناديناك وانزلنا اليك الكتاب « رحمة من ربك » في قمتها العالية المنقطعة النظير بين كل بشير ونذير « لتنذر قوماً ما أتاهم من نذير من قبلك » في الفترة الرسالية البعيدة المدى ، « لعلهم يتذكرون » فأمرك ـ إذن ـ يا محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) أصعب من أمر موسى ، ولأن عبئك اثقل ورسالتك أعلى وأشمل ، فطريقك أطول وأعضل ، فاصبر يا حامل الرسالة الأخيرة التي تحمل جوهرة خالدة من كل الرسالات .

وقد تلمح « ما كنت إذ قضينا وناديناا » أن جرى ذكر محمد (صلى الله

عليه وآله وسلم) فيما نودي إلى موسى وقضي إليه ، وكما نجده في بشارات توراتية باقية حتى الآن رغم تطاولات التحريفات والتجديفات ! وهنا روايات تؤيد تلك اللمحة اللاّمعة بحق الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) وأمته [1] .

---

(١) الدر المنثور ٥ : ١٣٠ ـ اخرج ابن مردويه عن ابن عباس عن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) قال : لما قرب الله موسى إلى طور سيناء نجياً قال : اي رب هل أحدٌ اكرم عليك مني قربتني نجياً وكلمتني تكليماً ؟ قال : نعم محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) اكرم علي منك ، قال : فان كان محمد اكرم علي منك فهل امة محمد اكرم من بني اسرائيل فلقت لهم البحر وانجيتهم من فرعون وعمله واطعمتهم المن والسلوى ؟ قال : نعم امة محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) اكرم علي من بني اسرائيل ، قال : الهي أرنيهم ، قال : انك لن تراهم وإن شئت اسمعتك صوتهم ، قال : نعم ، فنادى ربنا امة محمد اجيبوا ربكم فاجابوا وهم في اصلاب آباءهم وارحام امهاتهم إلى يوم القيامة فقالوا لبيك ربنا حقاً ونحن عبيدك حقاً ، قال : صدقتم وانا ربكم وانتم عبيدي حقاً ونحن عبيدك حقاً ، قال : صدقتم وانا ربكم وانتم عبيدي حقاً قد غفرت لكم قبل ان تدعوني واعطيتكم قبل ان تسألوني فمن لقيني منكم بشهادة أن لا إله إلا الله دخل الجنة « أقول علّه تعالى اسمعهم صوتاً يشبه صوتهم إذ لا صوت لمن في الأصلاب والأرحام ذراً ولا عقل ولا تكليف ! .

وفي نور الثقلين ٤ : ١٣٠ عن عيون اخبار الرضا (عليه السلام) في باب ما جاء عن الرضا (عليه السلام) من الأخبار المتفرقة حديث طويل وفيه ان رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) قال : ـ وذكر ما في معناه بزيادة قبل فضل امته هي « قال موسى يا رب فان كان محمد اكرم عندك من جميع خلقك فهل في آل الأنبياء أكرم من آلي ؟ قال الله جل جلاله يا موسى اما علمت ان فضل آل محمد على جميع آل النبيين كفضل محمد على جميع المرسلين ، وزيادة اخرى في جواب موسى بالنسبة لأمة محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) : يا موسى لن تراهم وليس هذا أوان ظهورهم ولكن سوف تراهم في الجنان جنات عدن والفردوس بحضرة محمد في نعيمها يتقلبون وفي خيراتها يتبجحون افتحب ان اسمعك كلامهم . . . وعبارة اخرى هي التلبيات بدلاً عما مضت : لبيك اللهم لبيك

﴿ وَلَوْلَا أَنْ تُصِيبَهُمْ مُصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَيَقُولُوا رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولاً فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾[٤٧] .

« لولا » امتناعية تمنع «مصيبة بما قدمت ايديهم » في الدنيا،وعلّ الجواب بقرينة « لولا ارسلت . . » هو : لما أرسلنا رسولاً ، وذلك مصيبة تصيب منكري الرسالات لو أن الدنيا دار جزاء ، وانهم لا يحتجون على الله « فيقولوا ربنا لولا ارسلت الينا رسولاً . . » ولكنهم محتجون لولا الإرسال رغم ما قدمت ايديهم من التكذيب على مدار الزمن الرسالي ، فيُرسل الله رسلاً تترى : « رسلاً مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل وكان الله عزيزاً حكيماً » (٤ : ١٦٥) ـ « يا أهل الكتاب قد جاءكم رسولنا يبين لكم على فترة من الرسل ان تقولوا ما جاءنا من بشير ولا نذير فقد جاءكم بشير ونذير والله على كل شيء قدير » (٥ : ١٩) :

﴿ فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا لَوْلَا أُوتِيَ مِثْلَ مَا أُوتِيَ مُوسَى أَوَلَمْ يَكْفُرُوا بِمَا أُوتِيَ مُوسَى مِنْ قَبْلُ قَالُوا سِحْرَانِ تَظَاهَرَا وَقَالُوا إِنَّا بِكُلٍّ كَافِرُونَ ﴾[٤٨] .

« فلما جاءهم » هؤلاء المشركين وأهل الكتاب اجمعين « الحق » رسول الحق محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) بالكتاب الحق في بُعدي الشرعة وآية الرسالة « قالوا » المشركون « لولا أوتي » محمد « مثل ما أوتي موسى»من كتاب وآية رسالية ، فلا أن القرآن مثل التوراة ، ولا معجزة القرآن كالآيات الرسالية لموسى .

وهنا أجوبة ثلاث حلاً ونقضاً وتحدياً اكتفي هنا بالثاني : ألم يكفروا ذلك

لبيك لا شريك لك لبيك ان الحمد والنعمة والملك لك لا شريك لك ، قال : فجعل الله عز وجل تلك الإجابة شعار الحاج . . .

الجيل المشرك بكل الرسالات « أولم يكفروا بما أوتي موسى من قبل » كما كفروا بما أوتيت يا محمد من بعد[1] إذ « قالوا » فيك وفي موسى على سواء « سحران تظاهرا وقالوا انا بكل كافرون » .

والحل « الله اعلم حيث يجعل رسالته » (٦ : ١٢٤) - « أولم يكفهم أنا انزلنا عليك الكتاب يتلى عليهم » (٢٩ : ٥١) وليست من لزامات آيات الرسالات المشابهة إلّا في التدليل على صدقها وهي دالة حيثما حلت،فالمشركون لم يكونوا صادقين في اعتذارهم ، إذ كانوا مع أهل الكتاب في الجزيرة فلم يصدقوا بما أوتي موسى من قبل ، فهنا الإعتذار باعتراض : « لولا أوتي مثل ما أوتي موسى » مردود عليهم بنقض المثل « أولم يكفروا . . » فماذا تفيدهم المماثلة المقترحة إلّا مماثلة الكفر ، ولا يزيدون غير تخسير .

كما و « قالوا » أهل الكتاب هوداً أو نصارى نفس القالة : « وإذا جاءتهم آية قالوا لن نؤمن حتى نؤتى مثل ما أوتي رسل الله أعلم حيث يجعل رسالته . . » (٦ : ١٢٤) . « أولم يكفروا بما أوتي موسى من قبل » كفراً بإشراك حيث عبدوا العجل ، وكفراً في مواضع عدة كقصة البقرة واضرابها ، وكفراً بالبشارات المحمدية المودوعة في التوراة « قالوا » هؤلاء الكفرة من أهل الكتاب لموسى وهارون ، وللتوراة والقرآن « سحران تظاهرا » لا « ساحران » تعميقاً في فرية السحر كأن كل كيان الكتابين والرسولين سحر « وإنّا بكلٍّ كافرون » ! .

---

(١) الواو في « أولم » عطف على محذوف هو الكفر بالرسالات السابقة والرسالة الأخيرة ، فهم في ثالوث الكفر بالرسالة ما تشابه منها وسواها .

ثم « من قبل » كما تتعلق بـ« أولم يكفروا . . » قصداً إلى المشركين زمن موسى ، كذلك تتعلق بـ« ما أوتي موسى » قصداً إلى الحاضرين ، توحيداً بين الحاضرين والغابرين في ذلك الكفر المماثل .

ومهما كان المعنيان معنيين من « سحران » ولكنها الأصل هنا هما الكتابان كما يشهد له « اهدى منهما » كجواب التحدي فيهما : « سحران تظاهرا » بغير مَظهرهما كأنهما آية بينة ، وأظهر القول هنا هو من المشركين ، والكتابيون معنيون على هامشهم ، فالنقض يشملهما جميعاً مهما اختلفت دركاتهما في كفرهما ، وإلى جواب ثالث تحدياً ان يأتوا بمثل التوراة والقرآن :

﴿ قُلْ فَأْتُوا بِكِتَابٍ مِنْ عِنْدِ اللهِ هُوَ أَهْدَى مِنْهُمَا أَتَّبِعْهُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾[٤٩] .

وحين لا بد في الرسالات الإلٰهية من كتب الوحي « فاتوا بكتاب من عند الله هو أهدى منهما » : التوراة والقرآن « إن كنتم صادقين » في فرية السحر ، فأتوا من عند الله بغير سحر هو أهدى منهما اتبعه ، وذلك تنازل في التحدي ، فانه من واجهة اخرى قبلها « فأتوا بسورة من مثله إن كنتم صادقين » (٢ : ٢٣) .

وترى التوراة الحاضرة هي كتاب هدىً مطلقة حتى يُتحدى بها ؟ علّ القصد هنا إلى التوراة الأصيلة ، أم والحاضرة المهيمن عليها القرآن مخطِّئاً أخطاءها ومصوِّباً صوابها ، ثم التحدي بهما جميعاً ولا أهدى منهما جميعاً ولا مثلاً لهما !، ثم الهدى في بُعد الدعوة الرسالية ماثلة في التوراة الأصلية مهما لم تكن في بُعد الحجة للداعية .

﴿ فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِنَ اللهِ إِنَّ اللهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾[٥٠] .

« فإن لم يستجيبوا لك » ولن « فاعلم » ثباتاً على علمك بالوحي بمزيد علم من ذلك التحدي « انما » ليس إلّا « يتبعون أهواءهم » لا عقولهم المتحللة عنها ، غير المحجوبة بها ، وذلك هو الضلال البعيد أن متبع الهوى

يحاول أن تتبعه الهدى « ومن أضل ممن اتبع هواه بغير هدى من الله » ضلالاً ذا بعدين بعيدين عن الهدى : اتباع الهوى ـ بغير هدى من الله ! فقد تُوافق الهوى الهدى احياناً كما تخالفها اخرى ، واما اتباع الهوى كأصل ، ثم التخلف عن الهدى الأصل فهما أضل ضلال ، وأظلم ظلم « ان الله لا يهدي القوم الظالمين » فلا يهدي الهوى المتخلفة عن الهدى .

وكضابطة ثابتة كلما لا يوافق كتاب الله وسنة رسول الله ، أو تخالفهما من رأى،فهو هوىً ضالة ، مهما اثبتته الأدلة العلمية والعقيلة أماهيه ، فإما هدى تختص هي بوحي الله ، وإما هوىً تعم ثالوثها نفساً وعقلاً وعلماً ، كما وان رسول الهدى « ما ينطق عن الهوى . إن هو إلا وحي يوحى »(١) .

﴿ وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ الْقَوْلَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾٥١ .

وانه قول الوحي الهدى حيث تترى على مدار الزمن دونما انقطاع « وما نريهم من آية إلّا وهي اكبر من اختها وأخذناهم بالعذاب لعلهم يرجعون » (٤٣ : ٤٨) « ولقد » تأكيد في بعدي الرسل والرسالات ، وهما والكتابات ، وهما والمعجزات « وصلنا لهم القول » الحق المطلق « لعلهم يتذكرون » به ولمّا

---

(١) نور الثقلين ٤ : ١٣٢ في أصول الكافي عدة من اصحابنا عن احمد بن محمد بن ابي نصر عن ابي الحسن (عليه السلام) في الآية قال : يعني من اتخذ دينه رأيه بغير امام من أئمة الهدى .

وعن علي بن ابراهيم بسند متصل عن سدير قال قال ابو جعفر (عليه السلام) يا سدير أفأريك الصادين عن دين الله ثم نظر إلى ابي حنيفة وسفياري في ذلك الزمان وهم حلق في المسجد فقال : هؤلاء الصادون عن دين الله بلا هدى من الله ولا كتاب مبين ، ان هؤلاء الأخابث لو جلسوا في بيوتهم فجال الناس فلم يجدوا أحداً يخبرهم عن الله تبارك وتعالى وعن رسوله (صلى الله عليه وآله وسلم) حتى يأتونا فخبرهم عن الله تبارك وعن رسوله (صلى الله عليه وآله وسلم) . .

إلّا شذراً منهم قليلاً واكثرهم كافرون .

فهؤلاء المشركون الناكرون لوحي القرآن دونما اية حجة إلا لجة غامرة من الهوى ، غير عامرة بالهدى ، ثم أولاء أهل الكتاب وكأنهم لم يؤتوا الكتاب ، واما :

﴿ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ مِن قَبْلِهِ هُم بِهِ يُؤْمِنُونَ ﴾٥٢ .

اترى ضميرى الغائب في « قبله ـ به » راجعان ـ فقط ـ إلى القرآن ، لأنه هنا كان محلّ النقض والابرام كما « قل فأتوا بكتاب .. » ؟ والحق في « فلما جاءهم الحق من عندنا » هو الرسول الحق برسالة حقة في القرآن : « قالوا لولا أوتي » هذا الحق الرسالي « مثل ما أوتي موسى .. » ! أم هما راجعان إلى رسول القرآن ؟ و« إذا يتلى عليهم » لا تعني إلاّ القرآن ! الوجهان هما المعنيان ، والرسول يُتلى عليهم كما القرآن ، بل وهو ايضاً قرآن : « وما علمناه الشعر وما ينبغي له إن هو إلاّ ذكر وقرآن مبين » ، وحتى إذا لا تناسبه ان يتلى ، فهذه قرينة انه القرآن ، وتلك « .. الحق من عندنا » إنه نبي القرآن ، فهما ـ إذاً ـ معنيّان ، فهما واحدٌ مع أنهما اثنان .

فـ« الذين آتيناهم الكتاب من قبله » رسولاً وقرآناً « هم به » قرآناً ورسولاً «يؤمنون» وطبعاً ليسوا هؤلاء كل الذين أوتوا الكتاب ، بل هم « الذين آتيناهم الكتاب يتلونه حق تلاوته اولئك يؤمنون به ومن يكفر به فاولئك هم الخاسرون » (٢ : ١٢١)(١) ، اجل أولئك الأكارم يؤمنون به

---

(١) الدر المنثور ٥ : ١٣١ ـ اخرج ابن جرير وابن المنذر عن ابي رفاعة قال : خرج عشرة رهط من أهل الكتاب منهم ابو رفاعة إلى النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) فآمنوا فأوذوا فنزلت « الذين آتيناهم الكتاب من قبله هم به يؤمنون » وفيه اخرج عبد بن حميد وابن

قرآناً ونبيه ، لا فحسب بل و « الذين آتيناهم الكتاب يعرفونه كما يعرفون أبناءهم وإن فريقاً منهم ليكتمون الحق وهم يعلمون » (٢ : ١٤٦) « . . . الذين خسروا انفسهم فهم لا يؤمنون » (٦ : ٢٠) . وقد نص عليه في التوراة

جرير وابن المنذر عن قتادة في الآية كنا نحدث انها انزلت في اناس من أهل الكتاب كانوا على شريعة من الحق يأخذون بها وينتهون اليها حتى بعث الله محمداً (صلى الله عليه وآله وسلم) وصبرهم على ذلك وذكر لنا ان منهم سلمان وعبد الله بن سلام .

وفيه (١٣٣) اخرج ابن أبي حاتم عن السدي في الآية قال : نزلت في عبد الله بن سلام لما اسلم أحب ان يخبر النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) بعظمته في اليهود ومنزلته فيهم وقد ستر بينه وبينهم ستراً فكلمهم ودعاهم فابوا فقال : اخبروني عن عبد الله بن سلام كيف هو فيكم ؟ قالوا : ذاك سيدنا وأعلمنا ، قال : أرأيتم ان آمن بي وصدقني أتؤمنون بي وتصدقوني ؟ قالوا : لا يفعل ذاك هو افقه فينا من أن يدع دينه ويتبعك ! قال (صلى الله عليه وآله وسلم) : أرأيتم ان فعل ؟ قالوا : لا يفعل ! قال : أرأيتم ان فعل ؟ قالوا : إذاً نفعل ، قال : أخرج يا عبد الله بن سلام فخرج فقال (صلى الله عليه وآله وسلم) : ابسط يدك فبسطها فقال أشهد أن لا إله إلا الله وانك رسول الله فبايعه فوقعوا به وشتموه وقالوا: والله ما فينا أحد أقل علماً ولا أجهل بكتاب الله منه ، قال (صلى الله عليه وآله وسلم) : أولم تثنوا عليه آنفاً ؟ قالوا : إنا ايتحيينا أن تقول اغتبتم صاحبكم من خلفه فجعلوا يشتمونه فقام اليه امين بن يامين فقال : اشهد ان عبد الله بن سلام صادق فابسط يدك فبايعه فانزل الله فيهم « الذين آتيناهم الكتاب . . » وعن سعيد بن جبير نزلت في سبعين من القسيسين فبعثهم النجاشي فلما قدموا على النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) قرا عليهم « يس والقرآن الحكيم » حتى ختمها فجعلوا يبكون واسلموا ونزلت فيهم هذه الآية « الذين آتيناهم الكتاب من قبله هم به يؤمنون » .

(١): الدر المنثور ٥ : ١٣١ ـ اخرج البخاري في تاريخه وابن المنذر عن علي بن رفاعة قال : كان ابي من الذين آمنوا بالنبي (صلى الله عليه وآله وسلم) من أهل الكتاب وكانوا عشره فلما جاؤا جعل الناس يستهزءون بهم يضحكون منهم فانزل الله : اولئك يؤتون اجرهم مرتين بما صبروا . . .

كما في النص العبراني التالي « يدعُوا يبسرائِل إوايل حَنْبِيا مَشُوكَاعْ إيش هَارُوحَ عَلْ رُوبْ عَوُنِخَا وِرَباهْ مَشِطْمَاهْ » :

بنو اسرائيل يعلمون ويعرفون ان النبي الأمي المصروع صاحب روح الهامي وصاحب الوحي » ! و « المصروع » هنا تعريض عليهم حيث « يقولون انه لمجنون وما هو إلا ذكر للعالمين » ! .

﴿ وَإِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ قَالُوا آمَنَّا بِهِ إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ ﴾٥٣ .

« وإذا يتلى عليهم » القرآن ـ أو ـ ونبي القرآن عرضاً عليهم « قالوا آمنا به»نبياً بكتابه ، وإن اختصت التلاوة بالقرآن ، فحين يتلى عليهم يقولون آمنا به : تالياً ومتلواً عليهم ، حيث القرآن برهان أن من جاء به رسول من عند الله « قالوا آمنا به » الآن « انه الحق» المطلق «من ربنا» بل ليس فحسب الايمان الآن فـ« إنا كنا من قبله مسليمن » لما بُشّرنا في كتاباتنا السماوية بالقرآن ونبيه ، وكنا ناظرين ظهور ذلك الحق المبين ، فـ:

﴿ أُولَٰئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُمْ مَرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ ﴾٥٤ .

مرة أولى من الأجر الموعود بما آمنوا بكتابهم وبنبيه ، واخرى أن آمنوا بما يتلى عليهم من القرآن ونبيه(١) أو الأولى بما آمنوا به من قبل ، واخرى لما

---

(١) الدر المنثور ٥ : ١٣٣ ، أخرج احمد والبخاري ومسلم والترمذي والنسائي وابن ماجه وابن مردويه والبيهقي عن ابي موسى الأشعري قال قال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) ثلاثة يؤتون اجرهم مرتين رجل من أهل الكتاب آمن بالكتاب الأول والكتاب الآخر ورجل كانت له امة فابها فأحسن تأديبها ثم اعتقها وتزوجها وعبد مملوك أحسن عبادة ربه ونصح لسيده وفيه اخرج أحمد والطبراني عن ابي امامة قال قال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) : من اسلم من أهل الكتاب فله اجره مرتين .

يتلى عليهم،أم الأولى بإيمانهم في المرحلتين ، ثم « بما صبروا »[١] في المرحلتين من الايمان ، « صبروا » على عقبات الايمان وعقوباته من ضفة اللاّايمان،لا فحسب انهم صبروا على الأذى بل واستعلوا على الكبرياء النفسية : « ويدرءون » : يدفعون أو يرفعون«ب»الطريقة« الحسنة » وبنفس الحسنة « السيئة » وكما امروا « ادفع بالتي هي أحسن (٤١ : ٣٤) » ومما رزقناهم ينفقون » في سبيل الايمان ، ودرء السيئة بالحسنة دفعاً عن الايمان وقبيله وعن انفسهم ، بمال وقوة في الروح أو الجسم .

وقد تعني الحسنة والسيئة الحياة ، فبالحياة الحسنة وهي الايمانية الصابرة المثابرة ، يدفعون الحياة السيئة المتكاثرة المكابرة، والتقية في مجالاتها الصالحة من الحسنة والإذاعة في غير صالحها سيئة[٢] : « والذين صبروا ابتغاء وجه ربهم وأقاموا الصلاة وأنفقوا مما رزقناهم سراً وعلانية ويدرءون بالحسنة السيئة اولئك لهم عقبى الدار » (١٣ : ٢٢) .

ثم الدرءُ قد يكون دفعاً ولمّا تُصبه السيئة وهي مشرفة ، أم رفعاً كما التوبة الرافعة للمعصية ، وكذلك ترك كبائر السيئات وفعل كبائر الحسنات ، وعلى أية حال فسنة الحياة الايمانية المليئة بالشبكات والشوكات والحرمانات

---

(١) الدر المنثور ٥ : ١٣١ ـ اخرج البخاري في تاريخه وابن المنذر عن علي بن رفاعة قال : كان ابي من الذين آمنوا بالنبي (صلى الله عليه وآله وسلم) من أهل الكتاب وكانوا عشرة فلما جاؤا جعل الناس يستهزءون بهم ويضحكون منهم فأنزل الله : اولئك يؤتون اجرهم مرتين بما صبروا . . . » .

(٢) نور الثقلين ٤ : ١٢٣ في أصول الكافي عن ابي عبد الله (عليه السلام) في قول الله عز وجل : « اولئك يؤتون اجرهم مرتين بما صبروا » على التقية ، « ويدرءون بالحسنة السيئة » قال : الحسنة التقية والسيئة الاذاعة .

هي ـ حتى المقدرة ـ ان تدرءَ السيئَة بالحسنة ، فقد تكون الحسنة هي التقية وأخرى هي الجهاد والمقاتلة كلٌ في سبيل الحفاظ على صالح الايمان والمؤمنين ، فالحياة التي تفني في سبيل القضاء على الكفر هي من الحسنة التي تدرء بها السيئة ، كما وكلما ينفق من مال وحال ومنال وعقل وعلم في سبيل درءِ السيآت هي من الحسنة ، « فلا تكونن ممن يقول في شيءٍ أنه في شيءٍ خاص » ما وسعت الدلالة لمداليل واسعة شاسعة .

﴿ وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ وَقَالُوا لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ ﴾٥٥ .

اولئك الأكارم من أهل الكتاب ، المؤمنون بالقرآن ونبيه هم صابرون في ايمانهم صامدون ، ومن تصبُّرهم في الله « إذا سمعوا اللغو » حين انتقلوا من كتابهم الى القرآن ، سمعوا من أهل ملتهم السابقين « اعرضوا عنه » والإعراض عن اللغو هو عدم التأثر به ، والإجابة عنه ، وهو من شيم المؤمنين الصادقين « وإذا مروا باللغو مرو اكراماً » (٢٥ : ٧٢) ولم يقولوا لغواً جواباً عن لغو بل « وقالوا لنا اعمالنا ولكم اعمالكم » فلماذا اللغو إذاً ، فكما لا نُسمعكم لغواً إذ لم تؤمنوا فلا تُسمعونا لغواً إذ آمنا ، وليس منها إلاّ « سلام عليكم » في لفظة القال وواقع الحال والأعمال « وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاماً » ! « ولا نبتغي الجاهلين » اللاغين بلغوا لقول وزخرفه رغم ما يبغون علينا هؤلاء المجاهيل ، وهذا من درءِ السيئة بالحسنة ، « لا نبتغي الجاهلين » إلاّ أن ننصحهم ونهديهم إلى صراط مستقيم

وهذه مفاصلة حسنة بينهم وبين اللاغين ، اعراضاً عن المقابلة بالمثل أولاً ، وجدالاً بالتي هي احسن ثانياً ، وسلام عليهم اعلاماً انهم ليسوا لهم إلاّ سلامة ثالثاً ، ثم متاركة معهم أخيراً : « لا نبتغي الجاهلين » أن نكالمهم

أو نجالسهم إذا هم مصرون على الجهالة[١] .

ويا له من ادب بارع يقابلون به السوء الهارع ، إذ هم يحتاجون إلى مزيد من صامد الايمان ، فلا يهتاجون أمام اللغو من قولة للإيمان ، وإنما هو الترفع والسماحة وحب الخير حتى للمسيئين ، مهما اقتضى الخير استئصالهم إذا كانوا مفسدين .

﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴾٥٦ .

إن رسول الهدى كان يحب ان يهدي الضالين كلهم أو جلّهم فيضيق صدراً بما يرى من صمودهم على الضلال قلقاً ، ويحاول ليل نهار ان يحصل على عدد أكثر ممن يهتدي إلى الله ، فنزلت هذه واضرابها مسلية خاطره القلق « إن عليك إلاّ البلاغ » - « ليس عليك هداهم » . . و « انك لاتهدي من أحببت» هداه « ولكن الله يهدي من يشاء » هدى التوفيق إلى صراط مستقيم بدلالتك الرسالية الوافية ، فلا بد لواقع الهدى من ضم الهديين ، هدي منك تدليلاً إلى شرعتك ، وهدي من الله توفيقاً لتقبلها والإقبال اليها ، وليس

---

(١) . روى محمد بن اسحاق في السيرة « ثم قدم على رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) وهو بمكة عشرون رجلاً أو قريباً من ذلك من النصارى حين بلغهم خبره من الحبشة فوجدوه في المسجد فجلسوا إليه وكلموه وسألوه ورجال من قريش في انديتهم حول الكعبة فلما فرغوا من مساءلة النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) عما أرادوا دعاهم إلى الله تعالى وتلا عليهم القرآن فلما سمعوا القرآن فاضت اعينهم من الدمع ثم استجابوا لله وآمنوا به وصدقوه وعرفوا منه ما كان يوصف لهم في كتابهم من امره فلما قاموا عنه اعترضهم ابو جهل بن هشام في نفر من قريش فقالوا لهم خيبكم الله من ركب ! بعثكم من وراءكم من اهل دينكم ترتادون لهم لتأتوهم بخبر الرجل فلم تطمئن مجالسكم عنده حتى فارقتم دينكم وصدقتموه فيما قال ؟ ما نعلم ركباً احمق منكم ! فقالوا لهم : سلام عليكم لا نجاهلكم لنا ما نحن عليه ولكم ما انتم عليهم لما نأل انفسنا خيراً » .

يوفق الله عبداً إلاّ ان يريد هو الهدى فاهتدى بما تحرّي ووفقه الله « والذين اهتدوا زادهم هدى وآتاهم تقواهم » (٤٧ : ١٧) .

وقد يروى عن رسول الهدى قوله في واقع الضلالة. والهدى : « بعثت داعياً ومبلغاً وليس إليّ من الهدى شيء وخلق ابليس مزيناً وليس اليه من الضلالة شيء »[1] ، وهو (صلى الله عليه وآله وسلم) لا يعني من السلب إلاّ التدليل في الهداية أو التضليل ، ولا من الايجاب إلاّ واقعهما في حقل التخيير وليس التسيير .

فليس الرسول هادياً إلاّ في حقل الدلالة الرسالية : « وإنك لتهدي الى صراط مستقيم » (٤٢ :٥٣) ثم الهدى الواقعية توفيقاً لها فوصولاً اليها هي من الله لا سواه،فالثابتة له هي هداية البيان ، والمسلوبة عنه هي هداية التوفيق .

هذه هي الوجهة العامة للآية واضرابها ، واما الخاصة ، المتناحرة فيها

مركز تحقيقات كامپيوتري علوم اسلامي

---

(١) الدر المنثور ٥ : ١٣٤ ـ اخرج العقيلي وابن عدي وابن مردويه والديلمي وابن عساكر وابن النجار عن عمر بن الخطاب قال قال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) : . . . وفي نور الثقلين ٤ : ١٣٤ في أصول الكافي محمد بن يحيى عن أحمد بن محمد بن عيسى عن ابن فضال عن علي بن عقبة عن أبيه قال قال أبو عبد الله (عليه السلام) : اجعلوا امركم هذا لله ولا تجعلوه للناس فأما ما كان لله فهو لله وما كان للناس فلا يصعد إلى السماء ولا تخاصموا بدينكم الناس فان المخاصمة ممرضة للقلب أن الله عز وجل قال لنبيه (صلى الله عليه وآله وسلم) : « إنك لا تهدي من احببت ولكن الله يهدي من يشاء » وقال أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين » ذروا الناس فإن الناس اخذوا عن الناس وإنكم اخذتم عن رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) وعلي (عليه السلام) ولا سواء واني سمعت أبي (عليه السلام) يقول : إذا كتب الله على عبد ان يدخله في الأمر كان اسرع إليه من الطير إلى وكره ، وفي كتاب التوحيد مثله سواء .

بين روايات العامة والخاصة فمما يجب ان نذود عن ساحة القرآن الحكيم ، ما يمس من ساحة الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) ام ربيِّه ووصيه علي امير المؤمنين،نكاية أُولى على الرسول مصارحة ، وثانية عليه إشارةً في الإزراء بأخيه في ابي طالب ابيه ، ومن اشنع ما رووه ان النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) كان يحب إسلام ابي طالب فنزلت « انك لا تهدي من احببت . . . » وكان يكره إسلام وحشي قاتل حمزة فنزلت فيه « يا عبادي الذين اسرفوا على انفسهم لا تقنطوا من رحمة الله . . » فلم يسلم ابو طالب واسلم وحشي »[1] ! وذلك البعيد البعيد عرض للمعارضة بين حب الله ورسوله ، نكاية بالامام علي (عليه السلام) ، والمختلق اعمى !

وروايات ائمة أهل البيت عليهم السلام عن رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) متظافرة في ايمان ابي طالب ، وقد أُلفت فيه كتب فذة وانشدت أشعار ، والشعر والنثر المنقول عنه شاهد لايمانه ، وقد آوى النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) صغيراً وحماه كبيراً وحتى النفس الأخير من حياته كان من اعظم المناصرين له (صلى الله عليه وآله وسلم) ! وقد تبلغ أشعاره في مدح النبي وتصديقه سفراً فذاً ، كما الروايات في ايمانه .

(١) في المجمع قيل نزول قوله « انك . . . » في ابي طالب فان النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) كان يحب . . . رووا ذلك عن ابن عباس وغيره ، وفي الدر المنثور ٥ : ١٣٣ عن ابي هريرة قال : لما حضرت وفاة ابي طالب أتاه النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) فقال يا عماه قل لا إله إلا الله أشهد لك بها عند الله يوم القيامة فقال : لولا ان تعيرني قريش يقولون ما حمله عليها إلا جزعه من الموت لأقررت بها عينك فأنزل الله : انك لا تهدي من احببت ولكن الله يهدي من يشاء وهو اعلم بالمهتدين .

وَقَالُوٓاْ إِن
نَّتَّبِعِ ٱلۡهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفۡ مِنۡ أَرۡضِنَآۚ أَوَلَمۡ نُمَكِّن لَّهُمۡ
حَرَمًا ءَامِنٗا يُجۡبَىٰٓ إِلَيۡهِ ثَمَرَٰتُ كُلِّ شَيۡءٖ رِّزۡقٗا مِّن لَّدُنَّا
وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ﴿٥٧﴾ وَكَمۡ أَهۡلَكۡنَا مِن قَرۡيَةِۭ
بَطِرَتۡ مَعِيشَتَهَاۖ فَتِلۡكَ مَسَٰكِنُهُمۡ لَمۡ تُسۡكَن مِّنۢ بَعۡدِهِمۡ
إِلَّا قَلِيلٗاۖ وَكُنَّا نَحۡنُ ٱلۡوَٰرِثِينَ ﴿٥٨﴾ وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهۡلِكَ
ٱلۡقُرَىٰ حَتَّىٰ يَبۡعَثَ فِيٓ أُمِّهَا رَسُولٗا يَتۡلُواْ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِنَاۚ
وَمَا كُنَّا مُهۡلِكِي ٱلۡقُرَىٰٓ إِلَّا وَأَهۡلُهَا ظَٰلِمُونَ ﴿٥٩﴾ وَمَآ أُوتِيتُم
مِّن شَيۡءٖ فَمَتَٰعُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَزِينَتُهَاۚ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيۡرٞ
وَأَبۡقَىٰٓۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ﴿٦٠﴾ أَفَمَن وَعَدۡنَٰهُ وَعۡدًا حَسَنٗا
فَهُوَ لَٰقِيهِ كَمَن مَّتَّعۡنَٰهُ مَتَٰعَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا ثُمَّ هُوَ يَوۡمَ
ٱلۡقِيَٰمَةِ مِنَ ٱلۡمُحۡضَرِينَ ﴿٦١﴾ وَيَوۡمَ يُنَادِيهِمۡ فَيَقُولُ أَيۡنَ
شُرَكَآءِيَ ٱلَّذِينَ كُنتُمۡ تَزۡعُمُونَ ﴿٦٢﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ حَقَّ عَلَيۡهِمُ
ٱلۡقَوۡلُ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَغۡوَيۡنَآ أَغۡوَيۡنَٰهُمۡ كَمَا غَوَيۡنَاۖ

تَبَرَّأْنَا إِلَيْكَ مَا كَانُوا إِيَّانَا يَعْبُدُونَ ﴿٦٣﴾ وَقِيلَ ادْعُوا
شُرَكَاءَكُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ وَرَأَوُا الْعَذَابَ
لَوْ أَنَّهُمْ كَانُوا يَهْتَدُونَ ﴿٦٤﴾ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَا
أَجَبْتُمُ الْمُرْسَلِينَ ﴿٦٥﴾ فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ الْأَنْبَاءُ يَوْمَئِذٍ
فَهُمْ لَا يَتَسَاءَلُونَ ﴿٦٦﴾ فَأَمَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ
صَالِحًا فَعَسَىٰ أَنْ يَكُونَ مِنَ الْمُفْلِحِينَ ﴿٦٧﴾ وَرَبُّكَ يَخْلُقُ
مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ سُبْحَانَ اللَّهِ وَتَعَالَىٰ
عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٨﴾ وَرَبُّكَ يَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ
وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٦٩﴾ وَهُوَ اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْحَمْدُ
فِي الْأُولَىٰ وَالْآخِرَةِ وَلَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٧٠﴾
قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ
الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِضِيَاءٍ أَفَلَا تَسْمَعُونَ ﴿٧١﴾
قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ
الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ

أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٧٢﴾ وَمِن رَّحْمَتِهِۦ جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ
لِتَسْكُنُواْ فِيهِ وَلِتَبْتَغُواْ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٣﴾
وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٧٤﴾
وَنَزَعْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا فَقُلْنَا هَاتُواْ بُرْهَٰنَكُمْ فَعَلِمُوٓاْ
أَنَّ ٱلْحَقَّ لِلَّهِ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ ﴿٧٥﴾ *

هنا قولة اخرى عاذرة غادرة للمتخلفين عن الإيمان من هؤلاء المشركين القاطنين في حرم الله ، بعدما وُجهوا بنقض وتحدٍّ في قولتهم الأولى،وشهدوا أن الرسول حق ، يردها الله عليهم بإجابات عدة تستأصل كل أعذارهم وأغدارهم ، فإما ان يؤمنوا أم يظلوا كافرين لمصلحيات متخلفة خاوية : « وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلماً وعلواً » !

﴿وَقَالُوا إِنْ نَتَّبِعِ الْهُدَى مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَا أَوَلَمْ نُمَكِّنْ لَهُمْ حَرَماً آمِنـاً يُجْبَى إِلَيْـهِ ثَمَـرَاتُ كُـلِّ شَيءٍ رِزْقـاً مِنْ لَـدُنَّـا وَلَكِنَّ أَكْثَـرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾[57] .

« إن » هنا دليل قربهم إلى الايمان لظهور الحجة وبهور المحجة ، أم إظهاراً لقربهم لولا المانع ، و« نتبع الهدى » دليل تصديقهم لها وإلاّ لم يسمّوها هدىً ، و« معك » دليل انه (صلى الله عليه وآله وسلم) لم يطلب منهم اتباعه ، بل اتباعَ الهدى معه ، الهدى التي معه ، واتباعها معه إلى الله .

« نتخطف من أرضنا » وهي الحرم المستفاد من « أوَلَم نمكن لهم حرماً » والتخطف هو الإختلاس بسرعة ، إذلا تُمهلنا كتلة الشرك أن نظل هنا بعد أن آمنا ! .

وهنا عليهم ردودٌ عدة تلميحة وتصريحة ، ومن الأولى المعطوف عليه المعروف لـ« أولم نمكن . . » كـ: الم نمكن المؤمنين طول التاريخ الرسالي ونورثهم الأرض كما في بني اسرائيل والذين مِن قبلهم ومَن بعدهم حتى هذه الرسالة الأخيرة ، مهما تحملوا ـ على طول الخط ـ صعوبات هي طبيعة الحال في مسيرة الايمان بسيرته خلاف اللاّايمان .

ومن التصريحة كرد حاضر هو المعطوف هنا « أولم نمكن . . » فقد مكنه الله لهم وهم مشركون ، « حرماً آمناً » يحترمونه فلا يحارَبون فيه إلا شذراً نذراً وهم عارفون تلك الحرمة المنقطعة النظير في ذلك الحرم المحترم (١) .

فمن ذا الذي مكنه لهم حرماً آمناً ـ وهم لا حرمة لهم ـ إلاّ الله ، أمناً تكوينياً وتشريعياً ، فأحرى لهم ذلك الأمن إن آمنوا وطبقوا شرائط الايمان .

وهنا « آمناً » بدلاً عن « مأموناً فيه » للتدليل على مدى الأمن فيه كأنه هو الأمن فضلاً عن قاطنيه كما « ومن دخله كان آمناً » (٣٢:٩٧) ثم الكعبة المباركة يزيد أمنا لحد كأنه بنفسه الأمن : « وإذا جعلنا البيت مثابة للناس وأمناً » (٢ : ١٢٥) ومما لا يريبه شك ان مكة المكرمة هي أءمن البلاد تكوينياً

---

(١) نور الثقلين ٤ : ١٣٥ في روضة الواعظين قال علي بن الحسين عليهما السلام كان ابو طالب يضرب عن رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) ـ إلى أن قال ـ : فقال ابو طالب : يا ابن أخ إلى الناس كافة ارسلت ام الى قومك خاصة ؟ قال : لا،بل إلى الناس ارسلت كافة الأبيض والأسود والعربي والعجمي ، والذي نفسي بيده لأدعون إلى هذا الأمر الأبيض والأسود ومن على رؤوس الجبال ومن في لجج البحار ولأدعون السنة فارس والروم ، فتخيرت قريش واستكبرت وقالت : اما تسمع الى ابن اخيك وما يقول ؟ والله لو سمعت بهذا فارس والروم لاختطفتنا من ارضنا وتقلعت الكعبة حجراً حجراً فانزل الله تبارك وتعالى «وقالوا أن نتبع الهدى . . » . اقول : طبعاً لم يكونوا هم كلّ قريش ، وانما هم الذين وجهوا بتلك البراهين ولم يبق لهم عذر إلا هذا ، كما تدل الآية .

وتشريعياً وحتى قبل الإسلام ، وقد كان يتخطف الناس من حولهم : « أولم يروا انا جعلنا حرماً آمنا ويتخطف الناس من حولهم أفبالباطل يؤمنون وبنعمة الله هم يكفرون » (٢٩ : ٦٧) ولقد آمن قليل من هؤلاء العاذرين فآواهم الله وايدهم بنصره مهما هاجروا : « واذكروا إذ أنتم قليل مستضعفون في الأرض تخافون أن يتخطفكم الناس فآواكم وأيدكم بنصره ورزقكم من الطيبات لعلكم تشكرون » (٨ : ٢٦) .

« . . حرماً آمناً يُجبى إليه ثمرات كل شيء » والإجباء هو الإجلاب و« يجبى » مستقبلاً مما يدل على استمرارية جبيها من كل مكان في كل مستقبل اكثر مما كان ، وطبعاً حسب الحاجيات الوقتية والمستمرة للحجيج والمعتمرين والقاطنين .

و« كل شيء » تعم ثمرات القلوب كما في دعاء ابراهيم « فاجعل افئدة من الناس تهوي اليهم وارزقهم من الثمرات . . » (١٤ : ٣٧) إلى سائر الثمرات العلمية والعقلية والاقتصادية والسياسية اماهيه ، كما هي قضية الحال في ذلك المجال بالحشد العظيم من الحجاج وسائر الزوار . « رزقاً من لدنا » وهو الرزق المتميز المنقطع النظير في المعمورة كلها ، جمعاً في هذا البلد الأمين بين كل الثمرات ، في تلك الأرض القاحلة التي لا ماءً وافراً فيها ولا كلاء ! .

« ولكن اكثرهم لا يعلمون » جاهلين هذه النعمة والمكرمة العظيمة أو متجاهلين عنها ، وعن ان الذي مكّن لهم وآمنهم ليس هو الشرك بالله ، بل هو كرامة من الله بقبلة المؤمنين ومأمن الايمان ! .

ثم واقلهم يعلمون وهم الذين آمنوا وحقق الله لهم وعدهم كما مضت في آية الانفال (٢٦) ، مهما كان منهم « الذين حجدوا بها واستيقنتهم انفسهم ظلماً وعلواً » !ولقد طمأن الله المؤمنين بنصرة من لدنه كما « إنا لننصر رسلنا والذين آمنوا في الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد » (٤٠ : ٥١) مهما كانت في

سبيل الايمان عراقيل وعقبات .

فحتى إذا تُخُـطِّفـوا من أرضهم ، فهـل ان عِـرضهم المتخـطَّف أولى بالصيانة أم أرضهم ، وقضية الإيمان الصادق اليقين ان يضحي المؤمن للحفاظ عليه بكل ما لديـه فضلاً عـما وعدهم الله من النصـر مهما كـان سبيله شائكـاً « فصبر جميل والله المستعان » .

ثم البقاء على أرض الوطن لا يضمن الأمن حين تكـون الحياة متخلفـة عن شرعة الله والمعيشة بطرة :

﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَـا مِن قَرْيَـةٍ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَـا فَتِلْكَ مَسَاكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَنْ مِنْ بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلاً وَكُنَّا نَحْنُ الْوَارِثِينَ ﴾٥٨

وذلك نقض ثان وحجة ثالثة تدحض عاذرتهم « وكم اهلكنا من قرية » مجتمع كافر غادر « بطرت معيشتها » فالنعمة المعيشة حين تُحـوَّل إلى النَعمة فهي بَـطِرة مُلهية ، فـالبَطْر دهـش يعتري الإنسان من سـوء احتمال النعمـة وقلة القيام بحقها وصرفها الى غير وجهها ، فبطر المعيشة هـو جعلها مبـطرة ملهية في غير ما حقٍّ « والدهر يومان يوم لـك ويوم عليـك فإذا كـان لك فـلا تبطر وإذا كان عليك فاصبر فبكلاهما ستختبر » .

وقد تكون « بطـرت » من كلا البْطر : الشق ، والبَطَر : تجاوز الحد في المَرَح ، فعلها لذلك تعدت بنفسها إلى مفعولها ، فقد شقت معيشتها إلى غير عيشتها فبدلت نعمـة الله كفراً ، وتجاوزت الحد في المـرح والتغنج في النِعمـة فاصبحَت نَعمة ونقمة .

« فتلك » البعيد الرذيل العزيل « مساكنهم » البطرة العطرة العالية الغـالية « لم تسكن من بعـدهم » إذ هلكت عن سكناهـا « إلاّ قليلاً » وقـد يعم الإستثناء هنا مثلثاً من المستثنى منه أن « اهلكنا . . إلاّ قليلاً ـ لم تسكن إلاّ قليلاً منهـا ـ

من بعدهم إلّا قليلاً » فلات ثلاث في استثناءات ثلاث ، مهما كان الأوسط منها يقتضي ادبياً « إلا قليلٌ » لكن الأخران يقتضيان النصب كما هو، والجمع بين الكل يقتضي النصب .

فقد أهلكنا إلا قليلاً منها ، ولم تسكن ما هلكت إلا قليلاً منها ، ولا من بعدهم إلا سكنى قليلة حيث اصبحت ممرات المارة المستفيدة منها قليلاً دون أن تتخذ مساكن دائمة « وكنا نحن الوارثين لها » إذ لا ساكن لها ، فكما ان لله ملك السماوات والأرض في الأصل ، ثم يجعلنا مستخلفين في بعض الملك مجازياً عارضياً ووقتياً ، كذلك له هذا الثاني الذي يستخلفنا فيه حين تهلك أو يهلك أهلوها ، فقد تهلك القرية بأهلها فلا بيوتَ حتى تُسكن وإنْ قليلاً ، وقد يهلك أهلوها وتهلك هي بعضاً فتبقى بعض البيوت عامرة أو شبه عامرة فلا تُسكن إلا قليلاً « وكنا نحن الوارثين » على أية حال .

فيا أهالي أم القرى المرزوقة من كل الثمرات لا تبطروا معيشتها فتستحقوا الهلاك والدمار، فإن بطر المعيشة هو السبب الأصيل لهلاك القرى باستهلاكها ، وقد اوتيتم ذلك الحرم الأمن ، فأحذروا أن يحل بكم الهلاك كما بالغابرين ، فقد بقيت قراهم شاخصة تحدِّث عن مصارع اهليها ولم يرثها احدٌ بعدهم « وكنا نحن الوارثين » .

﴿ وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَى حَتَّى يَبْعَثَ فِي أُمِّهَا رَسُولاً يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي الْقُرَى إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَالِمُونَ ﴾٥٩ .

ليس ـ فقط ـ إهلاك القرى أن بطرت معيشتها إلّا بحجة قاطعة تبين حق المعيشة عن باطلها ، أن يَبعث في أمها ـ لا كلها ـ رسولاً ، فأم القرى وعاصمتها متَّبعة بطبيعة الحال في حق أم باطل ، و« ما كان » على طول خط التكليف « ربك » الذي أرسلك في أم القرى « مهلك القرى حتى يبعث في

امها رسولاً » لا فحسب « يبعث » بل و« يتلوا عليهم » كل القرى آياتنا « يتلوا » بنفسه ام مرسليه الحاملين دعوته معصومة عاصمة « وما أهلكنا من قرية إلا لها منذرون » (٢٦ : ٢٠٨) « وما كنا مهلكي القرى إلاّ واهلها ظالمون » فإنهم رغم الرسالات في أمها يظلمونها تكذيباً لها وبطراً في معيشتهم ، ظلماً لا يُتحمل في حياة التكليف دون الظلامات اليسيرة القصيرة : « وإذاأردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها فحق عليها القول فدمرناها تدميراً » (١٧ : ١٦) « ولو أنا أهلكناهم بعذاب من قبله لقالوا ربنا لولا أرسلت إلينا رسولاً » (٢٠ : ١٣٤) « ذلك أن لم يكن ربك مهلك القرى وأهلها غافلون » (٦ : ١٣١) .

﴿ وَمَا أُوتِيتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَمَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَزِينَتُهَا وَمَا عِنْدَ اللهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾٦٠ .

وهذه حجة رابعة تقطع معاذيرهم عن بكرتها أن ارضكم وكل ما عليها ولكم « وما أوتيتم من شيء فمتاع الحياة الدنيا » فحتى إذا خُطفتم من ارضكم ان اتبعتم معي الهدى ، فما هي أرضكم وكل حياتكم إلاّ متاع الحياة الدنيا وزينتها أمام عِرضِكم فلتشتروا بها ما عند الله « وما عند الله خير » مما أوتيتم « وابقى أفلا تعقلون » رجاحةَ الهدى على الردى ، وان « ما عند الله خير وابقى » من « متاع الحياة الدنيا » ؟[1] .

(١) الدر المنثور ٥ : ١٣٥ - اخرج مسلم والبيهقي في الأسماءوالصفات عن ابي هريرة ان رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) قال : يقول الله عز وجل يا ابن آدم مرضت فلم تعدني ، فيقول : رب كيف اعودك وانت رب العالمين ؟ فيقول : اما علمت ان عبدي فلاناً مرض فلم تعده ، اما علمت انك لوعدته لوجدتني عنده ، ويقول : يا ابن آدم استسقيتك فلم تسقني فيقول : اي رب كيف اسقيك وانت رب العالمين ؟ فيقول تبارك

وذلك هو التقويم الأخير لكل ما أوتيتم من شيء فتخافون أن تُختطف منكم إن آمنتم ، والمفاصلة بين أمان الايمان وأمان اللاايمان بحاجة إلى عقل عن الحياة وقيمتها ، في مفاصلة بين وعد الله لقبيل الإيمان ووعد الشيطان لقبيله للاّايمان :

﴿ أَفَمَنْ وَعَدْنَاهُ وَعْداً حَسَناً فَهُوَ لَاقِيهِ كَمَنْ مَتَّعْنَاهُ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنَ الْمُحْضَرِينَ ﴾[٦١] .

كلا الوعد الحسن ومتاع الحياة الدنيا من الله لأهل الآخرة والدنيا ، والوعد الحسن لأهله هو الحياة الطيبة في الدارين « من عمل صالحاً من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينّه حياةً طيبة ولنجزينهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون » (١٦ : ٩٧) فـ« حياةً طيبة » تشملهما ، و« لنجزينهم » تخص الأخرى .

كما وهي حياة النصرة الربانية فيهما: « إنا لننصر رسلنا والذين آمنوا في الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد » وأما « من متعناه متاع الحياة الدنيا » مطمئناً إليها ، غافلاً عن الأخرى فـ« هو يوم القيامة من المحضرين » لسوء الحساب، حيث المحضرون هم المجبَرون على الحضور، حساباً لسيآتهم وتحسباً لعقوباتهم ، والحاضرون يوم الحساب هم أعم من المحضرين ، كما في آيات ثمان تعد المحضرين من المعذبين اللهمّ إلاّ البعض منها حيث تستثني عن الإحضار عبادَ الله المخلَصين : « فكذبوه فانهم لمحضرون . إلاّ عباد الله

وتعالى : اما علمتِ ان عبدي فلاناً استسقاك فلم تسقه اما علمت انك لو سقيته لوجدت ذلك عندي ، قال : ويقول : يا ابن آدم استطعمتك فلم تطعمني ، فيقول : اي رب وكيف اطعمك وانت رب العالمين ، فيقول : اما علمت ان عبدي فلاناً استطعمك فلم تطعمه اما انك لو اطعمته لوجدت ذلك عندي ؟

المخلَصين » (٣٧ : ١٢٨) في احتمال اتصال الإستثناء تعميماً لضمير الجمع كافة العباد ، صحيح ان من الممتعين متاع الحياة الدنيا من يتذرّعها للحياة الأخرى ، إلّا ان التقابل بينهم - هنا - وبين « من متعناه متاعاً حسناً » يختص هؤلاء الممتَّعين بمن « رضوا بالحياة الدنيا واطمأنوا بها » فحتى إذا لم تخلف حياة المتاع عذاباً في الأخرى، فقد يكفي أنها محرمة لها ، وهل من عاقل يرجح هذه الفانية الهزيلة الرذيلة على تلك الباقية الفضيلة ؟! فضلاً عن انها تخلف العذاب الدائب فيها ، ذلك ! وإلى سائر المفاصلات بين الفريقين في النشأتين ، ذكرى لمن كان له قلب أو ألقي السمع وهو شهيد ! :

﴿ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ ﴾٦٢ .

وهؤلاء الشركاء المزعومون هم بين خيِّرين كالملائكة والنبيين ، والشريرين كفرعون ونمرود وسائر الطاغين ، ثم عوانٍ بينهما ككلّ الأصنام والأوثان إذ لا عقل لها حتى تكون لها خيرة خيِّرة أم شرِّيرة ، فالأولون ناكرون أنهم شركاء ، هناك كما هنا ، والأوسطون ينكرون حق الشركة ، معترفون بباطلها فهناك يستسلمون ، والآخرون لا عقل لهم فيصدقوا وينكروا ، والثلاثة شركاء في نكران شركهم مع الله إذ تزول الحجب فتظهر الحقائق : « فزيّلنا بينهم وقال شركاؤهم ما كنتم ايانا تعبدون » (١٠ : ٢٨) .

﴿ قَالَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ رَبَّنَا هَؤُلَاءِ الَّذِينَ أَغْوَيْنَاهُمْ كَمَا غَوَيْنَا تَبَرَّأْنَا إِلَيْكَ مَا كَانُوا إِيَّانَا يَعْبُدُونَ ﴾٦٣ .

« الذين حق عليهم القول » هنا هم الشركاء الطغات بين داعية إلى نفسها ، أم إلى أصنامها ، دون الأولين الأكارم ، فهؤلاء هم حَصَب جهنم وأولاء من السابقة لهم الحسنى : « انكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم أنتم لها واردون . لو كان هؤلاء آلهة ما وردوها وكل فيها خالدون . .

إن الذين سبقت لهم منّا الحسن أولئك عنها مبعدون » (٢١ : ١٠١) .

قال الأولون « ربنا هؤلاء » المشركون الأتباع « الذين أغوينا أغويناهم كما غوينا » فطبيعة الغاوي هي الإغواء ، كما طبيعة المهتدي هي الإهداء ، مهما كانت باختيار دون إجبار كما هيه ، فكما غوينا دون قسر ، كذلك أغويناهم دون قسر ، فلا سلطان على القلوب في غواية « وما كان لي عليكم من سلطان » (١٤ : ٢٢) « وما كان لنا عليكم من سلطان بل كنتم قوماً طاغين . فحق علينا قول ربنا إنا لذائقون . فأغويناكم إنا كنا غاوين » (٣٧ : ٣٢) .

« تبرأنا إليك ما كانوا ايانا يعبدون » اترى « ما » هنا موصوفة ، المتبرأ منه إلى الله هو عبادتهم إيانا ، وهو في معنى قول قائدهم الأوّل : « إني كفرت بما اشركتمونِ من قبل » (١٤ : ٢٢) ؟ وصيغته الصريحة « تبرأنا إليك من عبادتهم ايانا » ! أم موصولة ، فالمتبرءُ منه هو انفسهم ؟ وصيغته الصريحة « تبرأنا إليك منا حيث عبدنا » ! أم هي نافية نكراناً لعبادتهم اياهم كما « قال شركاءهم ما كنتم ايانا تعبدون » (١٠ : ٢٨) ؟ وقد تكون « اغويناهم » تثبيتاً لعبادتهم اياهم !

وعلّ الكل معنية فإن لكلٍّ شاهداً ، فـ« أغويناهم » مهما كان تثبيتاً لعبادتهم اياهم ، ولكنها في الأصل عبادتهم لأهواءِهم ، فهي هي آلهتهم التي ألهتهم عن عبادة الله إلى ما تهواه انفسهم من دون الله ، و«تبرأنا إليك» من عبادتهم ايانا ومن انفسنا إذ عُبدنا «وتبرأنا إليك» عن عبادتهم أيانا إذ ما كانوا إيانا يعبدون ، وإنما يعبدون اهواءهم ، ام لم تنحصر عبادتكم بنا ، بل ومع اهوائكم وهي البادءة فيها ، كما يلمح تقديم « ايانا » فلم يقولوا : « ما كنتم تعبدوننا » فإنها كاذبة ، بل « ما كنتم ايانا . . . » أي ما انحصرت عبادتكم

فينا ، بل ومعنا غيرنا وهي اهوائكم التي دعتكم اليها ! وهي الأصل في عبادتكم المتخلفة ، تبرأنا اليك من جريمة إغواءهم ، ومن عبادتهم لنا ، ومن ان يكونوا ـ في الحق ـ يعبدوننا فقط ، وإنما هي اهواءهم « افرأيت من اتخذ إلهه هواه » (٤٥ : ٢٣) فانما عبدوا أهوائهم مبدئياً ، ولذلك أطاعونا فيما أغويناهم ، إذ وجدوا فينا أهواءهم ، وأما أنهم ما دعوهم إلى عبادتهم فلا تصريحة لها ولا لمحة ، بل و« أغويناهم » وأضرابها تصريحة لهذه الدعوة النكدة الناكبة .

﴿ وَقِيلَ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ وَرَأَوُا الْعَذَابَ لَوْ أَنَّهُمْ كَانُوا يَهْتَدُونَ ﴾٦٤ .

« ادعوا شركاءكم » الذين زعمتم أنهم فيكم شركاء لينجوكم من عذاب الله كما وُعدتم فيهم « فدعوهم » شاءوا أم أبوا إذ لا خيرة في أمر الله هناك « فلم يستجيبوا لهم » فيما دعوهم إذ لا يستطيعون ، وهم من الذين حق عليهم القول ، وذلك عذاب نفسي فوق العذاب ، ثم « ورأوا العذاب » من فورهم متحسرين متمنين « لو أنهم كانوا يهتدون » فلا يروا العذاب ، وقد تعني « لو » هنا استحالة ذلك المتمني فقد مضى يوم خلاص ولات حين مناص ، إذ يتمنون لو رُدُّوا فاهتدوا فلم يروا يومئذٍ العذاب .

﴿ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَا أَجَبْتُمُ الْمُرْسَلِينَ ﴾٦٥ .

هذا سؤال تأنيب وتهييب والله يعلم ماذا أجابوا المرسلين ، وكما المرسلون يُسألون ، إلّا أن هناك تخجيلاً وهنا تبجيل : « يوم يجمع الله الرسل فيقول ماذا أجبتم .. » (٥ : ١٠٩) ، لا جواب هنا ولا هناك ، فهنا « قالوا لا علم لنا إنك أنت علام الغيوب » إحتراماً على علمهم بما علمهم الله ، وهناك تحيراً وانبهاراً :

﴿ فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ الْأَنْبَاءُ يَوْمَئِذٍ فَهُمْ لَا يَتَسَاءَلُونَ ﴾ ٦٦ .

فرغم انهم على علم بأنباءهم في تكذيب المرسلين عميت عليهم حتى يزدادوا حيرة على حيرة ، فالذاكر لذنبه قد يعرضه اعتذاراً ، وأخرى انكاراً ، وفي كلٍّ تخفيف وقتي ، فحتى لا يخفَّف عنهم هول المطلع عميت عليهم الأنباء « فهم لا يتساءلون » بعضهُم البعضَ عن أنباءهم لأنهم سواء في التعمية عليهم فهم حائرون مائرون ، و« عميت عليهم » دون « عموا عنها » يلقي ظلام العمى عليهم ككل دونما منفذ ينفذون عنه ، فهم في ذهولهم صامتون لا يدرون من اي إلى ايٍّ يميلون !.

وذلك ـ فقط ـ للمكذبين دون المؤمنين على اختلاف درجاتهم في إجاباتهم المرسلين :

﴿ فَأَمَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحاً فَعَسَى أَنْ يَكُونَ مِنَ الْمُفْلِحِينَ ﴾ ٦٧ .

مركز تحقيقات كامپيوتري علوم اسلامي

هنا تقابُلٌ بين الصفحة المظلمة للكافرين ، والصفحة المشرقة للمؤمنين ، و« عسى » تُرجِّيهم بذلك المثلث البارع من الفلاح ، توبة وايماناً وعملاً صالحاً ، ان يكونوا من المفلحين ، إذ لا يُضمن لهم ـ ككل ـ العاقبة الحسنى،فقد يرجعون كفاراً في العاقبة ، فليلجأوا إلى الله ملتمسين منه حسن العاقبة ، كما وان الايمان بزميليه ليس هو السبب التام للإفلاح لولا رحمة من الله وفضل ، فعساه لهذا وذاك يأتي هنا بعسى .

وقد تكون « فأما من تاب . . » استثناءً عن « عَميت عليهم الأنباء » تعمياً للسئوال في « يناديهم »، أن الكل يُسأل عنهم » « ماذا أجبتم المرسلين » بين تخجيل وتبجيل وكما يروى عن الرسول (صلى الله عليه وآله

وسلم)(١) .

﴿ وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ سُبْحَانَ اللهِ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾٦٨ .

ذلك هو الجواب القاطع القاصع الأخير عن عاذرتهم ان لا مؤثر في الوجود إلّا الله ، فلا طاقة مستقلة تتخطفكم عن أرضكم ، مستغِلة ذلك دون أن يشاء الله ، فان له الخلق والأمر دونما جبر ولا تفويض .

فعلى العبد أن يقدِّم في الله ما في طوقه ووسعه ، ولله الخيرة في أمره أن يفعل ما يشاء كما يشاء ، دون إتكالية بلا سعي ولا عمل ، ولا استقلالية لهم فيما يشاءون ، بل « أمر بين أمرين » أن يسعى ويتوكل على الله فيما يسعاه .

فلا إلغاء هنا للعقول والإرادات والنشاطات ، ولا تفويض لها في الحصول على كل المرادات ، بل عليهم ان يتقبلوا ما يقع ويرضوا بما وقع بعد ما بذلوا ـ دون تبذُّل ـ ما في وسعهم من التفكير والإختيار والتدبير ، ولله الأمر من قبل ومن بعد .

فـ« وربك » الذي خلقك واختارك ورباك « يخلق ما يشاء » لا ما يشاءون « ويختار » فيما يخلق أو يشرع دونما إجبار له فيما يخلق ويختار ما يشاء لا كما يشاءون « ما كان لهم الخيرة » لا في خلق ولا اختيار « سبحان الله وتعالى عما يشركون » به في خلق أو اختيار .

إن « يخلق » هنا تعم كل خلق للمادة الأولية أماهيه من خلق ، لا شريك له في أيٍّ كان منه وايان من اي كان ، وكذلك « يختار » في حقلي

---

(١) الدر المنثور ٥ : ١٣٥ ـ أخرج ابن المبارك في الزهد وعبد بن حميد والنسائي والطبراني وابن مردويه عن ابن مسعود عن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) قال : « ما من احد الا سيخلو الله به كما يخلو أحدهم بالقمر ليلة البدر فيقول يا ابن آدم ما غرك بي يا ابن آدم ماذا عملت فيما علمت يا ابن آدم ماذا اجبت المرسلين » .

التكوين والتشريع « ألا له الخلق والأمر ذلكم الله رب العالمين » « وما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمراً أن يكون لهم الخيرة من أمرهم » (٣٣ : ٣٦) مع العلم أن خيرة الرسول إنما هي خيرة الله إذ لا يختار ما يختاره إلّا بوحي من الله ، و « ما كان » نهي وليس نفياً يسلب عنهم أي اختيار .
ومن اختياره تعالى أمرَ التشريع أن يختار الرسول الحامل لشرعته ، وأوصياءه المحمَّلين تبيين شِرعته، فكما له اختيار الرسول دون سواه ، كذلك له اختيار أوصياءه لا سواه ، وترى « ما كان لهم الخيرة » تنفي عنهم الإختيار في الأفعال التكليفية ؟ كلّا ! والإختيار فيها ثابت بدليل العقل والكتاب والسنة ، والإختيار المنفيّ عنهم يختص بما يختص اختياره بالله ، كخيرة الخلق والأمر تشريعاً وسواه من أمر الخلق ، وكذلك الاختيار المطلق في الأفعال الاختيارية ، فلله الإختيار المطلق في كل ما يختار ، وليس لنا مطلق الإختيار إذ قد تمنعنا موانع عما نختار ، ثم قد نختار صالحاً أو طالحاً لا يختاره الله تكويناً فهنالك يكلُّ الإختيار كما في ذبح ابراهيم ولده ، وفي حرقه (عليه السلام) بالنار ، إذ لم يؤثر الإختيار هنا وهناك .

فالإختيار المنفي عنا في حقل التكوين هو الإختيار المطلق ، وفي حقل التشريع هو مطلق الإختيار ، فحين « لا جبر ولا تفويض بل أمرٌ بين أمرين » لم يكن لنا في افعالنا الاختيارية الإختيار المطلق ، فانه تفويض فإشراك بالله في ذلك الاختيار « سبحان الله وتعالى عما يشركون » ، وحين لا شارع إلّا الله : « أم لهم شركاء شرعوا لهم من الدين ما لم يأذن به الله » (٤٢ : ٢١) فمطلق الإختيار لنا في التشريع ـ وإنْ في حكم واحد ـ إشراك بالله « سبحان الله وتعالى عما يشركون » .

كما وأن اختيار الرسل وأوصياءهم الحَمَلة لرسالاتهم من غير الله إشراك

بالله في حقل التشريع « سبحان الله وتعالى عما يشركون » .

وقد استدل الامام الرضا والقائم المهدي والإمام الصادق عليهم السلام بالآية وسواها على انحصار نصب الإمام بالله وانحساره عمن سواه (١) .

---

(١) نور الثقلين ٤ : ١٣٦ في أصول الكافي ابو القاسم بن العلا رفعه عن عبد العزيز بن مسلم عن الرضا (عليه السلام) حديث طويل في فضل الإمام وصفاته يقول فيه : هل يعرفون قدر الامامة ومحلها من الأمة فيجوز فيها اختيارهم ـ إلى قوله (عليه السلام) ـ لقد راموا صعباً وقالوا إفكاً وضلوا ضلالاً بعيداً ووقعوا في الحيرة إذ تركوا الإمام عن بصيرة، زين لهم الشيطان اعمالهم فصدهم عن السبيل وكانوا مستبصرين ، رغبوا عن اختيار الله واختيار رسول الله الى اختيارهم والقرآن يناديهم : « وربك يخلق ما يشاء ويختار ما كان لهم الخيرة سبحان الله وتعالى عما يشركون » وقال عز وجل : « وما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله امراً ان يكون لهم الخيرة من امرهم » .

وفيه عن كتاب كمال الدين وتمام النعمة باسناده إلى سعد بن عبد الله القمي عن الحجة القائم (عليه السلام) حديث طويل وفيه : قلت فأخبرني يا ابن مولاي عن العلة التي تمنع القوم من اختيار الامام لأنفسهم ؟ قال : مصلح ام مفسد ؟ قلت : مصلح ، قال : فهل يجوز ان تقع خيرتهم على المفسد بعد أن لا يعلم أحد ما يخطر ببال غيره من صلاح أو فساد ؟ قلت : بلى ، قال (عليه السلام) : فهي العلة وأوردها لك ببرهان ينقاد لك عقلك ثم قال (عليه السلام) : اخبرني عن الرسل الذين اصطفاهم الله عز وجل وانزل عليهم الكتاب وايدهم بالوحي والعصمة إذ هم اعلام الأمم ، أهدى إلى الإختيار منهم مثل موسى وعيسى عليهما السلام ، هل يجوز مع وفور عقلهما اذ هما بالاختيار ان تقع خيرتها على المنافق وهما يظنان انه مؤمن ؟ قلت : لا ـ قال : هذا موسى كليم الله مع وفور عقله وكمال علمه ونزول الوحي عليه اختار من اعيان قومه ووجوه عسكره لميقات ربه عز وجل سبعين رجلاً ممن لا يشك في ايمانهم واخلاصهم فوقع خيرته على المنافقين قال الله عز وجل : « واختار موسى قومه سبعين رجلاً لميقاتنا ـ الى قوله ـ لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة فأخذتهم الصاعقة بظلمهم » فلما وجدنا اختيار من قد اصطفاه الله عز وجل للنبوة واقعاً على الأفسد دون الأصلح وهو يظن أنه

وقد تحتمل « ما » هنا بجبب كونها نفياً ، أنها موصولة : « ويختار ما كان لهم الخيرة » اختياراً فوق كل اختيار ، فلا يُمضى اختيار ولا يمشّى إلاّ ان يختاره الله « وما تشاءون إلاّ أن يشاء الله » وهذا وإن كان في نفسه صحيحاً ، وهو قضية الأمر بين امرين ، إلاّ أنه ليس يختار كلَّ ما كان لهم الخيرة ، كما في قصتي إبراهيم الخليل وأضرابهما ، إلاّ ان تختص « ما كان لهم الخيرة » بالبعض دونما استغراق ، لا سيما وأنه ضمن المعني من « ما » إذ تعنيهما كما هو الصالح لساحة الربوبية .

ومن الخيرة الإستخارة في مورد الحيرة ، حين لا تزول بتفكير ولا مشورة فيظل الإنسان حائراً لا يدري من أي إلى أي وكما يروى عن الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم)(1) .

الأصلح دون الأفسد علمنا ان الاختيار لا يجوز أن يفعل إلا من يعلم ما تخفي الصدور وتكن الضمائر وتنصرف إليه السرائر وأن لا خطر لاختيار المهاجرين والأنصار بعد وقوع خيرة الأنبياء على ذوي الفساد لما أرادوا أهل الصلاح » ! ، وفي تفسير الفخر الرازي ٢٥ : ١٤ روى ابو امامة الباهلي عن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) انه قال : كان قارون من السبعين المختارة الذين سمعوا كلام الله تعالى .

وفيه عن مصباح الشريعة قال الصادق (عليه السلام) في كلام طويل : وتعلم ان نواصي الخلق بيده فليس لهم نفس ولا لحظة إلاّ بقدرته ومشيته وهم عاجزون عن اتيان اقل شيء في مملكته إلا باذنه وارادته قال الله عز وجل : « وربك يخلق . . . » .

(1) : الدر المنثور ٥ : ١٣٥ ـ اخرج البخاري وابو داود والترمذي والنسائي وابن ماجه وابن مردويه والبيهقي عن جابر بن عبد الله قال كان يعلمنا السورة من القرآن يقول إذا هم احدكم بالأمر فليركع ركعتين من غير الفريضة ثم ليقل : اللهم إني استخيرك بعلمك واستقدرك بقدرتك واسألك من فضلك العظيم فانك تقدر ولا اقدر وتعلم ولا أعلم وانت علام الغيوب اللهم إن كنت تعلم ان هذا الأمر خير لي في ديني ومعاشي وعاقبة امري

﴿ وَرَبُّكَ يَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴾ ٦٩ .

إذاً فهو ـ لا سواه ـ الذي له الخيرة إذ يعلم كائنات الصدور وكناناتها ، فلا تخفى عليه خافية منها ، فهو الذي يعلم صالحهم من طالحهم ، تكويناً وتشريعاً وانتصاباً لرسل واوصياء ، وانتخاباً لآيات الرسالة وموادها كما يعلم بحكمته العالية ، فيختار كما يعلم دون اختيار مَن سواه إذ لا يعلمون كما « يعلم ما تكن صدورهم وما يعلنون » .

﴿ وَهُوَ اللهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْحَمْدُ فِي الْأُولَى وَالْآخِرَةِ وَلَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ ٧٠

« هو الله » لا سواه « لا إله إلاّ هو » لا سواه « له الحمد » كله لا لسواه، «في الأولى والآخرة» فلا يحمد سواه إلاّ من يحمل رضاه حمداً متجهاً في اصله إلى الله « وله الحكم » لا حكم بجنبه لسواه « واليه » لا سواه « ترجعون » كما منه تبدءون فـ« إنا لله وإنا إليه راجعون » .

وإنما كلمة التوحيد باركانها الثلاثة بعد ركني السلب والايجاب ، فلأنه « الله لا إله إلاّ هو » إذاً « فله الحمد » في كل حقوله واتجاهاته ، في الدارين « وله الحكم » تكويناً وتشريعاً » « واليه ترجعون » هنا في الخلق والأمر ، وهناك في الحساب فالثواب والعقاب ، ثم « هو » هنا كما ترجع إلى الذات المقدسة الغيبية ، كذلك راجعة إلى « ربك » السابق ذكره خلقاً واختياراً وعلماً بما تكن صدورهم ، ذلك « هو الله » دون من لا يخلق ولا يختار ولا يعلم كما هو ، فـ« لا إله إلاّ هو » في الذات والصفات وكافة شئون الألوهية

وعاجل أمري وآجله فاقدره لي ويسره لي وان كنت تعلم ان هذا الأمر شر لي في ديني ومعاشي وعاقبة امري وعاجل امري وآجله فاصرفه عني واصرفني عنه واقدر لي الخير حيث كان ورضني به ويسمي حاجته باسمها .

والربوبية، توحيدُ بَيِّنَةُ الجهات ، محلِّقة على كلّ النشآت ، في الذات وفي صفات الذات ، يزيل كل وحشة ودهشة عن المؤمنين به ، مُطَمئناً إياهم على أية حال ، في كل حِلٍ وترحال .

﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَداً إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللهِ يَأْتِيكُمْ بِضِيَاءٍ أَفَلَا تَسْمَعُونَ ﴾[٧١] .

سرمد الليل ـ وهو تداومة عذاب ـ كما سرمد النهار عذاب، وقد تلمح له « عليكم » هنا وهناك ، و « إلى يوم القيامة » فيهما لاختلاف شروط الحياة في الدارين ، فليكن القياس في المعروف من الحياة الأولى ، وترى كيف يجتمع سرمد الليل وإتيان الضياء فيه وهما لا يجتمعان مهما كان هناك إله يأتي بضياء ، فالمحال محال سواءٌ أكان الله ام لإله سواه ؟

ليس القصد هنا إلى تحدِّي الجمع ، بل هو نقض الإرادة الإلهية في سرمد الليل المعروض ، فلو كان هناك إله يريد ليرحمكم عن بأس الليل السرمد لقسَمَ الزمان الى ليل ونهار كما قسمه الله ، أو « من يأتيكم بضياء » دون « نهار » هو من تعميم التنازل ، أنه إذا يأتي بنهار فليات بضياء مهما كان بغير الشمس ، لأن سرمد الليل يقتضي تباعد الشمس لحد لا تضي هذه الكرة ، وإذا أتي بالشمس فقد أتي ـ بطبيعة الحال ـ بكلا الليل والنهار قضية حِراك الأرض الدورانية .

والقصد من ذلك التحدي ليس هو نقض الإرادة الإلهية ككل ، بل هو تتميمها لو أنه جعل عليكم الليل سرمداً ، فليكن الإتيان بضياء دون نهار فيه استئصال إرادته عن بكرتها .

فالناس متشوقون إلى فلق الصباح حين يطول بهم الليل أيام الشتاء ، أم لا يهنأ لهم الليل لعارض يعرضهم ، فيحنُّون إلى ضياء الشمس ، فكيف بهم لو فقد الضياء عن بكرته ، فان سرمد الليل بظلامه يُظلم الحياة

ويكدِّرها، على فرض إمكانية الحياة إن جعل الليل سرمداً، «أفلا تسمعون» إلى هذه الذكريات التي توقظكم من همود الإلف والعادة في تتابع الليل والنهار؟.

﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَداً إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ اللهِ يَأْتِيكُمْ بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴾[٧٢].

فالليل سكنٌ والنهار فيه ابتغاء فضل من الله وإبصار «أفلا تبصرون» إلى ضوء النهار الذي هو فضلٌ وإبصار كيف يصبح عذاباً إن كان سرمداً، فكِلا الليل والنهار رحمة متعادلة معتدلة:

﴿ وَمِنْ رَحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾[٧٣].

فلكلٍّ من الليل والنهار خاصةُ رحمته، من سَكَن الليل وإبصار النهار: «هو الذي جعل لكم الليل لتسكنوا فيه والنهار مبصراً إن في ذلك لآيات لقوم يسمعون» (١٠ : ٦٧)

فأصل السكن وضابطته هو في الليل، كما أصل الإبصار والإبتغاء من فضل الله ضابطة في النهار، مهما تبادلا فيهما أحياناً لضرورة معاكسة: «ومن آياته منامكم بالليل والنهار وابتغاءكم من فضله» (٣٠ : ٢٣).

وآيتنا هنا عوانٌ بين الآيتين، فاللف والنشر المرتب بين «الليل والنهار» وبين «لتسكنوا فيه ولتبتغوا من فضله» ينحو نَحْوَ الأولى، وعدم ذكر كلٍّ بعد كلٍّ يلمح إلى الأول، والأولى أولى لأولوية الترتيب، والثانية هامشية إذا اقتضت الحال «ولعلكم تشكرون» في الترتيب الأصل، وفي المعاكسة الفرع، فانهما على اختلافها نعمة ورحمة، قبال الزحمة والنقمة في سرمد الليل أو النهار.

﴿ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ ﴾[٧٤] .

هذه تتكرر هنا بعد آيات ثمان في حجة متصلة متواصلة ، لأنها تجد بعدها ظرفاً راجحاً لتكرارها :

﴿ وَنَزَعْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيداً فَقُلْنَا هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ فَعَلِمُوا أَنَّ الْحَقَّ لِلَّهِ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴾[٧٥] .

فمشهد نزع شهيد من كل أمة هو رسولها الذي يشهد بما جاء به واجابته فصدقته أو كذبته ، ذلك المشهد يتقاضى الشركاء الشهداء المزيفين ، ليكون الشهيد انِ بمعرض العرصات بين ضفتي الإيمان والكفر، فيقضي الله امراً كان مفعولاً « فقلنا » للضفة الكافرة « هاتوا برهانكم » وهم خواء خلاء عن كل برهان « فعلموا » علم اليقين بعدما تجاهلوا « أن الحق » كله « لله » دون مَن سواه « وضل عنهم ما كانوا يفترون » من شركائهم ، فالشهداء الحق يشهدون عليهم كما يشهدون لمن سواهم أو عليهم ، ثم لا شهداءَ لهم من شركاءِهم ، إلاّ شركاء في جحيم النار وبئس القرار ولات حين فرار .

إِنَّ قَٰرُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ ۖ وَءَاتَيْنَٰهُ مِنَ ٱلْكُنُوزِ مَآ إِنَّ مَفَاتِحَهُۥ لَتَنُوٓأُ بِٱلْعُصْبَةِ أُو۟لِى ٱلْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُۥ قَوْمُهُۥ لَا تَفْرَحْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْفَرِحِينَ ﴿٧٦﴾ وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ ۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ

مِنَ الدُّنْيَا ۖ وَأَحْسِن كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ ۖ وَلَا تَبْغِ
الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ ۖ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ ﴿٧٧﴾ قَالَ
إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِي ۚ أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ
أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ
جَمْعًا ۚ وَلَا يُسْأَلُ عَن ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ ﴿٧٨﴾ فَخَرَجَ عَلَىٰ
قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ ۖ قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا
يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٧٩﴾
وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ آمَنَ
وَعَمِلَ صَالِحًا ۚ وَلَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الصَّابِرُونَ ﴿٨٠﴾ فَخَسَفْنَا بِهِ
وَبِدَارِهِ الْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُ مِن
دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُنتَصِرِينَ ﴿٨١﴾ وَأَصْبَحَ الَّذِينَ
تَمَنَّوْا مَكَانَهُ بِالْأَمْسِ يَقُولُونَ وَيْكَأَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ
لِمَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ ۖ لَوْلَا أَن مَّنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا
لَخَسَفَ بِنَا ۖ وَيْكَأَنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ ﴿٨٢﴾ تِلْكَ

ٱلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ
وَلَا فَسَادًا ۚ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٨٣﴾ مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ
فَلَهُۥ خَيْرٌ مِّنْهَا ۖ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى ٱلَّذِينَ عَمِلُوا۟
ٱلسَّيِّـَٔاتِ إِلَّا مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٨٤﴾ إِنَّ ٱلَّذِى فَرَضَ
عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ ۚ قُل رَّبِّىٓ أَعْلَمُ مَن جَآءَ
بِٱلْهُدَىٰ وَمَنْ هُوَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٨٥﴾ وَمَا كُنتَ تَرْجُوٓا۟
أَن يُلْقَىٰٓ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبُ إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۖ فَلَا تَكُونَنَّ
ظَهِيرًا لِّلْكَٰفِرِينَ ﴿٨٦﴾ وَلَا يَصُدُّنَّكَ عَنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ
بَعْدَ إِذْ أُنزِلَتْ إِلَيْكَ ۖ وَٱدْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ ۖ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ
ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٨٧﴾ وَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ ۘ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا
هُوَ ۚ كُلُّ شَىْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ ۚ لَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ
تُرْجَعُونَ ﴿٨٨﴾

الآيات السبع الأولى عرض عريض عن سيرة أثرى الأثرياء في تاريخ الانسان ومسيرته ومصيرته ، وهي تُصَوِّر الدركات السبع الجهنمية له ولأضرابه

من الطغات البغات .

ولا تهمنا في ذلك العرض معرفة من هو قارون ؟ إلّا أنه « كان من قوم موسى » ولا يستفاد منه إلّا أنه كان من بني اسرائيل دون القبط الفرعونيين ، تأشيراً عشيراً إلى أن القومية لا تفيد الإنسان ما لم يتخلق باخلاق القائد الروحي للقوم ، فقد يتخلف عنها ـ على ايمانه المدعى ـ لحد يصبح انحس واتعس من قوم فرعون ، وقد كان قارون هكذا ، إذ جاء ذكره الفصل كأصل بين الطغات بعد فرعون وقومه والألدّاء الأشداء من المشركين على مدار الزمن حتى مشركي قريش ، وقد نصحه قومه بإيحاء من الشرعة التوراتية بخمس هي سلبيات ثلاث وايجابيتان :

﴿ إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِنْ قَوْمِ مُوسَى فَبَغَى عَلَيْهِمْ وَآتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُولِي الْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لَا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ ﴾٧٦ .

إن قلة الايمان وضآلته ، بكثرة الكنوز وقد فرح بها ومرح ، هي السبب لبغيه ما بَغى ، في حين أن فرعون وقومه يبغون عليهم ، وما أنحسه بغياً عليهم وهو من قوم موسى ؟

وقد وُدعت « بغى عليهم » كمجهل يُعلِم أنه يحلّق على كل دركات البغي ، عِرضاً ونفساً ومالاً وعقلاً وعقيدةَ الايمان ، وهي النواميس الخمسة التي يجب الحفاظ عليها ، ولكنه « بغى عليهم » ككل وفي كل هذه ، ولو كان بغياً دون الجميع لأتى بما يدل عليه ، فالإطلاق يلمح إلى طليق البغي ، وهكذا يصنع المال بوفره في قلب مقلوب عن الهدى، ملىء من الردى ، فيبغي صاحبه بمالِه ومالَه على كل المستضعفين كما يهواه ويستطيع ، و « ان الإنسان ليطغى . ان رآه استغنى » (٩٦ : ٧) .

والكنوز هي الجواهر الثمينة ذهباً وفضة أماهيه ، المخبوءة تحت

الأرض ، الفاضية عن الإستعمال وتداول الأيدى ، « وآتيناه » دليل انه ظفر بها بإشارة إلهية دون علم من عنده ، ويكفي بياناً لعظم هذه الكنوز وكثرتها « ما إن مفاتحه لتنوء بالعصبة أولي القوة » وهنا بطبيعة الحال تحل المروي عن الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) محلها من الواقع أن « كانت أرض دار قارون من فضة وأساسها من ذهب »[1] .

وما هي « مفاتحه » ؟ أهي « مفاتيحه » جمع مفتاح : ما يفتح به القفل ؟ ولا مفاتيح للكنوز ككنوز إلاّ إذا استخرجت الى غير مخابئها الكانزة ، وإذاً لا تسمى كنوزاً ! وحتى إذا سميت بها ، ام بقيت في مخابئها وأقفلت،فلا تصل مفاتيحها لحدّ « لتنوء بالعصبة أولى القوى »! وأقل العصبة ـ علّها ـ عشرة ام تزيد كما في اخوة يوسف « ونحن عصبة » وإذا كانت العصبة اولي قوة ، فكل واحد منها يحمل لا قل تقدير مائة كيلوغراماً ، فحمل الكلّ لأقل تقدير الف كيلوغرام !وذلك ـ علّه ـ اثقل من كل مفاتيح الكنوز في الأرض كلها ! فيا ويلاه إن كانت العصبة أو الوا القوة عشرة آلاف كما في رواية[2] .

ثم التبعثر في الكنوز خلاف الحيطة للحفاظ عليها فلتُجمع في مكانات عدة شاسعة واسعة ، تكفيها لأكثر تقدير كيلوغرام من المفاتيح ! ثم « مفاتح » هي جمع مفتح دون المفتاح !

---

(١) الدر المنثور ٥ : ١٣٦ ـ اخرج ابن مردويه عن سلمان رضي الله عنه قال قال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) : . . . .

(٢) نور الثقلين ٤ : ١٣٨ في كتاب كمال الدين وتمام النعمة باسناده الى ابي بصير عن ابي عبد الله (عليه السلام) حديث طويل يقول فيه (عليه السلام) : وما يكون أولوا قوة إلا عشرة آلاف .

أم إنها الكنوز نفسها ؟ وليست هي مفاتح ، ولا أنها مفاتيح لنفسها ! ولا أن حِملَ العصبة العشرة أولي القوة ، ثروة منقطعة النظير !.

إنها « مفاتِحه » جمع مَفتح ، وهو مكان فتح الكنز وهو بابه ، والضمير المفرد الغائب راجع إلى « ما » . فقد كانت أبوابها كبيرة وثقيلة لحد « لتنوء بالعصبة اولي القوة » والنوء هو النهوض بالحمل على ثقل للحامل ، والعصبة من يتعصّب بعضهم لبعض متضامنين في قواتهم كرجل واحد ، ولو كانت هي المفاتيح لكانت المفاتيح دون المفاتح ، ولكانت تُناء بالعصبة لا « تنوء » فهي ـ إذاً ـ أبوابها العريضة الثقيلة التي تنهض بالعصبة أولي القوة ، كما وأن باب خيبر كانت لتنوء بالعصبة ونهض الإمام علي (عليه السلام) بفتحها شخصياً دون حاجة إلى سواه ! ...ولقد كان مرحاً فرحاً بما أوتي من الكنوز جامحاً شرِهاً في بغيته بما أوتيه ، فوُجِد من قومه من يحاول رده من بغيه باستئصال سببه وهو فرحه بكنوزه : « إذ قال له قومه لا تفرح » بما لك فيلهيك عما يعنيك « إن الله لا يحب الفرحين » بأموالهم وعلى أية حال ، إلا فرحاً بالفوز عند الله ، ولحدٍّ يشجع صاحبه إلى ما يرضاه الله ، « ويومئذٍ يفرح المؤمنون . بنصر الله . . » (٣٠ : ٤) ومَن سواهم يفرحون بالحياة الدنيا بغير الحق : « وفرحوا بالحياة الدنيا وما الحياة الدنيا في الآخرة إلا متاع » (١٣ : ٤٦) ـ « ذلكم بما كنتم تفرحون في الأرض بغير الحق وبما كنتم تمرحون » (٤٠ : ٧٥) ـ « حتى إذا فرحوا بما اوتوا اخذناهم بغتة » (٦ : ٤٤) .

فـ« لا يحب » يختص بهؤلاء الفرحين دون اولئك المؤمنين ، ولأن الله يحب فريقاً ويبغض آخرين ، فـ« لا يحب » عبارة اخرى عن« يبغض» ، وكما « لا يبغض » هي الأخرى عن « يحب » ،وذلك لأن الله عالم الغيب والشهادة وبيده ناصية كل شيء ، لا انعزالية له عن أيٍّ من المخلوقين ، فلا ثالث عنده ألّا يحب ولا يبغض ، فإنه إما لجهل بمادة الحب والبغض ، أم جهل بمن

يحملها! ففَرَحُ الزَّهْوِ الذي من مخلّفات الإعتزار بالمال ، والاحتفال بالثراء وحسن الحال ، إنه بطرٌ يُلهي عما يُعنى ، ويُنسي النعمة والمنعِم وما يتوجب على المُنعَم .

كما أن فرح الشكر بما أنعم الله ، مستخدَماً في سبيل مرضات الله ، تفريجاً للمؤمنين بالله وتفريجاً عن عباد الله ، إن ذلك فرح الإيمان كما نراه من أهل الله ، هنا وفي يوم لقاء الله : « فرحين بما آتاهم الله من فضله » (٣ : ١٧٠) فـ« لا تفرح بكثرة المال ولا تدع ذكري على كل حال فان كثرة المال تُنسي الذنوب وترك ذكري ينسي القلوب »[1] «وذلك نهي صارم عن فرح عارمٍ ، ومن ثم أمرٌ ثم نهي ثم أمر ثم نهي ، فانهما القائمان بالإصلاح في المفسدين .

﴿ وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللهُ الدَّارَ الآخِرَةَ وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الأَرْضِ إِنَّ اللهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ ﴾ ٧٧ .

الإبتغاء هو التطلُّب ، فهم يأمرونه أن يتطلب فيما آتاه الله من الكنوز

---

(١) نور الثقلين ٤ : ١٣٨ في كتاب الخصال عن ابي عبد الله عن ابيه عليهما السلام قال : أوحى الله تبارك وتعالى إلى موسى (عليه السلام) : لا تفرح .. وفيه عن امير المؤمنين (عليه السلام) حديث طويل وفيه : والفرح مكروه عند الله عز وجل ، وفيه عن كتاب التوحيد باسناده إلى أبان الأحمر عن الصادق جعفر بن محمد عليهما السلام انه جاء اليه رجل فقال له : بأبي . وامي عظني موعظة فقال (عليه السلام) : إن كانت العقوبة من الله عز وجل حقاً فالفرح لماذا ؟

وفي الدر المنثور ٥ : ١٣٧ عن ابي الدرداء قال قال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) : زر القبور تذكر بها الآخرة واغسل الموتى فانه معالج جسد خاو وموعظة بليغة وصل على الجنائز لعل ذلك يحزنك فان الحزين في ظل الله يوم القيامة .

وسـواها من النعم آفاقية وانفسية « الدارَ الآخـرة » لا فحسب هذه الأدنى ، إخلاداً اليها ، ومشية المكبّ عليها ، « ولا تنس نصيبك من » الحياة « الدنيا » فلا نصيب لك اخيراً فيها إلا الكفن ، إذ لا تسحب معك غيره فتصحبه في الأخرى ، ولا في الأخرى إلاّ متاعها أن تشري ذلك الأركس الأدنى بـالحياة العليا ، ولا لك قبلها إلا قدر الحل من الحاجة المعيشية والـزائد عليها وبال هنا وفي الأخرى ، فلتغتنم الفرصة السليمة لك فيها قبل فوات الأوان ، فما لك نصيب من الدنيا فيها وفي الأخرى إلاّ هذه الأبع ، من ينساها أخلد إلى الأرض واتبع هواه وكان امره فرطاً ، و « نصيبك من الدنيا » لا « فيها » مما يدل على ان النصيب منها يعني صالح الدارين ، فالحياة الدنيا لكلٍّ على قصرها هي بكل جنباتها نصيب المتاع للأخرى ، فليُتزوَّد منها لها ، من نسي النصيب المتاع أقبل اليها مبصراً اليها فيعمى ، ومن تمتع بها للأخرى مبصراً بها أبصرته .

فالذاكر نصيب الحاجة من الدنيا يوسع على خلق الله فيما زاد عنها (١) والذاكر نصيب رأس المال فيها مالاً وحالاً يتجر بها للأخرى(٢) والذاكر نصيب الكفن منها لا يطمئن ويركن اليها ، « وأحسن » إلى عباد الله « كما أحسن الله إليك » « وأحسن » في نفسك اعمالك لله « كما احسن الله اليك »

---

(١) نور الثقلين ٤ : ١٣٩ في الكافي عن ابي جعفر (عليه السلام) قال قال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) يؤتى يوم القيامة برجل فيقال : احتج ، فيقول : يا رب خلقتني وهديتني وأوسعت عليّ فلم ازل اوسع على خلقك وأيسّر عليهم لكي تنشر عليّ هذا اليوم رحمتك وتيسره فيقول الرب جل ثناؤه وتعالى : صدق عبدي ادخلوه الجنة .

(٢) المصدر عن معاني الأخبار باسناده الى موسى بن اسماعيل بن موسى بن جعفر قال حدثني ابي عن ابيه عن جده عن علي بن ابي طالب (عليه السلام) في الآية قال : لا تنس صحتك وقوتك وفراغك وشبابك ونشاطك ان تطلب بها الآخرة .

إحساناً باحسان واين احسان من إحسان .

فـ« أحسن » حالاً ومالاً واعمالاً ، كما وكل ذلك مما « أحسن الله اليك » وذلك تمثيل المجارات ، وإلاّ فما احسان العبد بجنب إحسان الله بشيءٍ يُذكر !

« ولا تبغ الفساد في الأرض »[1] بما أحسن الله اليك ، جزاءَ الإحسان بالإساءة ، ولا تبدل نعمة الله كفراً تُحِلُّ بها نفسك وذويك دار البوار . جهنم يصلونها وبئس القرار « ان الله لا يحب المفسدين » وهو يبغضهم ، فالمال والثراء ذريعة ضارعة هارعة إلى كل إفساد في الأرض عِرضاً وعقلاً وعقيدة ونفساً ومالاً ، لا سيما إذا كان بأيدي مردة الشياطين الذين يفسدون في الأرض ولا يصلحون .

ولأن هذه النصائح كانت مستأصِلة لزهوة الثراء ، والإلتهاء بالنعماء ، فهو بزعمه يستأصل ان تكون كنوزه مما آتاه الله ، قائلاً في جوابهم قولته النكدة الجاهلة :

﴿ قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِندِي أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعاً وَلَا يُسْأَلُ عَن ذُنُوبِهِمُ

---

(١) المصدر في مصباح الشريعة قال الصادق (عليه السلام) فساد الظاهر من فساد الباطن ومن اصلح سريرته اصلح الله علانيته ومن خان الله في السر هتك الله ستره في العلانية ، واعظم الفساد أن يرضى العبد بالغفلة عن الله تعالى وهذا الفساد يتولد من طول الأمل والحرص والكبر كما اخبر الله تعالى في قصة قارون : ولا تبغ الفساد في الأرض ان الله لا يحب المفسدين وكانت هذه الخصال من صنع قارون واعتقاده ، واصلها من حب الدنيا وجمعها ومتابعة النفس وهواها وإقامة شهواتها وحب المحمدة وموافقة الشيطان واتباع خطواته وكل ذلك مجتمع تحت الغفلة عن الله ونسيان منته .

المُجرِمُونَ ﴾٧٨ .

ذلك الجواب ـ في زعمه ـ يستأصل كل تأنيب في هذه التساؤلات المتبنِّية « آتيناه من الكنوز » بـ« إنما أوتيته على علمٍ » فلم يؤته الله اياي ـ لو آتاه ـ دون علم وجدارة ، وقد تلمح « أوتيته » دون « آتاه الله . . » أنه أوتي إياه على علم منه دون مشية من الله ، فالأوّل إشراك بالله في ذلك الإيتاء ، والثاني إلحاد فيه بتوحيد العلم في ذلك الإيتاءِ ! أن ليس لله أي مدخل فيه حتى إذا لم يكن على علم عندي ، صُدفةٌ فيه ام تقصداً ممن سوى الله . وهذان مزعمتان للأكثرية الساحقة ممن اوتوا مالاً أو منالاً ، موحدين أو مشركين أو ملحدين ، مهما استثني الأوّلون عن الإلحاد في الإيتاء : « وإذا مس الإنسان ضر دعانا ثم إذا خولناه نعمة منا قال إنما أوتيته على علم بل هي فتنة ولكن أكثرهم لا يعلمون . قد قالها الذين من قبلهم فما أغنى عنهم ما كانوا يكسبون . فأصابهم سيآت ما كسبوا والذين ظلموا من هؤلاء سيصيبهم سيآت ما كسبوا وما هم بمعجزين . أولم يعلموا أن الله يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر إن في ذلك لآيات لقوم يؤمنون » (٣٩ : ٥٢) .

وتلك القولة الفاتكة من قارون هي قولة المغرور المطموس الناسي مصدر النعمة وصادرها حيث تعميه الثراء ، قالة خاوية مكرورة على مرّ الزمن للأكثرية المطلقة ممن أوتيها مهما اختلفت دركاتها فيما تعنيه .

وتراه ماذا عني بقالته القالة : « إنما أوتيته على علم عندي » مع العلم انه يحصر إيتاءه به مهما كان الإيتاء من الله أم سواه ؟

أهو علم التوراة ؟ وقد أوتي موسى وسائر المرسلين اكثر منه بوحي صارم لا دخيل فيه ، ولم يؤتَوا كنوزاً كما أوتي ! وكان ذلك يكفيه نقضاً لما ادعاه ، دون النقض بإهلاك قرون قبله ! .

أم علم جمع المال ؟ ولا يختص به علمه ! فكثير هؤلاء الذين يعلمون

ما يعلمه واكثر ولا يؤتون معشار ما أوتي ! ثم وما هو ـ إذاً ـ دور « عندي » وكان يكفيه « بعلمي » !

إم إنه علم محالّ الكنوز ؟ وقد تؤيده « عندي » اللامحة إلى اختصاصه به ، كما وأن « على » الإحاطية هنا ، تجعله يحيط علماً بمحالّ الكنوز ! والكنوز مع العلم بمحالها هما من الله ! .

أم إن « عندي » تعني رأيه الخاص ، فـ« عندي انما أوتيته على علم » مني يحيط بموارد الكنوز أما ذا من علمٍ مدعىً ؟ وإيتاء الكنوز على أية حال ليس إلّا من الله إمتحاناً أم إمتهاناً !

وعلى أية حال يدعي أن « على علم عندي » هو فقط السبب لذلك الإيتاء ، فقد أوتيتُه بجدارة واستحقاق ، سواء أكان المؤتي هو الله ام سواه فلي التصرف فيه كما أريد ، فلا حق لله ولا لمن سواه فيما يختص بي .

وهنا الجواب كلمة واحدة مشيرة إلى سواها « أولم يعلم » معطوفاً على محذوف معروف كـ :

الم يعلم ان كثيراً ممن كان على علمه واعلى لم يُؤتَ ما أوتي ولا معاشره ، فليس إذاً « على علم عندي » وان لم يعلم ذلك لحمقه في عمقه « أولم يعلم أن الله قد أهلك من قبله من القرون» الماضية «مَن هو أشد منه قوةً واكثرُ جمعاً » كفرعون ونمرود وشداد بإرمه ذات العماد ، فإن كانت هذه الكنوز أوتيت على علم ، فلماذا الإفساد بها في الأرض وذلك جهل ، وليس لمن يحصل على نعمة بسعي وعلم ان يبد لها نَعمة ويفسد بها ، وإذا أوتيه على علم ، فيعلم هو طرق الحصول على كنوز ، فكيف لم يعلم ان ليس كل ذي علم يؤتى ما أوتيه ، « أولم يعلم ان الله قد أهلك . . » وعلم تحصيل المال أجهل من كل جهلٍ إذا لم يعلم كيف يتصرف فيه ، ولم يعلم ما هو مصير المفسدين بأموالهم في الأرض ! وذلك هو العلم النافع البارع أن يحجز صاحبه

عن وبال المال على أية حال ، لا ـ فقط ـ ما يجمع به المال ، إن صح أن العلم هو الذي يجلب الأموال !-

فالشرعة الإلهية تحدد الملكية الفردية تحصيلاً بكيفيتة ، وتجميداً وتصريفاً ، فلها في كل هذه الثلاث حدود مقررة في كتابات الوحي ولا سيما القرآن والسنة المحمدية (صلى الله عليه وآله وسلم) .

فليكن تحصيل المال بوجه مشروع ، وابقاءه وصرفه بوجه مشروع ، والتخلف عن شرعة الإقتصاد قد يكون ثالوثاً محرماً في زواياه الثلاث ، أم حِلاً في اقتناءِه محرماً في الآخرَين ، ام وحِلاً في مصارفه محرماً في إبقاءِه ، أو معاكساً له ، فلا حرية ـ إذاً ـ في التصرفات الإقتصادية مصرفياً بحجة الحل في اقتناء المال .

فكما أن الحصول على المال بغير الحلال إفساد في الأرض ، كذلك إبقاءُه تكنيزاً ، أم صرفه بغير وجهه ، هما ايضاً إفسادٌ في الأرض .

فهب إن قارون أوتي كنوزه بحلٍّ كما تلمح له « وآتيناه » ـ « على علم عندي » أم على جهل ، ولكنها على أية حال مال الله يؤتاه هو وأحزابه فتنة وابتلاءً ، وأصحاب الأموال الطائلة إنما هم مستخلَفون فيها إنفاقاً صالحاً دون إسراف ولا تبذير : « وانفقوا مما جعلكم مستخلفين فيه » (٥٧ : ٧) فالمتخلف عن الإنفاقات الصالحة ، تكنيزاً أم تصريفاً غير صالح ، هو من المفسدين في الأرض ، المهددين بالدماء والبوار « جهنم يصلونها وبئس القرار » :

« ولا يسأل عن ذنوبهم المجرمون » ـ « فيومئذٍ لا يسأل عن ذنبه إنس ولا جان .. » إذ « يعرف المجرمون بسيماهم فيؤخذ بالنواصي والأقدام » (٥٥ : ٤١) .

وهذا السؤال المنفي هو الإستعلام ، حيث الملك العلام يعلم كل إجرام فلها ذا ـ إذاً ـ سؤال الإستعلام ، لا هنا عندما يهلكون ، حيث

يباغتهم عذاب الإستئصال ، ولا هناك مهما سئلوا سئوال التنديد والإفحام دونما استفهام : « وقفوهم إنهم مسئولون » (٣٧ : ٢٤) ، وعذابُ المجرمين مباغتة دون تساؤ ل الإستعلام ، فهو عذاب فوق العذاب ، وهذا هو مصير الأثرياء المفسدين في الأرض بثرواتهم الهائلة ، ولا سيما هؤلاء الذين يحصلون عليها ببغي ، بسعي أم دون سعي .

تلك النصيحة الفسيحة الفصيحة لم تزدد صاحب الكنوز إلّا عتواً ونشوزاً ، وافساداً في الأرض اكثر مما كان :

﴿ فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴾ ٧٩ .

« على » هنا تلمح لخروج عالٍ غير متعوِّد إظهاراً لقوته الزاهية وشوكته العالية « في زينته » كأكثر ما يمكن ، فقد خرج بسرح هذه المسيرة الغالية في كل زينة له ممكنة ، ليقطع ألسنة الناصحين ، ويقمع الحاسدين عليه الناقمين ، فقد تصدق ما يروى عن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) انه « قال في اربعة آلاف بغل يعنى عليه البزيون »[1] .

في ذلك الخروج ينقسم قومه قسمين : « الذين يريدون الحياة الدنيا » و « الذين اتوا العلم» والأولون وهم الأكثرية الساحقة في كل زمان ومكان ، هم الذين تستهوي زينة الحياة قلوبهم وتبهرهم دونما تطلّع إلى الحياة العليا ، فتتهافت نفوسهم كما الذباب على الحلويات ، وتتهاوى في هوات، سائلة لعابهم على ما في أيدي الأثرياء ، ذوي الزينة والكبرياء ، يتمنون لو أن لهم مثل ما لهم ، إذ هم ـ فقط ـ يريدون الحياة الدنيا ، ويرونها الحظ العظيم ، وذلك

---

(١) الدر المنثور ٥ : ١٣٨ ، اخرج ابن مردويه عن اوس بن اوس الثقفي عن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) « فخرج على قومه في زينته » قال : . . .

هو الجهل القاحل : « يعلمون ظاهراً من الحياة الدنيا وهم عن الآخرة هم غافلون » (٣٠ : ٧) ـ « فأعرض عمن تولى عن ذكرنا ولم يُرد إلّا الحياة الدنيا ذلك مبلغهم من العلم » (٥٣ : ٣٠) .

و « يا ليت » التحسر لهؤلاء المجاهيل يحلّق على حياتهم غصة على غصة العُدم ، متجاهلين عن أسباب الثراء ومسئولياتها وخلفياتها ، فأما الآخرون :

﴿ وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ اللهِ خَيْرٌ لِمَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحاً وَلَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الصَّابِرُونَ ﴾ ٨٠ .

« العلم » هنا هو الناصح صاحبَه وذويه ، فهو علم الإيمان والمعرفة الربانية ، إيماناً صالحاً بالتوحيد والوحي واليوم الآخر ، دون مجرد الصلاحات الجامدة التي تحجب عن ذلك العلم بدل أن تكون نوراً ، فهو ـ إذاً ـ العلم الذي يخشع صاحبه أمام ربه دون إلهاء ، فـ« انما يخشى الله من عباده العلماء » (٣٥ : ٢٨) .

وقضية ذلك العلم النورِ أن ينير الدرب على المظلَمين ، دون كتمان عنهم ولا ضِنّة ، وهنا « الذين اوتوا العلم » أدوا واجب النصيحة البالغة لهؤلاء المجاهيل « ويلكم » وهي إما تركيبة عن « وي ـ لكم » أم مخففة عن « ويل ـ لكم » وهما متقابلتا المعنى ، هتافاً عليهم بتأويهٍ من قولتهم الجاهلة « ثواب الله خير » وما أوتي قارون شرّ ، فلا تعني « خيرٌ » هنا المعدّاة بـ« من » تفضيلاً ، إذ لا فضل فيما أوتي حتى يفضّل عليه ثواب الله .

ومن ذا الذي يناله ذلك الثواب ؟ « لمن آمن وعمل صالحاً » والثواب الناتج عنهما يعم النشأتين ، فإن منه النصرة الربانية : « إنا لننصر رسلنا والذين آمنوا في الحياة الدنيا ويوم يقوم الإشهاد » (٤٠ : ٥١) كما منه اللذات الروحية من عبادة الله وزلفاه ، ولقد كان رسول الله (صلى الله عليه وآله

وسلم) إذا همه أمر إستراح إلى الصلاة فانها كانت قرة عينة في الحياة .

« ولا يلقاها إلاّ الصابرون » وترى ماذا تعني « ها » والسابق عليها « ثواب الله » مذكراً لا يتحمل ضمير التأنيث ؟

التلقية هي التفهيم كما التلقي هو التفهُّم ، ولكنه تفهُّم يَلقى شغاف القلب ، فهو أخص من التلقُّن ، ولقد عدُّ الصبر هنا ظرفاً لذلك التلقي ، وليس هكذا صبر إلا من حصائل الايمان والعمل الصالح ، فقد تعني « ها » تلك العظمة ـ سواءٌ أكان استثناء « الصابرون » من الذين أوتوا العلم ، أم تلحيقة معترضة من الله ، فلا تصل هذه العظة إلاّ إلى « الصابرون » على فتنة الحياة وزينتها واغراءِها ، و « الصابرون » على حرمانها ، فهم اعم ممن اوتي مُتَع الحياة ومَن حُرِمها ، بل والصبر على وجدانها أحجى وأقوى .

هؤلاء الصابرون ، وهم المؤمنون العاملون الصالحات ، هم يلقَّون هذه العظة من قبل الله وأهل الله فيتلقونها .

وأما رجوعها إلى هذه الثلاث « ثواب الله ـ آمن ـ عمل صالحاً » فغير صواب ، حيث الصبر هكذا هو من مخلفات الايمان والعمل الصالح ، فكيف يلقَّيان مع الثواب للصابرين ، اللهم إلاّ ايماناً أءمن ، وعملاً صالحاً أصلح ، هما من خلفيات ذلك الصبر ، وهذا من باب الإستخدام ، أن لا يلقَّى ثواب الله ومزيد الايمان والعمل الصالح إلاّ الصابرون ، إلاّ أن ثواب الله هنا يتبنّى أصل الإيمان والعمل الصالح لا مزيدَهما ، والتلقية التفهيم لا تناسب واقع هذه الثلاث أم سواها ، فهي إذاً تلقية العظة ، فلكل عظة ظرف له صالح ، ولهذه العظة ظرف الصبر على زخارف الحياة الدنيا لمن أويتها أو حُرِمَ عنها . هنا ـ وقد بلغت فتنة الزينة ذروتها ـ حيث تتهافت أمامها بعض النفوس المؤمنة وتتهاوى فضلاً عن سواها ـ هنا من الرحمة الربانية ان تتدخل يدُ القدرة ، تحطيماً للغرور الجاهل القاحل ، وحفاظاً على ضعاف الايمان :

﴿ فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُ مِنْ فِئَةٍ يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللهِ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُنْتَصِرِينَ ﴾٨١ .

ومهما كان مع قارون - في خروجه بزينته - أهله وهوامشه أم لم يكونوا ، فالخسف حسب هذا النص خصَّه دونهم « فخسفنا به » قارون « وبداره » التي كان فيها - بطبيعة الحال - قسمٌ عظيم من ثروته ، فقد ابتلعته الأرض بداره ، هاوياً فيها بلا فئة ينصرونه من دون الله ، حيث تركته وشأنه الشائن ، كما هو دأب الهوامش المتملقين دائماً أنهم شركاء في رغد العيش فإذا جاء البلاء فحيدي حياد ! ولا فحسب ان لم تنصره فئته ، بل « وما كان من المنتصرين » يائساً عنهم ، بائساً في انخسافه !.

﴿ وَأَصْبَحَ الَّذِينَ تَمَنَّوْا مَكَانَهُ بِالأَمْسِ يَقُولُونَ وَيْكَأَنَّ اللهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَوْلَا أَنْ مَنَّ اللهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا وَيْكَأَنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ ﴾٨٢ .

« الذين تمنوا مكانه بالأمس » وهم « الذين يريدون الحياة الدنيا » وما كانوا من الصابرين على زهرتها وزهوتها ، ولم يُلَقَّوا العظة من الذين أوتوا العلم ، هم الآن - وقد رأوا كيف خسف الله به وبداره الأرض - يتنبهون قليلاً « ويكأن الله . . » دون « ان الله » إذ لم يبلغوا بعدُ إلى اليقين بان الله يبسط ويقدر ، ولا أنه لا يفلح الكافرون ، وإنما « ويكأنه » في النفي والإثبات فهم بعدُ في سُبات ، وعلى أية حال وقفوا يحمدون الله أن لم يستجب لهم ما تمنوه بالأمس وهم يرون مصير قارون وهو رأس الزاوية ! فانما الثراء هي ابتلاء قد تعقبها البلاء ، فقليل هؤلاء الأثرياء الذين لا يبدلون نِعمة الله كفراً ونَعمة، وكثير هم الكافرون .

وهنا يسدل الستار على الفريقين ، نقلة إلى ضابطة صارمة للناجحين في هذا الميدان :

﴿ تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴾٨٣ .

إن الدار الآخرة بالزلفى والمكانة العليا ، « تلك » البعيدة المدى ، العالية الصدى ، الغالية المدى « الدار الآخرة » الحسنى ، حصيلة لحسنى الأولى « نجعلها » تكويناً وتشريعاً « للذين لا يريدون علواً في الأرض » أياً كان ، وحتى في منصب العدل والحكم الحق ، إذ لا يريدون في ذلك الحقل إلّا تحقيق الحق وإبطال الباطل ، وما العلوُ الحكمُ عندهم إلّا ذريعة لذلك ، وكما أشار إمامهم أمير المؤمنين (عليه السلام) إلى نعله المخصوف قائلاً : «والله لهي أحبُ إليّ من إمرتكم هذه إلّا أن اقيم به حقاً أو أبطل باطلاً » . فالعلوا في الأرض لهم غير مُراد ، ثم « ولا فساداً » بعلو وغير علو ، والعلو اياً كان يستتبع فساداً مهما كان لأهل العدل إلّا من عصم الله وهداه .

فارادة العلو هي بطبيعة الحال من أقوى مصاديق الفساد في الأرض فـ« من الناس من يعجبك قوله في الحياة الدنيا ويشهد الله على ما في قلبه وهو ألد الخصام . وإذا تولى سعى في الأرض ليُفسد فيها ويُهلك الحرث والنسل والله لا يحب الفساد . وإذا قيل له اتق الله أخذته العزة بالإثم فحسبه جهنم ولبئس المهاد » (٢ : ٢٠٦))... وليس ان إرادة العلو في الأرض ممنوعة ـ فقط ـ لألد الخصام ، بل وعدول المؤمنين ، لأن كراسيُّ الحكم مآزق بطبيعة الحال ، وقل من ينجو منها ، وقد يروى عن رسول الهدي (صلى الله عليه وآله وسلم) قوله في الآية : « التجبر في الأرض والأخذ بغير الحق » (١)

---

(١) الدر المنثور ٥ : ١٣٩ ـ اخرج المحاملي والديلمي في مسند الفردوس عن ابي هريرة عن رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) في قوله « تلك الدار . . » قال : . . .

و « لما دخل عليه (صلى الله عليه وآله وسلم) عدي بن الحاتم ألقى إليه وسادة فجلس على الأرض فقال (صلى الله عليه وآله وسلم) : أشهد انك لا تبغي علواً في الأرض ولا فساداً فأسلم »[١]، و « اوصيكم بتقوى الله وأوصي الله بكم « إني لكم نذير مبين » ألّا تعلوا على الله في عباده وبلاده فان الله تعالى قال لي ولكم « تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علواً في الأرض ولا فساداً والعاقبة للمتقين »[٢] .

وعن وصيه وخليفته في امته علي امير المؤمنين (عليه السلام) « فلما نهضت بالأمر نكثت طائفة ومرقت اخرى وفسق آخرون كانهم لم يسمعوا الله سبحانه ان يقول « تلك الدار الآخرة . . » بلى والله لقد سمعوها ووعوها ولكنهم حليت الدنيا في أعينهم وراقهم زبرجها »[٣] .

فقد يعني منها اني لست من هؤلاء الذين يريدون علواً في الأرض ولا فساداً فلماذا ـ إذاً ـ ثالوث النكث والمروق والفسق ، فلا يصلح لولاية أمور المسلمين إلّا مثلي ، وكما يقول « نزلت هذه الآية في أهل العدل والتواضع من الولاة وأهل القدرة من ساير الناس »[٤] .

---

(١) المصدر ـ اخرج ابن مردويه عن عدي بن حاتم قال لما دخل على النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) عدي بن حاتم . .

(٢) نور الثقلين ٤ : ١٤٣ في امالي الطوسي باسناده إلى ابن مسعود انه قال قال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) في كلام طويل : . . .

(٣) المصدر عن نهج البلاغة عنه (عليه السلام) .

(٤) عن مجمع البيان وروى زادان عن امير المؤمنين (عليه السلام) انه كان يمشي في الأسواق وهو وال يرشد الضال ويعين الضعيف ويمر بالبياع والبقال فيفتح عليه القرآن ويقرء هذه الآية ويقول : نزلت . . .

أجل فقد « ذهبت والله الأماني عند هذه الآية »(١). أماني العلو في الأرض حتى للمؤمنين العدول فضلاً عمن سواهم !

وهذه الآية طليقة في التنديد بمن يريدون علواً في الأرض اياً كان فتنوين التنكير تنكير على تلك الإرادة على أية حال ، وحتى « ان الرجل ليعجبه ان يكون شراك نعله اجود من شراك نعل صاحبه فيدخل تحتها »(٢) ! .

فإرادة العلو في الأرض دركات اسفلها ارادة القيادة الكبرى للأمة ، وأدناها إرادة الأجود من المال أو الحال ، إلّا أن يُبتغى مرضات الله وتحقيق شرعة الله ، وكثير هؤلاء الذين يريدون علواً كذريعة « فإذا تولى سعى في الأرض ليفسد فيها ويهلك الحرث والنسل » وكما نراه على مدار الزمن الرسالي للرساليين فضلاً عن سواهم .

وفي كلمات للامام علي (عليه السلام) حول قيادة الأمة نبراس ينير

مركز تحقيقات كامپيوتري علوم اسلامي

---

(٩١) المصدر عن تفسير القمي حدثني أبي عن القاسم بن محمد عن سليمان بن داود المنقري عن حفص بن غياث قال قال ابو عبد الله (عليه السلام) يا حفص ! ما منزلة الدنيا من نفسي إلّا بمنزلة الميتة إذا اضطررت اليها اكلت منها ، يا حفص إن الله تبارك وتعالى علم ما العباد عاملون وإلى ما هم صائرون فحلم عنهم عند اعمالهم السيئة لعلمه السابق فيهم ، فلا يعرنك حسن الطلب ممن لا يخاف الفوت ثم تلا قوله : تلك الدار الآخرة . . وجعل يبكي ويقول : ذهبت والله الأماني عند هذه الآية ، قلت : جعلت فداك فما حد الزهد في الدنيا ؟ فقال : قد حد الله عز وجل في كتابه فقال : لكيلا تأسوا على ما فاتكم ولا تفرحوا بما آتاكم . . . » .

وفيه عن كتاب سعد السعود وروي عن أمير المؤمنين (عليه السلام) انه قال : ان الرجل ليعجبه . . .

(٩٢) المصدر ١٤٤ سلام الأعرج عن امير المؤمنين علي (عليه السلام) .

الدرب على من يريدون صالح الحكم بلا علو في الأرض :

فحينما تجتمع عليه الأمة الحائرة المظلومة ـ قاصرة ومقصرة ـ ليبايعوه يقول : « دعوني والتمسوا غيري فإنّا مستقبلون أمراً له وجوه وألوان لا تقوم له القلوب ولا تثبت عليه العقول وإن الآفاق قد أغامت والمحجة قد تنكرت واعلموا إن أجبتكم ركبت بكم ما أعلم ولم أصغِ إلى قول القائل وعَتب العاتب وإن تركتموني فأنا كأحدكم ولعلي أسمعُكُم وأطوعكم لمن ولّيتموه أمركم وأنا لكم وزيراً خير لكم مني اميراً »(١) .

« وبسطتم يدي فكففتها ومددتموها فقبضتها ثم تداككتم عليّ تداكّ الإبل الهيم على حياضها يوم ورودها حتى انقطعت النعل وسقط الرداء ووُطِيءَ الضعيف وبلغ من سرور الناس ببيعتهم إياي أن ابتهج بها الصغير وهدج إليها الكبير وتحامل نحوها العليل وحسرت إليها الكعاب »(٢) .

« فأقبلتم إليَّ إقبال العُوذ المطافيل على أولادها تقولون : البيعة البيعة ، قبضت يدي فبسطتموها ونازعتكم يدي فجذبتموها »(٣) .

« فما راعني إلاّ انثيال الناس حولي كعُرف الضبع ينثالون عليَّ حتى لقد وُطِيءَ الحسنان وشُقَّ عِطفاي مجتمعين حولي كربيضة الغنم »(٤) .

« إني إلى لقاء الله لمشتاق وإلى حسن ثوابه لمنتظر راج ولكنني آسى أن يلي أمر هذه الأمة سفهاءها وفجارها فيتخذوا مال الله دولاً وعباده خولاً والصالحين حرباً فإن منهم الذي قد شرب فيكم الحرام وجُلِّد حداً في

---

(١) نهج البلاغة الخطبة ٨٨ ص ١٨٢ عبده .

(٢) الخطبة ٢٢٤ ص ٢٤٩ .

(٣) الخطبة ١٣٣ ص ٢٧ .

(٤) الخطبة الشقشقية ١٣٣ : ٢٧ .

الإسلام ، وإن منهم من لم يسلم حتى رضخت له على الإسلام الرضائخ ، فلولا ذلك ما أكثرت تأليبكم وتأنيبكم وجمعكم وتحريضكم ولتركتكم إذا ابيتم ونيتبم[1]: « اما والذي فلق الحبة وبرء النسمة لولا حضور الحاضر وقيام الحجة بوجود الناصر وما أخذ الله على العلماء ألاّ يقارّوا على كِظّة ظالم ولا سَغَب مظلوم لألقيت حبلها على غاربها ولسقيت كأس آخرها بكأس أولها ولألفيتم دنياكم هذه أزهد عندي من عطفة عنز »[2] .

« فوالله لأسلّمن ما سلمت أمور المسلمين ولم يكن جور إلاّ عليَّ خاصة » ! . . .

« فقمت بالأمر حين فشلوا ، وتطلّعت حين تمنّعوا ، ومضيت بنور الله حين وقفوا ، وكنت أخفضهم صوتاً وأعلاهم فوتاً ، فطِرتُ بعنانها ، واستبددت برهانها ، كالجبل لا تحركه العواصف ولا تزيله القواصف ، لم يكن لأحد فيَّ مَهمز ، ولا لقائل فيَّ مغمز ، الذليل عندي عزيز حتى آخذ الحق له ، والقوي عندي ضعيف حتى آخذ الحق منه ، رضينا عن الله بقضاءه وسلمنا لأمره »[3] .

اجل وان هؤلاء الطيبين لا يقوم في نفوسهم خاطر العلو في الأرض والإستعلاء بأنفسهم لذوات أنفسهم ، ولا يهجس في قلوبهم الاعتزاز باشخاصهم ، فانما يتوارى شعورهم بأنفسهم ليملأها الشعور بالله وإعلاء كلمة الله .

---

(١) الكتاب ٦٢ ص ١٣١ عبده .

(٢) تتمة من الخطبة الشقشقية .

(٣) الخطبة ٣٦ ص ٨٤ ـ اقول : راجع كتابنا علي والحاكمون تجد فيه تفصيل البحث عن حق الحكم والولاية الحقة .

« والعاقبة للمتقين » وهي الحياة العاقبة لمسيرة الحياة ومصيرته لمختلف الأحياء ، هنا في الرجعة وهناك في البرزخ والقيامة ، والمتقون هنا هم الذين لا يريدون علواً في الأرض ولا فساداً ، فضلاً عن أن يحاولوا الإستعلاء ، اللهم إلاّ إعلاء لحكم السماء في أرض الله .

﴿ مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِنْهَا وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى الَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّآتِ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾٨٤ .

علّ « الحسنة » هنا هي الحياة الحسنة المحلّقة على العقيدة والنية والعمل،والسيئة خلافها ، و« خير منها » هي أضعافها بادءة من عشرة « من جاء بالحسنة فله عشر امثالها . . » (٦ : ١٦٠) وهذه ضابطة ثابتة ، وقد تزيد حسب مزيد الحسنة اثراً وكياناً كما في آيات ، ولأن السيئة لا يجازى بها صاحبها إلاّ العملية ، دون سوء النية « فلا يجزى الذين عملوا السيآت إلاّ ما كانوا يعملون » .

فالحسنة المضاعفة الجزاء يعم الأعمال والنيات والطويات ، والسيئة المكافحة تخص الأعمال دون النيات ، وأما العقائد السيئة فبارزة الأعمال فيها داخلة في الأعمال ، وسيئه العقيدة دون عمل تشملها الآيات الواعدة سيئي العقائد النار ، أم هي داخلة في « عملوا السيآت » شمولاً لأعمال القلوب والقوالب ، وليست النية عملاً ، بل هي نية العمل ، يثاب على حسنتها دون سيئتها ، ثم « إلاّ ما كانوا يعملون » حصر لجزاء السيآت على قدر الأعمال ، فنفس العمل السيء هو جزاءه إذ يبرز بحقيقته يوم تبلى السرائر ، وليس غير المحدود صورة واقعية للسيئة المحدودة إلاّ مزيداً غير محدود وهو ظلم « ولا يظلمون نقيراً »!

ثم « من جاء بالحسنة . . » تحدد موقف الحسنة والسيئة أنه حين

المجيء إلى عالم الجزاء ، فالحسنة ـ إذاً ـ هي عاقبة الحياة الحسنة ، مهما كانت سابقتها أيضاً حسنة أم سيئة .

﴿ إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلَى مَعَادٍ قُل رَّبِّي أَعْلَمُ مَن جَاءَ بِالْهُدَى وَمَنْ هُوَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴾٨٥ .

« فرض عليك القرآن » هو الفرض الرسالي تلقياً لوحيه وتفهماً له وتطبيقاً بنفسه وتبليغاً للمرسل اليهم ، وقد ذكر من فرضه عليه تلاوته « وأن اتلو القرآن . . » (٢٧ : ٩٢) « واتل ما اوحي إليك من كتاب ربك » (١٨ : ٢٧) « يتلوا عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وان كانوا من قبل لفي ضلال مبين » .

ولأن القرآن هو الوحي الأخير الشامل كافة المكلفين الى يوم الدين ، ففرضه الرسالي البلاغي هو البلوغ اليهم اجمعين ، وبأحرى منزل وحيه الأول أم القرى فانها عاصمة الدعوة القرآنية .

ثم « لرادك إلى معادٍ » وهذه آية منقطعة النظير في صيغة الفرض والرد إلى معاد ، مما يضخِّم أبعاد رده (صلى الله عليه وآله وسلم) الموعود إلى معاد ، فما هو « معاد » ؟

اتراه معاد الآخرة إلى الجنة (١) ؟ ولم يكن فيها حتى يرد إليها ! والصيغة الصالحة له « الجنة » دون « معادٍ » منكراً ، ولا حتى « المعاد » معرفاً ، لأنها اليتيمة التي تحمل لفظ « معاد » دون سواها من كل آيات المعاد !

---

(١) . الدر المنثور ٥ : ١٤٠ ـ اخرج الحاكم في التاريخ والديلمي عن علي (عليه السلام) عن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) : لرادك إلى معاد « قال : الجنة .

أمْ هو الموت [1] ؟ ولم يَك ميتاً حتى يرد إلى الموت ! ولا يخصه ذلك الرد الممنون فيه عليه ! ثم ولا منة في الموت مادامت الحياة الدنيا مدرسة الأخرة ! .

ام هو الرجعة ايام المهدي القائم عجل الله تعالى فرجه [2] ؟ ولا يناسب خصوصَها المَقامُ ولا الطمأنة الحاضرة لخاطره الخطير عن بأس المشركين !

أم هو الرجوع إلى مكة المكرمة [3] ، رداً اليها بعد هجرية ؟ والسورة مكية ولما يهاجر النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) إلى المدينة ! .

« معاد » هنا كأصل في الموعود ردُّه إليه هو في الحق مكة المكرمة ، وقد

---

(١) المصدر ـ اخرج عبد بن حميد وابن مردويه عن ابي سعيد الخدري « لرادك إلى معاد » قال : الموت .

(٢) نور الثقلين ٤ : ١٤٤ عن تفسير القمي حدثني ابي عن حماد عن حريز عن ابي جعفر عليهما السلام قال : إنه سئل عن جابر فقال : رحم الله جابراً بلغ من فقهه انه كان يعرف تأويل هذه الآية يعني الرجعة وفيه عنه حدثني ابي عن النضر بن سويد عن يحيى الحلبي عن عبد الحميد الطائي عن ابي خالد الكابلي عن علي بن الحسين عليهماالسلام في الآية قال : يرجع نبيكم (صلى الله عليه وآله وسلم) وأمير المؤمنين والأئمة صلوات الله عليهم .

(٣) الدر المنثور ٥ : ١٣٩ ـ أخرج ابن ابي حاتم عن الضحاك قال لما خرج النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) من مكة فبلغ الجحفة اشتاق الى مكة فانزل الله : ان الذي فرض عليك القرآن لرادك إلى معاد إلى مكة وفيه اخرج ابن مردويه عن علي بن الحسين بن واقد قال : كل القرآن مكي أو مدني غير قوله : ان الذي فرض ... فانها انزلت على رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) قبل الهجرة فهي مكية نزلت بمكة أو بغيرها من البلدان ، وكل آية نزلت بالمدينة بعد الهجرة فانها مدنية نزلت بالمدينة أو بغيرها من البلدان .

اقول : وقد أخرج إلى مكة في تفسير الى معاد عن ابن عباس ومجاهد .

نزلت الآية في غضون هجرته عنها إلى المدينة ، بالغَ الجحفة ام دونها ام ولّما يخرج من الغار ، إذ تكفي في نزولها حالةُ الهجرة ، ثم وجو السورة المستعرضة قصص موسى ومن اهمها رجوعه إلى « معادِ » الدعوةِ الرسالية « مصر » يناسب وعد هذا الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) برده إلى معاد الدعوة الرسالية وهو مكة المكرمة، فكما خرج موسى من مصرها ربأ مطارَداً يترقب،كذلك الرسول محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) ، وكما وعد موسى ان يرد إلى معاد الدعوة كذلك الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) فامض يا رسول الهدى في مهجرك ، ودع امر الحكم فيها بينك وبين قومك لله الذي فرض عليك القرآن ، وانما سمي مكة معاداً لأنه مكان العود ، وعدٌ محتوم في ذلك الرد لحدّ يسمى مكانه « معاد » كما ومكة معاد لكل مسلم على مدار الزمن ، اخذاً من رسالتها المحمدية وعوداً إليها .

كما وهي معاد

الحج وميعاده .

فـ« كما اخرجك ربك من بيتك بالحق وان كثيراً من المؤمنين لكارهون » (٨ : ٥) كذلك « إن الذي فرض عليك القرآن لرادك إلى معادك ». ذلك تفسير رده إلى معاد ومن تأويله رده بعد موته إلى معاد الرجعة ، فكما « معاد » الى مكة المكرمة كان له فتحاً مبيناً ، كذلك معاد الرجعة حيث الدولة الأخيرة الإسلامية العالمية ، وقد رُدَّ إليه معه (صلى الله عليه وآله وسلم) عترته المعصومون وسائر النبيين وكل من محض الايمان محضاً ، كما يرد اليه كل من محض الكفر محضاً ، وقد يعود في معاد رجعته إلى معاد هجرته فهما معاً - إذاً - مكان عوده قبل مماته وبعده ، وقد يعني تنكير « معاد » جنسه الشامل لمعاد الدعوة ومعاد الرجعة ومعاد القيامة ، والرد إلى الأخير اعتباراً إلى لقاء الله فـ« إنا لله وإنا إليه راجعون » فلو عنى واحدة من هذه لعرَّف : «المعاد» .

مركز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

فـ« قـل » على أطـلال تلك البشارة السـارة بكل قـوة وسـداد ، هؤلاء الذين كفروا بك وانكروك واخرجوك « ربي » الذي رباني لهذه الرسالة القرآنية المفـروضة عـليّ « اعلم من جاء بـالهدى » وذلـك لائح من التـربية الـرساليـة الباهرة فيَّ ، وهو « أعلم من هو في ضلال مبين » وقـد يبين ذلـك في « معاد » مكة و« معاد » الرجعة ، ثم في « معاد » يوم القيامة ! .

ذلك رجاؤك بما نعدك غير مكذوب ، كما وألقينا اليـك الكتاب ولم تـك ترجوه :

﴿ وَمَا كُنْتَ تَرْجُوا أَنْ يُلْقَى إِلَيْكَ الْكِتَابُ إِلَّا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيراً لِلْكَافِرِينَ ﴾[٨٦] .

« ما كنت ترجوا » حيث المعدات - المتعـوَّدة العلمية لتلقي ذلـك العلم القمة - منفية ، ومكة بلدة جاهلة قاحلة ، والفترة البعيدة الرسالية ، وقـومك اللّد ضد الرسالة ، هذه واضرابها مما تقطع الرجـاء عن إلقاء ذلـك الكتاب الكافل للدعوة العالمية في الطول التاريخي بالعرض الجغرافي .

و« أن يُلقى إليـك الكتـاب » دون ان ينـزل،ملحة أخـرى إلى عـدم الـرجاء ، حيث المُلقى إلى مكـان قد تُلغى فيـه ظرفيـة المكـان ، وكـل ذلـك اليأس هو قضية الحالة الظاهرة ، ولكنها الهالة الباطنة الزاهرة ، كانت تتطلّب تلك الرسالة الباهرة ، فـ« ما كنت . . إلاّ رحمة من ربك » حيث رباك تربيـة خفية حفية لتلك الرسالة البهية ، ليناسب منزِّل الـوحي نازلَـه ، مهما لم يكن يرجوه صاحب المَنزِل .

و« إلا رحمة من ربك » استثناء متصل إذ كانت رحمة ربـه له مـرجوة ، عائشاً بين « ما كنت تـرجوا » كنفسه بظروفه آفاقيـة وانفسية مهـما كان بـالغ القمة المعرفية ، وبين « رحمة من ربك » إشـراقة رحيميـة من ربه الـذي رباه لهذه الكرامة الكبرى والدرجة العليا ، فجملة القول في هذه الآية هي الحـالة

العوان لرسول الهدى بين الخوف والرجاء !

إذاً فلم يكن الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) يتطلع إلى الرسالة ، فانها اختيار الله له كما لسائر الرسل ، حيث المعرفة مهما كانت قمة لا تتطلب بمفردها الانتصاب للرسالة ، فهي رحمة من الله و « الله اعلم حيث يجعل رسالته » رحمة غالية عالية توهب للمتأهلين كما يعلم الله ويختار ، دون المتطلعين ، وقد اختار للرسالة الأخيرة من لم يتطلّع إليها ، بل ولم يَرجُها ، أولَم يَرَ نفسه مستأهلاً لها تطامناً لله واتكالاً على رحمة الله ؟.

أو كان يرجوها « رحمة من ربك » الذي رباك تربية تؤهلك لهذه الرسالة السامية ، رجاءَ رحمة من ربك ، وعدم الرجاء اعتبار بنفسك كأحد من الناس مهما كنت بالغ العقل والزهادة !.

إذاً « فلا تكونن ظهيراً للكافرين » كما لم يكن ولن ، وإنما ذلك النهي إعلان على رئوس الأشهاد في هذه الإذاعة القرآنية استئصالاً لآمال الكافرين أن يظاهرهم أو يماريهم ، بل هي مفاصلة دائبة ، ام مواصلة بالحق المبين والدين المتين ، دون تقسيم للبلد بلدين ، بانقسام الدعوة شطرين .

وهنا صلة وثيقة بين « ما كنت ترجو . . » وبين « لرادك الى معاد » ان عدم الرجاء في إلقاء الكتاب أولى من عدمه في رده إلى معاد ، وهنا وعد دونما هناك فلترجُ ما وعدناك من ردك إلى معاد ، اكثر مما لم نكن نعدك من إلقاء الكتاب ، ولتعِش رجاءَ رحمة من ربك دون تلكُّع ولا تزعزع مهما عارضك العالمون ، فموسى الذي قتل القبطي خطأً خلّف عليه تأخُّر الرسالة والبُعد عن معاد الدعوة ، رددناه إليه رسولاً ، فأنت الذي ما أخطأت طول عمرك في أيٍّ من أمرك ، اقرب إلى الرسالة إلقاء للكتاب عليك ، واقرب إلى ردك الى معاد الدعوة ، وهذه نعمة لك عظيمة تتطلّب ألاّ تكون ظهيراً للكافرين ،

وكما موسى « رب بما انعمت علي فلن أكون ظهيراً للمجرمين » (٢٨ : ١٧) .

وهنا الله بما انعم على محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) إلقاء الكتاب والردَّ إلى معاد ، يتطلب إليه ما تستحكم به عرى الدعوة الرسالية ، لا جزاءً فإنه غير مفتاق إلى جزاء ، وإنّما تنمية للدعوة المحضرة للعالمين ، فهنا نجده في خماسية الطلبات الربانية كدعامات خمس لهذه الدعوة الوامضة الناهضة الباهظة : هي سلبيات اربع بايجابية واحدة « ادع إلى ربك » حيث الدعوة الصالحة إلى الرب تتطلب هذه السلبيات قبلها لتستحكم عراها وتُحمى حماها .

﴿ وَلَا يَصُدَّنَّكَ عَنْ آيَاتِ اللهِ بَعْدَ إِذْ أُنْزِلَتْ إِلَيْكَ وَادْعُ إِلَى رَبِّكَ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ٨٧ وَلَا تَدْعُ مَعَ اللهِ إِلَهاً آخَرَ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾٨٨ .

مواصلة واحدة « وادع إلى ربك » تتقوم بمفاصلات أربع ، وهي تتوسطها هنا ، وفاعل « لا يصدنك » هو كونه ـ وعوذاً بالله ـ ظهيراً للكافرين ، كخلفيَّة أولى لذلك الظهر الظهير ، أن يصده عن آيات الله ، في اي حقل من حقولها ، والتأكيد في « لا يصدنك » يؤكد النهي عن كونه ظهيراً لهم ، أن يتهاون في تلقي الوحي وإلقاءه ، بإلغائه عن فاعلياته ، ام يتهاوى بما يكذبون فيه أنه سحرٌ او جِنَّة أم كهانة أما هيه ؟ .

ثم « وادع إلى ربك » امر بالمُضيِّ الصارم في دعوته الناصعة الناصحة ، بعيدة عن كافة النزعات والانتزاعات والرغبات إلا إعلاء كلمة الله العليا ، وإلغاء كلمة الذين كفروا السفلى ، ثم « ولا تكونن من المشركين » بالله على أية حال ، وإنْ شركاً خفياً كدبيب النمل ، فانه يقصم ظهر الداعية ، ويفصمه عن صالح الدعوة .

« ولا تدع مع الله إلهاً آخر » مهما كان مصلحياً لاجتذاب المشركين كما اقترحوه عليه : «أعبد آلهتنا سنة نعبد إلهك سنة» فنزلت سورة « الكافرون » ثورة

قاصمة على ازدواجية الدعوة ومصلحيتها ، فـ« لا إله إلاّ هـو » في كل شئـون الألوهية ، و :

« كل شيء هالكٌ إلاّ وجهه . . » : إذ « كـل من عليها فـان . ويبقى وجه ربك ذو الجلال والاكرام » (٥٥ : ٢٧) .

والشيء هو الكائن أياً كان ، إلهاً ومألوهاً ، إذاً فـالله شيءٌ كما الخليقـة كلها أشياء ، وان كان الشيء الله هو الـذي شيأً سـائر الأشيـاء ، وبين شيء الله وسـائر الشيء تبـاين كلي ، لا مشـاركة بينهـما إلاّ في لفظة الشيء وأصـل الوجود ، دون أية مشاركة في ذلك الأصل ، فالأشياء المخلوقة كلهـا خِلوٌ عن شيء الله ذاتاً وصفاتٍ وأفعـالاً ، كما الله تعـالى خلوٌ عنها في مثلث الجهـات ، فـ« هو خلوٌ من خلقه وخلقه خلوٌ منه » ـ « باينٌ عن خلقه وخلقه باين منه » ـ « لا هـو في خلقه ولا خلقـه فيـه » كما : لا هـو من خلقه ولا خلقـه منـه : مباعضة ذاتية أماهيه ؟ .

وترى « وجهه » هنـا تعني الجارحـة ؟ وهي تأويلة عليلة جـارحة كيـان الربوبية ، انه يهلك ـ وعوذاً به ـ بسائر اجزاءه كسـائـر الـكـون إلا وجهـه ! مهما أوّل انه وجـه جارحي لا كسـائر الـوجوه ، حيث الجـارحة لله جـارحـةُ ألوهيتِه على كل الوجوه ، إذ « ليـس كمثله شيء » فلا تركُّب لـه حتى تكون له جوارح وسواها من اجزاء وحدود متركبة فـ« من المحـال ان يهلك منه كـل شيء ويبقى الوجه »[1] ! ، لـ« وجهـه » هنا وجهـان ثانيهـا وجه كـل شيء

(١) نور الثقلين ٤ : ١٤٥ في كتاب الاحتجاج عن امير المؤمنين (عليه السلام) حديث طويل وفيه : واما قوله « كل شيء هالك إلا وجهه » فالمراد كل شيء هالك الا دينه ، لأن من المحال ان يهلك منه كل شيء ويبقى الوجه ، هو اجل واعظم من ذلك وانما يهلك من ليس منه الا ترى انه قال : كـل من عليها فـان ويبقى وجه ربـك » ففصـل بـين خلقـه

المتجه إلى الله ، رجوعاً لضمير الغائب إلى الحاضر الذكر وهو « كل شيء » فالهلاك شامل كل شيء ، إلّا وجهه المواجِه المتّجه إلى الرب ، فإنه باق ببقاء الله بإذنه ورحمته ، كالربانيين من السابقين والمقربين واصحاب اليمين ، والجَنة بأهلها ، فلا هلاك كلّياً لهم ولها[1] .

ثم وفي الوجه الأوّل لا وجه لوجه الجارحة ، فان لكل شيء وجهاً يناسبه ، وهو في الكل ما يواجَه به ويواجِه ، والله يواجِه الكائنات علماً وقدرة ، ويواجَه معرفياً وعبودياً ، والوجه الوجيه هنا لوجهه هو ذاته بصفاته ذاتية وفعلية ، والروحانيون الذين يواجهونه حياتَهم معرفياً وعبودياً .

فاختصاص « وجهه » هنا بذاته يقتضي تبديل وجهه بذاته ، فانها صريحة في ذاته ، ووجهه غير صريح ، كما اختصاصه بغير ذاته إدخال لها ضمن الهالكين ، أن ذاته يهلك وسائر وجوهه تبقى ! .

إذاً فـ« وجهه » تعم ذاته كقمة الوجوه ، إلى متعلقاتها الربانية ذاتياً وخارجياً ، ومن الثاني دينه[2] والدعاة اليه ، فانهم وجه الله الذي يُتوجه

ووجهه ، وفيه عن التوحيد عن ابي حمزة قال قلت لأبي جعفر عليهما السلام قول الله عز وجل : « كل شيء هالك إلا وجهه » ؟ قال : يهلك كل شيء ويبقى الوجه ؟ إن الله اعظم من ان يوصف بالوجه ، ولكن معناه : كل شيء هالك إلاّ دينه والوجه الذي يؤتى منه .

(١) راجع الى تفسير آ « ويبقى وجه ربك ذو الجلال والاكرام » في الفرقان ٢٧ : ٣٣ ـ ٣٧ .

(٢) المصدر عن التوحيد باسناده الى خيثمة قال سألت ابا عبد الله (عليه السلام) عن الآية قال : دينه ، وكان رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) وأمير المؤمنين (عليه السلام) دين الله ووجهه وعينه في عباده ولسانه الذي ينطق به ويده على خلقه ونحن وجه الله الذي يؤتى منه ولن نزل في عباده ما دامت لله فيهم روية ، قلت : وما الروية ؟ قال : الحاجة ، فإذا لم يكن لله فيهم حاجة رفعنا اليه وصنع ما احب .

بهم إليه ، وكما يروى « نحن وجه الله الذي لا يهلك »(١) وكما ان المتجهين الى الله بهم ، هم من وجهه(٢) والإضافة في « وجهه » تختلف حسب مختلف مصاديق الوجه،ففي وجه الذات هي من إضافة الشيء الى نفسه ، وفي وجه صفات الذات هي إضافتها إلى الذات ، وفي وجه الدعوة والدعات ، هي اضافة الفعل الى مصدره ، فانهم صادرون عن الله فموجُهون إلى الله ! فالمتخلفون عن الله هم هالكون في حياتهم وبعد موتهم وإلى النار حيث تهلك ومن فيها ، والمتجهون إلى الله باقون وان ماتوا فانهم في الجنة باقون كما هي دون نهاية .

هذه وجوه وجيهة من « وجهه » هنا مهما اختلفت درجاتها ، فوجه الذات لن يتغير ولن يهلك بأي هلاك(٣) كما صفاته الذاتية ، وصفاته

---

(١) نور الثقلين ٤ : ١٤٦ عن كتاب التوحيد باسناده الى صفوان قال قال ابو عبد الله (عليه السلام) : . . .

(٢) المصدر عن التوحيد باسناده الى الحارث بن المغيرة النصري قال : سألت ابا عبد الله (عليه السلام) عن قول الله عز وجل : كل شيء هالك إلا وجهه ؟ قال : كل شيء هالك إلا من اخذ طريق الحق ، وفي محاسن البرقي مثله وفي آخره : من اخذ الطريق الذي انتم عليه ، وعن التوحيد باسناده إلى صفوان الجمال عن ابي عبد الله (عليه السلام) في الآية قال : من اتى الله بما امر به من طاعة محمد والأئمة من بعده صلوات الله عليهم فهو الوجه الذي لا يهلك ثم قرء : من يطع الرسول فقد اطاع الله .

(٣) المصدر في اصول الكافي عن احمد بن ادريس عن محمد بن عبد الجبار عن صفوان بن يحيى عن فضيل بن عثمان عن ابن ابي يعفور قال سألت ابا عبد الله (عليه السلام) عن قول الله عز وجل « هو الأوّل والآخر . . » وقلت : اما الأول فقد عرفناه واما الآخر فبين لنا تفسيره . فقال : إنه ليس شيء إلاّ يبيد أو يتغير أو يدخله الغيَر والزوال وينتقل من لون إلى لون ومن هيئة إلى هيئة ومن صفة الى صفة ومن زيادة إلى نقصان ومن نقصان إلى زيادة إلاّ رب العالمين فانه لم يزل ولا يزال بحالة واحدة ، هو الأول قبل كل شيء وهو

الفعلية وهي افعاله لن تهلك مهما تغيرت كما يشاء بحكمته ، ودينه لا يهلك ، مهما تبدلت شرائعه ، والدعاة اليه لن يهلكوا مهما ماتوا أو قُتلوا .

و « هالك » لا تعني ـ فقط ـ مستقبل الهلاك حين تَهلك النار بمن فيها ، بل والحال على أية حال ، وهو عبارة اخرى عن البطلان ، فهو هلاك الكون والكيان ، ولكن « وجهه » لا هلاك له كوناً ولا كياناً ، مهما طرءه موت أو تغيّر آخر في غير وجه الذات والصفات .

ثم « له الحكم » تكويناً وتشريعاً لا سواه « واليه ترجعون » لا إلى سواه .

والمرجع للضمير الأوّل هو وجه الذات أصلياً ، ووجوه الدعات إليه رسالياً وبلاغياً ، فانهم الحكام من قبل الله ، واما الثاني فلا مرجع له إلّا الذات ، إذ لا رجوع إلّا إلى الله ، اللهم إلّا للدعات المعصومين ايضاً لأنهم موازين الأعمال « يوم ندعوا كل أناس بإمامهم » (١٧ : ٧١) ، فهنالك رجوع إلى كتب الشرعة وائمتها كموازين للأعمال والعقائد ، والمرجع الأصيل هو الله .

الآخر على ما لم يزل ولا تختلف عليه الصفات والأسماء كما تختلف على غيره مثل الانسان الذي يكون تراباً مرة ومرة لحماً ودماً ومرة رفاتاً ورميماً ، وكالبسر الذي يكون مرة بلحاً ومرة بسراً ومرة رطباً ومرة تمراً فتتبدل عليه الأسماء والصفات والله عز وجل بخلاف ذلك .

الموضوع ـــــــــــــــــ الصفحة

(سورة الشعراء) « ذكر مُحدث » من أدلة حدوث كلام الله . ١٥ ـ ١٧

موسى ﴿وأنا من الضالين﴾ ؟ حوار بين فرعون وموسى في إثبات

وجود الله وتوحيده .... ٢٧ ـ ٣٨

فرعون يهدّد السحرة المؤمنين .... ٤١ ـ ٤٤

نوح في حوار مع قومه .... ٧٢ ـ ٧٩

هود مع عاد في حوار .... ٨٠ ـ ٨٤

صالح مع ثمود في حوار .... ٨٥ ـ ٩٠

لوط مع قومه في حوار .... ٩١ ـ ٩٦

شعيب مع أصحاب الأيكة في حوار .... ٩٧ ـ ١٠٠

﴿ وإنه لتنزيل رب العالمين » هل هو اللفظ أو المعنى أم هما ١٠٣ ـ ١٠٨

من هم الشعراء المذمومون ؟ ومن هم الممدوحون .... ١٢٢ ـ ١٢٩

(سورة النمل) ﴿ بورك من في النار ﴾ من هو؟ .... ١٤١ ـ ١٤٢

﴿ لا يخاف . . . إلا من ظلم ﴾ فكيف خاف موسى ؟....... ١٤٣ ـ ١٤٧

﴿ ورث سليمان داود ﴾ من براهين أن الأنبياء يورثون .... ١٥٥ ـ ١٥٨

« منطق الطير ﴾ ؟ جنود سليمان ؟ تكلم النملة ؟ وحياتها . ١٥٩ ـ ١٧٧

رسالة الهدهد العجيبة ـ ملكة سبإ ومملكتها ودعوة سليمان إياها ١٧٧ ـ ١٩٧

إحضار عرش بلقيس في وجه رباني وتوجيه علمي .... ٢٠١ ـ ٢١٣

آية المضطرين في قول فصل .... ٢٣٥ ـ ٢٤٣

ما هي دابة الأرض التي تكلمهم ؟ ومتى ؟ وكيف ؟ .... ٢٥٩ ـ ٢٦٧

﴿ ويوم يحشر من كل أمة فوجاً . . ﴾ من براهين الرجعة ٢٦٧ ـ ٢٧٢

﴿ وترى الجبال تحسبها جامدة . . ﴾ ؟ .... ٢٧٤ ـ ٢٧٧

(سورة القصص) ﴿ ونريد أن نمن على الذين استضعفوا في

الأرض. . ﴾ تشمل كافة المجاهدين في سبيل الله .... ٢٩٣ ـ ٢٩٨

موسى الرضيع حتى الرسالة . . كيف هذا من عمل الشيطان

وهو رسول ؟! تلقاء مدين .... ٢٩٩ ـ ٣٣٧

﴿ . . قضى موسى الأجل . . ﴾ ﴿ . . اني أنا الله . . ٣٣٧ ـ ٣٤٢

قارون مع موسى وقومه .... ٣٩٥ ـ ٤٠٧

﴿ لا يريدون علواً في الأرض. . . ﴾ عامٌ يشمل أهل الحق . ٤٠٨ ـ ٤١٢